نظرات في النفس والحياة

مجموعة مقالات تحليلية
نشرت بمجلة المقتطف

تأليف
عبد الرحمن شكري

جمعها وراجعها وقدم لها
الدكتور محمد رجب البيومي

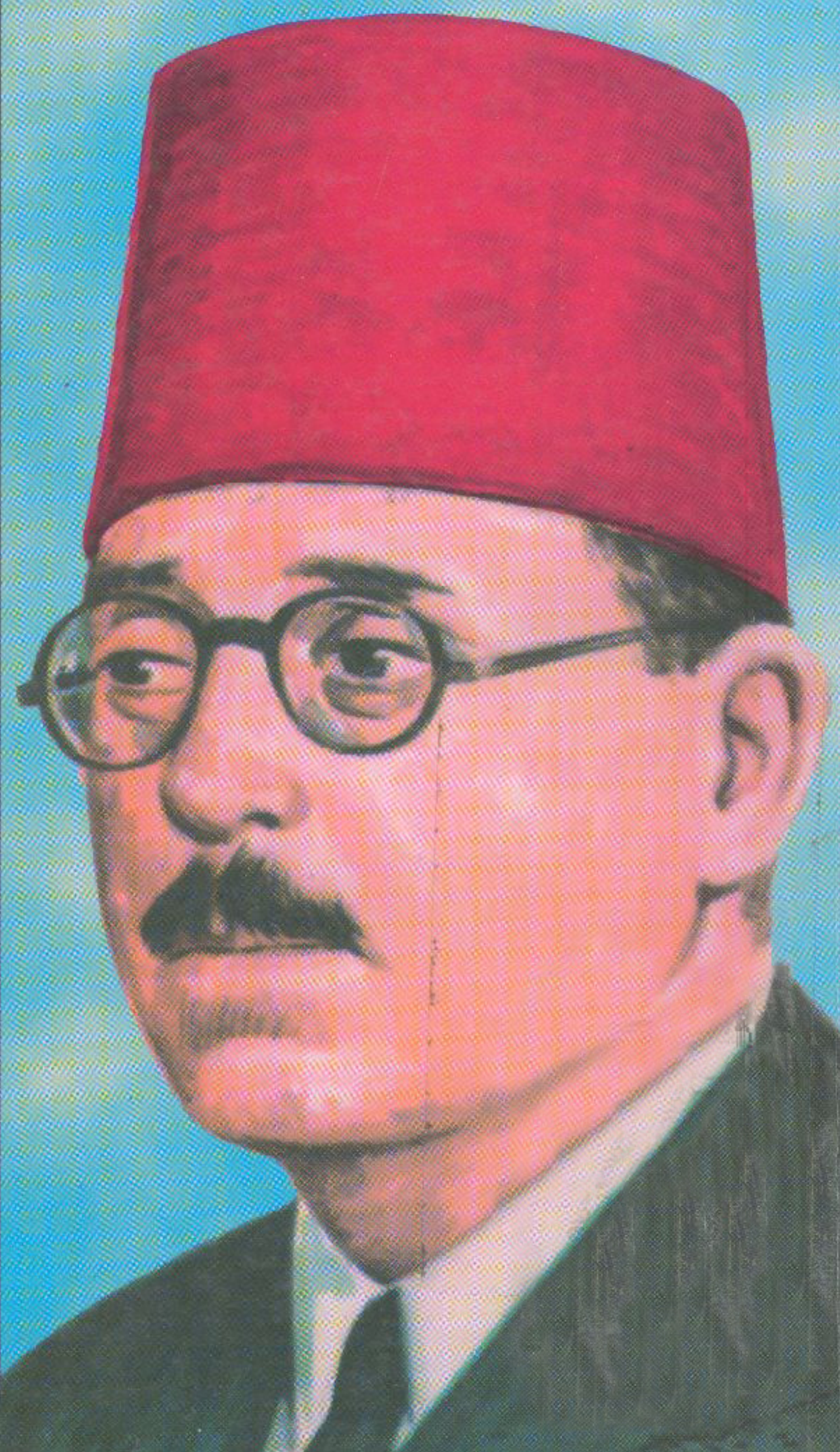

الدار المصرية اللبنانية

نظرات في النفس والحياة

مجموعة مقالات تحليلية نشرت بمجلة المقتطف

الناشـر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٣٢٩٠ / ٩٦
الترقيم الدولى: 5 - 249 - 270 - 977
جمع : **آر ـ تنك**
العنوان: ٤ ش بنى كعب ـ متفرع من ش السودان
تليفون : ٣١٤٣٦٣٢
طبع: **آمون**
العنوان: ٤ عطفة فيروز ـ متفرع من إسماعيل أباظة
تليفون: ٣٥٤٤٣٥٦ ـ ٣٥٤٤٥١٧
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الأولى: ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦م

نظرات في النفس والحياة

مجموعة مقالات تحليلية نشرت بمجلة المقتطف

تأليف

الأديب الكبير الأستاذ

عبد الرحمن شكري

أحد أساطين الأدب الحديث

جمعها ورتبها وقدم لها

الدكتور محمد رجب البيومي

الناشر

الدار المصرية اللبنانية

خطاب التفويض

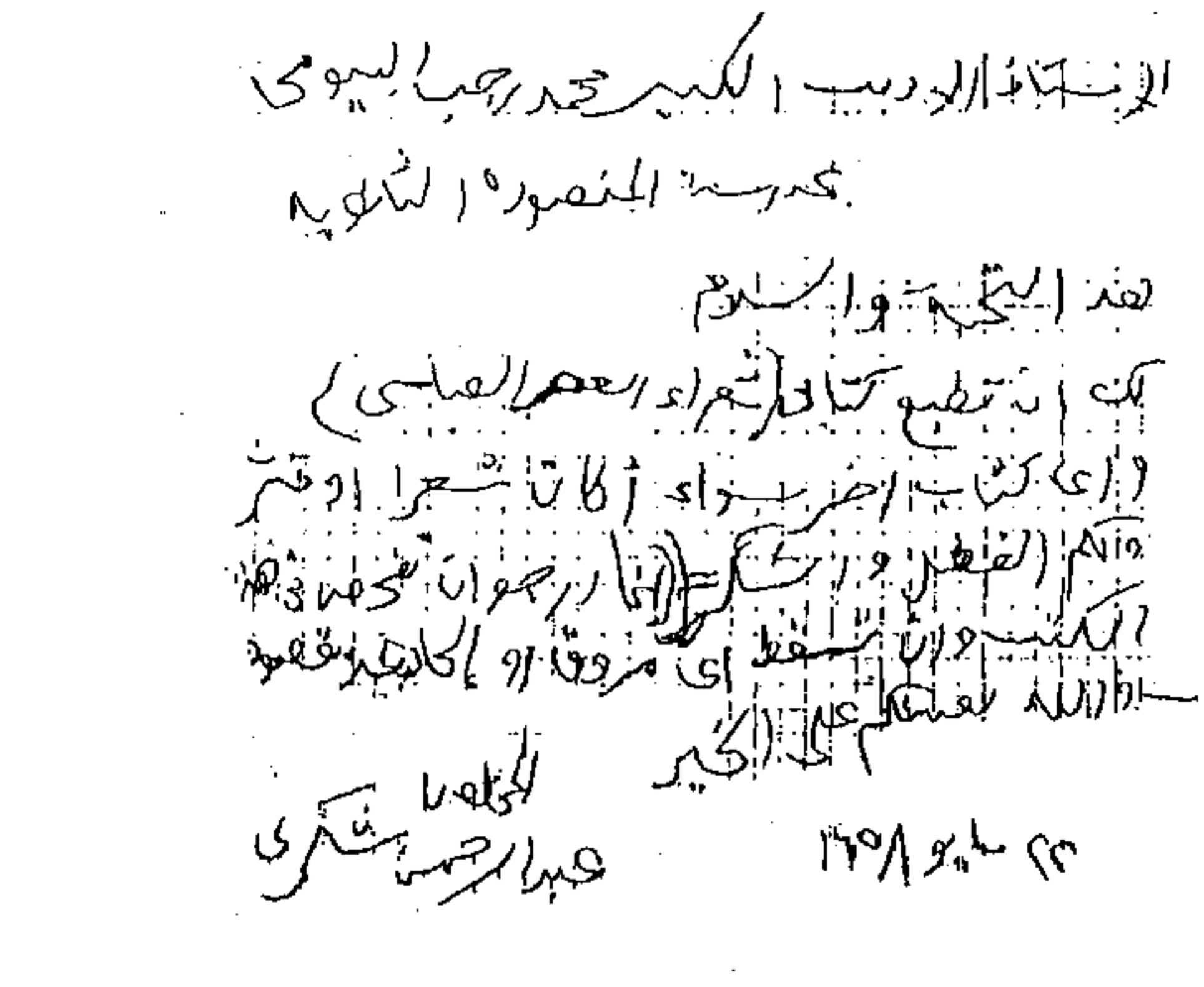

الأستاذ الأديب الكبير محمد رجب البيومي

بمدرسة المنصورة الثانوية

بعد التحية والسلام

لك أن تطبع كتابك (شعراء العصر العباسي)

وأي كتاب آخر سواء أكان شعرا أو نثرا

مما نظمت وأنشر وإنما أرجو أن تصحح ما قد يكون في

الكتب وأن تسقط أي مروق أو إلحاد وفقكم

الله بعلمكم على الخير

المخلص

عبد الرحمن شكري

٢٣ مايو ١٩٥٨

دراسة تحليلية

نظرات فى النفس والحياة

بقلم الدكتور / محمد رجب البيومى

قارئ ديوان الشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن شكرى يشعر بعمق شعوره، وقوة إحساسه، كما يلمس تغلغل نظره فيما حوله من الكائنات، وفيما يمور فى النفس الإنسانية من تيارات الرضا والسخط، والأمل والألم، ولكثرة ما عانى الرجل من تحليل النفس البشرية سمّاه الناقد الكبير الدكتور محمد مندور شاعر الاستبطان الذاتى، بمعنى أنه تعمق فى فهم السرائر واكتناه الأشياء تَعمُّقًا كشف له عن حقائق مجهولة، ما اهتدى إليها غير الآحاد من نوابغ الفكر الإنسانى فى الشرق والغرب، وإلى ما تمتّع به الشاعر الدارس البصير من رحابة الأفق، وبُعد النظر، قد تمتّع بموهبة القراءة المتصلة التى تشمل التيارات المتضاربة فى عوالم الفكر الممتد شرقًا وغربًا، فما انقطع يومًا عن مطالعة ما تخرجه المطابع من ثمار شهيّة، وإذا كان الشاعر انطوائيا عُرف بالعزلة النفسيّة عن الناس فى مجتمعه المصرى، فليست عزلتُه هذه بالعُزلة الصماء التى يسئمها الفراغ، ويملؤها الملل، ولكنها عزلة المفكر الفيلسوف الذى يخلو إلى خواطره تارة، وإلى كتبه الحافلة تارات، فهى عزلة كعزلة أبى العلاء المعرى فى محبسه، إذ فرغ للتأمل والتفكير، فالتأليف والنظم، وكان تلاميذه يفدون إليه فى محبسه ليقتطفوا أشهى الثمار من حديقته اليانعة، كذلك كان شكرى فى الإسكندرية أيام شبابه رائدَ ندوةٍ يتحلّق حوله بها أنصار التجديد، فيسمعون ما لا يعلمون، ويفاجئهم الشاعر بما لايعهدون من روائع الشرق والغرب، وإذا كان المفكر الكبير الأستاذ عباس

محمود العقاد عَلَمَ الأعلام فى مضمار الثقافة الشاملة ذات التعدّد المختلف، فقد قال عن زميله الشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن شكرى عقب رحيله:

«عرفت شكرى قبل خمس وأربعين سنة، فلم أعرف قبله ولا بعده أحداً من شعرائنا وكتّابنا أوسع منه اطّلاعًا على أدب اللّغة العربية وأدب اللّغة الإنجليزية، وما يترجم إليها من اللغات الأخرى، ولا أذكر أنى حدثته عن كتاب قرأتُه، إلاّ وجدت منه علمًا به، وإحاطة بخير ما فيه، وكان يحدثنا أحيانًا عن كتب لم نلتفت إليها ـ ولا سيما كتب القصّة والتّاريخ، وقد كان مع سعة اطلاعة صادق الملاحظة ـ نافذ الفطنة ـ حسن التخيّل، سريع التمييز بين أنواع الكلام. فلا جرم أن تهيأت له ملكة النقد على أوفاها؛ لأنه يطّلع على الكثير ـ ويميز ما يستحسنه وما يأباه، فلا يكلفه نقد الأدب غير نظرة فى الصفحة والصفحات ـ يلقى بعدها الكتاب، وقد وزنه وزنًا لا يتأتى لغيره فى الجلسات الطوال»(١).

هذا بعض ما قاله البحاثة الكبير عباس محمود العقاد، وقد قلته فى التعقيب عليه من قبل(٢): «والعقاد من أكثر أدباء العربية اطلاعًا على الآثار الفكرية فى القديم والحديث، فإذا قال إن شكرى قد قرأ ما لم يقرأه العقاد، فما ظنك به؟».

وأقول الآن: إن العقاد ذكر أن زميله الكبير فى ريادة الأدب الحديث قد كان يخص كتب القصة والتاريخ باهتمام خاص، وتعليل ذلك أن الرجل مولع باستقصاء أحوال النفس البشرية وملابساتها فى المجتمع الإنسانى، والنفس البشرية تجد تسجيلها الممتد فى صفحات التاريخ كما تجد تسجيلها الأوفى الأشمل فى القصص العالمى؛ لأنّ كاتب القصة الحقيقى لا يكتب ليمتع ويسلّى فقط، بل ليخوض أعماقًا مجهولة فى شعاب النفس الإنسانية ذات التيارات المتضاربة، والأهواء المتناقضة، وليبرز ألوان الاحتيال والغدر والعقوق والمكيدة متجاورة مع متناقضاتها من ألوان الصراحة والوفاء والبر والإخلاص؛ ليقف قارئه على دنيا من الغرائب، هى فى الوقت نفسه دنيا من الفواجع؛ لأن الشرّ فى الدنيا كثير

(١) الهلال، فبراير سنة ١٩٥٩.

(٢) دراسات فى الشعر العربى لشكرى، المقدمة ص ١٦.

كثير، وإذا وصفه الروائى العظيم بقلمه المصوّر فقد رسم لوحات دامية من الفواجع والمآسى، تتضاءل جوارها مباهج الفرح والسرور، وقد كتب الأستاذ شكرى بحوثًا جاوزت الثلاثين تحت عنوان (نظرات فى النفس والحياة) نشرها تباعًا فى مجلة المقتطف على مدى ستة أعوام. ولولا أن المرض المفاجئ قد عاقهُ فمنعه عن الكتابة لا القراءة لشلل أصابه، لامتدتْ هذه البحوث حتى بلغت الضعف أو ضعف الضعف؛ لأنّ سعة قراءته لم تقف عند حد، وإذا كان الباحث العظيم قد درسَ علم النفس فى مفتتح شبابه بدار المعلمين العليا فى كتبه التربوية، ثم واصلَ دراسته فى بعثته إلى إنجلترا. وفيما وليهما بعد رجوعه إلى مصر. فلم يشأ أن يقتصر فى الإلمام بمسائل هذا العلم على ما دوّنه النظريّون فى كُتبِ علم النفس المليئة بالمصطلحات، والتقسيمات والتفريعات؛ لأنها وحدها لا تكفى فى الإحاطة بميول النفس الإنسانية، وكثير ممن اكتفَوْا بها قد وقفوا عن الترديد المتكرر، بحيث صارت كتبهم الجامعية أشبه بالمذكرات المدرسية، تنفع المبتدئ. ولا تفيد المنتهى، أما شكرى فقد امتد بنظره الثاقب إلى ما دوّنه أعلام القصّة والتاريخ فى أوربا ليجد فيما صوّروه من كوامن النفوس مددًا لا ينقطع فى تصوير الشجون المختلفة فى عالم النفس، وقد بدأ بحوثه المشبعة الممتعة بقوله[1]:

«إن علم النفس من العلوم الحديثة ـ ولكنّ وصف النفس الإنسانية ـ ومحاولة كشف مجاهلها ومخبّئاتها أمرٌ قديم عالجه الشعراء والكتّاب فى كل قوم، ولكن لعلهم لم يبلغوا من الصراحة مبلغ النظريات والنظرات التى بلغها سيجموند فرويد وأمثاله، وإن كان لكل مفكر نصيب وطابع خاص فى الصراحة، ولا نظن أن أديبًا أو مفكرًا أعفى النفس الإنسانية من تطلعه إلى غرائب أمورها، أو الأمور المألوفة التى هى فى منزلة الغرائب، لانزوائها فى ظلمات النسيان كلما رأت النفس فى ذلك النسيان مأربًا لها، ولكن نفعَها بتذكيرها هُو علمٌ وفهم، ولعلّ بعض ذوى الفهم والزكانة يرى فى فهم النفس فى نزعاتها وخواطرها سبيل

(١) مجلة المقتطف، أغسطس سنة ١٩٤٧ ص ١٨٥.

رُقيِّها، وتخلصها من أهوائها. . . . . ولكن مما لاريب فيه أن جهل النفس صفاتها وطبائعها هو العمى الروحانى، وهو مصدرُ شر في ذاته، بما يؤدى إليه من بلادة الطبع لدى الإنسان، والإمعان فى قسوته، والاسترسال فى حمقه».

ثم أتبع ذلك بتحليلٍ لبعض آراء المفكرين الثلاثة؛ لاروشفوكُولد، ليوباردى ـ شوبنهور ـ والذى يُراقب سير هذه البحوث الدسمة فى مجلة المقتطف، يجد الدارس جعل الفصول الثلاثة الأولى مشتركةً بين أكثر من عَلَم، ثم اتجه بعد ذلك إلى الحديث المستقل عن كل عَلَم بمفرده فى عدّة أبحاث، وهذا يدل على أن الخطّة لم تكنْ مرسومة لديه أول ما كتب، ولك أن تقولَ إنّه وجد البحث بعد الفصول الأولى لا يستقيم على وجهه الصحيح إلا إذا انفرد كلّ عَلَم ببحث مستقل، وقد هيأ له ذلك أن يتحدثَ عن كلّ كاتب حديثًا موجزا فى مطلع مقاله، وهو إيجازٌ مركز يعطى الفكرة الصائبة عن المتحدث عنه، سواءٌ كان مشتهرًا كجوته، وأناتول فرنس، وبلزاك، وهازلت، وبيكون، وجورج اليوت سوَيفت، وثاكرى، أم دونهم فى الشهرة مثل تشستر فيلد، وأرثر هيلس، وقد يظن أن الحديث الموجز عن القلم المشتهر أخفّ وأسهلُ من الحديث عن غيره، ولكنّ الواقع غير ذلك، لأنك مطالَب حين تتحدث عن عَلَم مشتهر، أن توجز أعماله فى أقلّ من صفحة، فتحتاج إلى براعة فى انتقاء ما يُقال بيْن مواقف وأحداث ومؤلفات تتطلب الدقة فى التمحيص، ومن هُنا كان الإيجار أدلّ على الإعجار، فى كتاب الله، وكان الإيجازُ عند ابن المقفع وأضرابه فنا من فنون القول لا يدركه غير الملهمين، ولكىْ نعطى القارئ فكرةً عن التعريف الموجز لَدى شكرى فإننا ننقلُ له ما قاله عن تشستر فيلد، وقد اخترته لأنه لا يَحْظَى بشهرةِ سواه، فالقارئُ متشوّق إلى خلاصةٍ دقيقة عنه قدّمها الأستاذ شكرى فى قوله[1]:

«لُورد تشستر فيلد من نُبلاء الإنجليز، وأهمّ مؤلفاته رسائلُه إلى ابنه، وقد ضمنها نصائحه التى اكتسَبها من خبرته فى مخالطة الناس، فقد شغلَ مناصب مختلفة، وعاشرَ أناسًا كثيرين من طبقات مختلفة، إذْ كان أوّلاً عضوًا فى مجلس

(١) مجلة المقتطف ـ فبراير سنة ١٩٤٨ م ص ٩٧.

النواب، ثم فى مجلس اللوردات، ثمّ سفيرا فى هولاندة، ثم حاكمًا لإرلندة، ورسائلُه ذخرٌ مملوء خبرةً بالنفوس، وكنزٌ من تجارب الحياة، وقد أسَرف الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى فى ذمها، ولكنّه اعترفَ فى ثنايا ذمِّه بما فيها من فطنةٍ وخبرة، إذ قال: لو سُلَّ منها ما لا يجمل التخلق به لصلحتْ كى يقرأها كلّ فتىً. وأوجه الاختلاف بينهما كثيرة، منها أن جُونسون كان ينمق الرسائل فى الأخلاق النظرية، ويحتذى مَا دَرسَه فى الكتب، وتشستر فيلد كان يسترسل فى وصف النفوس كما خبرها بأسلوب سهل موجز، حتى عُدّ آيةً فى بلاغة الإيجاز. ومنها أن جُونسون فى أيّام فقره تطلع إلى أن يمدّه النبيل الغنىّ بمعونة تعينه على نشرِ مصنفاته، فلم يفعل اللّورد، أو تباطأ، أو أهمله مدة، فأرسلَ له الدكتور جونسون رسالته التى كانت كصوت بوق يُؤذِن بعصرٍ جديد، وباعتماد الأدباء على كسبهم بدل الاعتماد على معونة النبلاء».

هذه السطور الموجزة تعطى القارئ ما يريد من اللّباب عن حياة سياسىّ عملىّ يتعاطى التأليف ليسجل تجاربه لا ليعيد ما قاله الناس، كما تُشير إلى الخصومة التاريخية الذائعة بين تشستر فيلد وبين جونسون الأديب الإنجليزى الشهير، وتُعلّلُ سبت انتقاص جونسون لرسائل اللورد، وهو سببٌ شخصى لا أدبى؛ لأن مثل جونسون لا يفوتُه أن يعرف ما فى تسجيل الملاحظات النفسية الدقيقة من فائدةٍ علمية ممتازة. وأذكر أنّ الدكتور محمد مهدى علام قد نقل رسالة جونسون اللاذعة إلى العربيّة، فأوضحت لنا ما يفتعل فى نفس كاتبها من غضبٍ يحولُ دون الإنصاف، وهو ما ألمع إليه الأستاذ شكرى فى لمح خاطف يقنع دون استطراد. وفيما اختاره شكرى من رسائل تشستر ما يحدّد موقعه فى عالم الفكر ويجعل له مكانه المستريح بين المؤلفين.

وقد اختلفت حظوظُ المتحدث عنهم فى هذه المقالات، فحينَ نرى جوته ـ قد اختص بسبع مقالات ـ وهو جديرٌ بها دون شك ـ نرى أناتول فرانس قد اختص بثلاث مقالات، وأكثر المتحدث عنهم قد اكتُفى بمقالتيْن لكل منهم، أما الذى عجبتُ له فاقتصار شكرى على مقالٍ واحد خاصٍّ بالكاتب اللاّمع والناقد البارع

«هازلت»؛ ومَوْضعُ العجب أنّ (هازلت) كانَ ذا أثرٍ كبير فى اتجاه مدرسة الديوان النقدى، كما تحدثَ المازنى عنْ ذلك فى مرات كثيرة، وشكرى أحد أعلام هذه المدرسة كان المنتظر منه أن يُفيضَ فى تحليل آرائه النفسية والاجتماعية على نحوٍ أوسع، وأذكرُ أنى ناقشت تلميذ الأستاذ شكرى، وهو صديقى الأستاذ نقولاً يوسف فى هذه الخاطرة، فقالَ لى: لقد لاحظتُ ذلك. ولكنّ مقالة شكرى عن هازلت تغنى عن كتاب برأسه، إذ هى ذات عناصر تتيح لكاتبٍ ما أن يجعَل من كلّ عنصرٍ بابًا مستقلا فى كتابٍ منفرد، فكأنّ شكرى قد قدمَ له المفتاح ليسهل الولوج به إلى معقل حصين.

الذى يتابع اقتباسات شكرى عن هؤلاء الأعلام، يجدها تتسلسل فى أرْقامٍ متتابعة، وكان الظن به أن يجعل الموضوعَ ذا نسيج متصل متماسك ـ وهوَ قديرٌ على ذلك ـ بل إنه كتبَ من قبل عن الخواطر النفسية الشائعة مقالاتٍ نفيسة فى مجلة الرسالة، كان حظها من التماسك والالتحام والتدفع والاستقصاء حظا كبيرا[1]، فلماذا اختار هذا الاقتضابَ العائق دون الاسترسال؟ يخيلُ إلىّ أنّ الأستاذ قَبل أنْ يشرع فى كتابة هذه الفصول كانَ يكتبُ عن كل مفكر من هؤلاء العظام شذراتٍ يختارها لقراءته الخاصة، ثم وجدَها من الدّسامة والقوة بحيث تُقَدِّمُ زادًا طيبًا لمن يريد دراسة النفس البشرية فى مجتمعها الزاخر، فآثر أن يُقدّم هذه المختارات كما جمَعهما من قبل، وهو فى كثير من أحواله يشفعها بالتعقيب، واضعًا خطا أفقيًا قصيرا (ـ) بيْن تعقيبه ورأى المتحدث عنه، وقد يغفُل هذا الحاجز الصغير، فيختلط كلامُه بكلام من يتحدث عنه، ولا يُدرك ذلك إلا قارئٌ تمرّس بأفكار شكرى فى كلّ ما كتب، وعَرفَ نمطه النقدى، ومَشْربه النفسى، وليسَ اختيار الفقرات من قبل عملاً مستبعدا، فقد حَدّثَنا الأديب الكبير محمد المويلحى فى مقدّمة كتابه الذائع (علاج النفس) أنّه كتبَ خلاصاته الأولى لنفسه كى يسترشد بها فى أزمات الحياة، ثم رأى أن يشرك قارئه معه، فبادر إلى جمعهما فى كتاب واحد بعدَ أن أعطاهَا نسق التأليف والتبويب.

---

(١) ستظهر هذه المقالات، وأضرابها فى كتاب خاص، أقدمه للقارئ تحت عنوان (جولات فكرية)، ولم أشأ أن أقحمها على بحوث هؤلاء الأعلام لأحفظ لها استقلالها المتميّز.

لمعرفةِ طريقة ـ شكرى فى السرد والتعقيب، نختارُ شخصيتين. نخصّهما ببعض التحليل: إحداهما ممن خصها الكاتب بفصْل واحد، وثانيتهما ممّن أسهب فى عرض آرائها، وإذا كنّا قد ألمعنا إلى ترجمة تشستر فيلد التى افتتح بها شكرى مقالَه عنه، فسنمضى فى حديثه طلبًا للاختصار، لنرى شكرى يبتدئ مختاراته بقول الكاتب الإنجليزى «بعض الناس يمدح نفسه بصيغة الذم فيكسو الفضائل لباسَ النقيصة والعيب، ثم ينتقص نفسه بتلك الفضائل ـ ويعيبها بتلك المحامد التى كساها كساء الْعيب، كى يجعلَ مدح نفسه سائغًا لدى الناس، فيقول مثلا: من عيوبى الّتى لا أستطيع أنْ أغالبها، أنى أقول الحق فى غير موضعه، وآتى بالصدق فى غير مكانه. أو يقول: من عيوبى أنى ما رأيت إنسانًا مصابًا إلا وَددت أن أشاركه فى مصابه، كأنى أحمل الدنيا، أو كأنى موكل بها، ولا تزال بى تلك الوِدادة حتى أقاسمه المصاب ـ وأشاطره وأُعينه على ما حَل به، وأهيئ له من أمره ترفيها ورشدا. أو يقول: من نقائصى المذمومة أنّى كلما رأيت مظلوما نصرتُه، وإن كانَ فى نصره ضررٌ لى، والعاقل حقيق بالانصراف عن هذه الوسيلة التى توهمه أنها تحملُ الناس على اغتفارهم له مدح نفسه، وهى لاتحملهم على الاغتفار، بل تزيد الناس سخريةً به، وإزراء عليه[1]».

هـذا ما التفتَ إليه اللورد، وهو مـا نشهده ونسمعـه كثيرا فـى مجالسنـا؛ لأنّ النفوس هى النفـوس شرقًا وغربًا، وقـد علّقَ شكرى على ذلك بقوله: «. . . ومن الناس يتخذ لنفسه شعارًا فى أمرٍ من الأمور، ويوهم الناس أنه وحده كفيلٌ به، ولا شريك له، ويردده فى كل فرصة حتى يملّ الناس أمره، ولا تنفعه طلاقته ولا أنّه ذَرِبُ اللسان ذلقه، وللناس افتنانٌ فى هذه الأساليب المتغايرة، وفى الحالتين المذكورتين نرى المدحَ المراد للنفس مَدْحًا لم يقصده صاحبه إلا بطريقة ملتوية، ولكنها حيلة مكشوفة».

وشكرى لم يعقّب على الحالة بما يفسّرها، بل بما يشابهها فى عالم المدح المموّه،

---

(١) مجلة المقتطف ـ فبراير ١٩٤٨ ص ٩٨.

وكنتُ أوثر أن يشير إلى أن الحالة الأولى معروفة فى الأدب العربى، وقد سمّاها البديعيّون المدحَ بما يشبه الذم، واستشهدوا لها بأبيات كثيرة منها قول النابغة:

ولاعيبَ فيهم غير أن سيوفهم بِهِنَّ فلول من قراع الكتائب

وكلام النابغة هنا محتمل، لأنه لا يمدح نفسه، بل يمدح سواه، واختار أن يفاجئ السامع بهذه الطريقة تفننا فى الابتكار الشعرى فحسب.

وينقل شكرى قول الكاتب: «إذا أكثر رجلٌ من القسم، ولجّ فى الحلف كى يحملكَ على أنْ تصدقه وكى يقنعك بحلفه فى أمر لا يستدعى تصديقه كلَّ هذا الحلف، فهو فى أكثر الأحايين كاذبٌ فيما يقول ـ وإلا ما تكلف جهد الحلف ـ كى يخفيَ به كذبه ـ وكى يداوِىَ شكه فى تصديقك كلامه، وكى يعالج خوفه من رفضكَ قوله[1]».

وقد قال شكرى فى مجال التعقيب: «وهذا يذكّرنى قصّةَ رجل من أهل المدينة، كان يقول للناس: أنا والله من قريش والحُمد للّه، فقال له سامعه: الحلفُ والتحميد هنا أمران مُريبان، أى يدعُوان إلى الشك والريبة فى صدقه، على أنّ الرجل قد يكونُ صادقا فى كلمته ـ وإنما يعالج بالحلف اشتهاره لدى نفسه ولدى الناس بالكذب فى أمورٍ أخرى غيرها. وقد يكون الحلف عادةً عُوّدها. ولكنها توقفه موقفَ الرجل الظّنين المتهم فى صدقه».

وشكرى هنا يلفت إلى حالة خفيّة هى شعور الحالف بأنّ النّاس يكذّبونه فى أمورٍ أخرى غير ما حلف عليه الآن، فيحلف على الأمر البدهى هنا؛ ليكونَ فى وهم الناس مصدقا فيما كذب فيه:

ومما اتسع شكرى فى التعليق عليه نسبيا ما ذكره الكاتب حين قال[2] «كثيرٌ من الناس يكرهون أن يتسموا بالحماقة والغباء، أو السخف، أو الحقارة، أو ما شابه ذلك من أوجه النقص والعيب، أكثر من كرههم أن يتهموا بالآثام والخطايا والجرائم والشر».

وهذا واضح فيما نشاهد، بل إننا كثيرا ما نرى المجرم العريق يفتخر بإجرامه

---

(١) مجلة المقتطيف ـ فبراير ١٩٤٨ ص ٩٨.

(٢) مجلة المقطف ـ فبراير ١٩٤٨ ص ٩٨.

وكأنه أكبر الفضائل، ثم ينكر أنه قليل الفهم ولا يصبر على هذا الوصف، إذ يعدّه من فظائع التهم «وقد سكت الكاتب عن تعليل هذا السلوك النفسى، ولكن شكرى فطن إليه حين عقب بقوله[1]:

«إن الرجل يكره ما يلحق به من الاحتقار، أكثرمن كرهه ما يُلصق به من خوف الناس منه؛ لأنه يعرف أن الناس قد يعجبون بالشرّ والخطايا، فيزيد صاحبهما عظما وقدرا فى نفوسهم، ولكن الناس لا يستعظمون السّخف، ولايجلّون الحماقة والغباء، ولا يفخرون بهذه الصفات التى تزيد صاحبها احتقارا فى نظرهم، فلا يستهين العاقل بنسبتها إلى الناس اعتمادا على أنه إن لم يجعلهم من الأشرار، ولم يقل إنهم من المجرمين فقد نَسب إليهم ما هو أقبح فى نظرهم وأكثر للذم مجلبة، على أنك ترى ساذجا ينسبها إلى صديق، فإذا غضب صديقه دُهشَ، وقال: أنا لم أقلْ إنه مجرم شرّير، ولم أقلْ إلا أنه سخيف» وقد يكون هذا التعقيب فى حاجة إلى البسط أكثر، ولكن شكرى أوجز.

ويقول الكاتب: «إذا كان لك فضل فليس السبيل إلى اعتراف العقلاء المبصرين، أن تكيد الناس بمباهاتهم به فى الأحاديث والمجالس، بأن تظهر لهم أنك تعرف من فضلك أكثر مما يعرفون، فإن الناس قلما يغتفرون لك ذلك، ويعدّون فضلك إساءةً إليهم، وإن اعترفوا به سرا أوجهراً، وهم يحاولون انتزاع اليقين به، والثقة من نفسك بأساليب مختلفة، ولكنك قد تحملهم بالملاطفة وسياسة التأنى وأساليبها على اغتفار الفضل لك[2]».

وقد عقّب شكرى على ذلك فقال: «وكذلك إذا كان لك فضلٌ على إنسان بأن صفحتَ عن ذنب له، أو إساءة أو زَلّة، ، أو كنت قد انتشلْته من سقطة كادَ يتردى فيها وازْرَتْ به، فليكنْ همك أن تُنسيه فضلك عليه، واطلاعَك علَى سيئاته، وموضع النقص منه، فإن كثيراً من الناس يحقدون على من اطّلع على زلاتهم ونقائصهم، وإنْ كان اطّلاعه عليها من ناحية انتشاله إياهم من وهدة زلتهم، ومعونته لهم، وإنقاذهم من عواقبها، فإنّ تلك المعونة وذلك الإنقاذ

---

(١) مجلة المقتطف ـ فبراير ١٩٤٨ ص ٩٩.

(٢) المقتطف (العدد نفسه) ص ١٠١.

لايشفعان لاغتفارهم اطلاعك على نقصهم، وفضلُك فى ذلك لا يشفع لك، بل يزيدُ حزازةَ حقدٍ من تفضلت عليه، إلاّ إذا كانت لكَ لباقة نفسية تُنسيه فضلك عليه، واطلاعكَ على نقصه، وقد يكونُ مثلهم مثل المرأة التى لطمتْ سائق الترام، الذى رآها قد زلّت قدمها، وكادت تسقط تحت الترام، فجذبها إلى نفسه وأنقذها من الموت[1]».

ولى تعليقٌ على ما تقدّم، هو أنّ الرجلين الكبيرين، البادئ والمعقب، يَحكُمُون على الناس جميعا، وكأنهم من ضربٍ واحد لا يتغير، فنحن نشهدُ مَن يعترفون بالجميل إلى صاحبه، ولا يؤذيهم ذلكَ فى شىء بل نشهد من يُكرّر هذا الاعتراف حتى يكون مبعث سأم، وقضية «اتق شر من أحسنت إليه) إذا صدقتْ على قوم، فإنها لا تصدقُ على الناس جميعا وللاعترافِ بالجميل فى الأدب العربى قصائد مشتهرة، وقد يقال إنهّا مجلبة لصيد آخر، وهذا محتمل، ولكنه لاينطبقُ على جميع الحالات.

أما (جُوتَه) فقد خصّهُ شكرى بأكثر من أربعين صفحة من صفحات المقتطف الدقيقة، واهتمامهُ به يدلِ على صلة وثيقة بآرائه وأفكاره، وقد تحدث شكرى عنه فى مطلع كلّ بحثٍ من بحوثه السّبعة بحيث لو جُمعت هذه المطالع فى مقالة منفردة لقدّمت ترجمة دقيقة موجزة. وقد قال فى بحثه الأول عن الشاعر الكبير: إنه اشتهر بيننا ـ يريدُ فى مصر ـ بأقلّ مؤلفاته منزلةً عند النّقاد، تلك هى رواية (أحزان ورتر) التى ترجَمها الكاتب البليغ الأستاذ أحمد حسن الزيات بعنوان (آلام فرتر)، ولا أدرى لماذا أجد فى نفسى بعض الجرأة على مخالفة الأستاذ فى حكمه، إذ أنّ رواية «آلام فرتر» قد رنّ صداها فى الشرق والغرب على نحو مبهر، والذين انتقصُوها قد قارنُوا بينها وبين قصّة «فاوست»، فرأَوْا فى الأخيرة ما يُمتع الشيخ الحكيم، حين رأوْا فى الأولى ما يبهر الشابَ المتطلع ذا الشعور الجيّاش. وقد قرأت القصّة مرات عديدة فوجدتُ سيْلاً من الأحاسيس الدافقة، والمشاعر الصادقة لا يُسَطّرُهُ إلا كاتب موهوب، وإذا كنتُ واهمًا فى ذلك فإنَّ الناقد الإنجليزى الكبير «إدوارد شانكس» قد كَتبَ عنها فصلا بديعا قال فيه[2]:

---

(١) المقتطف (العدد نفسه) ص ١٠١.

(٢) مجلة الرسالة ـ العدد ٣٤٢ ـ ٢٢ / ١ / ١٩٤٠ ترجمة الأستاذ أحمد فتحى.

«قد استطاعت «آلام فرتر» أن تتخطى الحدود إلى سائر بلاد الأرْض، وأن تغزو أفكار الشباب حيثما وقعتْ فى أيديهم بما تحملُ من صور العبقرية الفذّة، وإنّ الكثيرين من هؤلاء قد رسمَ خيالُهم صورة «فرتر» كإنسانٍ نبيل القلب، غنىّ العاطفة، حىّ الإنسانية، لفظته الحياةُ فآثر عليها الموت. . . . وإنّ آلام فرتر من الكُتب التى يتعذّر إهمالُ الحديث عنها، فقد نظم جوته فيه أحسنَ الشّعر الذى لم يُنظم بعده ولا قبله مثيلٌ له أو خيرٌ منه، بل إنّ هذا الشعر ليبز ببساطته ووضوح تعبيره كلّ ما عداه من شعرِ الألمان جميعا إلى اليوم».

وأكبر الظن أنّ جوته قد ساعد على خفضِ قيمة آلام فرتر، حين فُتن بقصة «فاوست» وأخذ يشيد بها وحدها، لأن مرور الأيام جعله ينسىَ بطلةَ القصة «شرلوت» التى احترق بحبّها فى شبابه، وقد جاءتْه فى كهولتها الغارية وهو وزيرٌ عند الدوق «كارل أوجست» تطلبُ معونته فى أمرٍ غير جلل، فما احتفل بلقائها، بل عَجَّلَ برحليها بعد أنْ حقّقَ رجاءها على نحو متسرع؛ ليتخلّص من وجودها، وهى مأساةٌ مريرةٌ تذكرنا بقول المتنبى:

لو فكّر العاشق فى منتهى حُسْن الذى يسبْيه لم يسْبهِ

أما نظراتُ جوته فى النفس والحياة، فقد أشبعَ شكرى قارئه بما قدم له فى هذا المجال من آراء ذات عُمق بصير، وبعضُ هذه الآراء قد صادفت ارتياحَ شكرى فلمْ يشفعها بتعقيب ناقد؛ لأنّه لا يتكلف النقد لذات النقد ـ بلْ يتطرق إليه إذا صادف موضعه الواضح دون تمحل متكلف، وهذا شأنهُ أيضًا مع غير جوته من أعلام الفكر؛ لأنّ نظرة الإعجاب لديْه هى التى دفعته أولا إلى اختيار ما قالوه، وإلى اختصاصهم بحديثه، وقد ألفنا نفرًا من الكاتبين لا يُخلونَ رأيًا من نقد، وكأنّهم يريدون أن يقولُوا للقارئ إنّهم فوق من يتحدثون عنه سعةَ إدراك، ونفاذَ بصيرة، وما دروا أنّهم بهذا التهجم الملح إنما يكشفون عن منحًى ضعيف يؤخذ عليهم، ويقفُ حائلاً دون ما أرادوه من إظهار الحصافة الدقيقة، مع أنّ الحصافة الدقيقة هى فى الإنصاف العادل، لا فى التكلّف البعيد، وها هى تى بعضُ نظرات جوته التى اختارها شكرى وشفعها بالتعقيب:

١ ـ يقول جوته[1]: «إن النفس تُحوّل موضع ضعفها ونقصها إلى مَبْدأ عام ممدوح، ومثال ذلك أنّ بعض الناس يظنّون أن التأنى الذى سبّبه الخوفُ الكامن دليل تعقّل وتؤدة، فهو قوةٌ لا يغلبها غالب مع أنّ هذا الإحجامَ قد لا يكون تبصّرا وحزمًا، وكذلكَ نرَى الضعفاء حين يعتنقون المذاهب الثورية يظنّون أنفسهم سُعداء باعتناقها، ولا يفطنونَ إلى أنّ ضعفهم هو الذى يمنعهم من حكم أنفسهم».

فيزيد شكرى على هذا القول قوله[2]: «وكما أنّ القاعدةَ أنّ النفس تزين موضعَ ضعفها، فهى أيضا تقبح ما لا تستطيع الوصول إليه من الصفات، فإنّ مَنْ لايُساعده طبعه على التخلق بآداب السّلوك، يراها موضعَ ضعف ومذلة ونقص، وقد يمدح المرءُ ما لا يتخلّق به فى بعض الأحيان إذا كانَ له مأربٌ خاص فى هذا المدح يَجنى من ورائه كسبا، أو ليظن الناس أنه يمدح هذه الصفة لأنها من صفاته هو التى يتسم بها».

٢ ـ من شجاعة جُوته النفسيّة أنّه قال: «أنظر فى نفوسِ الناس ثم أنظر فى نفسى فلا أجد خطأ من أخطائهم كانَ من المحال أن أرتكبه، وادعاءُ العصمة والترفّع أمرٌ ميسور لا يكلّف صاحب الادعاء مشقّة».

وقد قال شكرى مُحبذا هذه الشجاعة المنصفة: «إن بعض الناس يلومون جوته على هذا الاعتراف المدوَّن فى كتابه «بين الحقيقة والخيال» كما يلومونه على أقوال أخرى من هذا الطراز، ولكنّ الكاتب الإنجليزى الكبير سمرست موام قد زكّى هذه الشجاعة وأعجب بها» وشكرى كثير الاستشهاد بسمرست موام، وكأنه يستريح إلى آرائه، ولهُ فكره المستقل، ولكن لا أدرى لماذا أميلُ إلى غير هذا الارتياح بعد ما قرأت للأستاذ العقاد ما فحواه أن هذا الكاتب يتعرّض لنقائص النفس الإنسانية لا ليرثى لها، أو عَلى الأقل ليضع لها العلاج الشافى فى عطف ومودة كما هو شأن الكبار من ذوى النفوس العالية، ولكنّه يتعرض لهذه النقائص متشفيًا متهكمًا مسرورًا؛ ليرضى بعض نوازع الأنانية فى نفسه، وما قرأت من

(١) المقتطف ـ يونيو سنة ١٩٤٩ ص ٢٦.
(٢) المقتطف ـ يونيو سنة ١٩٤٩ ص ٢٧.

قصص سمرست موام يؤيّد وجهة الأستاذ العقاد. وكمْ شعرْت بالضيق حين أجد فى قصصه رجلا نبيلا طيبا يلقى أسوأ المصير بدون جريرة، وقد يكون ذلك تصويرًا لواقع كائن لمسه الكاتب فعبر عنه ـ ولكنّ الإلحاح على القسوة المفرطة دون موجب يشى بتحجر فى العواطف، ذى صلابة صخرية، لا رحمة فيها. وكمْ كان يهمنى أن أوازن بين نظرات متقابلةَ للكاتبينْ العظيمينْ شكرى والعقاد، لينعم القارئ باتساع النظر الإنسانى لأكثر من اتجاه، ولكنّ المقام هنا يضيق عن الاستطراد المفيد..

أتابع بعض آراء جوته التى خصّها الأستاذ شكرى بالتّعقيب، فأنقل قوله[1]:

٣ ـ «إنّ صِفات النفس تظهر فى العمل والاحتكاك، ولا تقفُ عند الأفكار وحدها، ومن هنا يُخطئ مَن يظن أنّه يستطيع أن يعرف صفاتِ المرء من مُطالعةِ فكره وحده دون شمولٍ فى النظرة يتسع إلى تطبيق الأفعال على الأقوال».

وأنقل بعده قول شكرى معقبًا: «والواقعُ أنّ النفس تُحاول أن تفصل عَمْدًا بيْن الأمريْن، وهذا الفصلُ قاعدةٌ سيكولوجية فيها؛ لأنها تعرفُ أنّ العمل قد يُغريها بالتخلق بصفات ذميمة ما كان يتخلّق بها المرء، لولا اضطرارُه إلى العمل والمعاملات، وقد شبَّه جُوته نوعَى الصفات بالسُّدى واللُّحمة فى النسيج، وبالزفير والشّهيق فى تنفّس الإنسان الحى، إذ لا يستطاع معرفة قيمة النسيج إلاّ منهما معا، ومن أجلِ ذلك يغيظُ المرءَ أن نُذكّره بصفاته التى تظهر فى أعماله حين يراها مناقضة لما يقول».

ولا أجد مانعًا من أن أقول شيئًا، هو أنَّ بعض النفوس العالية تلتزمُ التقيّد بآرائها فى محيط العمل، فكمْ رأينا أفرادًا يُضحُّون بمغريات كثيرة؛ لتُطابق أقوالهم أفعالهم، وفى هؤلاء عزاءٌ للنفس الإنسانية، ولا يلزمُ أن تكونُ هذه التضحيةُ من خصائص ذوى الثقافة الرفيعة؛ لأنّنا نشهدُ نظائرها لدى السُّذّج الطيّبين ممن اتبعوا وحى الفطرة الصافية، وكان الدّين عاصما لهم من السقوط الخادع جريًا وراء السراب.

---

(١) المقتطف ـ يونيو سنة ١٩٤٩ ص ٢٧.

٤ ـ يقول جوته صريحًا[1]: «ينبغي أن يتذكرَ المرء أنَّ في نفس كلّ إنسان خواطرَ لوْ عبّر عنها صراحة لسببّتِ استياءً واستهجانا، والتعبيرُ عنها حينئذٍ إما أن يكون من العجز عن ضبط النفس، أو من قلّة التمييز بين ما يليق وما لاً يليق، أو التعود على الانسياقِ في شرحِ خطرات النفوس، كما يفعلُ الشعراء والكتّاب، أو العدوى في البيئات المثقفة التي يدعو فيها استرسال إنسان في هذا الأمر إلى أن يُتابعه غيره في هذا الاسترسال».

أماّ تعقيبُ شكرى فقد كان تذكيرًا بقصّة تمثيلية من تأليف يوجين أونيل الأمريكي، يتحدّث فيها كلّ أناس القصّة بقولَيْن مختلفين، قول لا يضرّ سماعه، وقول آخر يؤذي ويؤلم، فنشجع إنسانًا يظهرُ المودة لصاحبه في القولْ الأول، ثم يعقبه بصوتٍ خافت منخفض هُو حديثُ نفسه الذي يتناقض مع ما قال سابقًا.

يقول شكرى بعد ذلك: ومِن هذا حديث جوته عمّا كان يجول بخاطره من أنَّ أمّه حملتْ به سفاحًا من أمير جليل الشأن، ولم يكنْ جُوته عاجزًا عن ضبط نفسه. وإنما آثر هوان نفسه، ووخزها كي يعظ الناس ويعطيهم درسًا كما فعل جان جاك روسو في بعض اعترافاته».

أقولُ: في نفسي أشياء من قولِ جوته هذا ولا ينفعه تبرير شكرى، وأظنُّ احترام الأمّ أهم منْ أنْ نسجّل كل هاجس مريض لم تقم الأدلة على وجوده، وفي يقيني أنّ جوته سطرَ هذا الوهم في ساعة ذهول من تأثير شراب عصف بحكمته! وقد قال شكرى في تعقيبه بعد: إن الكاتب «بورن» اتخذ من اعتراف جوته هذا دليلاً على العقوق الفاضح وفقدان الإحساس بالكرامة والتملق للأمراء، وهذا ما أميل إليه.

فإذا تركنا هذا الإلمام الموجز بما قيل عن تشستر فيلد وجوته إلى بعضِ النظرات النفسية في المعاني الأخلاقية، فإننا نجد (نظرات في النفس والحياة) كتابًا أخلاقيا نادرًا، ولئن اهتم بتصوير الرذائل أكثر مما اهتم بتصوير الفضائل، فذلك لا ينقص

---

(١) المقتطف ـ مايو سنة ١٩٥٠ ص ٣٢٩.

من قيمته العلمية؛ لأنّ الحذر فى مسائل الخُلُق مُقدّم على غيره، لاستجابة النفوس تلقائيًا إلى نزعات الهبوط بتأثير الغرائز الجامحة، وشكرى يكتبُ عن أدباء عالجوا سيئات النفس البشرية أكثر مما عالجوا حسناتها، فليس عليه أن يغفل ما قالوه، وهو كثير كثير، فظاهرة الكذب مثلاً ظاهرةٌ مشهودة فى المجتمع الإنسانى، وقد عالجها الأدباء فى قصصهم واعترافاتهم، ورسائلهم، ومن أَذْكَى من تعرّض لها فيمن اختارهم شكرى هو الأديب الفرنسى الشهير (ميشيل مونتانى) إذ[1] نّص على أنّ الإنسان يتعلّم المنطق ليخالف به أصول المنطق الحقّ. وهو كالذى يتعلم القوانين كى لا يتقيد بها، ولكن لينجو من القصاص إذا وقع فى مخالفة، فالمنطق إذن وسيلته لتلبيس الحقّ على الناس، كما أنّ الكذب ليس صفة مقصورةً على الأراذل والأوْغاد، بل صفة شاملة، لأننا نجد كثيرا من الأخيار (كذا) الذين لا نجدُ فيهم عيبًا آخر لا يتورّعون عن الكذب إما عمدًا أو مُغالطةً للنفس، وبعضُ الناس قد تَعَوَّدَ الكذب حتى لا يستطيع أن يَصْدُق، وقد ينجيه الصدقُ من الضرر، ولكنّه يكذب تَعَوُّدًا، وهذا من غرائب العادة، حين تتحكمُ فتوهم صاحبها بأنّ الكذب هو الذى ينجيه كما نجا به فى حالات أخرى.

ومن عجائب الكذب ما التفتَ إليه (وليام ثاكرى) حين قال[2]: إن الكذب الذى يقوله المرء فى اغتياب الناس أكثر ذيوعًا من الصدق الذى يمدحهم به، فهل ذلك من أجل أنّ قلوب الناس تُربةٌ حجريّة لا تنمو فيها بذور الصدق فى قول الخير، إذْ ما من شكٍّ فى أنّ اغتياب الناس وذمّهم يصادفان من الانشراح والإقبال والإنياس والاشتهاء أكثر مما يصادفه مدحهم بالخير، كأنك فى الحالة الأولى تطعيهم بتوابل تدعو النفس إلى أكل لحومهم.

كما ذكر شكرى فى نظرات السير «آرثر هلبس» قوله[3] بصدد الكذب« يقولون إنّ الكذب لا يصدق ولا يقبل؛ لأنه لا أساس له ولا قوة فيه، ولكن لكل كذبة وقتٌ وميعاد وهوى فى النفوس، ولا يمنعُ من تصديقها أنها لا أساس لها، وقد

---

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٨، ص ١٧٧ وما قبلها.
(٢) المقتطف ـ يوليو سنة ١٩٥٠، ص ١١٩.
(٣) المقتطف ـ مارس سنة ١٩٥١ ص ٢٥٠.

تكون لها قوة شر كبيرة مستمدة مِنْ قوةِ من يؤمن بها، وهذا كما قال شكرى يذكر بقول (ثاكرى) إن الكذب قد يكون أصغر من النقطة، ولكنّه مع ذلك كالنقطة السائرة التى تحتلّ مكانًا كبيرًا، وترسم خطا طويلاً».

وقد كدت أعقب فأقول: إنّ الكذب قد يطغى ويعمّ حتى يُصَدَّق، ولكنّ الزمن كفيل بفضحه، ونحن قد شاهدنا فى عصرنا هذا صحافةً تنشر الكذب وتؤكّده كل يوم على مدى ربع قرن، حتى نشأ جيل يؤمن به، وكأنّه حق صريح، ثم أشرقت شمس الحقيقة فضاعتْ أباطيلُ قومٍ تَبَوَّءُوا مناصبهم اللامعة بما اقترفوه من الكذب، وصدق قول الله: «فأما الزبد فيذهب جفاءً» كما تحقق قول الشاعر:

وعهودهم بالرمل قد نقضت وكذاك ما يُبْنَى على الرمل

وندع حديث الكذب إلى حديث الصداقة؛ لأن تجاريب شكرى مع أصْدقائه قد أورثته مرارة مُحرقة؛ إذْ شاءت ظروفه أن يصطدم بزملاء فكره، وأصفياء مشاعره، بعد مودة ذاق منها أعذب الأفاويق، وكان شكرى منصفًا فى خصامه، فهو لم يلق باللائمة على من قاسموه الخلاف، وبسطوا حبل النقد الجائر وحدهم، بل لام نفسه لأنه مهد العداء بما سَبق به من نقد، وله فى هذا الموضوع قصيدةٌ قال عنها الأستاذ عباس محمود العقاد: إنها أحسنُ ما قيل فى بابها فى دواوين الشعر العربى أجمعه، ويتجلى هذا الإنصاف فى قول شكرى عن صديقه المازنى:

ولا أكذبنَّ الناسَ قلبى كقلبه له آنة ميْلٌ عن النصفِ والقصد
كلانا جَنى شرا فعاد إخاؤنا محالاً، حكى ذكر الشباب على بعد
إذا أنا أُنسيتُ الإساءة من أخ ذكرتُ له منّى إساءةَ ذى عمد
وأيقنتُ لا يَنْسى عدائى وما جَنى عدائى عليه من عناء ومن جهد
أيلتئم الصّخران فى اليمّ بعد ما ترددَّ موجٌ اليم بالصّدع والهدِّ

وأديب يحمل هذا الإحساس المتقد نحو نوازع الحب والبغض لا بدّ أن يقفَ طويلاً عند العلاقات البارزة فى معاملات الأصدقاء، مما دوّنه كبار المفكرين فى

كُتبهم الذائعة ـ ولا بّد أن يطرب لما يجد من تحليلهم لأخفى التوارع الدفينة فى هذه العلاقات. فيختار (للاروشفوكولد)[1] قوله: «إذا أسفْنا لِنَبْوَةَ مَن نَبأَ عنا، فإننّا قلما نأسف لافتقاد المتعة بعقله وأدبه، بلْ كثيرًا ما نأسَف لأننَا فقدنا بفقدهْ رَمْزًا يدلّ على ثقة بعضِ الناس بنا، وحَسنِ رأيْهم في عشرتنا ورغبتهم فى أنْ يكونوا معنا، فنعتزّ بالأصدقاء فى أعيْن النّاس ونزيدُيهمْ قدرًا وجاها، إذ أنّ الأسف لنبوة الصديق أساسه الأثرة وحب النفس».

وشكرى العميق لا يترك هذا الكلام مرسلاً، بل يقيده بقوله معقبًا عليه: ولكنّ هذا الأساس لا يمنع من أنْ تكونَ الفضيلة فضيلة. فكثيرًا ما يختلط الإيثار بالأثرة فى النفس، حتى عُدَّ مظهرًا من مظاهرها. إذ أنّ النفس تنشد فى الإيثار شيئًا يرضيها ويريحها، بالرّغم مما تتكلفه بسببه، وما يُرضيها ويُريحها يكون منفعةً لها، وإن كان مطلبًا نبيلاً.

أماّ أصدق النظرات المسترة التى تتطلب جلاءً من مفكر بصير فقد اهتدى إليها لارشفوكولد أيضا، وحَرص شكرى على تسجيلها حين نقل عنه قوله[2]:

«مِن السهل أن يغتفَر المرءُ لأصدقائه العيوبَ التى يَرى أنهّا لا تضرّه، ولاتُصيبه بسوءٍ، وإنْ أصابت غيره من الناس، وهذا الغفران يكونُ ما دامَ المرء ناظرًا إلى أصدقائه بعين الرضا، وكثيرًا ما يغتفر لهم خيانَتهم أصدقاءَهم مادام الغافرُ بعيدًا عن خيانتهم لأنّه بزعمه عندهم فى منزلهِ أعز وأرفع».

ويزيد شكرى هذا القول جلاءً إذ يعقّب عليه بقوله[3]: وقد يسخرُ ويضْحك من المغدورِ به ويلتمس العذر لمن غدر به، أما إذا حاق به الغدْر دونَه بعد اطمئنان للوفاء واستنامة إلى عزه ومنعته فإنّه لا يصفح للغادر كما فَعلَ قديما، بل يسخط عليه أشد السخَط، ومصاحبة الشرير على خطره إنما تكون لأسباب متعدّدة، فبعض الناس يلازمه كيْ يعرف شرَّه ونيّته وما يبيّتُ فيتجنّب بذلك ما يتوقّع من شره، وبعضهم يلازمه ويجاريه تزلّفًا إليه، واتقاءً لشره، بالتزلف والتقرب،

(١) المقتطف ـ ديسمبر سنة ١٩٤٧ ص ٣٦٧.
(٢) المقتطف ـ يناير سنة ١٩٤٨ ص ٣٨.
(٣) المقتطف ـ يناير سنة ١٩٤٨، ص ٣٨.

وبعضهم يتابعه كي ينتفعَ بشره، وبعضُهم يزاملُه لأنّه يتمنى لنفسه في سريرته جرأةً على الشرّ ليست له، فمُزاملتهُ له إعجابٌ مستتر، وهي لا تمنعُ أن ينقلب عليه إذا انقلب الناس».

وفي استطراد شكرى إضافةٌ جديدة؛ لأنّه فَصّلَ الدواعي الخفية التي تَجبُرُ بعض الناس على صداقة الشرير ومصاحبته، وجاء باحتمالات معقولة، هي نتيجةٌ لتجربةٍ حيّة وُضِعتْ موضع التعليل والتحليل.

أما المفارقاتُ العجيبة في دنيا الصداقة فما أكثر ما تحدث عنهَا مَن اختارهم شكرى في نظراته، ومنها ما سجّله (لثاكرى) حين قال[1]:

«إن المرء قد يزول حبّه أو تفْنى مودته لإنسان، فما يرى في زوالِ حبه وفناء مودته خيانةً منه لذلك الإنسان ولا غدْرا به، ولا نقصًا في نفسه، أمَا إذا زالتْ مودةُ إنسانٍ له فإنّه يدهشه زوالها، ويعدّ ذلك الزوالَ غدراً ونقيصةً وخيانة، حتى إنه قد ييئس من صلاح الناس والحياة، وقد يبخع نفسه بالحزن والضيق، مع أنّه كان لا يَرى في تغيرّه للنّاس مضايقةً لهم، ولا يفطنُ إلى أنّ ذلك الخلق منه ناشئ عن الأثرةِ وحبّ الذات؛ إذ يبيح لنفسه ما لا يبيح للناس، ويَنْعَى عليهم ما لاينعاه على نفسه».

وقد ألمّ بخاطرة موجزة عن تعارفِ أكثر الناس على أنّ من الحق أن يَغْتَاب الصديق الصديق، ثم هما يتقابلان فيتصافحان ويتعاشران ويتزاملان بطلاقة وابتسام، فامتد شكرى بهذه الخاطرة وأضَافَ إليها: أنّ من يُحاول أن يمنع هذا الاغتيابَ الشاذ يلاقي المقت والغدر، وكأنه يريد أن يحرم المتغابَ من حقٍّ مشروع مفروض، وهو حقّ الاغتياب الذي لا يمكن التنازل عنه حتى لا يحرم قائله من خسارة فادحة، وفي قولِ شكرى تهكمٌ ساخر، ولكنّه يحمل من المرارة الأليمة ماتلتاعُ له كرام النفوس.

الحسد ـ قاتل الله الحسد ـ كم اصطلى شكرى بناره؛ لقد ظَهر نبوغه صبيا حين بدأ ينشرُ قصائده في الرابعة عشرة من عمره بالجرائد الذائعة، ثم جَمعَ

---

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٥٠، ص ١٧٠.

ديوانه الأول قَبلَ أن يبلَغ العشرين، فاسترعىَ الأنظار بنزعته التجديدية، وقالَ عنه حافظ إبراهيم من أبيات:

لقد بايَعتُ قبلَ الناس شكرى وزكيتُ الشهادةَ باعترافى

وهذا النبوغُ مثار حسد لازم الأستاذ طيلة حياته؛ لأنّه كان قليلَ الصّبر على كتمانِ انفعالاته فكان يردّ الكيد بمقالات ضافية يكتبها دون توقيع، ولكنّها معروفة النسبةَ إليه لدى من يختصّه بالنقد لدَى القارئ المتتبع؛ لذلكَ نجد فى ديوان شكرى جذوات مشبوبة أشعلها ما احترقَ فيه من حسد الصحاب، كما له فى هذا الديوان قصيدةٌ مستقلّة تحت عنوان (الحسد) بدأها بقولَه:

يسبحُ الأحياء فى بحر الحسدْ فاعتصمْ بالصبر فيه والجلدْ

ونظر أن النفس والحياة التى اختارها قد حفلتْ بأفانين كثيرة، تصفُ الحسدَ وتفسّرُ دواعيه، وتَنْقلُ عن هؤلاء الكبار نَظَراتهم الصادقة نحو هذا الداء الخطير شارحةً بعض أسبابه، ومِنْ هذه النظرات ما قال الفيلسوف الإنجليزى (بيكون)[1].

«فى النفوسِ صفةُ لُؤْمٍ ذائعة، وهى أنّ كلّ من لم يستطعْ إصلاح حاله، يُحاول إفساد حالِ غيره. ومِن أجل ذلَك كان ذوو العاهات والخصيان والشيوخ مِنْ أشدّ الناس حَسداً إلا إذَا صادَفَ نقصُهم نفسًا كبيرة تجعلُ نقصَها زائداً فى شَرفها، وشفيعًا لمدحها، والحسدُ داء الأمم والدول ومضْعفها، ولكنه قد يكبحُ جماحَ طغيان الحكام المقربين إليهم إذا خَشُوا عاقبته، والحسد كالوباء فمَن خشِىَ الوباءَ كثيراً وذُعر منه أصابَتْه عائلتُه من الرعب، وكذلكَ من يذعره حسد الحاسد فيظهره الاستخذاء والضعفَ والذعرَ فينتهز الحاسد فرصةَ ذُعره، ويصيبه بسوء، وإذا فَشاَ الحسدُ فى أمّةٍ أصابَ سليم الصفات وكريم الأخلاق، كما يصيب الوباء الجسم السليم فيمرضه، وفى أمثال هذه البيئة الّتى فشا فيها الحسد، يُصبح الفضل نقصا، والرأى السديد خرقا، والعمل الصادق عملاً كاذبا، وذلك فى دعْوى ذوى الحسد الذين يروْن فى انقلابِ الأمور إخفاءً لحسدهم، وهمْ مثل

(١) المقتطف عدد فبراير سنة ١٩٤٩، ص ٩٣.

الزارع الذّى يزرعُ الشوكَ والحسك فى الظلامِ ـ فى أرض غيره طبعًا ـ بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشرَ الشّوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو.

أما أناتول فرانسْ الذى نعى مثل هذه الحقائق فيقول عن نفسه[1]:

«قد كنتُ فى صغرى مُدللا منعّماً على قَدر ما يستطيع أهلى من التدليل والتنعيم، ومع ذَلك فقد كنتُ أحسدُ غلامًا صغيرًا مشرّدًا، وكنتُ أراهُ من نافذة منزلى، ولكنّ أَبَوَىَّ يمنعاننى من مخالطة أبناء الشوارع، فأرى أُم ذلك الغلامَ تتركُه حرا قذرًا ممزق الثياب، وتذهبُ كىَ تكسب قوتها بأن تغسل ثياب الناس، فيخيل إلىّ أنّه كان ينظر إلىّ كما ينظر العصفور الطليق إلى قفص العصفور الحبيس» وقد علّق شكرى على هذه الخاطرة بقوله: (وهذه الفكرة تذكرنى قصّةً مِن قصص «ستاسى» أو «موتييه» القصصى الإنجليزى الّذى تَتبع فيها دائرة الحسد، فوجَدَ كلّ إنسان يحسد مَن هو أحسنُ حالاً منه، حتى إذا بلغ أكبر مَحسود وجده وقد سئم تكاليف الحياة يودها بحسد أحقر حاسدٍ ولو كان صُعلوكا متشرّدًا حسبّهُ حرا طليقا غير مقيد بهذه التكاليف).

«أنّ من الغرائب أن يبقى الحسد بعد زوالِ نعمة المحسود، وهذا ما عبّر عنه لارشفولوكد حين قال[2] (كثيراً ما بقى الحسد حتى بعد زوال النعمة المحسودة، وهو قولٌ موجَزٌ أتبعهُ شكرى بهذا التعليل «ولعلّ سبب ذلك أنّ شدة الإحساس بالحسد لا يُستطاعُ إيقافها وانتهاؤها كما يُستطاع إيقافُ المندفع فى سيْره إذا بَطلَ الدفع فيظلّ سائرًا بعده، أو لعلَّ السبب أن الحسود لا يغتفر لمن زالتْ نعمته تمتعه بالنعيم الزائل، فيريدُ أن ينتقم منه، كأنّما بانتقامه بعد زوال النعم، يستخلص تلك المتعةَ الماضية واللّذة الزائلة من لحمه ودمه، حتى تكون كأن لم تكن، حتى يندم المحسود على ابتهاجه بها، وقد يزداد الحاسدُ غيظا إذا عجز عن أن يجعل ذلك النعيم الزائل كأن لم يكن».

تعليل شكرى مِنْ أقوى ما يقال فى هذا السياق وإذا جاز لى أن أعقب على

---

(١) المقتطف ـ عدد مارس سنة ١٩٤٨، ص ١٧٢.
(٢) المقتطف ـ يناير سنة ١٩٤٨، ص ٣٧.

كلام لارشفوكولد وشكرى معًا فإنّى أقول: إنهما خلطا بين الحسد والتشفى، فالحسد ذو حسرة تدق قلب الحاسد، وهذا يكون عند بقاء النعمة، أما التشفى فلا تصحبه هذه الحسرة، بل ربما صحبته لذة تناقضها، وأنا أعرفُ أن التشفى ناتج عن الحسد القديم، ولكنه ليس إياه بحالٍ من الأحوال.

ونقف عند شوبنهور الفيلسوف الألمانى لننقل قوله[1]:

كثيرًا ما يكون تجسّس إنسانٍ على إنسان لمعرفةِ أسراره، سببه الحسد أو الملل والسأم، فهو قدْ يحسد، إذْ يعتقد أنّ إنسانًا نال من أطايب الحياة وملذاتها ما يعدّه المتجسّس ملذاتٍ وأطايب أكثر مماّ ناله هو، فيلاحقه، ويأخذ عليه نظراته وكلماته وأعماله فى خلواته وجولاته. وكثيرًا ما تكون الضجة التى يدعى فيها الأشرار نصرة الفضيلة من نوع هذا الحسد» وكلام شوبنهور دقيقٌ يحتاج إلى تفصيل وإفاضة؛ لأنّه أوجزَ مثالبَ دقيقةً قد تخفى بواعثها عن غيره، وهى مما نلمس أثره حين نرى الإباحى يلبس عباءة المتزمت ليهاجم الأطهار بدعوى الانحلال والتهتك، وهُما صفته لا صفتهم: وقد رأينا ذلك بأعيننا، ورأينا أكثر منه حين يتصدر اللّصوص الجناة لمحاكمة الأبرياء الأطهار، وحينَ يصفق لهم المجتمع وكأنه يصدّق ما زيّفوه!! ولا أرى أن أسترسل فى اقتباساتٍ تدور حول هذا الداء البغيض، ففيما قدمت ما يشير إلى خَطَره العارم، وإنْ كان من النفع المؤكّد أن أشير إلى جناية الآباء والمعلمين فى خلق هذا الشعور الكريم فى نفوس الأبناء حينَ يدفعونهم إلى منافسةٍ غاضبة عبرّ عنها الفيلسوف الإنجليزى بيكون حيث قال[1]:

«يشترك الآباء والمعلمون والحكام وأمثال هؤلاء فى تنمية روح المنافسة، فينمو التحاسد والتباغض فى نفوس الأطفال الصغار من حيثُ لايشعرون عاقبة هذه المنافسة العاجلة، ولا يفطنون إلى ما يغرسونه فى النفوس البشرية من عواقب تبقى مدى الأجيال، ضررها فى الحياة كبير. وهو غير مقصور على عهد

---

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٧م، ص ١٩١.

(٢) المقتطف ـ فبراير سنة ١٩٤٩ ص ٩٢.

الطفولة، وهم يلجئون إلى هذه الخطّة لأنهّا فى نظرهم أسهل طريقة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه هؤلاء الصغار».

ولعلّ المربين فى هذه الأيام يعرفون أن التشجيع لا يكون بإثارة التنافس، فكم رأينا طلابًا يتخاصمون بسبب التفوق الدراسى، ولم يلجوا هذا المولج إلا بفعل أولياء الأمور الذين لا يزالون يقولون للطفل الصغير؛ انظر إلى فلان وفلان وفلان، فهم أحسن منك، قد يكون هؤلاء من أقربائه الأدنيْن، فيخلقون شعور التحاسد بين أفراد الأسرة الواحدة، وهى فى حاجة إلى التوافق والانسجام، وما هكذا التربية!

وندع شعور الحسد إلى شعور الخوف؛ لنرى ضروبًا من التحليل الدقيق لهذا الشعور الغريزى ونعرف مثيلها فى كُتب علم النفس ذات الطابع الأكاديمى، وإذا شاءَ القارئ مثالاً لما أعنيه، فإنى أحيله على ما نقله شكرى عن الكاتب الفرنسى (ميشيل مونتانى) حين بسط القول فى تحليل الخوف، وتفسير أسبابه، فكان مما قال[1]:

«فى بعض الأحايين يدفع الخوف الإنسان إلى الانتحار خوفًا من الأمر الذى يتوقع ضرره، إنْ كان هذا الضرر أهونَ من الموت، وقد ينتحرُ المرء خوفا من الموت فى بعض أشكاله، وأنا لا أخاف من شىء قدر خوفى من الخوف، فإن له عَدْوى وأخذةً وإلحاحًا، إذ قد يخاف المرء حتى ما هو عونٌ له على الخوف ومنجاة منه، وإذا لم يدفعْ به الخوف إلى التهلكة فقد يدفع به إلى الجنون، وإلى الإقدام على ما يخشى ويخاف، وقد يَسرى الخوف فى أهل المدينة الواحدة، فيقاتل بعضهم بعضا، وكل يظن أنه يقاتل العدو المخوف الذى بغتهم، وخوف المرء من الألم قد يكون أشدّ من الألم، وقد تسرى عدوى الخوف فى الجيشين المتقاتلين فيفر كل منهما من الآخر كما حدث فى بعض وقائع التاريخ».

يقول شكرى[2] بعد أن بسط هذه الآراء: «إنّه يتذكر بهذه المناسبة قصةً لأناتول فرانس عن رجل من أهل المدينة ذهبَ إلى الريف ونزلَ فى نُزُلٍ صغير،

---

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٨، ص ١٧٨.

(٢) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٨، ص ١٧٨.

ولأمرٍ ما ذاعَ بينْ الريفيّين أنه فوْضوىّ جاء من المدينة كى ينسفهم بالقنابل، فصدقوا هذه الشائعة، وتسلّلوا إليه وهم يرتعدون كى يقبضوا عليه مباغتةً، قبلَ أن ينسفهم بالقنابل، وكانوا يرتعدون كلما سمعوا صوتًا من حجرته، والمسكين يرتعد هو الآخر إذ حَسب أنهّم أشرار جاءوا ليقتلوه فسرى الرعب إلى نفسه، وجعل يرتعد من الخوف، وعندما فتحوا عليه بابَ الحجرة وجدوه ميتًا، أما الذى يستغرب ذكره، فهو ما قاله أناتول فرانس عما سماه «لذة الخوف» حيث حكَى على لسان البطلة بلقيس قولها[1]:

«إن سكرة الفزع تسرى فى أوصال جسمى ليلاً؛ لأن للخوف والفزع لذةً فى بعض النفوس» وأنا أرى أنّ هذه اللّذة موهومة غير موجودة، ولكنّ شكرى يؤيّد وجودها بما حكاه عن الرحّالة (لفنسجتون) إذ اعتَرضَه أسدٌ فأوْقعه على الأرض، ووضَع قدمه عليه وكاد يفْترسه، لولا أن بعض أعوانه أنقذه بطلق نارى أصابَ الأسد فقتله فورا، وقد قالَ الرحالة الكبير بصدد ذلك: إنى كنت حينئذ أشعر بذهول لذيذٍ من الخوف، وهى لذةٌ تخفف فى كثيرين الأحيان بعضَ الآلام والمصائب.

هذا وقد لاحظَ لارشفوكولد[2] أن الأحاسيس تولّد أضدادها، فالجبان قد يشجع من الخوف، فيقبل مندفعًا بدل أن يفرّ إذا أحست نفسه أنّ فى الفرار ضررًا أشد، فالخوف قد سبّب الثبات أيضًا، والثبات من مظاهر الشجاعة».

وهذا قولٌ يجد المعارض؛ لأنّ الخوف هنا استسلامٌ لا شجاعة، وصاحبه لايجد القدرة على المقاومة حين يواجه الموقف المتأزّم، ولعلّ أبا تمام قد كانَ أقربَ إلى الصواب حينَ قال عَنْ عبد الصمد بْن المعذل وقد هجاه:

أقدمتَ ـ ويحك ـ من هجوى على خطر كالعَيْر يُقدمُ من خوف على الأسدِ

هذا غَيْضٌ من فيض يصور اضطرام العواطف، وتناقضها واختلافَ منازعها فى النفس الإنسانية، وقد أحسنَ شكرى حيَن قدم للقارئ العربى هذه المختارات

---

(١) المقتطف ـ أبريل سنة ١٩٤٨، ص ٢٥٠.

(٢) المقتطف ـ يناير سنة ١٩٤٨، ص ٣٩.

الصادقة ففتحت عينَه على آفاق رحيبة المدى متعددّة الدروب والأنحاء، ولا أجد أصدقَ من قول ليوباردى الّذى أدهشه تَناقض الأحاسيس واختلاف الأهواء إلى حدّ الغرابة المستعصية فقال[1]:

«إنّ مَن عاشر الناس، واشتركَ فى حوادث حياتهم يرى فيهَا مَا لوْ كتبهُ قصّةً لعدّه القارئ مبالغةً من نسج الخيال الجامح، وأبَى أن يصدق أنه مِن واقع الحياة؛ ولذلك قيل: إن الحياةَ قد تكون أغربَ من الخيال».

لقد أطال شكرى الوقوفَ أمام الحياة، مفكّرا ومتأملاً، وقد جرَّب وعانى وقَرأ ودَرَسَ ونظَم ونَثرَ وبَحث، ثم لم يجدْ غير الحيرة الحائرة التى عبّر عنها فى قوله:

عبء لغْزِ الحياة يا قلبُ ما أفدَ ح عبئًا يُحثَى عليكَ وثقلا
كلما رُمتَ بالمجاهل خبرًا زادكَ العيش بالمعالم جهلا
سِرُّها انكَ السعيدُ إذا لمْ تدرِ أنْ لا سرا لديها فيُجلْى.

وقد ختم شكرى أحاديثه عن أعلام الغرب بمقال عن عبد الله بن المقفع الكاتب الذائع الصيت فى الأدب العربى، ولا أدرى لماذا اقتصر عليه وحده، وكان فى وسعه أن يفرد بحوثًا ضافية فى نظراته عن النفس والحياة لأعلام كبار مثل الجاحظ وابن حزم وابن خلدون وابن مسكويه وأبى حامد الغزالى والماوردى والطرشوشى وأبى حيان التوحيدى وغيرهم، وقد عقد موازنة سريعة فى مقاله عن ابن المقفع تدور حول الكاتبيْن الكبيريْن ابن المقفع والجاحظ، كما ذكر اسماء بعض مَن أشرتُ إليهم من كتاّب العربية، مماّ يرجح أنه كان ينوى أن يخصهم بالحديث لولا ما عاقه من مَرض بدتْ أعراضه قبل أن يستفحل، ومثل شكرى إذا تحدّث عن كتاّب العربيّة يأتى بالطريف الجديد مماّ لا تكاد تعثر عليه عند الكثيرين، وقد ظلم ابن المقفع ظلمًا فادحًا حين قرنه فى سلوكه الإنسانى بباكون الإنجليزى بدعوَى أن كلاً الأديبين يقول ما لا يفعل، ولا يستطيع أبلغ البلغاء عارضةً ودفاعًا أن يردّ عن باكون ما وُصِمَ به من مثالب فادحة! أما ابن المقفع فقد أخذ عليه الأستاذ شكرى أنه تحدثَ عن المداراة الواجبة على من يصحب السلطان من

(١) المقتطف ـ أغسطس سنة ١٩٤٧، ص ١٩١.

حاشية تخاف شرّه وترقب خيره، ولكنه لم يُدار حين تعرّض لما يُغضب المنصور وهو حاكم باطش لايرحم أحداً من خصومه وإن كانوا من ذوى قرباه فكيف بالغرباء! ولايجهل الأستاذ شكرى أن سيرة ابن المقفع تُقدّم أعظم مظاهر الوفاء للأصدقاء في مواقف كثيرة، منها موقفه مع عبد الحميد الكاتب حين اختفَى فى منزله، ثم كُشف أمره، وجاءه الطلب، وحين سأل الشرطى الرجلين: أيكما عبد الحميد؟ جعل ابن المقفع يقول أنا؟ وعبد الحميد يقول أنا؛ مضحيًا بنفسه فى سبيل صديق لجأ إلى منزله ساعةَ العسرة فوجبَ أن يفتديه، هذا الشعورُ الإنسانى الذى دفعه إلى افتداء عبد الحميد الكاتب هو نفسه الشعور الإنسانى الذى دَفعه إلى أن يؤكد المواثيق الغليظة التى أغضبت المنصور، وهو إلى أن يُمدح أقرب وأولى من أن يُنْقَدَ، أمّا ماكتبه الوراقون عن تهكمه بعامل المنصور فهو ما اعتدْنا أن نراه ملصقًا بكل متهم غضب عليه الحاكم، والأستاذ شكرى يعلم جيداً صدق من قال:

خلق الناس للقوىّ المزايا وتجنوا على الضعيف الذنوبا..

والحديث فى هذا المنحى يتشعب ويستفيض فلأوجز؛ وفى النفس ما فيها من ألم وحسرة على أناسٍ أطهار عرفنا شَرَفَهم معرفة الملابسة والمخالطة، ثم خالفُوا ذوى السيطرة مخالفة الرأى والفكر، فحيكت لهم التّهم، واختُرِعَتْ الأراجيف، وغدا صديق الأمس عدو اليوم؛ جريًا وراء برق خُلَّبٍ لم ينتفعْ بضيائه غير أمدٍ محدود.

ولشكرى ـ كعادته ـ تعليقاتٌ صائبة على ما اختاره من أقوال ابن المقفع، فإذا قال ـ مثلا ـ الأديب العربى الكبير «لايوقعنك بلاء خلصتَ منه فى آخر لعلّك لاتخلص منه» قال شكرى: وقد يخلصُ الناسُ من البلاء بوسائل توقعهم في بلاءٍ آخر، ويوهمون أنفسهم أنّهم ربّما وجدوا خلاصًا سهلاً من هذا البلاء الآخر متى شاءوا بعد اتخاذهم وسيلة للخلاص من البلاء الأول، وأقرب مثل لذلك الكاذب الذى يخلص من بلاء كذْبة بكذبة موبقة وادعاءٍ يوقعانه فى مؤاخذة

أشد، أو مثل الذى يتجنى على آخر، ثم يحاول أن يخلص من عاقبة تجنيه بجناية أخرى، وقَدْ قالَ ابن المقفع «إن أموراً لاَ تصلح إلاّ بقرائنها، لاينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عقل، ولا شدة البطش بغير شدة القلب، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا الحبيب بغير أدب، ولا السرور بغير أمن، ولا الغنى بغير الجود، ولا المروءة بغير تواضع، ولا اليسر بغير كفاية، ولا الاجتهاد بغير توفيق»، فالحق الأستاذ شكرى بهذا القول الصائب قوله المفسّر الشارح مع إيجازه الدقيق: «وإلاّ أدَّى العقل إلى الفساد، والحفظ إلى الخطأ، والبطش إلى الانكشاف والانخذال، وكان الجمال سمجًا، وكان ما تحت الحسب دناءة وشراسة ووراء السرور هَما وقلقًا، وكان الغنى بطرًا ولؤمًا، والمروءة منا، واليسر عسراً لايغنى، والاجتهاد عناء وخيبة.

وقد آن لى أن أضع القلم لأترك للقارئ متعتَه الهانئة بقراءة ما يلى من الصفحات، وسيجد ما يمتع ويقنع، فيحظى بخير أكيد.

د. محمد رجب البيومى

الأستاذ عبد الرحمن شكرى

بقلم الدكتور / محمد رجب البيومى

عبد الرحمن شكرى أحد زعماء الشعر العربى فى عصره، وهو أولُ ثلاثة انتقلوا بالمنحى الشعرى من ضرب إلى ضَرْبٍ، حيث عَملوا على تأصيل قواعدَ تجديدية تتصل بالوحدة العضوية، والتجربة الشعرية، والتحليلِ العميق للنفس الإنسانية، وتنوع القافية تنوعًا لا تشذّ به الموسيقا الخارجية التى تتطلبها الأذن السّامعة، ولكنّ ظروفًا فوق إرادته، جعلتْه يعتزلُ الناس مدة طويلة فى كهولته، ثم أجبره المرض على الاعتزال القهرى فى شيخوخته، وكنتُ فى الخمسينيات أعرفُ أنه يقيم بالإسكندرية، وأحسُّ رغبةً حارّة فى لقائه، والتمتع بتوجيهه، وقد أخبرتُ تلميذه ومريده الوفى الأستاذ نقولا يوسف برغبتى فى هذه المقابلة، والأستاذ نقولا رقيق الحسّ، نبيل الشعور، فلم يشأ أن يقولَ: إن ظروفه الشخصية والمنزلية لا تتيحُ اللقاء على وجه سريع، بل قال إنه سيرعى إنجْاز هذه المسألة متى سمحت الأحوال، ودعوت الله أن تسمح.

وفى سنة ١٩٥٧ كتبَ إلىّ الأستاذ نقولا يقول؛ إنه اتّفق مع الأستاذ أسعد حُسنى رئيس تحرير مجلة العالم العربى أن يُصور عددًا ممتازًا من المجلّة خاصا بأدب الأستاذ شكرى، وريادته الشعرية، وقد دَعَا صفوة من تلاميذه إلى المشاركة فى تحرير هذا العدد؛ لذلكَ يرجو أن أسْهِمَ بكلمةٍ شافية تتفق وموضع المناسبة الكريمة؛ لأنّ العددَ سينشر بمناسبة بلوغ الشاعر الكبير سنّ السبعين، ولأمر أراده الله لم يصل الخطاب فى حينه، بل توجّهَ إلى مدرسة بالمنصورة غير التى أقومُ

بالتدريس بها، وحمله بعض الزملاء فى جيبْه، ثم إلى منزله حتّى يلقانى مصادفةً، ولم يتيسر اللقاء إلاّ بعد صدور العدد، فأسفتُ أسفًا شديدًا لضياع هذه السانحة، وكتبتُ للأستاذ نقولا أعلن له حقيقة ماكان، فردّ مسامحًا، وقالَ إن الفرصة لاتزال مهيأةً، فصاحب مجلة العالم العربى يرحّب بكل مقال يبحثُ فى آثار عبد الرحمن شكرى، وقد أنبأه أن العدد الخاص به لاقَى رواجًا غير منتظر، فلم يرجع منْه شئ إلى مخزن المجلّة، وأن الأستاذ شكرى كان سعيدًا بهذا الرواج سعادة تامة.

المقال الأوّل

وقد سارعتُ فكتبت مقالاً حول نظرات شكرى فى الأدب العربى؛ لأنّ الشاعر الكبير كانَ قد نشر بمجلتى الرسالة والمقتطف عدّة مقالات عن الشعراء الكبار فى العصْر العباسى من أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى والشريف والمتنبى ومهيار وأبى العلاء وأبى نواس أتى فيها بالجديد الطريف، وكان كلّ بحث خاص يقومُ مقام مؤلَّف مستقل فى كتاب منفرد؛ لأن نظرات الناقد الحصيف كانتْ من الطرافة وصدق الاستشفاف، ودقّة النظرة بحيثُ فاجأت القُراء بمالايعلمون عن شعراء كبارٍ كثُر الحديث عنهم كثرةً تفوق الحصر، وكُتِبتَ عنهم الأجزاء المتعددة شرقًا وغربًا حافلةً بما راق وشاق، ولكن نظرات شكرى الصائبة أضافتِ الجديد، ثم أرسلتُ المقال إلى الأستاذ أسعد حسنى فبادَر بنشره، وأعلمت الأستاذَ نقولا يوسف بما كان، فكتب إلىّ على عجل يقول: إن ماكتبتَه صادف ارتياح الرجل الكبير، وإنه قرأه مسرورًا كل السرور، وذكَر أنّ الأقلام تتناوله شاعرًا لاناقدًا، وأن هذا المقال قد ذكّر الناس به ناقدًا ذاجدّ واجتهاد، كما أنه وضع سُطورًا تحت أفكار يخالفنى فيها، ولم يشأ الأستاذ نقولا أن يسأله عن وجه المخالفة، ولكنَّ سُرور شكرى بالمقال أعَاد إليه رجاءً فى أبناء الجيل الجديد؛ إذ عرَف أنهم لم ينسوه شاعرًا وناقدًا.

المقال الثانى

قرأتُ خطاب الأستاذ نقولا فصممت على أن أعيد الكرة، متحدثًا عن بعض مقالات الشاعر النقدية، مادامَ الحديث عن نتاجه الأدبى المنشور قدْ صادف

ارتياحه، وكنتُ أعرف أنّه خاض معركة نقدية تحت عنوان (بين القديم والجديد) بمجلة الرسالة استغرقتْ عدّة أشهر متتالية؛ لأن الأستاذ الكبير محمد أحمد الغمراوى كان قد نشر عدّةَ مقالات عن القديم والجديد فى الأدب العصرى، ذهب فيها إلى أنّ المجدّدين من الشعراء والكتاب يحاربونَ القديم انتصاراً للتحلّل والمروق، لارغبةً فى التجديد، ولما كان الأستاذ شكرى من زعماء التجديد الأدبىّ المعاصر، فقد رأىَ أن يُعارض ما اتّجه إليه الأستاذ الغمراوى، فنشرَ عدّة مقالات لم تكنْ ممهورةً باسمه، ولكنّ الزيات قال إنها بقلم (أحد أساطين الأدب الحديث) وعَرَفَ النابهون من القراء أنّ شكرى صاحبُ هذه المقالات، لأن أسلوبَه مشتهر ذائع، وطريقتهَ التحليلية لا تخفى على مطلع مثابر، وكانَ من رأى شكرى أنّ التحلّل يوجد فى الأدب القديم كما يوجد من الأدب المعاصر، وأن التصوّنَ كذلك يوجد فى الأدبيْن، وليس المجون فى الأدب المعاصر وليدَ التأثر بالأدب الأوربى؛ لأنّه وُجد فى الأدب العربى جاهليا وإسلاميا، وطبائعُ النفس البشرية هى هى فى كل زمان ومكان، قرأتُ هذه المقالات حين صدورها، ووَجّهتْنى توجيها صحيحًا إلى حقائق أدبيّة كنت أجهلها، فكتبتُ مقالاً تحت عنوان (شكرى بين القديم والجديد) وأرسلته إلى مجلة العالم العربى، فنُشر دون إبطاء، وحملَه الأستاذ نقولا إلى الشاعر الكبير، فبدأ بمراسلتى شاكرًا، وقد حزنت كثيراً حين جاءنى خطُّه المريض مُبعثراً فى الصحيفة إذ كان يعانى من الشلل، ومعَ ذلك أصر على كتابة الخطاب إصراراً كلّفهَ كثيراً من الجهد والوقت؛ إذ لايستطيع أن يكتبَ الكلمة الواحدة ويدُه ترتجف دون مشقة أليمة، ولا أكتُم القراء أنّى تأثرت حتى سقط الدمع من عينى!! ورَددت عليه ردّاً مستفيضا حافلا أخبرُه بتقدير الجميع لأدبه وريادته، وأنّ اعتزاله المتكرر، لم يُنس الناس جهادَه الظافر فى اقامة الصرح الأدبى الحديث، وأن التاريخ لاينسى أقدار النابغين.

خطاب تال

وبعد عدة أسابيع، وصلنى خطاب تال من الشاعر الكبير يعلن أنه قد ارتاح لما كتبت فى خطابى السالف، ويطلب أن أبحث له فى المنصورة عن دواء لايُوجد بصيدليات الإسكندرية، وهو ضرورىّ بالنسبة إليه، وأرفق ثمن الدواء بالخطاب،

وقد بادرتُ أبحث عما طلب، فلم أجدْه بالمنصورة، وعز علّى ألا أكونَ محققاً لرجائه، فبادرتُ إلى صيدليات الأقاليم المجاورة باحثاً مثابراً، حتى عثرتُ عليه فى إحدى صيدليات مدينة (بلقاس) فأحضرتُ كميّة كبيرةً منه، حذراً من نفادها مع احتياج الشاعر إليها، ثم سافرتُ إلى الإسكندرية متجهًا إلى منزل صديقى الأستاذ نقولا يوسف، وأريتُه ما أحمل من الدواء، ففرح كثيراً، وقال إنّ الشاعر سيُسر بلقائك؛ لأنه لاينقطع عن ذكرك، وقد حان موعد رؤيته، فهيا، وسعدتُ كثيراً بزيارة الرجل الكبير، ولكنّى كنت أتقطّع صامتًا؛ لما لمسته من وطأة المرض الذى جَعله شبحاً لاإنسانًا، وحاولتُ أن أسرع فى الذهاب مخافة أن يظهر على وجهى مايدل على ألمى المبرّح فأزيدَ الرجل ألمًا، فتعللت بانتظار أحد الأقرباء لى وفق موعد قد حان، وخرجت مع صديقى وأنا لا أملك نفسى من الحزن.

المقال الثالث

وإيمانًا بما قاله صديقى نقولا من ارتياح الشاعر لما أكتب، حاولتُ أن أسّره بمقال جديد، إذ قرأت دراسةً جيدة عنه فى كتابٍ عن الأدب المعاصر للدكتور شوقى ضيف، ذهبَ فيه إلى أن نزعة التشاؤم تغلبت على شعر شكرى، وعلّلَ هذه النزعة لدى شعراء التجديد بآراء استمدّها من استنتاجه الخاص، ومع تقديرى الكبير للدكتور شوقى فقد رأيتُ أن أخالفه فى حكمه بغلبة التشاؤم على شعر الرجل؛ لأنّ نتاجه الأدبى يجمع التفاؤل إلى التشاؤم، والنفسُ الإنسانية لاتستقرّ على حالة واحدة، فبينما يسر الإنسان فى الصباح إذ يدهمه فى المساء ما يحزنه، فيقول الشعر فيما يسرّ ويسىء معًا، ثم استشهدت بقصائد كثيره تنحو منحى التفاؤل جوار ما استشهد به الدكتور شوقى ضيف من قصائده التى تنحو منحى التشاؤم، وكتبتُ مقالاً تحت عنوان «شكرى بين التفاؤل والتشاؤم» بسط وجهة نظرى بما أملك من الدليل، وأرسلتُ به إلى الأستاذ شكرى بعد نشره، فردّ سريعًا يطلب كتاب الدكتور شوقى، وكان أخى الأستاذ سعيد الشرباصى متجهًا إلى الإسكندرية، فبعثت به معه، وقابل الأستاذ فرحّب به ترحيباً كبيراً، ثم رأيتُ الكتاب يجىء إلىّ بالبريد المسجل بعد أن قرأه الشاعر، وفى طيه رسالةٌ صغيرة يقول فيها: إن الدكتور شوقى مع تسجيله نزعة التشاؤم لدىّ، لم ينكر علىّ

إيمانى بالمستقبل، وقد استمرتِ المراسلاتُ بينى وبين الشاعر الكبير، يكتبها بقلمه الأشل موجزة مركزة، فأفرحُ بهَا كثيراً كثيراً، وقد كتبتُ إليه قائلاً:

إنّى لا أريد ردا، فأنا أعلمُ ظروفه الصحيّة، وكانَ مع ذلك يُسرع فى الرد المبادر، ولاسبيل إلى الامتناع عن مراسلته؛ لأنه يطلبها، ويحثّنى الأستاذ نقولا عليها، وكنتُ عرضت عليه أن أقوم بطبع بعض آثاره إذا استطعت فأرسل إلىّ تفويضًا كتابيًا بذلك.

ديوان شكرى

انتقل شكرى إلى رحمة ربه، وتحدثتِ الصحف اليومية والأسبوعية عن مأساة اعتزاله، وإهمال القائمين على الثقافة لأمره، ودَعت إلى إحياء آثاره الأدبيّة التى طبعت منذ أكثر من ربع قرن، ولم يعرفْ عنها الجيل الحاضر شيئا، ولكنَّ هذه الدعوة المخلصة ذهبت هباء دون استجابة، وهنا نهضَ أحد الموسرين من تلاميذ عبد الرحمن شكرى حين كان أستاذاً بإحدى المدارس الثانوية بالإسكندرية، وهو الأستاذ عبد العزيز مخيْون، فصمّم على نشر ديوان شكرى إحياءً لذكراه، واتصل بالأستاذ نقولا يوسف لتحقيق هذا المأرب، وسارعَ نقولا بالاتصال بى لأن معى تفويضًا من الشاعر بطبع ما أريد من مؤلفاته، وهذا ما يسهلُ نشر الديوان دون صعوبات قانونيّة، وقد حضر الأستاذ نقولاَ لزيارتى بالمنصورة، واتفق معى على أن يقوم هو بجمع أجزاء الدواوين المتفرقة، وهى جميعُها لديه، تاركًا لى أن أقوم بجمع ماتفرق فى المجلاّت الأدبيّة من شعر لم يُنشر فى أجزاء الديوان، وهى مهمةٌ من الصعوبة بمكان؛ لأنى كنت أقيم بالمنصورة حينئذ، والدوريات الأدبية بالقاهرة، ولاسبيل إلى الذهاب للعاصمة إلا يوم الجمعة نظرًا لعملى الرسمى، ولم أشأ أن أنكل عن عمل أدبى أعدّه دينًا فى عنقى للشاعر الكبير، فصممت على السفر المتواصل حتى جمعت ما أقدرنى الله عليه، وقدّمتُه للأستاذ نقولا، فطلب منى مقدمة للديوان حدّد حيّزها المتواضع، على أن يكتب هو مقدمةً تشمل حياة الشاعر ومايعرفه عن اتصالاته وأخباره، فجاءت مقدمته ضافية واسعة، وعبت عليه أن حددَّ لى مساحةً متواضعة بحيث تضاءلت كلمتى جوار كلمته؛ ولكنّ هذا ماكان، ثم صدر الديوان وفى مقدمته إشارةٌ إلى ماقمت

بجمعه من القصائد المتفرقة، ومن الاعتراف بالجميل لأصحابه أن أذكرَ أن أخى الأستاذ الدكتور محمد السعدى فرهود قد استدركَ علىّ عدة قصائد جمعها فى كتاب خاص، كما استدركَ صديقى الأستاذ المحقق محمد محمود حمدان قصائد أخرى لازال يحاول جمعها، وهما مشكوران؛ إذْ أنّ ظروفى الضيقة لم تسمح بأكثر مما قدمت، وهو جهد المقل كما يقال فى المثل العربى، وقد ظهر الديوان رائعًا فخمًا، مطبوعًا على ورق مصقول، ذا حجم لافت للنظر، وبذلك تهيأ للدارسين أن يقولوا مايشاءون فى تحليل روائع هذا الشاعر الكبير.

لقاء العقاد

شاء الأستاذ عبد العزيز مخيون أن يُهدى للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عدّة نسخ من ديوان شكرى؛ لأنّه زميله فى النضال الأدبى، وقد كَتَبَ الأستاذ العقاد عند رحيل صديقه عدة مقالات قوية عن أثره الرائد فى التجديد الأدبى نشَرها بالهلال والشهر ويوميات الأخبار، كما رثاه بقصيدةٍ حارة بالأخبار فور رحيله قال فى مطلعها:

بعد إبراهيم شكرى اليوم أودى قرب الرحل، لقد قارب جدّا

وإبراهيم هو عبد القادر المازنى ثالث الرفقة، وقد أسهُموا معًا فى تصحيح كثير من الآراء المخطئة فى حقل الأدب، وعُرفوا فى النقد المعاصر بأنهم أصحاب مدرسة الديوان، ولتفصيل ذلك مجال آخر، اتسع به الحديث، وتعددت اتجاهاته ومراميه.

أجلْ، شاء الأستاذ مخيون أن يُهدى الديوان للأستاذ العقاد، فرأى أن يصحبنى مع الأستاذ نقولا لزيارة الشاعر الكبير فى ندوة الجمعة، وفؤجئ العقاد بظهور الديوان فى سمته الرائع، فشكرَ الأستاذ مخيون على قيامه بطبع هذا الأثر النفيس، وعدَّ ذلك مكرمةً نادرة، وخاضَ فى حديث شكرى ساردًا أعذب الذكريات عنه، ومشيرًا إلى ماجدّ من خلاف بينه وبين المازنى لم يلبثْ أن انقشع؛ لأنّ المازنى قد ترضّى صاحبه، وعاد الود كما كان، لاكما يزعم من يحاولون تأريث العداء ظالمين..

وَخَرَجْنَا من ندوة العقاد سعداء بلقائه، ثم وزّع الأستاذ مخيون عشرات من نسخ الديوان على من يعرفهم من كبار الأدباء، فكثر الحديث عن شكرى، وتبوأ بديوانه الحافل مكانه الجهير..

مع الأستاذ الجهنى

الأستاذ عبد الحكيم الجهنى كاتب إسكندرى ظلّ يحرر المقال السياسى بجريدة (البصير) بالإسكندرية قرابة نصف قرن، وكانت مقالاته الرصينة موضع اقتباس فى الجرائد اليومية المشتهرة، وكان صديقا للشاعر الكبير عبد الرحمن شكرى يَعُدّ نفسه تلميذاً له فى المنهج الشعرى، وقد كنا نتحادث عن شكرى بعد رحيله، فتكلم عنه بإشباع، وكان مما قال: إن الأستاذ شكرى قد ساعد على ابتعاد تلاميذه عنه بقسوة نقده، فقد كان يزورنا فى دار البصير فيجد طائفة من شعراء الشباب أصبحوا فيما بعد من ذوى الشهرة المستفيضة، وقد أخذوا يعرضون قصائدهم عليه، فكان يقرأ القصيدة بيتًا بيتًا، ويلفت إلى أخطاء فى الفكرة أو الصورة أو التعبير ويمسك عصا الأستاذية عن جدارة، فينصرف الشاعر المنقود غير مستريح للهجة شكرى، مع أن شكرى حريص على النفع الأدبى لمن ينشد توجيهًا، ومن العجيب أن الشاعر الكبير خليل مطران كان يزور البصير ومعه الأستاذ خليل شيبوب. فيعرض عليه الشباب آثارهم الشعرية فيهش ويبشّ، ويطيل المدح، فإذا لجأ إلى النقد ساقَه فى ثوب حريرى لايخدش سامعه، فهو إلى الإيماء السريع أقرب منه إلى التصريح الواضح، فيحظى بإعجاب الناشئة، وينشرون عنه أحاديث الريادة لسماحته ولطف المحضر، وكنت أقارن بين مسلك شكرى ومسلك مطران فأودّ لو خفف شكرى من غلوائه، ولكنْ هيهات، وأذكر أن الشاعر الكبير كان ناظرًا لإحدى المدارس الثانوية وبين مدرسيها شاعر مرموق تعرفه الصحافة الأدبيّة عن جدارة، فعرَضَ قصيدة له على الأستاذ شكرى، فوجد نقداً موضوعيا ضاق به حتى أنه لم يعرض عليه شيئًا مما قال، وظل يحمل نحوه عاطفة غاضبة، ثم نشر الشاعر المدرس قصيدة بجريدة الأهرام قرأها شكرى فى مكتبه، قراءة جيدة تستحق التفريظ، فبادرَ باستدعائه، وأثنىَ على قصيدته الجديدة ثناءً مفرطاً، فتأكّد الشاعر الشاب أن الناقد موضوعى، وأنه لاينقد لذات النقد، وتحولت عاطفة السخط إلى حب وتقدير.

العقيدة الشعرية

ثم تابع الأستاذ عبد الحكيم الجهنى يقول:

لن أنسى يومًا غضب فيه الأستاذ شكرى علىّ غضبًا شديدًا، إذ كان مما وقعت فيه بحسنِ نيّة، أن زميلاً من مراسلى الأهرام فى الثغر يتعاطى الأدب، وينشر شذرات موجزة عن أمور عامة فى الصحف، وقد جاءنى ذات يوم، وطلب منّى أن أرثيه، ليبعث بالرثاء إلى مجلة الرسالة، ثم يصدر تكذيبًا بعد ذلك، فتثير المسألة ضجة حول اسمه، وقد لبيت الطلب، ونظمت خمسة أبيات قلت فيها:

على (....) يبكى قارئوه | فقد عَرفوا له صدق الزماع
تنسّك فى اليفاعة للأمالى | وأخبت فى الشبيبة لليراع
فكانَ بجدِه كهلاً وشيخا | يعيش كفاء أعمار تباع
له صُغرى عجالاتٍ وضاء | وكُبْرَى ذات حسن وامتناع
فوا أسفى عليه وقد توارى | وراء الغيب كالشفق المشاع

سارعَ الأديب فنشر الأبيات بالبريد الأدبى بمجلة الرسالة[1] فى خطاب بتوقيع مجهول، ولكنّه عزَا الأبيات للأستاذ عبد اللطيف النشار، ولم ينسبها إلىّ، فتضايقت، ثم لقيت الأستاذ شكرى مصادفة فأخبرته بما كان فلم أتحمّل ثورته الهائجة علىّ، حينَ هاج: الشعر كرامة، وليس مظنة سفه واحتيال، والشاعر نبىٌ فى قومه يهديهم إلى المثل الأعلى، وما اقترفتَه إرضاءً لصديقك يطردك من عالم الشعر، ويجعلُك نظّامًا وصوليّا، كمن يرتزق بالشعر الغث! هل هانت كرامة الوحى الأدبى إلى حد التلفيق والكذب وتشويه الحقائق!! أين العقيدة الأدبية؟ أين العقيدة الأدبية! وإزاء ثورة شكرى لم أنبس بحرف، وجعلت أقول: ليتنى ما نطقت.

---

(١) الرسالة العدد (٦٦٥) ـ ١ / ٤ / ١٩٤٦م /د. محمد رجب البيومى).

عند بحر مويس

بحر مويس نهر صغير يشق مدينة الزقازيق، وقد رآه الأستاذ شكرى لأول مرّة عندما عُيِّنَ ناظرًا لمدرسة الزقازيق الثانوية، وكان الوقت وقت العزوب! فنظم قصيدة فيما رأى، ولم أكن أعلم مناسبتها حتى حدثنى الاستاذ الجهنى عنها، فقال: إن الشاعر الكبير ذكَر له أنّه حين رأى بحر مويس عند الغروب لأول مرة، وحوله غيل من الشجر المتكاثف، ظن أنه رأى هذا المشهد من قبل، وتجسّد هذا الظن فى وهمه حتّى قرب من الحقيقة، مع أنهّ لم ير الزقازيق قبل اليوم، ثم جَعل يتساءل: هل كنا أحياء منذ آلاف القرون؟ وعبرنا هذا الطريق، كما نعبره الآن؟ إن ما أتخيله موضع ظّن جاد لدىّ، ولكنه دون دليل، ومابرح هذا الخاطر يراود الشاعر الكبير حتى جرى لسانه بهذه الأبيات:

كم خشع العابر من قبلنا ... على ضفاف النهر وقت الأصيلْ
وربما كنا الأُلَى قد مضوا ... وإن نأى الظن وعز الدليلْ
كم منظرٍ تحسب إمّا بدا ... من أخذة الفكر ووهم الذهولْ
أنك ـ والقلب خبير به ـ ... أجلْتَ قدْماً فيه لحظ المجيلْ

وهو قول يصوّر لنا كيف يتخيل الشاعر، بل كيف يتوهم، ثم يرجح ثم يقول! ولو ذَكرَ كبار الشعراء مناسبات قصائدهم لوقفنا على خواطر بعيدة أوحت لهم بما مزج بين الواقع والخيال..

وبعد، أفيكون فى هذه الذكريات مايشفع لنشرها؟ أرجو.

* * *

لاروشفوكولد ـ ليوباردى ـ شوبنهور[1]

ـ ١ ـ

إن علم النفس من العلوم الحديثة، ولكن وصف النفس الإنسانية ومحاولة كشف مجاهلها ومخبآتها أمر قديم عالجه الشعراء والكتّاب فى كل قوم، ولكن لعلهم لم يبلغوا من الصراحة مبلغ النظريات والنظرات التى بلغها سيجموند فرويد وأمثاله، وإن كان لكل مفكر نصيب وطابع خاص فى الصراحة. ولانظن أن أديبًا أو مفكرًا أعفى النفس الإنسانية من تطلعه إلى غرائب أمورها أو الأمور المألوفة التى هى فى منزلة الغرائب لانزوائها فى ظلمات النسيان كلما رأت النفس فى ذلك النسيان مأربًا لها، ولكن نفعها بتذكيرها علم وفهم. ولعلَّ بعض ذوى الفهم والزكانة، يرى فى فهم النفس فى نزعاتها وخواطرها، سبيل رقيها وتخلصها من شوائبها، وربما غالوا فى أثر الفهم فى العاطفة والنزعة والطبع وأملوا منه أكثر مما يستطاع جنيه من ثمرات أثر لطف الفهم فى لطافة الحس والنفس ورقتهما. ولكن ما لاريب فيه أنَّ جهل النفس صفاتها وطبائعها هو العمى الروحانى، وهو مصدر شر فى ذاته بما يؤدى إليه من بلادة الطبع والإمعان فى قسوته والاسترسال فى حمقه. ومن الأدباء المفكرين الذين لهم نصيب من بحث النفس ـ على سبيل التفكير والتأمل لاعلى طريقة القصص فى التصوير ـ لاروشفوكولد النبيل الفرنسى، وليوباردى النبيل الإيطالى، وشوبنهور الفيلسوف الألمانى، ولكل منهم نظرات صائبة، وكانت فى حياة كل منهم عوامل أدت إلى التفكير فى النفس والصراحة فى القول وإلى الإلمام بمكنونات النفوس ومعروضاتها من غرائز ونزعات وصفات، فقد سخط الأول على حكومة أمته

(١) المقتطف ـ اغسطس سنة ١٩٤٧.

وضرب بسهم فى حرب الفروند، وجرح فى حصار باريس، ونُفى إلى الريف. فكان عائشًا بين المؤتمرين، وخالط أناسًا من طبائع مختلفة ودرس أطماعهم وأطماع نفسه. ولعلّ نفيه إلى الريف أعطاه فرصة وفراغًا كى يعيد على فكره ما وعاه من طبائع الناس فى حياته العملية وما وصل إلى علمه من حيَل رجال القصر الملكى ونسائه ودسائسهم وحبهم وبغضهم وحبهنّ وبغضهنّ. وكل ذلك كان مادَّة يستمد منها نظراته. أمَّا الثانى وهو ليوباردى فقط كان معاصرًا لشوبنهور ومات قبله ولو أنه كان أصغر منه سنا، وكان من أسرة نبيلة فقيرة. وقد أنهك نفسه وجنى على صحته بالإسراف فى القراءة والاطلاع حتى صار يعد حجة فى الأدب على حداثة سنه، وقد سمح له أبوه بعد تمنع شديد وتأب كثير أن يرحل إلى المدن الإيطالية الكبيرة، وأن يُعاشر الناس. ولم تكن إيطاليا قد وحّدت بعد، بل كانت تتحكم فى دويلاتها حكومات رجعية تشجع التجسس والدسائس والتلفيق. فبدا له ما يبدو للرجل المفرط فى الفطانة من طبائع الناس؛ لأنه درس نفوس الناس فى كتب الأدب حتى اعتلّ وصار لايستطيع لاعتلاله أن يجاريهم، ولا أن يماشيهم لأنه لم يتعوَّد من صغره أن يألف تلك الطبائع كى يهوِّن عليه بعض المكروه منها؛ إذْ أنه كان كالمحجور فى بيت أبيه، وكل هذه الأسباب مهدت وسائل كشفه مكاره النفس وصفاتها التى تغالط فيها.

وأمَّا شوبنهور فقد رحل أجداده من هولانده إلى ألمانيا وصاروا من أهلها. وكان أبوه من التجار وقد أراد أن يكون ابنه تاجرًا مثله، وأرسله فى رحلة إلى فرنسا ثم إلى إنجلترا. وقد قارن الفتى بين حرية الفرنسيين فى حياتهم الاجتماعية ومغالاة الإنجليز فى ذلك الزمن فى مراعاة العرف والتقاليد. ولعلَّ هذه المقارنة هيأت للفتى دراسة طبائع النفوس فى حالى تبذلها واحتشامها. وقد ورث عن أبيه حدَّة فى الطبع، كما ورث عن أمه الميل إلى دراسة النفوس؛ إذ كانت أمه أديبة قصصية مفكرة. وهذا بالرغم من أنه لم يكن على وفاق معها، وقد شجعه جوته كبير شعراء وأدباء الألمان، كما شجعه فاجنر الموسيقى وغيرهما. وكان غزير الاطلاع لم يكتف بالآداب الأوربية، بل درس الفلسفة الشرقية، ولاسيما

الهندية، كما درس عقائد الهنود. وكان لايحجم عن البحث فى دخائل نفسه، كما يبحث دخائل نفوس الناس، وفيما يلى بعض نظرات هؤلاء المفكرين مع التعقيب عليها.

من نظرات لاروشفوكولد

١ ـ بعض الناس إذا مات كان إحساس الناس بافتقاده أعظم من إحساسهم بالحزن عليه، وبعضهم إذا مات كان إحساس الناس بالحزن عليه أعظم من إحساسهم بافتقاده. والحزن على هالك لايكون على قدر الانتفاع به، بل على قدر الائتناس به والراحة فى مخالطته. وفى هذا الباب استثناء ولا كالاستثناء، مثل ذلك حزن من لاعائل له غير المفقود، ومن انقطعت عنه الأسباب والحيل ووسائل كسب الرزق، وحزن أمثال هذا إنما يكون حزنًا على أنفسهم لا على المفقود إلاّ إذا كان مما يرجى للائتناس بعشرته ولطف أساليبه فى الحياة.

٢ ـ أكثر الناس لهم فضائل خفية لاتظهر إلا بالتجربة وفى حالات مرتبة لتلك الفضائل. فهم مثل الأعشاب الطبية، التى تظهر فضائل طبِّها بالتجربة وفى حالات خاصة ـ وهذا صحيح، ويجوز أن يقال فى كل إنسان فإنك قد تعرف إنسانًا لاخير فيه ولا فضل له فإذا عرضت له حالات غير منظورة رأيت له شيئاً من الفضل يدهشك فتلح فى إنكاره؛ لأنه لايتفق وما تعرف من طباعه التى جبل عليها، وما ذلك الإنكار إلاّ لأن المفكر ينسى أن النفس الإنسانية مستقر كل فضل وإن غاب، وقرارة كل نقص وإن رسب، وإنما يلبيها من هذا وذاك فى أكثر الأحايين ما اعتادته وسهل عليها إيراده وعمله.

٣ ـ قد يفخر الناس بعيوبهم ويجهرون بالمباهاة بها، كما يفخر شارب الخمر بقدرته على شرب الكثير منها، أو كما قد يفخر مواقع الشهوات بقدرته عليها وبما ظفر منها، أو كما قد يفخر الآخذ بالثأر أو الذى يدفع الشر بشر أعظم. وقد يفخر غير هؤلاء بعيوبهم إلاّ الحسود فإنه يخجل أن يفتخر بلؤم الحسد، فإذا افتخر حمل ماظهر منه على سبب آخر غير الحسد، فيحمله على الغضب للحق والغيرة على الصدق والصواب أو الانتصار للعدل الخ.

٤ ـ الاعتراف بالجميل المصنوع معك هو الدَّيْنُ الذى تدفعه كى تعود فتستدين فتجد من يقرضك. وليس ذلك الاعتراف من أجل أنك تراه فرضًا واجب الأداء، وفضيلة تحبها لذاتها من غير مأرب آخر. وهذا من السخر الكثير الذى نجده فى نظرات هذا المفكر. ولك أن ترفض هذا الرأى فى حالات. ولكن ينبغى لك الاعتراف بأنه يصدق فى أكثر الناس؛ لأن النفس طبعت على الأثرة، وهى تتخلى عن أثرتها إذا تخلت؛ لأنها تجد أو تأمل أن تجد مسرة ونفعاً، والمسرة نفع أيضاً. ولعله يعنى أداء ما يتطلبه الاعتراف بالجميل؛ إذ أن بعض الناس قد يعترف بجميل لم يصنَع معه رغبة فى الحث عليه واستعجاله وتَصَيُّداً لأوجه الخير من الناس.

٥ ـ بعض فضل أهل الفضل ممجوج ثقيل، كما أن عيوب بعض الناس ونقائصهم قد تستملح وتستلطف فتغتفر؛ وما ذلك إلاَّ لأن ظاهر المرء مفضَّل لدى الناس على حقيقته، وأسلوبه فى ملاطفتهم ومعاشرتهم مُقَدَّم على فضله.

٦ ـ لولا مخادعة الناس بعضهم بعضًا ما استطاع الناس أن يعاشر بعضهم بعضًا. وهذا صحيح. ومن أجل ذلك قد يكره الناس من لاينخدع لهم بلباقة أو يدعى الانخداع فى أمور كثيرة. هذا إلاَّ إذا كان انخداعه دليلاً على البلاهة، فيرون أنه لافضل له فى ذلك الانخداع، وأنه خليق بالهزء والاحتقار.

٧ ـ بعض الناس لاتظهر مهارتهم ولايظهر فضلهم إلاَّ إذا اقتصروا على قول الأقوال التافهة بأسلوب لبق، وإلاَّ إذا اقتصروا على عمل من الأعمال الهينة بأناقة محبوبة تُغْنى عن مطالبتهم بما هو فوق ذلك. ومن أجل صحة هذا الرأى قد تتعجب لنجاح أناس فى الحياة نجاحًا لايتفق مع عظم قدره وقلة ما يعرفون. أما قول الناس إن الخيبة فى الأمر العظيم أعظم من النجاح فى الأمر الهين، فقد يكون صحيحاً مشجعًا على محاولة عظائم الأمور، ولكن أكثر الناس يهمهم النجاح فى الحياة، ولا يستطيعون أن يسيغوا الخيبة.

٨ ـ قد يفعل الناس الخير. رغبة فى التستر وراءه كى يعملوا الشر آمنين. فليس عملهم الخير فى هذه الحالات من حبهم للخير. وهذا سخر لاذع، ولكنه حقيقة مشهودة.

٩ ـ الكسل والكبْر يحملان أكثر الناس على الميل إلى اعتقاد النقص في غيرهم من غير بحث أو دليل ـ وهناك أسباب أخرى منها أن الناس ترى أن ما ينقص من قدر غيرهم يزيد في قدرهم. ومنها معرفتهم أن النقص شامل للنفوس البشرية كلها محتمل فيها، وبين الاحتمال والحقيقة وبين الجواز والوقوع خطوة فى نظرهم لاتكلفهم تعبًا ولا نصبًا. ومن الأسباب أيضًا أن الناس من قديم الزمن كانت خطتهم نقل نقصهم إلى نفوس غيرهم بل إلى حيوان أو جماد إذا لم يكن إنسانًا. وكانت لهذا النقل شعائر ورسوم عند البدائيين، وقد وصفها سيجموند فرويد فى كتاب الطوطم والطابو أو المقدَّس والمحرَّم.

١٠ـ إذا اعترف إنسان بخطئه فكثيرًا مايكون ذلك رغبة فى إصلاح ضرر أصابه من ذلك الخطأ ونيل إعجاب الناس، لاحبا للصواب واقتناعًا به أو قد تقنعه المنفعة المرجوة، وإلاّ بقى على عماه لايدرك وجه الخطأ، ولايستطيع أن يقنعه دليل منطقى. ومما يسهل هذه الغفلة عن الخطأ النفسى أن النفس كما قال سيجموند فرويد فى كتاب العلل النفسية فى الحياة اليومية: تستطيع أن تنسى ما ترى نسيانه من أمرها رينًا، فإذا لم يكن سبيل إلى ذلك النسيان ورأت فى الاعتراف بالخطأ فضلاً ونفعاً لدى الناس وإعجابًا، أقدمت على الاعتراف بالخطأ مطمئنة.

١١ـ بعض العظماء ليس من المُستطاع الإعجاب بعظمتهم إلاّ على بعد، كالصور الفنية قد لايستطاع إدراك جمالها الفنى إلاّ إذا ابتعدت عنها. وهذا تشبيه بديع؛ لأن دقائق الألوان والخطوط وتفاصيلها قد تعوق عن إدراك القدرة الفنية التى بها استطاع الراسم رسمها، ومن جهة أخرى يستطاع تشبيه جمال هذه العظمة على بعد بجمال المناظر الطبيعية، فإنك قد ترى وأنت على ظهر سفينة جزيرة كأنها جنة غناء فيحاء، فإذا نزلت إلى البر وجدت الذباب والأقذار والوحل وماهو أشد على النفس من ذلك. والظاهر أن مؤلفى كتب سير العظماء والمشهورين فى هذا العصر يخالفون هذا الرأى، ويرون أنه يستعصى إدراك عمل العظيم وتمام فهمه إلاّ إذا عرض فى مباذله أو نقائصه عرضًا تاما، فهم يحاولون الوصول إلى أعماق نفسه ووعيه الباطن، متناسين وصف سيجموند فرويد للوعى الباطن، ولعلّ فى علمهم هذا أيضًا شيئًا من الحسد والانتقام من غير أن يشعروا

به كحسد القبائل البدائية التى فى كتاب الطوطم والطابو، والأقوام الذين كانوا فى محفل تقديس ملكهم الجديد يربئون به أن يمسّ بأيديهم لأنه مقدس، فكانوا يمسونه بأطراف قضبان، لكن هذا المسّ المقدس كان يتحول من غير أن يفطنوا إلى ضرب قد يُؤدِى بحياة الملك حسدًا له على منزلته وما بلغ من جلالة المُلْك.

ومن نظرات ليوباردى مايلى:

١ ـ المخادع الماهر هو الذى لايظن أن كل الناس يسهل خداعهم على كل حال، بل يعرف أن من الناس من يتظاهر بالانخداع حتى يعرف غاية المخادع ويكشف أمره. أما المخادع غير اللّبِق فإنه يستسهل خداع الناس، فلا يتخذ أهبته لإتقان الخداع. ومن أجل ذلك كثيراً ما يكون المخادع مخدوعًا. وهذا صحيح ومن أجل ذلك قد يكون خداع الرجل الأبله مضحكًا وخداع الساذج مكشوفًا لجميع الناس إلاّ لصاحبه، فهو وحده المخدوع به. على أن للمسألة وجهًا آخر، وهو أن نجاح المخادع غير موقوف على مهارته وسذاجة الناس فحسب، بل على رغبة الناس فى أن ينخدعوا. وهذه الرغبة تكون لأسباب متعددة، فالغرور قد يؤدى بصاحبه إلى احتقار كفاية المخادع، فلايراه ينهض له بخداع متقن. واعتقاد الصدق وسلامة النية فى المخادع قد يعمى عن خداعه. والرغبة فى الائتناس بالمخادع قد تسهل له إتقان خداعه. والفائدة المرجوة منه قد تذهب بحذر المحاذر منه. ومن أجل هذه الأسباب وغيرها قد يخدع المرء من هو أذكى منه، وقد يخيب الذكى اللبق فى خداع من هو أقل منه فطنة.

٢ ـ كثير من الناس يسيئون إليك، ثم يأبون أن تقابل الإساءة بمثلها. وهذا شائع حتى إن بعضهم ينسى أساءته إليك ويرى من اللؤم أن تتذكرها، ومن النذالة أن تتألم بسببها، ومن الحقد ألا تقبلها بصدر رحب. فإذا لم تفعل عد المسيء نفسه مُسَاءً إليه، وهذا الطبع من وسائل الناس ومغالطاتهم فى أمور الحياة حتى يظفروا بما يشاءون.

٣ ـ بعض الناس يعيشون طول حياتهم وهم معروفون بالنبل والكرم والشرف؛ وذلك لأنهم لم يقابلهم فى حياتهم مايضطرهم إلى أن يتخلوا عن نبلهم وكرمهم وشرفهم، ولكنهم لو أحرجوا وأُحْوِجوا إلى ذلك التخلى

لاستطاعوا أن يبذوا الأوغاد واللؤماء فى لؤمهم. فهؤلاء نبلاء النفوس؛ لأنهم ليسوا فى حاجة إلى أن يكونوا لؤماء، وهذا الرأى يذكرنا قول البحترى:

إذا أحرجتَ ذا كرم تخطى إليك ببعض أخلاق اللئام

٤ ـ عرفت طفلاً كان يقول إذا لم تجب أمه طلبه وإذا منعته من شىء: «آه، ماما الآن تحب الخبث والعناد. أو ماما مولعة بالشر» ولو فطن الناس إلى أحكامهم التى يحكمون بها على جيرانهم وأصدقائهم وأعدائهم لوجدوا أنها من هذا القبيل فإذا مَدَحنَا إنسان واسترضانا وكنا نعده قبل ذلك وغدًا، عدنا نقول: إنه ليس بوغد إلى الحد الذى كنا نظن أو أنه عرف الحق فرجع إليه، والرجوع إلى الحق فضيلة فهو من أهل الفضيلة، إلى آخر مايكون من أمثال ذلك.

٥ ـ إن صاحب النقص لايكون خليقًا بسخر الناس منه والزراية عليه ومبالغتهم فى ذلك إلاّ إذا بالغ فى تكلف ضده، كالشيخ الذى يتكلف أخلاق الغلمان وطباعهم وعاداتهم وهيئتهم. أو كالفقير الذى يحاكى الأغنياء، أو كالجاهل الذى يظهر بمظهر العالم المتكلم، أو كالريفى الذى يحاول أن يقنع مجالسه أنه متقن عادات أهل الحضر وأنه منهم حذوك النعل بالنعل. وهذا يصدق أيضًا فى تكلف إخفاء العيوب الجثمانية بما لايخفيها بل يزيدها وضوحًا وينم عنها.

٦ ـ كثير من الناس يريدون أن يكسبوا الشهرة بعمل الخير من غير كلفة أو مئونة. ومن أجل ذلك قد يعرضون أن يصنعوا الخير لإنسان اعتماداً على أن تعففه أو زهده أو حياءه أو قناعته أو شيئاً من أمثال كل ذلك يمنعه من قبول ما يعرضون عليه من المعونة، فيكتفى بشكرهم وبمدحهم لدى الناس وأن يذيع أنهم من أهل الخير. فإذا خيب ظنهم وقبل معونتهم وورطهم بذلك القبول، تغير لونهم وتلجلجوا فى الحديث، وقد يضمرون له المقت والضغينة ثم يغيرون موضوع الحديث، وإنما مثل هؤلاء مثل من يدعون الناس إلى وليمة ولم يعدوا وليمة وليست عندهم مادتها، وإنما يختلفون عن أصحاب الوليمة الموهومة فى أن ذاك سعى إلى خير، وهذا إلى طعام.

٧ ـ من الغريب أنه فى أكثر لغات العالم يطلق الناس اللفظ الذى يدل على الفضيلة لما يدل على البلاهة، فتراهم يضحكون ويقولون: فلان رجل طيب ـ على نياته ـ وهم يريدون أنه أبله ـ أليس هذا مما يدل على اعتقادهم أن الطيبة وحب الخير وسلامة النية أدلة على البله، وأن عكس ذلك دليل على الفطنة، فهم يكشفون عن سريرتهم وسريرة الناس من حيث لايشعرون.

٨ ـ أفراد الناس فى الهيئة الاجتماعية مثل ذرات المادة فى الكون: كل ذرة تقاوم وتضغط على ما يليها من الذرات، فتؤثر بهذا الضغط المتسلسل فى الذرات البعيدة، وهذه تؤثر فيها بضغطها المتنقل المتسلسل، فإذا بطلت مقاومة ذرة فى مكان ما انجذبت جميع الذرات من كل ناحية إلى ذلك المكان، فتسحق الذرة التى بطلت مقاومتها، وتحل غيرها مكانها. وهكذا الناس فى الحياة.

٩ ـ إن من عاشر الناس واشترك فى حوادث حياتهم كثيراً مايرى فيها مالو كتب قصة عده القارئ مبالغة من نسج الخيال الجامح، وأبى أن يصدق أنها من حوادث حياتهم؛ ولذلك قيل إن الحياة قد تكون أغرب من الخيال، وقارئ تلك القصة قد يعدها نابية عن أصول الفن الذى يرخص فى الخيال المهذب القريب من المعقول، ويقول إنها تعدت الخيال القريب المعقول، وما هى إلاّ قطعة من الحياة. وهذا يدل على أن تناقض أخلاق النفس أكثر فى الواقع مما تظن. ومن أجل ذلك قال كاتب حديث وهو سمرست موام: إن مهارة القصصى فى تقليم الحقيقة وتنسيقها ونفى المبالغة فيها والتأليف بين المتناقضين تأليفًا يزيل وحشة الخلاف وشك الغرابة، ويفسر اجتماعهما، ويلطف من حماقات النفوس وفجاءاتها غير المألوفة.

ومن نظرات شوبنهور مايلى:

١ ـ كثيراً ما ينطق الإنسان بأقوال قد تضره معرفة الناس لها، ولكن قلما ينطق بما يجعله أهلاً للهزء والسخر. وهذا صحيح؛ لأن الإنسان بطبعه حيوان معجبٌ بنفسه. ولكنه قد يكون مغرمًا بالظهور بين الناس ـ وهذا نوع آخر من الإعجاب بالنفس ـ فيؤدى به حب الظهور إلى أن يجعل نفسه أضحوكة، إذا لم يجد سبيلاً آخر إلى الظهور.

٢ ـ قد يتألم المرء من ظلم وقع به أو إهانة صغيرة مقصودة كانت أم غير مقصودة أكثر من تألمه من مصائب القضاء والقدر؛ لأن مصائب القضاء والقدر عامة ولا إهانة فيها ولا استعلاء إنسان على إنسان. أما الظلم أو الإهانة فإنها دليل على ظهور إنسان على إنسان باللسان وحده أو بالقوة أو بالمكر والحيلة فتُشْعر بالمذلة والنقص وتدعو إلى التفكير فى الانتقام وتزيد حقيقة الإهانة والظلم فى الذهن حتى لاتطاق. وقد يقدم المرء على الانتقام حتى ولو كان فيه أضعاف أضعاف مافى ذلك الظلم أو الإهانة من المضرة. وقد يؤدى انتقامه إلى ضياع حياته وهو يردد قول شمشون (علىَّ وعلى أعدائى يارب) ثم هو قد لايلتذ الانتقام وإن فاز به، بل قد يجد له مرارة وحسرة.

٣ ـ كثيراً ما يكون تجسس إنسان على إنسان لمعرفة أسراره سببه الحسد أو الملل والسأم. فهو قد يحسد إذ يعتقد أن إنسانًا نال من أطايب الحياة وملذاتها، أو مايعده المتجسس ملذات وأطايب أكثر مما ناله ذلك المتجسس، فيلاحقه ويأخذ عليه نظراته وكلماته وأعماله فى خلواته وجلواته، وكثيراً ماتكون الضجة التى يدعى فيها الأشرار نصرة الفضيلة من نوع هذا الحسد.

٤ ـ فى بعض الأحايين نود أن يحدث أمر، ونود ألا يحدث وألا يكون، فتجتمع فى النفس رغبتان متناقضتان فى وقت واحد، فمثلاً إذا كان لابدّ أن نؤدى اختباراً فى أمر من أمور الحياة كى نصير ظاهرين مسرورين فإن الرغبة فى الظفر والمسرة تغرينا بأن نود اقتراب موعد ذلك الاختبار، ولكن الخوف من الخيبة يغرينا أن نود لو تأخر موعد الاختبار، فإذا اتفق حدوث ما يؤخر ميعاده كأننا نحس بحسرة وأسف فمسرة لتجنب احتمال الخيبة مدة من الزمن، وأسف لتأخر ميعاد النجاح، والفوز بما نريد. وكثيراً ما يتوهم الناس أن اجتماع الضدين فى النفس فى وقت واحد أمر محال وهو ليس كذلك، وقد فسّر سيجموند فرويد هذه الأحاسيس الثنائية المزدوجة فى كتاب الطوطم والطابو أى المقدس والمحرّم، ووصفها عند الأقوام البدائيين.

٥ ـ لايستطيع الإنسان أن يعرف مقدار ما فى نفسه من الصبر والجلد على تحمل الألم، ومن القدرة على العمل العظيم أو على مكافحة الخطوب إلاّ إذا

أتيحت له فرصة لاختبار نفسه، وقد تظهر فى بعض النفوس قوًى كانت كامنة، وكانت لا يعترف أحد لها بها حتى صاحب النفس قد تدهشه قواه الخفية إذا ظهرت، وإنما مثل الإنسان أمام نفسه مثل الناظر إلى بحيرة هادئة مصقولة كالمرآة ليس بها موج، فلايستطيع الرائى أن يدرس عظم أمواجها التى تحاول أن تهشم الصخور، وذلك إذا هبت عليها الأعاصير، وبعض من يخاف وقع الخطوب قادر على مجالدتها ومناهضتها، وقد يعجز بعض من يخافها كما قد يعجز بعض من يبدى شجاعة فى الأمور اليومية الصغيرة ولا تتعبُ حنجرته من وصف شجاعته. فإذا اختبرته الخطوب والمصائب ذلّ وضعف.

٦ ـ فى أكثر لغات العالم اصطلح الناس على أن الصفات الشائعة بينهم صفات احتقار، فيقولون هذا أمر «شائع وعمومى ومبتذل ومشترك ومطروق ومألوف ومعروف. ويقولون فلان من العامة ومن الدهماء إلى آخر ما هناك من المترادفات» وهذا الاصطلاح فى اللغات دليل واعتراف على أن الفضل غير شائع بينهم، بل يشذ به الآحاد، وأنهم إنما يشتركون فى النقص.

٧ ـ بُعْدُ مكان الشيء يصغّر من حجمه ويخفى معايبه، وهذا مثل العدسة التى تصغِّر أحجام الأشياء. أمّا العدسة التى تكبِّر الأحجام فإنها تكبّر ما خفى من العيوب. وماضى الحياة يتأثر ببعده حتى تصغر متاعبه وحتى تألف الذكرى حسناته وتتغاضى عن سيئاته. أمّا الزمن الحاضر فلا ميزة له من هذه الناحية؛ لأن الشيء الصغير يبدو كبيرًا إذا كان قريبًا حتى أنه قد يحجب عن النظر ماهو أكبر منه حجمًا وأبعد مكانًا، ومن أجل ذلك تبدو متاعب الحياة اليومية شاقة عظيمة خطيرة، فتشغلنا وتثير قلقنا وأحاسيسنا المختلفة إلى أعظم حدّ ودرجة. ولكن إذا حملها الزّمن فى تيّاره وابتعدت عنا صارت حقيرة صغيرة، وقد ينساها الإنسان بعد أن شغلته وشقت عليه.

٨ ـ الإنسان يَتّبِع ما دُرِّب عليه من الصغر ويعتقده ويسير على نهجه. وكثير من الناس يدربون على لون واحد من ألوان فضيلة من الفضائل وينزهون أنفسهم عما يقابلها من الرذيلة فى شكل واحد دون جميع أشكالها ومعارضيها. فإن التجار من أصحاب الدكاكين ينزهون أنفسهم عن قطع الطريق وعن التلصص ليلاً

والسطو على المنازل للسرقة، ثم يحسبون أنهم قد جمعوا جميع أصناف النزاهة، فإذا اتهمت أحدهم بالسرقة شقّ عليه ذلك، مع أنه قد يغش المشترى فى الثمن أو صنف البضاعة، فيكون سارقًا من غير شك. ولكنه لايعد نفسه سارقًا، بل يرى أنه منزه عن السرقة. وقس على ذلك فضائل الناس ورذائلهم فى أحوال الحياة المختلفة. وشبيهٌ بذلك أن الرجل الموصوف بالشجاعة قد تكون شجاعته مقصورة على أمور دون أمور، وكذلك الجبن.

٩ ـ الأمل هو تحول الرغبة فى حدوث شىء إلى توقع حدوثه، حتى لقد يكون التوقع قريبًا منظوراً بالرغم من أن فرص احتمال الحدوث فرصة فى الألف أو فى مئات الآلاف، كما فى توقع الكسب من أوراق اليانصيب.

١٠ـ قد نرى أشجاراً على بعد فنعجب لجمالها، فإذا اقتربنا منها وجدناها شيئًا مألوفًا لا كما صورّت لنا. وهذا مثل سعادة أكثر الناس، فإنا نرى سعادة السعداء على بعد ونغبطهم عليها، فإذا اقتربنا منها وبحثناها زالت روعتها أو أكثر بهجتها؛ لما فى حياتهم من آلام ومتاعب وأمراض ومشكلات، فإن السعداء غير مُعْفَيْنَ من هذه الأمور بل يشاركون الناس فيها.

١١ ـ من أسباب خطئنا فى الحكم على الناس أننا نفرض وجود الصفات المتجانسة. فمثلاً نرى الكرم: فننسب إليهم النزاهة والشرف والنبل، وننسى أنها قد تجتمع، وقد لاتجتمع، ونرى الكذب: فننسب إليهم المكر والغش والاختلاس والسرقة، وقد لاتجتمع.

* * *

من نظرات لاروشفوكولد[1]

ـ ٢ ـ

١ ـ ماكانت الفضائل تستطيع أن تغزو لها مكانًا فى العالم كما غزت، لولا أنها كثيراً ماتكون ممزوجة فى أنفس أصحابها بشيءٍ من الإعجاب بالنفس يذيع دعوتها، ويعلن عن شأنها، ويكافح من أجلها وأجل أصحابها ـ وقد يختلط الإعجاب بالنفس بالإعجاب بتلك الفضائل، فهو وإن كان يهيئ لها جنداً وأعوانًا، فإنه كثيراً ما ينقص من طهارتها، وكمال نبلها، أو قد يقضى عليها بما يدعو إليه الإعجاب بالنفس من شرور الأثرة. فإن المرء قد يرتكب الجرائم ويؤذى من خالفه؛ لأنه يعد مخالفه أو عدوه مخالفًا وعدوا للفضيلة ومناصره مناصراً لها، وإن قلَّ حظه منها.

٢ ـ إذا أسفنا لنَبْوةِ مَنْ نَبا عنَّا فإننا قلما نأسف لافتقاد المتُعةِ بعقله وأدبه، بل كثيراً ما نأسف لأننا فقدنا بفقده رمزاً يدل الناس على ثقة بعض الناس بنا وحسن رأيهم فى عشرتنا ورغبتهم فى أن يكونوا معنا ـ فنعتز بالأصدقاء فى أعين الناس ونزيد بهم قدراً وجاهًا، أى أن الأسف لنَبْوةِ صديق أساسها الأثرة وحب النفس ـ ولكن هذا الأساس لايمنع من أن تكون الفضيلة فضيلة، فكثيراً ما يختلط الإيثار بالأثرة فى النفس حتى عُدَّ مظهراً من مظاهرها إذْ أن النفس تنشد فى الإيثار شيئًا يرضيها ويريحها، بالرغم مما تتكلفه بسببه، وما يرضيها ويريحها منفعة لها وإن كانت مطلبًا نبيلاً.

---

(١) المقتطف ـ الجزء الخامس من المجلد الحادى عشر بعد المئة ١من ديسمبر سنة ١٩٤٧م ـ ١٩من المحرم سنة ١٣٦٧ هـ.

٣ ـ فى بعض الحالات يخالف المرء منهاج حياته ونفسه كما يخالف غيره من الناس؛ وذلك لتعدد نزعات النفس المتغايرة الخفية، ولكن الناس كثيراً ما يحكمون على المرء أنه يسير على وتيرة واحدة وطبع لايخالفه طبع، وصفة لا تغايرها صفة، وقلما يدركون تغيّره وخلافه لنفسه إلا إذا تغيروا له، وكان لهم مأرب فى تغيير حكمهم عليه، فإذا حدث ذلك ربما اتّهموه بمخادعتهم، وربما كانوا هم الذين خدعوا أنفسهم به. وسواء أفطنوا إلى أنهم هم الذين خدعوا أنفسهم أم لم يفطنوا فإنهم قد يحمّلونه جريرة قصر نظرهم أو خداعهم لأنفسهم طوعًا فيتضاعف ذنبه لديهم. وقد يكونون معذورين فى انخداعهم؛ لأن الحياة تفرض التجانس فى صفات النفس الواحدة؛ كى يسهل فهمها ومعاشرتها، حتى أن الصفات المتناقضة قد يكون بينها شىء من التشابه والانسجام والتجانس ما دامت فى النفس الواحدة.

٤ ـ فى بعض الأحايين يفضّل المرء أن يُحْرَمَ من أن يُنْسبَ إليه خير صنعه عن أن يعرف الناس الأسباب الحقيقية التى دعته إلى عمل ذلك الخير، فيظهر من الأسباب غيرما يبطن.

٥ ـ لعلَّ أعظم النجاح فى المهارة التى بها يقنع الماهر الناس أنهم لايستطيعون ضرره من غير أن يصيبهم ضرر فيهابونه ويتجنبون أذاه، وقد يسعون فيما ينفعه هيبة واتقاءً لشره ـ ولكن لايستطيع كل إنسان إقناع الناس على هذه الطريقة، بل إنها قد تكون عاقبتها وخيمة لمن لايتقنها ومن لايعرف أساليبها ودهاءها ومستلزماتها؛ لأنه إذا خاب ولم يقنعهم أو إذا رأوا أنّهم يستطيعون أن يقضوا عليه وعلى وسائله بأن يبادروه بالعداء بادروه به وحاولوا القضاء عليه، وقد يفعلون؛ فإذًا ليس من الكياسة أن يَحسب المرء إظهاره العداء للناس أو تهديدهم كافيًا لنيل احترامهم وهيبتهم إياه.

٦ ـ من العيوب ما يمتزج بفضائل بعض الناس كما تمتزج العقاقير السامة فى الأدوية بمقادير لاتسم، على أنه لو حاول المرء وتعمد مزج فضله بعيوبه السامة قضى على فضله وفضيلته. إلاَّ أن الحياة نفسها قد تخرج من الشر خيرًا، كما أن بعض الخير قد يكون من عواقبه الشر.

٧ ـ من الصعب أن يحب إنسان إنسانًا تجرد من كل دواعى الاحترام. ومن الصعب أن يحب إنسان إنسانًا بذَّهُ وشآهُ. فالنفس تأبى فى أكثر الأحايين أن تحب من تجرد من كل دواعى الاحترام ومؤهلاته. ولكن أثرتها تأبى أن تحب من تستصغر أمرها وتزدرى شأنها عند استجلاء عظمته وعلو شأنه وإن كانت تحترمه سرًّا أو علانية، ولكن الحالات الشاذة قد توجد فى الأمرين.

٨ ـ من الصعب أن تحترم النفس من لاخير له ولا شر.

٩ ـ كثيرٌ من الناس عدُّوا من العظماء بالرغم من شرهم الكثير ـ وهذا يذكرنا قول هنرى هين الشاعر الألمانى «إن شجرة الإنسانية قلّما تذكِّر بالزارع الذى سقاها ورعاها، وإنما تذكِّر بالعادى الذى حفر اسمه على جذعها بمديته» ـ نعم إن سيرَ العظماء الذين شكلوا حوادث التاريخ والأمم ونشروا الحضارات كان يمازجها شر كثيْر مُسْرف، وهذا مشاهد فى حياة أمثال الإسكندر المقدونى ويوليوس قيصر، ونابليون بونابرت؛ ولكن إذا كان الناس فى بعض البيئات يرفعون المجرمين الذين يعبثون بالأمن إلى مراتب البطولة، فلا غرو أن يفعل الناس ذلك مع من صهروا الناس بنار حروبهم وأنزلوا بهم شرا كثيرًا إذا كانت عاقبة ذلك نشر الحضارات والآراء.

١٠ـ إن العظماء لايمتازون عن غيرهم من الناس بعظم فضائلهم، وإنما يمتازون عنهم بعظم ما يعملون وما يقولون ـ وهذه النظرة تفسِّر السابقة، وليس معناها أن العظماء أقل فضائل، وإنما يعنى أن الناس تتوقع خلوّهم من النقص خلوا تاما بسبب ما يبهرهم من آيات عظمتهم، أو أنهم يريدون توريطهم بمطالبتهم بتلك العصمة، أوْ أنّ بروزهم مما يبرز نقصهم، أو أن ما يزاولون من عمل الخير ربما جرَّ شرا ونقصًا.

من نظرات ليوباردى

١ ـ المكر ـ وهو من جهود العقل والذكاء ـ قد يلجأ إليه الماكر كى يُخفى نقص عقله وذكائه، وذكاء المكر هذا كثيراً مايلجأ إليه الناس فى البيئات التى حال فساد الحكام فيها دهراً طويلاً دون تعهد العقل بالتربية والتثقيف، فترى فيهم

الجهل وقلّة النّمو الفكرى والسذاجة وشيئًا من الغباء، ومع ذلك يرى أيضًا نوعًا من ذكاء المكر تعوضهم به الحياة عما فقدوه.

٢ ـ فى بعض البيئات التى بين الحضارة والهمجية إذا كان الرجل فقيرًا جدا احتقره فى سريرتهم مَن هم أحسن منه حالاً من الناس، حتّى يكاد يسقط وينزل فى نظرهم عن مرتبة الإنسان، وإذا كان غنيا لم يكنْ آمنًا على حياته بسبب الحسد والرغبة فيما عنده ـ وهذا صحيح فى البيئات التى يثرى فيها المرء باستخدام قوته أو احتياله أو سلاحه ويفاخر باستخدامها جميعًا، وفى هذه البيئات يحتقر الناس من يجبن عن استخدام القوة، أو السلاح أو الحيلة لدفع عادية الفقر الشديد، وكما يحتقرون مثل هذا الفقير فإنهم يجلون المجرم العابث بالأمن حتّى أنهم قد يلبسونه صفات البطولة والعظمة، وكثيرًا ماتتم هذه الصفات حيث لايجد المرء فرصة لنيل مايستحق بسبب المحاباة والظلم والرشوة واحتيال الحكام لتسخير أداة الحكم فى أغراضهم. وقد تكون هذه الصفات بسبب آثار حكم مضى، وعهد سابق وأحوال فى الحكم انقضت. وقد يكون العهد السابق والحكم الغابر قد خلف فى نفوس الحكام والمحكومين خصالاً مستعصية باقية.

٣ ـ فى بعض الأحايين يمدحنا مادح بسبب أعمال أو صفات طالما ذممناها فى غيرنا، فنسرع إلى مدح تلك الأعمال والصفات ـ ويحجم المرء عن المآثم والنقائص إذا خاف لوم الناس أو بغضهم أو ذمهم أو عقابهم، فإذا وجدهم يمدحون تلك المآثم والنقائص ويحبذونها ويزينونها أقدم عليها غير هياب ولا وجل، وهذا لا يمنعه من مؤاخذة غيره على مايفعل مثله إذا وجد لنفسه فائدةً، ولكنه يحاول أن يفرق بين عمله وعمل غيره، وإن لم يكن بينهما فرق.

٤ ـ أكثر ذوى الفضل كانوا على بساطة فى السلوك والعادات، ولكن من الغريب أن الناس تعد تلك البساطة دليلاً على قلّة الفضل والعقل ـ وذلك إما لأن تلك البساطة تشابه فى أذهانهم صفات الطفولة أو البلاهة، وإما لأن البساطة تنافى التكلف لهم الذى يُغرى بالظهور بالمظهر الذى يرضى رغباتهم وفوائدهم،

وهذا التكلف لهم، متبعُه مكرُ اللباقة الذى يعدونه أعظم مظاهر العقل ومزاياه، لأنه يحوطهم بما يشاءون، وكل هذا التكلف قد يخالف بساطة العظماء، ومن أجل ذلك يعدها الناس نقصًا فى الفضل والعقل.

٥ ـ مهما بلغ المرء من اشمئزازه من الدنيا وأحوالها بعد اختبارها، فإنها لو أومضت له وابتسمت ودعته إليها لبّاها وصالحها وابتسم لها بعد العبوس ورجع إلى الائتناس بها ولو بعض الرجوع، وكذلك حاله مع من يتودد إليه، ممن اختبرهم وساء رأيه فيهم، فإذا لم يعد لعشرتهم إذا توددوا له قلّ سوء رأيه فيهم.

٦ ـ يحسب المرء أنه إذا خاب، حزن أصدقاؤه ومعاشروه لخيبته، وإذا نجح فرحوا بنجاحه، ولو كُشِفَ له عن مكنون سرّهم لوجدَ فيه عكسَ ذلك فى كثير من الأحايين ـ أو على الأقل يجد بجانب الأسف لخيبته شعورًا بالمسرَّة، يخالطه مخالطة النقيض للنقيض وبجانب السرور لنجاحه شعورًا بالامتعاض والاستخذاء يناقضه، ولكنه يخالطه، وقد يجد ذلك حتّى عند أقاربه وعند مَن ينتفع بنجاحه ويخسر بخيبته من الناس؛ لأن النفس لاتستطيع أن تتغلّب على أثرتها كل التغلب وإن تغلبت على بعضها.

٧ ـ أكثر الناس لايخجلون من الأذى الذى يصنعونه للناس، وإنما يخجلون من الأذى الذى يصْنعه بهم غيرهم؛ لأنه ينقص من أقدارهم لدى أنفسهم ـ أما إذا خشى المرء أن يخجل إذا ظلم غيره فإنه يعمل على أن يُشْرك الناس فى ظلم المظلوم، فإذا نجح فى حمِل الناس على مشاركته فى ظلم المظلوم أمِن من الخجل ومن تانيب الضمير، ولقد كان الطغاة قديمًا يتخذون من الناس رجلاً يكون أداةً لتنفيذ ظلمهم، حتىّ إذا لم يَعُدْ صالحاً لتنْفيذه قضوْا عليه واتخذوا غيره، وبذلك ينالون أغراضهم كما ينالون حمد الناس إذا بطشوا بأداة ظلمهم.

٨ ـ الدنيا كالمرأة الجميلة المعشوقة لاينال الفتى لديها حظوة بالخجل والحياء فمن أراد أن يعلو حظّه، وجب عليه أن يؤَدِّع الحياء، وأن يكون لسانه بُوقًا يدعو الناس إلى الاعتراف بمزاياه الحقيقية أو المزعومة، أو أن يجد أناساً لهم رغبة

وفائدة فى أن يكونوا أبواقًا له، أما إذا انتظر حتى يسرع الناس للبحث عن فضله وإعلانه فإنه لن يَرى إلاّ مَن يُسْرِعُ إلى إخفائه.

٩ ـ لو حُوسب كلّ إنسان على مايقوله فى غيبة أصدقائه لما رضىَ أن يقولوا فيه مثل ما قال فيهم ـ فانّه مهما كان مخلصاً لهم لايسلم لسانهُ من سقطات فى غيبتهم لا تُرضيهم. وهو ـ بالرغم من ذلك ـ يُدْهَش إذا بلغه أنّ أحدهم قال فيه مثل ما قال فيهم، ويَعُدُّ نفسه مظلومًا لايجدُ جزاءَ إخلاصه وسلامته لهم فى غيبتهم.

١٠ـ قلما يكون البعيد عن الناس القليل الاختلاط بهم مُسيئاً الظن بهم، إلاَّ إذا كانت العزلة بعد المخالطة. فليس أسوأ رأى فى الناس مما يرسخُ فى النفس بقراءة الكتب التى تعلم سوء الظن بالناس، وإنما يكون هذا المقْتَبَسُ من الكتب كلامًا غير راسخ فى النفس؛ لأن العشرة هى التى تُفَطّن إلى سوء الرأى فى الناس، بسبب مرارة اختبارهم ـ وليس أشَدّ الناس سوء ظن بهم المعجب بنفسه وليس من الحتم اجتماع الإعجاب بالنفس وسوء الظن بالناس، فإننا قد نرى الرجل الشديد الإعجاب بنفسه عظيم الثقة بها، وثقته بنفسه قد تدعوه إلى حسن الظن والرأى، فيحسب أن الناس يعجبون بنفسه كما يُعْجَبُ، فينشرح صدره للعطف عليهم ولاسيما أن ذلك العطف يتفق وما فى نفسه من العظمة المزعومة التى تقضى أن يشمل الناس ببركات خيرها، وإذا ظهر منه غير ذلك من سوء الرأى فى الناس كان سحابة صيف عن قليل تتقشع.

من نظرات شوپنهور

١ ـ مما يجعل الإنسان غير مُبال تعاسة التعساء ولا آبه لها، أنه يعتقد فى نفسه العجز عن تحمل متاعب أكثر من متاعبه؛ ومن أجل ذلك إذا حسن حال إنسان بعد ضيق وبؤس فقد يعطف على أهل البؤس إمّا سروراً بنجاته من مثل حالهم وإمّا خشية أن يعاوِدَه البؤس فهو يرحم نفسه إذ يرحمهم، وأما الذين لم يصادفوا فى حياتهم بؤساً فإنهم كثيراً ما ينصرفون عن العطف على أهل البؤس؛ لأنهم يرون أنفسهم بمأمن من غوائله، فلا يستطيعون أن يضعوا أنفسهم مكانهم ـ على أنهم لو حاولوا وضع أنفسهم مكان أهل البؤس لنفروا من هذه المحاولة وتأففوا

وامتعضوا، ومن الجائز أن النعيم يضعفهم فيريدون أن يتجاهلوا مايؤذى سمعهم وبصرهم من مناظر البؤس، على أن الكفاح للخروج من الضيق، إذا نجح، قد يُعوِّدُ بعض الناس برودة الطبع والقسوة؛ إذ يعدّ كل معاملة للناس قتالاً كالذى تعوَّده فى الكفاح، ويرى أن الحياة معركة لايظفر بالنصر فيها من يترك القتال كى يضمد جروح الجرحى؛ فينسيه هذا الرأى فائدة التعاون.

٢ ـ قد يكون سبب سعادة الإنسان ونجاحه فى الحياة أن له ابتسامة سارة يبتهج الرائى عند رؤيتها وينشرح صدره، فيعطف على صاحبها ويصنع له كل خير يريده. وقد يحسب الرائى بهجة هذه الابتسامة وحلاوتها من طيبة قلب صاحبها، واستقامته وسلامة صدره من الشر والأذى والأحقاد، وهى قد تكون كذلك، وقد لاتكون ـ إذْ ربما كانت من تكوين الوجه وشكل خلقْته، من غير حقيقة خلُقيَّة خلف ذلك التكوين، أو قد تكون من لباقة المخادع الماهر فى إخفاء سريرته ـ فينبغى لمن يغتر كل الاغترار بمثل هذه الابتسامة أن يتذكر قول شكسبير فى قصة هامليت «قد يُكثِّر المرء من الابتسام وهو وغد». . ولكن من ذا الذى لايغبط صاحب هذه الابتسامة التى هى مفتاح القلوب والخير.

٣ ـ بعض ذوى الكفاية العظيمة فى أمور الحياة أو العبقرية لايحاولون إخفاء عيوبهم ولاسيما إذا كانت من الأخطاء أو العيوب التى يعدها الناس بالحق أو الباطل من لوازم تلك الكفاية العظيمة ودليلا عليها، وهم لايحاولون إخفاء عيوبهم أو أخطائهم لأنهم يرون أنهم قد أدَّوْا ثمنها من كفايتهم، وبالعكس نرى بعض من عدموا الكفاية النادرة وإن كانوا لابأس بهم يحاولون الظهور بمظهر العصمة ويتألمون، ويتملكهم الغيظ إذا ظهرت أخطاؤهم، ويحاولون أن يقنعوا الناس أنهم معصومون؛ وما ذلك إلاّ لأنهم ليس لهم فضل عظيم نادر من أجله تغتفر سيئاتهم ـ بالرغم من ميل الناس إلى التشفى من أهل الفضل بنسبة النقص إليهم ـ فمزية من لافضل له لا تتحقق لدى الناس إلاّ إذا خلا من الأخطاء، وقد تبالغ كل طائفة فى خطتها: فالطائفة الأولى فى رفع الكلفة، والطائفة الثانية فى استخدام كل وسيلة مهما كانت ظالمة لإثبات خلوها من العيوب ونقلها إلى

غيرها، وهناك طائفة ثالثة هى من أهل العجز يحاكى آحادها مايحسبون أنه من عيوب ذوى الكفاية؛ كى يُسلكوا فى زمرتهم ويُعدُّوا منهم.

٤ ـ من الجائز أن يحزن إنسان لموت خصم أو منافس أو عدوّ حزناً كثيراً إذا افتقد ذلك الإنسان خصمه الميت عند النجاح والظفر، فيود لو كان حيا كى يرى كيف ظفر فى الحياة بعده بالنجاح والسعادة ولم يظفر الميت، وهذا نوع من الحقد والتَّشفِّى من الميت يكون عند ذوى النفوس الدنيئة.

٥ ـ رغبة الإنسان فى أن يظل شهيراً بعد موته إنما هى مظهر من مظاهر حب هذه الحياة الدنيا.

٦ ـ إذا غالى الناس فى اعتناق رأى أو مبدأ أو مذهب فلابد أن يعودوا فى المغالاة إلى ضده حتى تستقر حياتهم بين الطرفين، وإنما مثلهم فى الذبذبة مثل رقاص الساعة.

٧ ـ كل فضيلة من الفضائل لها رذيلة من نوعها، وكل رذيلة لها فضيلة من نوعها، ومن أجل ذلك كثيراً مانخطئ فى الحكم على الناس، فقد تنسب إلى إنسان الفضيلة التى هى من نوع رذيلته أو الرذيلة التى هى من نوع فضيلته، فيظنّ الحازم المتأنى جبانًا، والمقتصد المدبر بخيلاً، والمبذر المتلاف سخيا كريمًا، وسيئ الأدب صريحاً مستقيمًا والأحمق متحليًا بفضيلة الثقة بالنفس إلخ.

٨ ـ كثير ممن يجعلون عظم منزلة الإنسان فى العالم بسبب فضائله وعقله يشتطون فى القسوة فى الحكم إذا حكموا فى معاملة آحاد الناس إذْ يطالبونهم بما يناسب عظم منزلة الإنسان التى أساسها الفضائل والعقل؛ ولكنّ الفضائل كثيراً ما تخذل الإنسان ولا تؤاتيه، والعقل كثيراً ما يسخف أو يخطئ أو يسهو، فعظم منزلة الإنسان فى الكون بسبب ماهو معرض له فى حياته من آلام ومصائب وعذاب، وجهازه العصبى أرق من جهاز غيره من الحيوانات فهو مرهف الحس وله خيال يصور له آلامه وعقل يشغل بها؛ فإذا عاشرت إنسانًا لا تنظر إلى ما فى إرادته من شر وما فى عقله من قصور، ومافى آرائه من سخف، أو هوى فإنك إن فعلت ذلك كرهته أو احتقرته بل انظر إلى آلامه من واقع ومنظور وإلى

حاجاته وتعبه فى الحصول عليها وإلى بواعث القلق فى حياته فإن من يتحمل كل ذلك خليق بالعطف والمحبة والإعظام.

٩ ـ قصور العقل وسوء الخلق أمران مختلفان قد يجتمعان وقد لايجتمعان، ولكن قصور العقل قد يساعد على إنشاء رذائل صاحبه فتُحْسب أنها ناشئة منه. فالغباء كثيراً ما يُظهر دناءة صاحبه وشرّه بينما العاقل الحازم قد يدرك وسائل إخفاء شره ويستطيعها، فيحسب أنه خالٍ من الرذائل وأن العقل وحسن الخلق متلازمان أبداً، كذلك سوء الطبع قد يستهوى صاحبه فيمنعه من إدراك الحقائق التى لولا سوء خلقه وطبعه لاتضحت لعقله، وقد تتضح فى حالات دون حالات.

١٠ـ كل حيوان لا يقسو إلاَّ ليأكل أو للدفاع عن نفسه. أما الإنسان فإنه قد يقسو من غير داع إلاَّ التلذذ بالقسوة. فهو كما سماه العلامة «جوبينو» صاحب كتاب «الأجناس البشرية»: «الحيوان الذى بَذّ كل الحيوانات فى خبث طبعه وشره»، وإذا وُجد حيوان يقتل أكثر مما يأكل، فما ذلك إلاّ كما يقول الفرنسيون فى أمثالهم: «عينه أكبر من معدته» ـ فالإنسان قد يقسو من غير فائدة لنفسه إلاَّ التلذذ بالقسوة، وقد يبلغ هذا التلذذ مرتبة الجنون، وكثيراً ما نسمع عن حوادث تعذيب ترتكبه حتى بعض الأسر المحترمة فى عهد الحضارة والثقافة. وكأن شهوة القسوة تقرز فى جسم الإنسان سُما زعافًا يتجمع كسمّ الأفعوان وينتهز أقل سبب وأصغر فرصة كى يُؤْذى به بعض الناس أو الحيوانات، ولعل التلذذ بقسوة الألفاظ المؤلمة والنظرات التى تنم عن القسوة وبالدسائس والمكائد كلها أنواع من التلذذ بالقسوة هى عِوَضٌ سيكولوجى عما كان يصنعه الإنسان فى أيام الهمجية بأعدائه وأسراه وعبيده تلذذاً بالقسوة لأجل القسوة سِرا وعلانية من غير رادع؛ ومن العجيب أن بعض المرضى بمرض نفسىّ أو عقلى يلتذون ألم قسوة غيرهم بهم، وما دام الإنسان يقتتل على الحياة وهو رقيق الجهاز العصبى وذو خيال وعقل فلا سبيل إلى محو طبع التلذذ بالقسوة كل المحو ـ إلاَّ إذا أسعف طبّ الغُدَد الحديث ـ وربما كان تلذذ الإنسان بالقسوة لشدة فرحه بأن الألم نال غيره ولم ينله. فهى نوع من الجبن أو وسيلة للنجاة من الخوف على النفس.

خاتمة آراء لاروشفوكولد مع الشرح[1]

ـ ٣ ـ

قبل أن ننتقل إلى غير من ذكرنا من المفكرين، وقبل أن نستعرض طرفًا من أخبار حياتهم وأن نتأمل فى المختار من أفكارهم، يحسن أن نذكر هذه الطائفة الأخيرة من نظرات لاروشفوكولد فعنه أخذ كثير من المفكرين والقصصيين. وهو يمتاز عن كتّاب هذا العصر والذين سبقوهم؛ إذْ أنه لايتصنع الابتكار فى الرأى تصنعًا، ولا يخلط الفكاهة بالجد خلطًا تضيع معه معالم الحقيقة. فإنك تقرأ كتب برنارد شو أو أوسكار وايلد فلا تعرف فى بعض الأحايين أين تنتهى الفكاهة وأين يبدأ الجد، أما لاروشفو كولد فإن فكاهته تفسر الحقيقة ولا تخفيها ولا تبعث مثل تلك الحيرة. كما اتضح مما ذكر فى المقالين السابقين، وكما هو ظاهر فى هذا المقال:ـ

١ ـ إنّ تَصَنُّع القدرة والكفاية فى أمور الحياة قد يعوق عن القدرة والكفاية، وهذا صحيح؛إذْ أن ما تلاقيه مظاهر التصنع من النجاح فى خداع الناس والانتفاع بهذا الخداع والتكسب به أمور قد تقنع صاحب التصنع فيقنع بالادعاء دون الحقيقة ويستريح إليه فلا يعانى الشدائد فى معالجة نفسه أو مايحسبها شدائد تعظم فى نظره وتهوله إذا حاول التُهدِّى إلى صفات القدرة الحقيقية والتماس أسبابها.

٢ ـ إن حسن النصيحة لايكفى لمعرفة الانتفاع بها، ورجاحتها لاترشد إلى القدرة على ذلك الانتفاع ولا تفيدها؛ إذ أن المرء محتاج إلى مقدرة على إتقان

(١) المقتطف ـ يناير سنه ١٩٤٨.

العمل والاهتداء إلى طرقه وأوقاته المناسبة كى يعمل حسب النصيحة الراجحة قدر احتياجه لما يحتاج إليه من المقدرة إذا عمل من غير نصيحة وبإرشاد نفسه.

٣ ـ إنّ فى المصائب نفاقًا كثيراً مختلف الأسباب والأنواع: فمن الناس من يبكى ادعاءً للحنان والرحمة، ومنهم من يبكى كى ينال عطف الناس ورحمتهم وإشفاقهم عليه، وإن لم يكن متأثراً فى سريرته بمصابه، ومنهم من يبكى إذا فقد قريبًا أو صديقًا كى لا يلومه الناس إذا لم يَبْكِ، ولولا خشية الملامة ما بكى.

٤ ـ إنَّ خداعنا لأنفسنا من غير أن نفطن إلى مخادعتنا أنفسنا أسهل من خداعنا الناس من غير أن يفطنوا إلى مخادعتنا لهم، ولكنا نظن عكس ذلك حقاً.

٥ ـ لايرتاع من احتقار بعض الناس له، ولا يبيتُ مغيظًا مُحنَقًا إلا مَن رأى نفسه جديراً بالاحتقار، أو مَن كان عنده ما يسميه علماء هذا العصر «مُركَّب النقص»، أو عقدة نفسية أو الشعور بالنقص، سواء أكان ذلك بسبب نقص نفسىّ أم نقص جثمانى، فإن ضعف الأعصاب قد يحلّ محل النقص النفسى فى إثارة هذا الغيظ، وإذا وثق المرء من نفسه فإنه قد يُرجَى منه التسامح فى الإهانة إذا لحقته أكثر كما يرُجى التسامح ممن فقد الثقة بالنفس إلا إذا صارَ الانتقام لكلّ إهانة شريعةَ الشرف والعرف، كما يكون فى البقاع التى يشيع فيها الثأر وتشيع فيها المبارزة فيضطر المرء إلى الانتقام من خوف الذم والاضطهاد بسوء الرأى فيه إلاَّ إذا علا شأنه، ولم يشكَّ أحد فى مقدرته، ولم يقدر على تَتَبُّعِه بالتعيير، فصفحُه صفحُ القادر الذى حظى بإقرار النّاس بقدرته وكرمه. وفى البقاع التى اختلَّ فيها الأمن لفساد الحكومات، ترى كلّ إنسان يدفعُ عن نفسه خشيةَ أن يتسامح فى الاعتداء القليل فيناله الكثير من شر الناس وظلمهم وتهجمهم إذ يُتّهم بالعجز، واستبداد الحاكم يُولّد الشعور بالنقص فى نفوس المحكومين، فيسرع كل منهم إلى الانتقام من جاره إذا حسب أن إهانة لحقته، إلاَّ إذا حال الاستبداد بينهم وبين الانتقام، وكثيراً ما يُسرع الحقير إلى إهانةِ غيره، كى يلفت نفسه ويلفت الناس عن حقارة نفسه، وكى ينقل فى زعمه وخياله تلك الحقارة إلى غيره.

٦ ـ إننا فى بعض الأحايين نفضّل أن يخدعنا من نحبّ ونودّ عن أن يزول عنا ذلك الخداع فإننا به نعيش فى نعمة المحبة والإخلاص اللذين نتخيلهما فى نفس من نحب، فإذا زال عنا الخداع كان زواله نقمةً وتعاسة. وقد يَعرف المخدوع منا بنصف انتباهه أنه مخدوع، فيتغافل حتى يغفل، فيعيش فى نَعيم الانخداع.

٧ ـ لو كلَّف المرء نفسه من الجهد كى يصير إلى ما ينبغى ويحب أن يكون قدر مَا يكلّف نفسه من الجهد كى يُخفى ماهو عليه مما يريد إخفاءه لما احتاج إلى نفاق، إذ أن الجهد فى سبيل الرّياء قد يكون فيه من العناء والمشقة قدر مافى الجهد الذى يصير به إلى ماينبغى ويَحسُن.

٨ ـ إن مغالطة المرء الناس كى يخفى حقيقته عنهم مما يُساعده على إخفاء حقيقته عن نفسه سواءٌ أنجحت المغالطة أم لم تنجح، إذ أنها لو نجحت مغالطة المرء الناس كان نجاحها شافعًا يشفع لنفسه عند نفسه كى تخفى حقيقتها عن ذاتها، وكان نجاحها برهانًا على ما يريد المرء أن يقنع به نفسه، ودليلاً على ما يوهمها من أمرها، وإذا خابت مغالطته الناس، احتاج إلى الإمعان فى إخفاء حقيقته عن نفسه كى يتقن بذلك أساليب مغالطة الناس، وكى يعرف كيف يتجنب الخيبة فى مخادعتهم.

٩ ـ إننا نرتاح إلى رؤية من نتفضّل عليهم ونساعدهم ونبرهم أكثر من ارتياحنا إلى رؤية من يجودون علينا وينعمون إلاّ إذا خشينا أن يُورطنا الأولون حتى نجود بما لانود أن نجود به، وإذا خشينا أن تفلت من يدنا نعمة نرجوها عند الآخرين إذا ابتعدنا عنهم فينقلب الحال، أما إذا لم يكن هذا ولا ذاك فقولُ لاروشفوكولد هو الصواب؛ لأن رؤية من نجود عليهم تدعو إلى الزهو والارتياح والخيلاء والثقة بالنفس، ورؤية من يجودون علينا تدعو إلى استضعاف النفس والاستخذاء والشعور بالنقص والعجز.

١٠ـ كثيراً مايبقى الحسد حتى بعد زوال النعمة المحسودة ـ ولعلَّ سبب ذلك أن شدة الإحساس بالحسد لايستطاع إيقافها وانتهاؤها، كما لايستطاع إيقاف المندفع فى سيره إذا بطل الدفع، فيظل سائراً بعد الدفع مدة، أو لعل السبب أن الحسود

لايغتفر لمن زالت نعمته تمتعه قديمًا بالنعيم الزائل، فيريد أن ينتقم منه كأنما بانتقامه بعد زوال النعيم يستخلص تلك المتعة الماضية واللذة الغابرة والسعادة الزائلة من لحمه ودمه حتى تكون كأن لم تكن، وحتى يندم المحسود على ابتهاجه بها، وقد يزداد الحاسد غيظاً إذا عجز عن أن يجعل ذلك النعيم الزائل كأن لم يكن.

١١ـ القدوة عدوى، وما من خير أو شر إلاّ وله قدرة وعدوى، فالاقتداءُ بالخير إنما يكون للمنافسة ونيل الثواب أو للزهو ونيل إعجاب الناس، والاقتداء بالشر لأن النفس إنما يعوقها عن الشر فى كثير من الأحايين الخوف والحذر وتجنب الملامة والعقاب، فإذا لم تجد النفس ملامة ولا عقابًا بل وجدتْ مشجعاً ومحسنًا ورأتْ أن مواقعة الشر أمر شائع غير ملوم أقبلت على عمل الشر ومواقعته اقتداءً بمن يعمله، ومن أجل ذلك كثيرًا ما تنقلب المقاييس فى الأماكن والأزمنة المختلفة، لاسيّما فى عصور الثورات والانقلاب والتغير. ومع ذلك فهذه حقيقة مشاهدة فى الحياة اليومية؛ إذ يقبل الناس على الشر؛ لأنهم يجدون من يمدحه ويعده محمدة وخيرًا لا شرا، وقد يتباهون به من أجل ذلك.

١٢ـ كثيرًا ما يفخر الإنسان بعيوب ليست من عيوبه وبصفات ليست من نقائصه؛ لأنها بعيدة كل البعد عن عيوبه، فهى وإياها فى طرفى نقيض، وهى لبعدها عنُه تلفت الناس عن عيوبه وتعميهم عن نقائصه. ومن أمثال ذلك أن ذوى التردد والعجز والجبن كثيرًا ما يدّعون التهور والخرق والحمق والتسرع فى الاندفاع من غير تروّ؛ سترًا لترددهم وإحجامهم والذين يسهل انقيادهم يدّعون العناد والتصلب والإصرار على رأيهم، ويفتخرون بذلك إخفاءً لسهولة انقيادهم.

١٣ ـ من السهل أن يغتفر المرء لأصدقائه العيوب التي يرى أنّها لا تضره ولا تصيبه بسوء، وإنْ أصابتْ غيره من الناس، وهذا الغفران يكونُ مادام المرءُ ناظرًا إلى أصدقائه بعين الرضا، وكثيرًا ما يغتفر لهم خيانتهم أصدقاءهم مادام الغافر يرى أنه بمأمنٍ من أن يخونوه؛ لأنه بزعمه عندهم فى منزلة أعز وأرفع ـ وقد يسخر ويضحك من المغدور به ويلتمس العذر لمن غدر به. أما إذا حاق به الغدر دونه بعد اطمئنان إلى الوفاء واستنامة إلى عزته ومنعته فإنه لايصفح للغادر كما فعل قديماً بل يسخط. ومصاحبة الرجل صاحب الشّر على مافى ذلك من خطر

إنما تكون لأسباب متعددةُ فبعضُ الناس يُلازمه كى يعرف شره ونيّته وما يبيّت فيتجنب بذلك ما يتوقّع من شره، وبعضهم يلازمه ويجاريه تَزَلُّفاً إليه واتقاءً لشره بالتزلف والتقرب، وبعضهم يتابعه كى ينتفع بشرّه وبعضهم يزامله لأنه يتمنى لنفسه فى سريرته جرأة على الشر ليست له، فمزاملته له إعجاب مستتر، وهذا لا يمنعُ من أن ينقلب عليه إذا انقلب الناس.

١٤ ـ يقول التعساء المحرومون: إنّ الحظ أعمى، ويقول السعداء أن الحظ مبصر، إذا كل من الطائفتين تدّعى الفضل: فالطائفة الأولى تعتقد أن الحظ لايستطيع لعماه رؤية فضلهم، والطائفة الثانية ترى أنّه رأى فضلهم فكافأهم بما هم جديرون به من الخيرات والسعادة.

١٥ ـ فى بعض الأحايين يشكو المرء من نفص بعض ملكات عقله كى يدفّع عن نفسه التهمة فى ملكات أعز وأرفع، ومثل ذلك أنه قد يشكو من ضَعف الذاكرة ولكنه لايشكو أبداً من ضعف ملكته فى الحكم على الحقائق، مع أن الملكة الثانية قد تتأثر بضعف الذاكرة، وهذا لاينفى صدق قول «مونتانى» الفرنسى صاحب الرسائل المعروفة إذ قال: إن ملكة الحفظ والاستذكار قد تكون قادرة ولكنها مقرونة إلى ملكة ضعيفة فى الحكم على الحقائق.

١٦ ـ كثيراً ماتنفذ أمور باسم الحب وتعملُ أعمال وتُقال أقوال ولا شأن للحب فى كل ذلك، ومثله مثل الدول التى كفت يد الحاكم ـ مثل دوق جمهورية البندقية ـ وغلت سلطته، ومع ذلك تجرى كل أمور الدولة باسمه.

١٧ ـ من الغريب أن المرء قد تكون له ذاكرة قوية، فيتذكر بها حوادث حياته الصغيرة التافهة، ولكن ذاكرته على قوتها لاتستطيع أن تعينه على أن يتذكر أنه حدث جليسه مرات عديدة بهذه الحوادث التافهة حتى صار الحديث مملولاً مكروهًا ـ وقد فسر فرويد هذا النسيان فى كتاب العلل النفسية فى الحياة اليومية، وأوضح أن النفس تستطيع أن تنسى عمداً ما تريد نسيانه، وأن تدفع به إلى الوعى الباطن.

١٨ ـ لو استطاع مُستطيعٌ أن يمنع رجلاً من أن يملق نفسه وأن يمدحها سرا أو جهرًا، مباشرة أو غير مباشرة، وبالقول أو بالعمل، وبالخاطر الذى يخطر فى النفس أو فى الظاهر وفى الحقيقة أو فى الخيال ـ لكان هذا الإنسان الممنوع من تمليق نفسه بأية وسيلة أشقى الناس وأتعسهم وأكثرهم مللاً من الحياة.

١٩ ـ يعترف الناس أن الميول والنزعات النفسية لها أثر كبير فى تكوين آرائهم، ولكنهم قلما يدركون عظم هذا الأثر ـ وكثيراً ما ينسونه إذا كانت لهم فائدة فى نسيانه، بل قد ينكرونه.

٢٠ ـ الأحاسيس والميول النفسية والصفات التى تتصف بها قد تُولِّد أضدادها، ومن أمثال ذلك أن الجبان قد يشجع من الخوف فيقبل مندفعاً بدل أن يفر إذا أحست نفسه أن فى الفرار ضرراً أشد، أو إذا حسبت ذلك أو إذا جُن جنونها من الخوف فاندفعت من غير تروّ، والخوف يُسبِّبُ الثبات أيضًا، والثبات من مظاهر الشجاعة والقدرة والعزيمة، ولكن المرء قد يخشى أن يتزحزح عن رأى أو مسلك أو مكان من الخوف فيظل ثابتًا عليه.

٢١ ـ أشد ما ينبغى أن يكون حذرنا من الأحاسيس والنزعات النفسية أن تُغَطِّى على الصواب إذا لبست لباس العقل والحكمة واتخذت منه أسبابًا وحججًا وأدلَّة؛ لأن العقل كثير الافتنان فى استنباط الحجج، وتمويهها تعزيزًا للميول النفسية والشهوات، وتسويغًا لما قد لايسوغ.

٢٢ ـ كما أن الفضل ثمرة فإنّ له موسمًا، والفضل الذى يكون فى غير موسمه كالفاكهة التى قد تأتى فى غير موسمها وموضعها، فإذا بعدت كل البعد عما يناسب مزاج ذلك الموْسم الغريب عنها كانت متهجنة غير مقبولة، فالبطيخ المُبَرد فى برد الشتاء لايستحب، وكذلك الفضل إذا جاء فى غير أوانه ومكانه، وكان عند من لا يَقْدره يستهجن ويبرد.

٢٣ ـ الإعجاب بالنفس موجود فى كل نفس، ولكنه يختلف فى الطرق والوسائل التى يظهر بها ويشبع بها نهمته وقد يختفى زمنًا كى يتمكن ويحتال، وهو إذا لم يظهر بالقوة ظهر بالمكر والحيلة، وقد يظهر ويفوز بِطَلِبَتِه، حتّى

بالتمليق والتواضع فهو كما قال «لاروشفوكولد» دائمًا يُعَوِّض نفسه ويتخذ كل أهْبة ووسيلة كى لايخسر شيئًا وإن ادَّعى الخسارةَ والتَّخلّى عن الغرور والكبر، وكما أن الإنسان قدْ وُهب من ملكات الجسم ماينا سبُ مطالبه وأعماله فقد وُهب من الكِبْر، ما يخفى به نقائصه عن نفسه، والأصل فى ذلك أن يكسبه ثقة بنفسه كى يستطيع أن يعيش، فإذا زاد عن حد الصلاح كان مُفسدًا.

٢٤ ـ إن بعض صفات الحمد مثل الحواس، فمن لم يجربها ولم يعرفها فى حياته وولد خاليًا منها لايستطيع إدراك كنهها كالذى ولد أعمى يصعب عليه إدراك معانى البصر كلها، وكذلك من خَلاَ مِن بعض صفات الحمد لايستطيعُ أن يفهمها، وقد يُنكرها أو يحار فيها ويتهم أصحابها بالكذب والادعاء ـ والمراد بالخلو منها أنه لم يتعودها، ولم يعود نفسه ارتياد مواردها واتباع أحكامها.

٢٥ ـ إن الغريزة تعوض بعض التعويض ما يفقده المرء بسبب نقص حظه، فهى تُعلِّم الفقير أن يستفيد من المال القليل أكثر من استفادة مَن هو أغنى منه، وتجعل له المكر عوضًا من نقص العقل أو ضعف الجسم.

٢٦ ـ إن رغبتنا فيما نطلبه بالعقل رغبة ضعيفة إذا قيست برغبتنا فيما نطلبه بالنزعات النفسية إلاّ إذا كان العقل وهو يدّعى الاستقلال خادمًا للميل النفسى ومحتالاً له بذلك الادعاء كى لايفطن الناس إلى أنها رغبة الشهوات النفسية، لارغبة المنطق المستقل والعقل المسيطر عليها.

٢٧ ـ كثيراً مايكون الاغتياب باعثه الغرور أكثر من خبث النفس، فلا تأمن الرجل الموصوف بطيبة القلب أن يغتابك إذا كان مغروراً، وأىّ الناس يخلو من الغرور، ولكنا كثيراً ما يدهشنا الاغتياب إذا كان من رجل موصوف بطيبة القلب وباعثه الغرور.

٢٨ ـ إن السرور الذى نجده فى التحدث عن أنفسنا ينبغى أن يفطننا إلى أنه يسبّب الامتعاض لغيرنا، فإنّ غرور كل إنسان يجعل غرور غيره أمراً يكاد لايطاق ـ ومن الغريب أن كل إنسان يضجر من كثرة تحدث غيره عن نفسه، ولا يفطن إلى ضجر غيره من تحدثه عن نفسه.

٢٩ ـ أمراض النفس لها نكسة كأمراض الجسم، وقد نظن شفاءها فيما قد يكون هدنة نفسية أو فيما قد يكون مرضًا آخر، فالحب أو الطمع أو البغض إذا كان أحدهما مرضًا نفسيا وانتهى، فكثيراً ما ينتهى إلى اختفاء كاختفاء النار فى الرماد، أو إلى خمود كخمود البركان الذى ربما ثار بعد خموده ـ وهو إذا اختفى فقد يُسبِّب للنفس عقدة نفسية كالشعور بالنقص، ولعل هذا ما يعنيه بقوله: «إن النفس قد تنتقل من مرض إلى مرض».

٣٠ ـ إن الغرور كثيراً ما يساعد المرء على تحمل آلام كثيرة، ولكنه قد لايساعد على تحمل آلام الغيرة والحسد والإحساس بالعار؛ لأنها آلام إذا استشرت أنقصت من ذلك الغرور الذى يزاد للاستعانة به على تحملها أو أضعفته أو قضت عليه، فتقضى على العماد الذى يعتمد عليه لتحملها.

٣١ ـ إن الغرور كثيراً ما يحمل المرء على عمل ما يخالف طبع نفس صاحبه وميلها، أما العقل فقلما يستطيع بالمحاجّة أن يحمله على ذلك ـ ومن أجل ذلك كثيراً ما يعمل المرء أعمالاً فاضلة والحامل عليها غرور صاحبها لاطبعه وميل نفسه.

٣٢ ـ إن الخجل الذى ينشأ بسبب مدح لانستحقه قد يحملنا على عمل أعمال عظيمة ممدوحة وماكنّا نعملها لولا ذلك الخجل ـ أو الميل إلى الخجل أو الخوف من الخجل أو الحذر من معرفة الناس سببه، فيظن الناس أن هذه الأعمال صادرة عن طبع دائم، ويحسبون أنها وتيرة فى الخلق، وهى ليست كذلك.

* * *

لقد انتهينا مما اخترناه من آراء ليوباردى وشوبنهور ولاروشفوكولد، والقارئ يرى أن لاروشفوكولد إنّما استنبط ما استخرج من آراء فى النفس بأن جعل رائده أثرة النفس، فتتبع الأثرة فى مظاهرها من خير أو شر ومن مدح أو ذم، ورد ماخفى أو بعد عنها إلى أساسها، ولم ينكر للأثرة مظاهرها الفاضلة فى حياة الناس.

* * *

من نظرات تشسترفيلد[1]

ـ ٤ ـ

«فيليب دورمر ستانهوب لورد تشسترفيلد» من نبلاء الإنجليز، وأهم مؤلفاته رسائله إلى ابنه، وقد ضمنها نصائحه التى اكتسبها من خبرته فى مخالطة الناس، فقد شغل مناصب مختلفة، وعاشر أناسًا كثيرين من طبقات مختلفة؛ إذ كان أولاً عضواً فى مجلس النواب، ثم فى مجلس اللوردات، ثم سفيراً فى هولاندة، ثم حاكمًا لارلندة، ثم وزيراً، ورسائله ذخر مملوء خبرة بالنفوس وكنز من تجارب الحياة، وقد أسرف الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى فى ذمها، ولكنه اعترف فى ثنايا ذمه بما فيها من فطنة وخبرة إذْ قال: لو سلّ منها مالايجمل التخلق به لصلحت كى يقرأها كل فتى، وأوجه الاختلاف بينهما كثيرة: منها أن جونسون كان ينمق الرسائل فى الأخلاق النظرية ويحتذى ما درسه فى الكتب، وتشسترفليد كان يسترسل فى وصف النفوس كما خبرها بأسلوب سهل موجز حتى عُدَّ آية فى بلاغة الإيجاز. ومنها أن جونسون فى أيام فقره تَطَلّع إلى أن يمده النبيل الغنى بمعونة تعينه على نشر مُصَنَّفاته، فلم يفعل اللورد أو أنه تباطأ أو أهمله مدة. فأرسل إليه الدكتور جونسون رسالته التى كانت كصوت بوق يوذن بعصر جديد، وباعتماد الأدباء على كسبهم بدل الاعتماد على معونة النبلاء. ومؤرخو الأدب يقولون: إن ابن تشسترفيلد الذى كتبت له الرسائل لم ينتفع بها انتفاعًا كبيراً، ولم يفده ذكاء ولا خبرة، ولا غرابة فالكتب لاتخلق عقلاً ولا تنشئ ذكاءً غير موجود وإنما تُفَطّن وتربى ماهو موجود، والخبرة قلما تفيد إلاَّ إذا عالجها المرء بنفسه. وكثير من الناس يعالجون التجارب ولا ينتفعون بها،

(١) المقتطف: فبراير سنه ١٩٤٨.

فكيف بها إذا كانت تلقينًا وقولاً يقوله غيرهم، وإنما يكون نفع التجارب إذا صادفت فى النفوس توفيقًا واستعدادًا. وكل ما يقال فى ابن تشسترفيلد أنه لمَ يُظْهر فضلاً كبيرًا ولا نقصًا خطيرًا، وإنما كان من غمار الناس. وأمل المورخ الذى كان يأمل نبوغه بسبب الرسائل، إنما هو نوع من الاعتراف بكياستها وفطنتها.

وقد أوردتُ نتفًا على سبيل الاقتباس منها، والتفكير فيها، لا على سبيل الترجمة الحرفية. وربما أدمجت بعضها فى بعض:

١ ـ بعض الناس يمدح نفسه بصيغة الذم، فيكسو الفضائل لباس النقيصة والعيب، ثم ينتقص نفسه بتلك الفضائل، ويعيبها بتلك المحامد التى كساها كساء العيب، كى يجعل مدح نفسه سائغًا لدى الناس. فيقول مثلاً: من عيوبى التى لا أستطيع أن أغالبها أنى أقول الحق فى غير موضعه، وآتى بالصدق فى غير مكانه، أو يقول: من عيوبى أنى مارأيت إنسانًا مُصابًا إلاّ وددتُ أن أشاركه فى مصابه، كأنى أحمل الدنيا أو كأنى موكل بها، ولا نزال فى تلك الودادة حتى أقاسمه المصاب وأشاطره وأعينه على ما حل به وأهيئ له من أمره ترفيهًا ورشدًا. . . أو يقول: من نقائصى المذمومة أنى كلما رأيت مظلومًا نصرته، وإن كان فى نصره ضرر لى، ومن مقابحى التى لا أستطيعُ الخلاص منها أنى كلما رأيتُ ضعيفًا أعنته على أمره، والعاقل حقيق بالانصراف عن هذه الوسيلة التى توهمه أنها تحمل الناس على اغتفارهم له مدح نفسه؛إذْ هى لاتحملهم على الاغتفار، بل تزيد الناس سخرية به وإزراءً عليه ـ ومن الناس من يتخذ لنفسه شعارًا فى أمر من الأمور، ويوهم الناس أنه وحده كفيل به لاشريك له، ويردده فى كل فرصة حتى يمل أمره ولا تنفعه طلاقته ولا أنه ذرب اللسان ذلقه، وللناس افتنان فى هذه الأساليب المتغايرة، وفى الحالتين المذكورتين، المدح المراد للنفس، مدح لم يقصده صاحبه إلاّ بطريقة ملتوية، ولكنها حيلة مكشوفة.

٢ ـ إذا أكثر رجل من القسم ولجَّ فى الحلف كى يحملك على أن تصدقه وكى يقنعك بحلفه فى أمر لايستدعى تصديقه كل هذا الحلف فهو فى أكثر الأحايين كاذب فيما يقول، وإلاّ ما تكلَّف جهد الحلف كى يخفى به كذبه، وكى يداوى شكه فى تصديقك كلامه، وكى يعالج خوفه من رفضك قوله ـ وهذا

يذكرنى قصة رجل من أهل المدينة كان يقول للناس: أنا والله من قُرَيْش والحمد لله، فقال له سامع: الحلف والتحميد هنا أمران مُريبان، أى يدعوان إلى الشك والريبة فى صدقه، على أن الرجل قد يكون صادقًا فى كلمته، وإنما يعالج بالحلف اشتهاره لدى نفسه ولدى الناس بالكذب فى أمور أخرى غيرها، وقد يكون الحلف عادة عوَّدها، ولكنها توقفه موقف الرجل الظَّنين المتهم فى صدقه.

٣ ـ كثيرٌ من الناس يكرهون أن يُتَّهموا بالحماقة أو الغباء، أو السخف، أو الحقارة، أو ماشابه ذلك من أوجه النقص والعيبِ أكثر من كرههم أن يتهموا بالآثام والخطايا والجرائم والشر ـ ولكن قلما يفطن المعاشر إلى سبب هذا التفضيل ووجوبه؛ إذ أن الرجل يكره ما يلحق به الاحتقار أكثر من كرهه ما يلصق به خوف الناس منه، وهو يعرف أن الناس قد يعجبون بالشر والخطايا ويزيد صاحبها عظمًا وقدرًا فى نفوسهم ويفخرون بها؛ ولكن الناس لايستعظمون السخف، ولا يجلون الحماقة والغباء، ولا يفخرون بهذه الصفات التى تزيد صَاحبها احتقارًا فى نظرهم، فلا يستهين العاقل بنسبتها إلى الناس اعتمادًا على أنه إن لم يجعلهم من الأشرار ولم يقل إنهم من المجرمين فقد نسب إليهم ماهو أقبح فى نظرهم وأكثر مجلبة للذم، على أنك قد ترى ساذجًا ينسبها إلى صديق، فإذا غضب صديقه دُهِش وقال من غير تعمد للسخرية: أنا لم أقل إنه مجرم شرير ولم أقل إلاّ أنه سَخيف!!

٤ ـ كل إنسان يُفَضِّل أن يمدحه مادح بالصفة التى يدعيها لنفسه، وليست فيه أو ليست غالبة عليه؛ على أن يمدحه بالصفات الممدوحة التى يُقرّ له بها الناس، ويعترفون بفضله فيها؛ لأنه فى الحالة الأولى يكسب محمدة جديدة، ولا يكسب شيئًا فى الحالة الثانية إلاَّ اعتراف بعض الناس بمالايشك فيه أكثر الناس ولا يمارون، وهذا يذكرنا أن الكاردينال ريشليو السياسى الشهير ما كان يبتهج إذا مدحه مادح بحنكته السياسية وخبرته وبراعته، وإنما كان يسره أن يمدحه مادح بإجادة فن من الفنون الجميلة لم يُجده ولا برع فيه ولا أتقنه ـ وهكذا أكثر الناس كأنهم ما سمعوا قول الإمام علي رضى الله عنه: (قيمة كل امرئ ما يحسن).

٥ ـ مهدْ لنفسك منفذًا إلى عقول الناس منْ طريق قلوبهم وما تشتهى نفوسهم؛ فإن عقول أكثر الناس وعرة صعبة المسلك ملتوية، وعندى أن هذه النصيحة تنفع أيضًا مع من كان الطريق إلى عقله موطّأً سهلاً ممهدًا، فإذا لجأت إليه من طريق قلبه وجدت عقله ازداد سهولة وصار أخف مئونة، وقد لايكلفك طريق قلوبهم إلا البشاشة والملاينة وطيب الذكر وحسن القول.

٦ ـ كما أن النقود الصغيرة من العملة القليلة القيمة لا غنى عنها فى معاملات الناس اليومية الصغيرة، فنقود الفكر القليلة القيمة لا غنى عنها فى مجالس الناس ومحادثاتهم ومفاكهاتهم، ومن أراد أن يستبعدها وألا يتعامل معهم فى أمثال تلك المجالس إلاّ بالفكر الغويص والرأى العميق والفلسفة البعيدة والألفاظ الفخمة والتقعر فى الكلام كان مثله مثل الرجل الذى لايريد أن يتعامل فى المعاملات اليومية الصغيرة إلاّ بقضبان الذهب الثقيلة الكبيرة فتمتنع المعاملة. وهذا يذكرنى قصة رجل كان له ابن هذه صفاته وكان الرجل فى مرض الموت وأبى أن يرى ابنه إلاّ إذا ترك هذه الصفات فوعد ابنه بتركها فى زيارته لأبيه، ولكنه لم يستطع مغالبة طبعه فكان الموت أحب إلى أبيه من زيارته.

٧ ـ بعض الناس مولعون بالأحكام العامة والجمل المألوفة والأمثال السائرة يرددونها كلما أتيحت لهم فرصة ويوهمون أنفسهم أنها تصدق فى كل حالة، والعاقل من تجنب الأحكام العامة والجمل المألوفة، فليست حالة إلاّ وفيها اختلاف قلّ أو كثر عما يشابهها من الحالات، وكذلك الأمم والطوائف والجماعات تختلف آحادها فليس من الصواب أن يحكم المرء على أمة أو طائفة أو جماعة من النّاس حكمًا عاما ـ وكثرة التشادق بالأمثال والجمل المألوفة التى سارت مسير الأمثال لا يلجأ إليها إلاّ من لا يميّز دقائق الفكر، وبعض الناس لا ينتهى من مثل إلاّ ليبدأ مثلاً آخر أو حكمة معروفة، كأنه آلة الحاكى تردد من غير تمييز.

٨ ـ من العلم مايكسب صاحبه رجاحة فى عيون الناس وقلوبهم، ومنه ما يكسبه زينة، والأول لاغنى عنه، ولكن ينبغى أن يذكر العاقل أن كثيرًا من الناس

لايستطيعون وزن الأمور ومعرفة رجاحتها، وإنما يحكمون بما هو رونق يرونه ـ وإذا كان حكم الناس بالنظر أكثر من حكمهم بالفكر، فقلما يصيب أحد النجاح إلاَّ إذا كان له نصيب من النوع الثانى من العلم.

٩ ـ إن المكارم الكبيرة والنعم السابغة قد يصنعها المرء بسفه ويفعلها بخرق ويهجم بها على من يجود عليه بخطأ أو طيش وحماقة فتسىء مكَارمه ونعمه إلى من يصطنعها عنده فتصير أسوأ من الإساءَة إليه إذا جاءته بلطف يثلم حدها ويفل غربها ويقلل ألمها، فربَّ نعمة قد تجلب عدوا، وإساءة قد لا تنفِّر صديقًا.

١٠ ـ المشاكسة فى الأمور الصغيرة من علامات ضئولة النفس، وكثيرًا ما تكون مصحوبة بالشعور بالنقص يداويه صاحبه بمشاكسة أو مهاترة أو مغاضبة، فتكون أظهر لنقصه عند من درس طبائع النفوس.

١١ـ من أسباب النجاح الصبر على مضض الحديث الغث المُمِلّ، أو على سماع رغبات الرجل المشاكس أو المُلِحّ، وهو إصغاء لا يلزمك عملاً تعمله ـ أو خطة ترسمها وتتكلفها وتنفذها ـ وقد تجد شيئًا من الفكاهة إذا عوّدت نفسك هذا الصبر، وقد تجمع إلى الفكاهة فائدة أخرى، وهى دراسة نفس محدثك، وفى دراسة النفوس لذَّة بالرغم من ألم ذلك الصبر ومضضه، وبعض من اشتهر باللباقة من الساسة، وبالحُنْكة فيها، أكثر بضاعتهم الإصغاء والابتسام.

١٢ـ إذا هششت للناس وتبسَّطت وتسهَّلْتَ ظن من ينصب الحبائل للناس ويدبر الوسائل لاقتناص الكسب منهم أنك لست ممن يَنْصِب الشرك أو الشباك فلا يُعِدُّ لك عدة، ولا يتخذ لك أُهبة، ولا يلجأ إلى الحذَر معك، كما أن ذوى السذاجة يركنون إلى طيب قلبك، ويستنيمون إلى سلامة طَوِيّتك فتربح فى الحالتين.

١٣ـ الأغرار من الشبان ومن لم ينتفع بتجاربه من الرجال يرون أنهم يكسبون بالعنف والشدة فى كل معاملة أو معاشرة أكثر مما يكسبون بدهاء الخبرة ولباقتها وتأنيها فى معالجة الأمور، ويعدون كل هذه الصفات ضعفاً وعجزًا وجبنًا ورياء، وأنها صفات لا تليق، وهم فى عنفهم وشدتهم يَدّعون لأنفسهم الحكمة كما

يدّعى السكران بأنه غير مخمور ـ وقد يكون ادعاؤه مضحكًا يدلّ على أنه سكران، وإن أنكر ذلك إذ يترنّح ويتلعثم ويتلجلج ويخلط ولا يبين فى كلامه، ويتكلف الاتزان ويتغاضب تارةً ويعاتب تارة، وهذا أيضًا شأن الأغرار، الذين ليس لهم إلاّ سبيل العنف.

١٤ـ إذا كان لك فضل فليس السبيل إلى اعتراف العقلاء المبصرين والدهاة، ولا إلى اعتراف من يغمط الناس حق فضلهم وهم كثيرون، أن تكبّد الناس بمباهَاتهم به فى الأحاديث والمجالس وبأن تظهر لهم أنك تعرف من فضلك أكثر مما يعرفون، فإن الناس فلما يغتفرون لك ذلك ويعدّون فضلك إساءةً اليهم وإنْ اعْترفوا به سرًّا أو جهرًا، وهم يحاولون انتزاع اليقين والثقة به من نفسك بأساليب مختلفة، ولكنّك قد تحملهم بالملاطفة وسياسة التأسى وأساليبها على اغتفار الفضل لك ـ وكذلك إذا كان لك فضل على إنسان بأن صفحت عن ذنب له أو إساءة أو زلة أو إذا كنت قد انتشلته من وهدة سقطة كاد يتردى فيها وأزرت به، فليكن همك أن تنسيه فضلك عليه واطلاعك على سيئاته وموضع النقص منه، فإن كثيرًا من الناس يحقدون على من اطلع على زلاتهم ونقائصهم وإن كان اطلاعه عليها من ناحية انتشاله إياهم من وهدة زلتهم ومعونته لهم وإنقاذهم من عواقبها، فإن تلك المعونة وذلك الإنقاذ لايشفعان لاغتفارهم اطلاعك على نقصهم، وفضلك فى ذلك لايشفع لك، بل يزيد حزازة حقد من تفضلت عليه، إلاّ إذا كانت لك لباقة تنسيه فضلك عليه واطلاعك على نقصه، وقد يكون مثلهم مثل المرأة التى لطمت سائق الترام الذى رآها قد زلت قدمها وكادت تسقط تحت الترام فجذبها إلى نفسه وأنقذها من الموت.

١٥ـ الناس قلما يغتفرون ذنب من إذا شرعوا يحدثونه أسرع إلى إظهار معرفته للحديث، وبعض الأغرار ومن لم ينتفع بتجاربه لهم ولع عجيب بهذا التسرع إلى إظهار معرفتهم حديث المحدث ـ كأنهم يخشون أن يحسب الناس أنهم قد فاتهم شىء من أمور العلم والدنيا لم يدركوه ولم يطلعوا عليه قبل حديث المحدث، وهو اطلاع لا يزيدهم فضلاً بل نقصًا فى نفس المحدث الذى لايهمه أن يزن قدر علم من سبقه، وإنما يهّمه ألا يسلب منه جليسه كرامة نفسه وألا يشعره الاستخذاء.

١٦ـ ينبغى للعاقل ألا يُظهر الامتعاض والغضب إذا ظهر عليه إنسان بالحجة أو بذَّه شأوًا وشأنًا أو مزح معه مزحًا مستكرهًا، بل الكرامة والربح فى أنْ يكظم غيظه وأن يسرّى عن نفسه وأن ينظر إلى هذه الأمور كأنه يشاهد مشهدًا فى عالم آخر من غير تصنع للكبر المضحك المغالى فيه والذى يجعله كالممثل الهازل، ومن غير شجار أو مهاترة؛ لأنه بهما يضيع كرامته، ومن غير أن يأذن لفكره وذاكرته فى معاودة هذه الأمور فيتعب، ومن غير أن يلجأ إلى التعويض فى ثنايا كلامه بالسخر المعمى أو الواضح، وهذه أمور قد تسبب عداوات وتارات قد يشترك فيها أصدقاء خصمك وأقاربه، فكأنك أثرت حول نفسك النحل من خليته، وأقل ما فى هذه الأمور من الضرر إذا لم يتخذ خطة متسعة النواحى لاغتيابك أن يأذن ويبتسم صامتًا لمن يغتابك كما قال الشاعر.

فسامُع الذم مقرّ به وقابل الغيبة كالقائل

١٧ـ كثير من الناس لايميزون بين التسامح والتسهل فى المعاشرة وبين التمليق والنفاق، فيأبون التسامح ويرفضون التسهل، ويضّحون بحسن المودة وطيب العشرة بأن يراجعوا كل إنسان فيما يصف به نفسه أو ينسبه إليها أو يغلطوه أو يكذبوه أو يكثروا من مخالفته، مع أن بعض الناس يَعُدُّ القليل من مخالفه تكذيبًا ـ ويفعل المغلّط المراجع المقاطع ذلك بدعوى نصرة الحق والانصراف عن التمليق والنفاق، وإنما يفعل ذلك خشية أن يظهرإنسان بفضل يدعيه أو رأى يرتئيه أو حجة يدلى بها وتوهم المغلط المقاطع نفسه أنه إذا لم يفعل ذلك أضاع كرامته ولم ينصر الحق وأعان على الباطل بسكوته وكأنما تنهد الأرض وتسقط السماء إذا لم يفعل ذلك، فلا يميز الكبائر من الصغائر، وإنما يكون الباطل الذى يحارب ما تخنل به أمور الناس لا مايتسهل ويتسامح فيه العشير فى العشرة.

١٨ـ أحسن ماتكون الفضيلة إذا أرادها المرء كما يريد نظافة جسمه للراحة والصحة والعافية لا للمباهاة، وكما أن المرء لايطلع الناس على نظافته ولا يلفتهم إليها ولا يحدثهم بها، كذلك الحازم العاقل لايحدث الناس عن فضيلته.

١٩ ـ فى أكثر الأحايين إذا قال الإنسان قوله مزح بريئة جرّ إليها حديث محدثه وكانت صلتها بالحديث أو بإنسان مذكور فيه تفسرها فإنها تنقل إلى إنسان آخر له صلة أيضًا بالحديث مبتورة ويخفى ناقلها صلتها بحديثه فتخرج عن معناها وتصير «إهانة» ولو أن ناقلها ذكَر حديثه وصلته به ماكانت إهانة فيحسن تجنب المزح البرىء اعتماداً على صدق الناقل؛ إذ كيف تكفل صدقه؟

٢٠ ـ الحازم لايشارك المغتاب بالكلام ولايشاركه بالإصغاء والسكوت، فقابل الغيبة كقائلها، وإنما يجمل أن يقول: إنه لايعرف من أمر الغيبة شيئًا، وهو إذا لج فى إنكارها جنى فوائد: منها أن الناس تبرّئه من الغيبة وتعدّه غير متتبع أخبارهم فيقل حذرهم منه، وكلما أمعن فى إظهار الجهل والإنكار أكثروا من تعريفه ما يدعون معرفته من أخبار غيرهم، إذ أن الناس منهومون بادعاء معرفة أخبار الناس وأسرارهم، وكلما قلتْ معرفتهم زادت نهمتهم باطلاع معاشريهم على ما يدّعون معرفته، ومنهم من يستطيلُ بادعاء صداقة الناس بالباطل؛ كى يستطيل بادعاء معرفة أخبارهم وأسرارهم بالباطل أيضًا.

٢١ ـ فى الناس أصناف يجمل ألا يشركهم العاقل فى خاصةً شئونه، ولا أن يُطلعهم على بواطن أمره وأخباره وأسراره، ومن هؤلاء الغرير الجاهل؛ فإنه يذيعها كى يعرف أنه عالم بالناس، والخائن كى يوهم الأغرار أن غيرهم قد ائتمنه، والماكر الداهية كى يفيد من إذاعته مايستطيع، والخبيث إذ أنه يحولها مادة صالحة للأذى يؤذى بها من أشركه فى أمره، والزميل الذى ربما جعلته الحياة منافسًا فيتخذ منها مادة لمنافسة زميله وتنقصه كى يفوز فى موضوع المنافسة بدلاً منه، والمنافس مهما كان شهمًا ذا مروءة لايؤتمنُ على سر أو خبر أو شأن خاص، إذ أنّ المنافسة قد تحمل الناس على الانصراف عن سبيل المروءة حتى يفوزوا فى المنافسة، ثم يعودون إلى مروءتهم وشهامتهم بعدها.

* * *

نظرات أناتول فرانس[1]

أناتول فرانس هو الاسم الذى اشتهر به كاتب من أكابر كتَّاب القرن العشرين، وهو فرنسى كان أبوه يبيع الكتب، فنشأ مولعًا بالاطلاع، ولكنه كان يخالط الناس ويتَقَصّى أخبارهم، وقد جمع فى كتبه بين السخر والحنان والتسامح والرأفة بالضعفاء والفقراء، ولكن عقله لم يكن من العقول التى تَتَشَبَّثُ بمبدأ من مبادئ الفكر لا يتعدَّاه ولاينظر إلى غيره، بل كان ينظر إلى جوانب كل أمر حتى أنه قد يَنْطِق بعض أشخاص قصصه بآراء مختلفة إذا اختلفت حالات نفوسهم، ثم يكوَن أول من يَلفِت إلى هذا الاختلاف، وقد برع فى القصص الطويلة كما برع فى القصص القصيرة.

ومن قصصه الشهيرة قصة (تاييس) وهى كما قال أستاذ كبير تشبه قصة (هاييشيا) للقصصى الإنجليزى شارلز كنجزلى، ولكن الشبه جاء من ناحية تقارب عصرى القصتين، وعند التمحيص يختلف أشخاص القصتين، وأناتول فرانس قلما يُجارَى فى تَذَوُّقه لفنه، ومن كتبه قصة (كتاب صديقى) وفيها انتشى من نفحات الطفولة والصبا وجمع إلى ذلك دقة الملاحظة ونضج الذهن، وله قصة الثورة الفرنسية الكبرى، واسمها (الآلهة ظمأى) وليس فيها عنف فلوبير فى قصة سلامبو عن قرطاجة؛ ولكن تحت هدوء فنه يحس القارئ مرجل الثورة يفور وكان همه أن يفسر روحها، ومن كتبه الشهيرة (حديقة أبيقور) وهو نظرات فى النفس والحياة، وكتاب (الحياة الأدبية) وهو مقالات فى النقد والأدب، و(طموح

(١) المقتطف: مارس سنه ١٩٤٨.

جان سرفان) و (قصة ممثل) و(سلفستر بونار) و(آراء الأب كوانيار) و(الحجر الأبيض) و(ثورة الملائكة) وفى الكتاب الأخير يميل إلى الروح الإغريقية القديمة، ومن كتبه المؤثرة (حياة جان دارك) و (جوكاستا) وله قصص أخرى عديدة بعضها يغلب عليه السخر، وبعضها يغلب عليه النقاش الفكرى أو وصف تاريخ فرنسا وحياتها فى عهده، ويتردد أشخاص بعضها فى أكثر من كتاب، وبالرغم من عداء رجال الكنيسة له فقد أنصفهم فى وصف بعض أشخاص الكنيسة فى كتبه، وقد اعتنق المذهب الاشتراكى فى أواخر أيامه. ويمكن أن يقال بالاختصار إنه بالرغم من سخره كثير التسامح كثير الحنان.

ومن نظراته ما يأتى:

١ ـ كنت وأنا طفل صغير أقرأ كتب الزهاد المترهبين من ذوى التقشف، فأحدث ذلك عندى رغبة فى أن أكون راهبًا زاهدًا مُتَقَشِّفًا وامتنعتُ عن الطعام وحاكيت حياتهم، فقال أبى يصفنى «إنه مجنون» فعزيت نفسى وقلت: إنَّ أبى فى الحياة الأخرى سوف لاينال ما سأنال من جزاء على الزهد فلا يقاسمنى مجْده ولا يشاركنى فيه فأختصَّ به دونه، فلم يؤلمنى تَنَقُّصُهُ لى واتهامه إيَّاى بالجنون، وانشرح صدرى وسُرَّت نفسى، وهذا إحساس يشترك فيه الصغار والكبار؛ فإنَّ الرجال قد يودون صديقًا ويرجون له كل خير فإذا خالفهم فى أمر سُرُّوا بحرمانه المأمول من خيره المنظور وعزُّوا أنفسهم بالاختصاص به دونه، وإن كانوا صادقين فى مودته.. وكذلك الحال بين الأحبَّاء... وقد يزداد هذا السرور بحرمان المخالف حتى يصير تَشَفِّيًا وانتقامًا كريهين.

٢ ـ كان الدرس فى حصة الآنسة لافورت المعلمة فوضى من الاضطراب، وكان عندها شىء من الذهول وقلة المبالاة، فإذا لَجَّ الصخب فى تنبيهها هجمت على أى تلميذ وضربته ثمَّ تعود إلى تبلُّدها وذهولها.. وهكذا الدنيا قد تعاقب من ليس أحق بالعقاب، والعاقل من حاول أن يطامن نفسه على تَلَقِّى ضرباتها كما كان يصنع تلاميذ المعلمة لافورت.

٣ ـ أهمُّ ما فى التضحية هى التضحية ذاتها، أمَّا أنَّها فى أمر غير حقيقى وأنها

لاتعود بفائدة ولا عائدة فهذا لايقلل من قيمتها ما دام صاحبها الذى يؤدِّى ما تفرضه عليه التضحية يجد إليها اطمئنانًا، ويحس فيها راحة، ويراها أمرًا واجبًا، وأنها عائدة من غير شك بالخير، وهذا هو الذى يسوِّغها.

٤ ـ كنت إذا غايَظْتُ تلميذًا صغيرًا مثلى يُهَوِّنُ على ذنبى إليه شعورى بعظم ذنبى... وهكذا الكبار أيضًا يهوِّن عليهم ذنوبهم إحساسهم بالذنب، ويشعرون كأنما قد كَفَّرُوا عن ذنوبهم به حتى صار كأن لم يكن ـ وهذا قد يدعوهم إلى الاطمئنان وإلى معاودة تلك الذنوب.

٥ ـ كنت قد اعتزمت وأنا صغير أن أكتب تاريخ فرنسا فى خمسين مجلداً، ولكن منعنى أنى لم أستطع معرفة تاريخ أول مَلِك، ومن ذلك الحين أحمد للصعوبات فى الحياة فضلها وأشكر صنيعها، فكم أنقذت من ورطة وكم أسعفت بخيبة فى طيها نعمة، أمَّا صديقى فونتانيه فإنه يمرق بين أرجل الصعوبات (إن كانت لها أرجل)... كما يمرق أطفال الشوارع بين السيارات السريعة.

٦ ـ عندما طلب منى القس فى الكنيسة أن أعترف (وهذا أمرٌ يؤديه الكاثوليك) أدركتنى الحيرة؛ إذ كنت صغيرًا لا أُميِّزُ صفات أعمالى، ولا أعرف أيها أعد ذنبًا، فحاولت أن أتذكر ذنبًا جنيته كى أعترف به للقس فلم أستطع، فاعترانى الخجل والأسف إذ لم أجد ذنبًا، ثم تذكرت إتلافى قُبَّعَة صديقى فونتانيه فارتاحت نفسى وتعاظمت لدىَّ وقلت: الآن أستطيع أن أعترف بذنبى من غير خجل أو شعور بالنقص... وهذا قد يفسر لنا فخر الكبار بذنوبهم فى بعض الأحايين ومباهاتهم الناس بها.

٧ ـ مما علمنى حب الصغار المحافظة على التقاليد والعُرْف المألوف، بالرغم من طيشهم وثورتهم عليه فى بعض الأحايين، إنَّ عمى كان قد صنع لى حقيبة كتب جديدة من شىء لم يكن حقيبة كتب ولا كانت حقيبتى كحقيبة التلاميذ، فجعلوا يسخرون ويضحكون ويتكرون الفكاهات إزراء بها، ولكنهم لم يفكروا فى السخر من حقيبة كُتُب صديقى فونتانيه، وكانت قديمة ممزَّقة مُرعبَلة، ولكنها كانت على شكل حقائب الكتب، فكان لاشك فيها، وهذا يذكرنى قول (وردزورث) الشاعر الإنجليزى (إنَّ الطفل أبو الرجل) فهذه الغرائز والطباع

موجودة أيضًا فى الكبار، وهم يسخرون من كل جديد؛ لأنه يخالف المألوف.

٨ ـ كنت وأنا غلام صغير أذهب إلى حلاَّق كى يقص شعرى، وكان يحكى لى أثناء الحلاقة (كما هى عادة الحلاقين) كيف أنه كان فى سفينة فى عرض البحر تحطمت واضطر ركابها أن يأكلوا إنسانًا منهم، وكان يهش ويبتسم وهو يحكى لى كيف أكلوا اللحم البشرى، وكأنما كانت هشاشته هشاشة المتفائلين بالحياة المؤمنين بالإنسان، ولا يرون إلاَّ جانب الأمل فى حياته. . . ولا غرابة فى اطمئنان ذلك الحلاَّق، فإنَّ الناس كثيراً ما يأكلون اللحوم البشرية على سبيل المجاز والاستعارة كما يصنعون فى استغلال الضعفاء المحرومين والنساء والاقتتال على النظريات، وكما يصنعون فى الغيبة والنميمة فى حياتهم اليومية، وفى إهمال المُشَرَّدين من الأطفال وغيرهم.

٩ ـ كانت حياتى فى الطفولة حياة صغيرة، ولكنها كانت (حياةً) أى أنها كانت عندى قطب الدنيا ومركز الكون ومحور العالم، وكل حى حتّى ولو كان كلبًا صغيراً يحس كأنما هو مركز الكون ومحور العالم.

١٠ـ كنت فى صغرى مدلَّلاً مُنَعَّمًا على قدر مايستطيع أهلى من التدليل والتنعيم، وكنت أجد لذة فى حياتى المنزلية كما يحك العصفور الصغير جانبه بريش عشه الناعم لذّة وسروراً واطمئنانًا، ومع ذلك فقد كنت أحسد غلامًا صغيراً مُشَرَّدًا، وكنت أراه من نافذة منزلى، وكان أبواى يمنعاننى من مخالطة أبناء الشوارع، وكانت أم ذلك الغلام تتركه حُرا طليقًا قذراً ممزق الثياب وتذهب كى تكسب قوتها بأن تغسل ثياب الناس، فلم تكن تقيده تكاليف الحياة، وكان يخيل لى أنه كان ينظر إلىَّ كما ينظر العصفور الطليق إلى العصفور الحبيس. . . وهذه الفكرة تذكرنى قصة من تصنيف (ستاسى) أو (مونييه) القصصى الإنجليزى الذى تتبع فيها دائرة الحسد، فوجد كل إنسان يحسد من هو أحسن منه حالاً حتى إذا بلغ أكبر محسود وجده وقد سئم تكاليف حياته وقيودها وهمومها يحسد أحقر حاسد ولو كان صعلوكًا متشردًا حسبه حرا طليقًا غير مقيد بتكاليف الحياة.

١١ـ عندما نبحث عن الحق كثيراً مانجده أمراً مألوفًا وإن كان غريبًا قبل

معرفته، ولكن تلك الغرابة تُحبِّبُهُ إلينا ولو لم نشعر بالغرابة لمللناه وضجرنا به، والمراد حقائق النفس والحياة التى نشاهدها ونغفل عنها، كأنما قد غُطّيتْ عنا ولُبّستْ علينا.

١٢ـ كانت عندنا خادم ريفية سمحنا لها مرة أن تذهب إلى باريس. وبعد عودتها سألناها ماذا رأيت فى باريس؟ وماذا أعجبك منها؟ قالت الفجل! رأيت فجلاً كبيراً، إنها رأت كل ما تُستطاع رؤيته من حضارة باريس ومبانيها ومافى نوافذها وشوارعها ومتنزَّهاتها، ولكن لم يعجبها الا أنها رأت فجلاً كبيراً... وهكذا بعض الناس فى الحياة يرون ماتعرضه عليهم، ثم لايعجبهم منه إلا ماهو شبيه بالفجل فى نظر الريفية.

١٣ـ إننا نرى الأطفال لايستطيعون أسهل الأمور والأعمال إلاّ بعد الدربة والمزاولة، وتنسى حقيقة أولية، وهى أن هذا يصدق أيضًا فى الكبار كما يصدق فى الصغار، فإن كل عمل مهما هان يصعب حتى يتعوَّده من لم يتعوده من قبل.

١٤ ـ إذا كان لبعض الأمهات ابن ذكى وسألتها جارة عن سنه أصغرت عمره وقللت سنه؛ كى تظهر على جارتها وتنتصر وتعلو؛ إذْ أنها تعرف أنه من المحال أن يكون لجارتها ابن صغير ذكى فى مثل السن التى ادعتها لابنها وهى إذ تستثير إعجاب جارتها تستثير حسدها..... ومن الأمور المتناقضة فى النفس أن الذى يباهى الناس ويستفز حسدهم بالمباهاة لايمنعه ذلك من محاولة إخفاء كل مايمكن أن يحسد عليه فى حالات نفسية أخرى إذا أزعجته عاقبة الحسد، وبعض الأمهات وغير الأمهات يخشينَ صولة القدر المفاجئة وضربته المباغتة إذا كنَّ فى سعادة وغبطة وحبور، وهن فى ذلك مثل الأمهات الأثينيات قديمًا اللواتى كنّ يضعنَ أطفالهنَّ عند قدمى تمثال نميسيس (ربة الحسد) ويتضرعن إليها أن تغتفر لهنَّ سعادتهنَّ باطفالهنَّ خشية أن تصيبهم ربة النقمة والحسد بمكروه، وبالرغم من أن خيال الوثنيين قد خيل لهم ربةً للحسد فإن للناس افتنانًا عجيبًا باستثارة إعجاب الناس واستفزاز حسدهم وهم يخشون هذا الحسد ويعلمون أنه كثيراً ما يحيق بهم السوء منه من غير استثارة واستفزاز لميل كثير من الناس إلى إلحاق الأذى بمن

يحسدون، والحسد ـ وأن عَمَّ ـ من الغرائز الموروثة بسبب هذا النظام الاجتماعى.

١٥ـ سأل أندريه الصغير أمه وقد مات أبوه: هل مات أبى وذهب عنا ولا يعود؟ قالت: نعم، فصمت قليلاً، ثم قال: هذا شىء حسن لأنى أحبك كأنى أحب اثنين، وإذا عاد أبى إلينا لا أجد فى قلبى شيئاً من الحب أخصه به، وهذا ما أخشاه. وإحساس أندريه الصغير هو الإحساس الذى بنى عليه (فرويد) نظريته فى حب الابن للأم وغالى فيه حتى جعله مثل حب (أوديب) لأمه وهو لايعرف أنها أمه، وهذا قياس محال، وقصة الملك أوديب قصة معروفة من قصص قدماء الإغريق.

١٦ـ المراهقة وأحلامها قد تسبب للمراهق حزنًا، ولكنه حزن مملوءٌ بالسعادة، فتلتقى التعاسة والسعادة فى وقت واحد، ولا غرابة فإن من الناس مَنْ يأنس إلى المحزن ولو سُلِبُ منه أحسَّ فراغًا فى نفسه وحياته.

١٧ـ من الخطأ المضحك أن يحزن إنسان أو يَتَملَّكهُ الغيظ إذا ابتكر نظرية فوجد ما يثلمها ويهدمها؛ إذْ أن النظريات ما خُلقَتْ إلاَّ كى تكون هدفًا للرماة، وكى تصاب حتى تزول كما تزول الفقاقيع، وإحساس المرء بالغيظ إذا عُورضت نظريته حماقة وضيق ذهن وأثرة ونقص.

١٨ـ وجد الباحثون بعد البحث والتقصّى أن القصص الخرافية والأساطير الشعبية موجودة أمثالها عند شعوب لم تتصل فى ماضى تاريخها ـ وهذا قد يجعل المفكر يرى أن اعتقاد بعض المؤرخين أن الحضارة نشأت فى بقعة من الأرض وانتقلت منها إلى باقى البقاع فيه غلو؛ إذْ أن عقل الإنسان أساسه مشترك ومهيئات الحضارة كثيرة متنوعة، والمعروف أنها تنمو بتبادل الآراء على طرق المواصلة، فليس أشحذ للذهن منها، وأما قول بعض المؤرخين إن جمهور الناس لو ترك وميله، حدثت له رجعة ونكسة وإنه أميل إلى التخريب، وإن سطح الأرض مكسو بالحضارات التى هُدمَتْ وخُرِبَتْ فلا ينفى ماذكر، والحقيقة أن الخلاف خلاف لفظى محصور فى تفسير معنى نشأة الحضارة، فعند أية مرحلة يُعتَرفُ بالنشأة؟ نعم قد تسبق بعض الأمم غيرها فى نُموّ الحضارة، ولكن النموّ

غير النشأة.

١٩ـ كان معلمنا المسيو شوتار جبانًا يخشى الكلاب واللصوص والرعد والعربات فى الطرق، وكان يخشى كل ما قد يؤذى الإنسان، ولكنه كان إذا وصف الحروف والوقائع فى دروس التاريخ وما قاساه الأبطال فيها من آلام وجروح ومشاق وما لاقوه من العذاب والموت، برع كل البراعة، وكان يخيل له أنه يقاسيها معهم ويقاسمهم مجدهم، وكان يجد لذة فى إهلاك الجيوش الكثيرة بحيل قديمة، أو مبتكرة يتخيلها، وهكذا شأن كل جبان يحاول أن يعوّض نفسه عما فقد من الشجاعة إما بادعاء الشجاعة، وإما بوصف أعمال الشجعان والأبطال، ويجد فى ذلك مايعينه لاحترام نفسه، ولذته فى وصف إهلاك الجيوش الكبيرة بوسائل مبتكرة، من القسوة التى كثيراً ما تلازم الجبان، وأكثر الناس بهم شىء من الجبن حتى ولو كانوا شجعانًا، وقد قال أحد الأبطال: (من زعم أنه لم يخف قط ولم يجبن قط فهو أكبر كاذب) وإنما العبرة بما تئول إليه النفس بعد التغلب على الخوف عند مفاجأة الخطر وبعد أول وهلة، ومن المعروف أيضًا فى الاختلاف بين الطبع والقول أن بعض الكتاب المتزمتين فى حياتهم يولعون بتصنيف كتب المجون كأن أنفسهم تريد أن تأخذ حظها مما فَاتَها منه فى الأعمال بتنميق الأقوال فيه والافتنان فى أساليبه بالكتابة، وقد تكون صفتهم العجز عنه لا التزمت، فيلجئون إلى ما يلجأ إليه هؤلاء من زخرف القول.

٢٠ـ شغف بعض الناس بالمعرفة ناشئ من البغض أو الحسد، ولكن ضعفى بالمعرفة كان شغف من يود أن يألف الأشياء والحيوان والإنسان، لاشغف من يتخذ المعرفة أداة الأذى، وكل ما رأيته أو سمعته كان يهيئ لى وسائل هذا الشغف ويعيننى على الإحساس بعناصر الحياة وأسسها.

٢١ـ كان دوسيل رجلاً فاضلاً محبا للحرية، ولكن الثوار المتطرفين حبسوه فى أثناء الثورة الفرنسية الكبرى، فصرخ ممتعضًا قائلاً: أهذا جزاء خمسين سنة قضيتها فى مناصرة الفضيلة والحرية؟ وهذا يذكرنا غيظ بارناف عندما ساقوه إلى المقصلة (الجيولوتين) كى يعدم، وكان من الذين ناصروا الثورة من أول نشأتها

ونشأته» فدقَّ الأرض بقدمه من الغيظ وقال: أهذا جزاء مناصرتى للحرية وعملى على تحقيقها؟! ويذكرنا أيضًا غيظ كاميل ديمولَن، وهو من أوائل المنتصرين للحرية عندما ساقوه إلى الإعدام فمزَّق ثيابه من الغيظ وقال للجمهور: ألست أول من دعاكم إلى الثورة على الاستبداد؟ وكان الجمهور يهزأ به ويضحك ويسخر منه، وكم من إنسان فى هذه الدنيا يفعل كما فعل هؤلاء ويحس كما أحسوا إذا غمط حقه ووكس حظه ووجد جزاء الخير شرًا، وجزاء العمل تثبيطًا لتضارب الآراء وتنازع المصالح، والعاقل من لايجعل جزاءه بإظهاره الغيظ سخر الجماهير اللاهية عنه فى أثناء اقتتالها على الحياة وتنازعها المنافع كما فعل هؤلاء.

٢٢ـ قد علمتنى المدرسة أن التلميذ الصغير كثيرًا ما يعجب بما يقرأ، أو بما يلقى إليه من غير فهم أو إدراك للمعنى، وإنما هو يلتذه بإحساسه وخياله، أو بالإيحاء أو قدرة من يقول: إنه فاهم أو يدَّعى الفهم أو يخشى أن يُتهم فى عقله.

٢٣ـ ماتت جدتى وأنا صغير وبالرغم من خيبة أملى عند ماسمعت العصافير تغنى وكل شىء فى الدنيا كان كأن لم تمت جدتى، فإنى كنت أحس إحساسًا غامضًا أن جمال الأشجار وبهاء السماء وأصوات الأحياء أمور كلها متصلة بما يسمونه الموت وبه يتجدد.

٢٤ـ لابدَّ أن نتخلى عن كثير من أمور ماضى العالم، ولكن ينبغى ألا نتخلى عنها كلها، وأن نكون فارغى القلوب والعقول منها؛ لأننا لانستطيع بناء المستقبل إلاَّ بمادة الماضى.

٢٥ ـ من أهم أسباب سعادتى أنى كنت دائمًا إذا رغبت فى شىءٍ وأعوزنى الحصول عليه واستعصى علىّ، لا أكيد نفسى بالحزن والغيظ لفواته، بل أستعيض عن ذلك بأن أتخيل أنى حصلت عليه وحزته وتمتعت به، وقد أكسبت هذه العادة تخيل التمتع به شدة فى الوضوح وأثرًا بالغًا فى الإحساس ومسرة كمسرتى بالحقيقة. فكان الخيال يغنى عن الحقيقة، ونعمة الخيال هذه لاشك

فيها، إلاَّ أنها قد توهن قدرة المرء على العمل، ولاسيما إذا كان بطبعه يميل إلى الكسل ويحتاج إلى الراحة فتسبب خيبة الكسالى.

٢٦ ـ كنت فى صغرى عظيم الثقة بالحياة شديد الإيمان بها، بالرغم مما كانت تلحقه بغيرى من الشقاء والتعاسة والمصائب، ولكل إنسان نصيب من هذه الثقة بالحياة حتى بالرغم مما تلحقه بذاته من الآلام والشقاء وإن كان يرى أنه أحق من غيره بالسعادة وبالعصمة من الشقاء ـ والآن صرت أفرق من كلمة الغد وأخشى المُقْبل من الأمور والحوادث، وقد فقدت ثقتى بها التى كنت أعتز بها فى الشباب، ولكنى لا أزال أحب الحياة كما يُحب العاشق عشيقته التى فقد ثقته بها.

٢٧ ـ كانت أمى تعظنى وتمنعنى من مخالطة الصغار المُشرَّدين فى الشوارع وتقول يا بُنَىَّ لاتحسب أنَّ ذلك من جناية جنوها، وإنما جنت عليهم الحياة فصرت أرحمهم بدل أن أحسدهم على نعمة الحرية التى فى التشرُّد، حقّا، لقد علمتنى أمى من صغرى بقولها هذا ألا أغتر وألا أخدعَ بقول الأثرياء السعداء: إن الأشقياء إنما كانوا أشقياء بسبب ما جنوه على أنفسهم... وهم إنما يقولون ذلك كى يسوّغوا إغفالهم إصلاح مساوئ الحياة.

٢٨ ـ حبَّبَ إلىَّ الخيالُ وقراءة الكتب حياة الترهب والتقشف وامتنعت عن الطعام، فسألتنى أمى عن سبب ذلك وقد راعها أن ترى طفلها الصغير تبدر منه بادرة الرغبة فى الزهد، فقلت إذ سألتنى يا أمى إنى أفعل ذلك كى أكون شهيراً ذائع الصيت وأطبع بطاقة أكتب فيها اسمى وأكتب تحته (الزاهد الشهير فى الدنيا) فصرخَتْ أمى: لقد فقد ابنى رشده قبل سن الرشد، فقال أبى: لاتزعجى نفسك، إن الدنيا ستعلمه الزهد فى الشهرة قبل أن يزهد فى الحياة... وقد فعلت، لقد علمتنى الدنيا الزهد فى الشهرة قبل الزهد فى الحياة، وما من مرة عاودتنى فيها الرغبة فى الترهب والزهد إلاَّ جَدَّدَتْ الحياة فى نفسى الرغبة فى مقاسمة الناس أعمالهم وأن أجد السعادة فى ذلك.

٢٩ ـ لو عاشت أمى لسَرهَّا أن تجد أكبر فضيلة لى فى التسمُّح مع الناس ولو

وجدت أن أكبر نقص لى فى الشعور بهذا التسمُّح؛ لأن التسمُّح لا تتم فضيلته إلاَّ إذا كان أمرًا طبيعيًا يصدر عن المرء من غير شعور بأنه يتسمَّح ومن غير اعتداد به.

٣٠ ـ إن للأطفال منطقًا عجيبًا، ولكنه مستقيم ـ لقد قالت جيسى الصغيرة لخالها: إنك لابدَّ أن تحبنى يا خال؟ قال متفهمًا: ولماذا أحبك؟ قالت: لأنى صغيرة. كأنها تقول: إن الصغير الضعيف أحق بالرعاية، وإن الضعيف أحق بأن ينال مايحتاج إليه، ووجه الخلاف فى هذا المنطق أن الإنسان لاينال دائمًا فى هذه الدنيا ما يحتاج إليه، ولكنه خطأ طبعى من جيسى الصغيرة؛ لأنها لاتعرف الدنيا ونظامها.

لم يتسع هذا المقال إلا لنظرات قليلة من كتاب واحد من كتب أناتول فرانس العديدة، وهو القصة المسماة (كتاب صديقى).

* * *

تكملة نظرات أناتول فرانس[1]

ـ ٦ ـ

١ ـ كان جان أيلو (السمَّاك) قليل الكلام، ولكن كلامه كله كان مقصوراً على ذكر المصائب ووصفها كمصائب أقاربه الذين ابتلعهم البحر وهم يصطادون السمك، وعلى كثرة ذكره المصائب لم أجده إلاَّ وادعًا مطمئنا، كأنما يجد فيها كلها خيراً؛ لأنها أمرٌ مقدر ـ وهذا السمَّاك الجاهل يذكرنى حكمة (جويتى) كبير أدباء الألمان التى وصل إليها بالثقافة ورياضة النفس بعد العهد الذى أسماه عهد العاصفة والشدة وهى قوله: الرجل السعيد هو الذى يطمئن إلى مايريده القضاء كأنما هو الذى يريده ويرغب فيه إذا كان أمراً محتومًا، وقد وصل جان ايلو إلى مثل هذه الحالة بالطبع والغريزة أو العادة.

٢ ـ وكانت خادمتنا ميلانيِ تمر كل يوم على صاحبات الدكاكين ويشوقها أن تحادثهنَّ، وكان كل حديثهنَّ مقصوراً علىِ ذكر الأسقام والأمراض وأنواعها وآلامها وأوصافها، كأنما فى وصفها لذَّة لهنَّ، فإذا انتهين من حديث الأمراض ولَجْنَ حديث الجرائم التى تقشعر منها الأبدان ـ وهكذا تُرَفِّه الحياة عن بعض الناس حتى بأنواع غريبة مألوفة من أحاديث النكد والفزع والرعب.

٣ ـ يتَّفقُ فى بعض الأحايين أن يتنافر زميلان فى كل أمر، وأن يختلفا فى كل شىء، وأن يتشاجرا فى كل خلاف، ومع ذلك تكون بينهما رابطة وثيقة وصلةٌ متينةٌ وألفة دائمة أساسها هذه المشاحنة التى تصير ديْدَنًا لا يستغنيان عنه، وعادة لاتتم سعادتهما إلاّ بها ودعامتهما إذا استراحا فترة من المشاحنة اتفاقهما فى أمر واحد كالسخر بمن عداهما من الناس.

(١) المقتطف: أبريل سنه ١٩٤٨.

٤ ـ كان فى طريقنا حانوت على بابه صنمان، وقد علمتنى أمى أن أراهما يبتسمان إذا أحسنت السلوك ويعبسان إذا أسأت، وكانت أمى تقول: اعمل خيراً تبتسم لك الدنيا ـ وتوهُّمى ابتسام الصنمين وعبوسهما من الإيحاء النفسى، ولكنه مؤسس على حقيقة وهى أن المرء إذا كان راضيًا عن سلوكه وعمله سُرَّت نفسه، فتنعكس أشعة سروره على مرآة الدنيا.

٥ ـ قالت بلقيس: إن سكرة الفزع تسرى فى أوصال جسمى ليلاً؛ فإن للخوف أو الفزع لذَّة فى بعض النفوس أو فى بعض الحالات، وهذا يذكرنى قول (لفنجستون) الرحالة المستكشف وقد أوقعه أسد على الأرض ووضع قدمه عليه وكاد يفترسه ويقضى عليه لولا أن رجلاً قتل الأسد فقال لفنجستون: إنى كنت أشعر بذهول لذيذ من الخوف، ولعلَّ هذه اللذة فى الخوف من الأساليب التى تخفف بها الحياة فى بعض الأحايين ويل الآلام والمصائب، وربما يعترى مثل هذا الذهول كثيرا من الحيوانات التى تكون فريسة وطعمة لغيرها، ويذكرنى هذا قول (بيرون) الشاعر الإنجليزى: إن من رحمة الحياة أن الإنسان لايستطيع أن يتحمل إلاَّ قَدْرًا محدوداً من العذاب، فإذا زاد العذاب أُغْمِىَ عليه أو هلك، وهو فى الحالتين لا يحسه ـ ومما يذكر عن الجنود أن أشد الجروح قد لا تصحبها آلام فى بعض الحالات أو تصحبها آلام أقل من آلام الجروح الخفيفة.

٦ ـ كان لى صديق اعتزل العالم وعوّد نفسه ألا يفكر ولا يعمل خشية أن يكون لفكره أو عمله عواقب من الشر يصيب الناس ولا يتوقعه فَقُلْتُ له: إن امتناعك هذا قد يجلب الشر أيضًا وليس الفكر والعمل والقول ما يُقصر عليه مصير الإنسان والتحكم فى حياته، فإن حصاة صغيرة تنسلخ من جبل قد تكون لها عواقب كثيرة غير متوقعة، وامتناعك عن العمل قد يتخذه أناس طريقًا للخير والهداية فيقاتلون من لايعتنقها. قال صديقى: فلابدَّ إذًا أن يموت الإنسان حتى يسلم من عمل الشر، قلت: احذر من قولك هذا؛ فإن موتك أيضًا عمل، وكل عمل قد تكون له عواقب من الشر غير متوقعة.

٧ ـ زار جان سرفيان بيت صديقه ادجار، ورأى مظاهر الترف والنعيم، فشعر بنقص ووضاعة، وسألته أم صديقه قائلة: ما صناعة أبيك؟ قال مستخذيًا: إنه

مُجَلِّدٌ للكتب، وأحسَّ بالغيظ والنقمة على أبيه الذى اختصه بكل ما استطاع، وَوَدَّ ألا يراه أبداً من الغيظ والحنق والشعور بالذلة. وكل ذلك بسبب زيارة قصيرة لبيت الترف، وهى زيارة لاتنفعه كما نفعه أبوه ـ وهذا يذكرنى اعتراف (جويتى) كبير أدباء الألمان أنه فى أحلام العظمة كان يجول فى خاطره أن أباه ليس الرجل الذى رباه، بل إن أمه حملت به سفاحًا من أمير جليل الشأن، ويذكرنى أيضًا قصة من قصص (جى دى موباسان) سمح فيها فلاح فقير لرجل غنى عقيم ولزوجه العاقر أن يَتَبَنَّيا ابنه وأن يربياه، وكان جاره قد رفض ذلك مستعزا بابنه، فلما كبر الغلام الذى رُبِّى فى النعيم وترعرع وزار القرية ورآه الغلام الفقير المستعَزُّ به حقد على أبويه حرمانه من هذا التبنى فى كنف النعيم ولعنهما وهجرهما وهما فى حاجة إليه فى كبرهما ـ وهكذا الإنسان ينسى فضل أقرب الناس إليه إذا غلبته الآثرة والغيظ والحسد والطمع.

٨ ـ وكان جان مغيظًا محنَقًا، وأحس برَّغبة فى أن يرى إنسانًا أو جمادًا ـ أو حيوانًا ـ يُشْبع منه نهمة غيظه وكرهه وقسوته ـ وهكذا الإنسان قد يُنَكِّلُ بمن لم يكن سبب غيظه إذا استشرى الغيظ وتملكه الغضب وفارقه الإنصاف ونزل إلى مرتبة الجنون أو الإجرام أو البهائم أو ما دون ذلك.

٩ ـ قال الأب سرفيان: تعلَّمْ يا بُنىَّ واشتهر، ولاتَخْش عند ما تصير وزيرًا أن تجلب لك المعرَّة بوضاعة أصلنا فإننا نختفى أنا وعمتك فى قرية صغيرة، فغضبت العَمَّة وأبت إلا أن تدبر أمور منزل ابن أخيها عندما يتعلم ويشتهر ويصير وزيرًا وألحت على أن تدبر شئونه وشاحنت أخاها وشاجرته، كأنما كانت تعاركه فى أمر قد حصل أو هو قريب الحدوث، وهكذا الناس فى حماقتهم يتطاحنون حتى على الخيال أو المحال.

١٠ـ قد يتسامح المرء فى الاختلاف العظيم إذا اطمأنت نفسه إلى عقيدته أو عرف أن خصمه لايستطيع السموق بفكره والتسامى برأيه إليه؛ كى يلم به ويستوعبه، كما كان يصنع الراهب لونجمار مع من ينتقد دينه وعقيدته، ولكنه قد يدركه الغيظ إذا خلط مناقشه ووضعه فى طائفة ليس منها وبينهما فى العقيدة والطريقة فرق قليل إذا كانت بين الطائفتين منافسة، وهكذا كان يغضب الراهب

لونجمار إذا نسبه أحد الناس إلى طائفة من الرهبان غير طائفته، وكان يقول: إن الرجل الذى لايستطيع التمييز بين الطائفتين لايستطيع أن يرى الذبابة فى اللبن، وهذا يدل على أن الطوائف المتقاربة قد تكون أشد تباعداً ونفوراً بسبب قلة الخلاف بينها، كما يدل على أن الإنسان غريب الخلاف لنفسه، فيتسامح فى الأمر العظيم ويتحامق فى الأمر الصغير فى بعض الأحايين.

١١ـ إنك إذا اغتفرت لإنسان ذنبًا وكان اغتفارك ذنبهُ على سبيل الاحتقار له والزراية عليه والإزراء به والإصغار لشأنه والتهوين من أمره، فإنه قد لايغتفر لك صفحك وعفوك وكرمك إذا كان باعثك على ذلك الازدراء والاحتقار، وإذا عرف أن هذا كان باعثك، .وهذا بالرغم من استفادته من اغتفارك ذنبه والصفح عنه.

١٢ـ قد يثير وقار المعاتب الذى لايقبل الجدل من الغيظ أكثر مما تثيره ضجة المخالف الصاخب الذى يقبل الجدل ويقابل الصخب فيه بصخب مثله؛ لأن الأمر قد ينتهى عند ذلك ولا يخلف كبتًا ولا قهرًا فى النفس مادامت ضجة المخالف تقابل بضجة مثلها أو قد تكون معاودة بعد مثل هذا الخصام إلى الألفة والعشرة، أمّا وقارُ المخالف الهادئ الذى لايقبل جدلا ولاصخبًا فلا حيلة فيه ولاسبيل لدفع لومه وقد يسبب القطيعة والوحشة طول العمر.

١٣ـ إذا ثار ثائر وخاب وهزمَ عُدَّ مجرمًا عاصيًا، أما إذا ظفر ونجح عدَّ حاكمًا شرعيًا ـ قوله الشريعة والقانون، وأعداؤه هم المجرمون ـ فلو أن يوليوس قيصر هزم بعد عبوره نهر روبيكون فى زحفه على روما، ولو أن نابليون بونابرت خاب وقتل يوم انقلاب بروميير عندما ثار على الجمهورية الفرنسية الأولى، لَعُدَّا الآن من المجرمين ولم تعرف شرائع وقوانين باسمهما.

١٤ـ فى بعض الأحايين تستغل حكومة السلطة فى الحكم، فيخاف الناس أن تسقط إذا تعوّدوا تتابع الحكومات المستغلة، فتأتى بعدها حكومةٌ شرٌّ منها. وهذا يذكرنى قصة امرأة عجوز كانت تذهب كل يوم إلى بيت العبادة كى تدعو ربها أن يطيل حياة الطاغية الذى كان يحكم بلدتها سرقوزة، فعلم بها وأرسل فى طلبها. فلما مثلت بين يديه سألها: لأى أمر تدعو له كل يوم بطول العمر. فقالت أخشى

إذا مت أن يخلفك من هو شرٌّ منك. ويذكر هذا بقصة الجريح الذى سقط الذباب على جروحه وامتص دمه فأشفق عليه رجل، وأراد أن يبعد الذباب عنه، فرجاه أن يتركه؛ لأن الذباب الواقع على جروحه كان قد شبع من دمه، فإذا أزاحه عنها حلَّ محله ذباب لم يرتو من دمه بعدُ فيكون هو الخاسر.

١٥ـ كانت فلسفة (روسُّو) مؤسسة على أن الإنسان بطبعه مخلوق خيِّر طيب فاضل، وهى عقيدة لايعتنقها إلاَّ من لايستطيع الضحك ولا الابتسام، وقد ظهر تناقضها عندما اعتنقها ساسة الثورة الفرنسية الأولى وحاولوا تطبيقها، فقد كان (روبسبيير) يحسب أنه من المستطاع أن يبلغ الإنسان كمال الفضيلة، فاشترك فى حكم الإرهاب كى يبلغ به حد الفضيلة، فاضطرَّ إلى الإكثار من استخدام القتل عقوبة، وهكذا كل سياسى عظيم التفاؤل بهذه العقيدة يبدأ بقتل بعض الناس، ولو تُركَ يصنع مايشاء لقضى على الناس جميعًا أو على أكثرهم.

١٦ـ من العجيب أن كثيرين يضعون الإنسان فى فصيلة تشبه فصيلة القرود، ثم يغضبون إذا رأوا خصاله تشبه خصال القرود.

١٧ـ إنما كتبت قصة الثورة الفرنسية كى أوضح أن الإنسان لم يبلغ من الكمال حدا يمكنه من أن يكون عادلاً إذا عاقب بدعوى مناصرة الفضيلة، فالرحمة إذًا أقرب إلى العدل، ولن يتم عدل الإنسان إذا نظر إلى جانب العدل وحده وأهمل جانب الرحمة ـ ولكن الناس تثور وتقتل وترتكب الموبقات بدعوى مناصرة الرحمة أيضًا وإرهاق ما يخالف مبدأها.

١٨ـ قرأ لنا معلمنا المسيو كروتّو قصة مارسياس الإنسان الحيوانى الذى أراد أن ينافس أبُولّون رب الفنون الجميلة فقهره أبولُّون وقتله وسلخه، فارتعت ووجمت ولم أعرف كيف أسوِّغُ قسوة رب الفنون الجميلة إذ سلخ خصمه، وأخْلِقْ بمن كان رب الفنون الجميلة أن يُنزّه نفسه عن هذه القسوة الشنيعة وأن ينزه الناس عن قدوتها، وإلاَّ فبأىِّ شىءٍ تكون تلك الفنون جميلة إذا لم ينزه نفسه، ولكن عندما تذكرت أن صورة مارسياس تشبه فى خيالى صورة معلمنا كروتُّو الذى كنت أمقته، سهل علىَّ أن أغتفر لأبولون قسوته ـ وهكـذا الإنسـان يسوّغ الشر إذا

وقع بشبيه من يكره ولا يرى القسوة قسوة إذا قاساها من يعادى أو شبيه من يعادى.

١٩ـ أستطيع أن أقول قول (روسو): إنى لاأكذب إلاَّ لتأييد الحق ـ وإذا استرسل المرء فى هذا المنطق استطاع أن يسوّغ كل شر بدعوى تأييد الحق أو تأييد ما يخال أنه الحق وإن لم يتضح له ولم يتحقق بما لاشك فيه أنه الحق.

٢٠ـ كان من سوء حظ جان سرفيان وهو عائد إلى منزله أثناء ثورة الكوميون فى باريس أن قابل بعض الثوار تقودهم امرأة، ورأى الثوار أن جنود الحكومة يقتربون، فأرادوا الفرار، فقالت المرأة: نقتل هذا أولا وأشارت إلى جان ولم تكن تعرفه ولم يكن له ذنب بل كان من حزبها أو يميل إليه، ولكن المرأة استهواها حبٌّ سفك الدماء فأطلقت عليه الرصاص ووقفت ترقص على جثته ـ وعدل هذه المرأة أو ظلمها مثل عدل أو ظلم كثير من الناس وإن ظهرا فى مظاهر أخرى؛ إذ أن من عادة الناس أنهم ينكلون أولا ثم يبحثون وقد لايبحثون.

٢١ـ كتَّاب الاعترافات يغالطون أنفسهم ويغالطون الناس؛ إذ يزعمون أنهم لم يخفوا عن القراء شيئًا من حياتهم وأفعالهم وخصالهم وخطرات نفوسهم، إذ أن هذا الاعتراف الكامل أمرٌ لن يستطيعه إنسان، ولم يستطعه جان جاك روسو، بالرغم من صراحته فى اعترافاته وذم نفسه والإساءة إليها.

٢٢ـ أعظم فائدة تفيدها حقائق الحياة أنها أساس يبنى الناس عليه آمالاً للحياة ليست فيها.

٢٣ـ مما جعلنى أغتفر للحياة آلامها أنى قرأت قصة لكاتب وصف فيها أناسًا لايغضبون ولا يحزنون ولا يألمون ولا يشتهون ولا يحبون، فرأيت أنه قد محا السرور والسعادة والجمال والشعر والفنون عندما محا آلام الحياة ومكارهها.

٢٤ـ كنت فى صغرى أحب أن أتودَّد إلى أقرانى، فيعترينى الحياء، فلا يكون جزائى إلاَّ السخر؛ لأن الحياء يبعث على الإحجام عن التودُّد والارتباك والتردد فيه، فلا يكون نصيب صاحبه إلاَّ السخر منه والانصراف عنه ـ وقد يخال ما به الكبر والصَّلَف والزهد فى الناس والتعالى عنهم ـ وهذا إذا لاقى من هو أكثر منه

جرأة، فإذا قابل من هو فى مثل حيائه كان نصيبه أيضًا الإهمال والانصراف عنه، فالناس كثيرًا ما يسيئون الظن بصاحب الاحتجار والإحجام عن التقرُّب إليهم من حيائه وخشية أن يكون نصيبه فى تقرُّبه منهم النفور منه أو الإهانة أو السخر أو الازدراء، فكم منع الخوف من هذه الأمور من مودات وألفة وتفاهم، والناس معذورون؛ إذْ أن صاحب الحياء يشعر بنقص من أجله وقد يستره بالكبر، وقد يغالى فيستره بالخشونة والتجهُّم فى معاملة الناس.

٢٥ـ ربما كان أشد الناس اضطهادًا للناس هم الذين قاسوا آلام الاضطهاد وثاروا عليه ولكن معاناتهم له لاتَعِظُهُمْ، والمعروف أن الذين يريدون أن يغيروا نُظُم الحياة كما يشاءون يأبون على غيرهم أن يريدوا ما أرادوا، وقد يغالون فى ذلك.

وقد كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ يرتعد إذا رأى شبانًا فى مظاهرة سلمية، ويود أن يستخدم الشرطة النار والسلاح لمنعها، وهذا الشيخ كان فى شبابه عضوًا فى كل جمعية سرية ثورية، وزعيمًا فى كل ثورة، ومن الأقوال المعروفة: أنك إذا أردت أن يتخلى ثائر عن حدَّته فاجعله وزيرًا فإنه يصبح من المحافظين، إذ أن مسئولية الحكم ونظرته إلى الأمور تَدْعُوَانِهِ إلى أن يرى من الأمر مالم يكن يرى قبل قيامه بأعباء الحكم.

٢٦ـ كثيرًا ما يحدّثك محدّث فيقول: سنرى قريبًا تغيرًا كبيرًا فى نظم الحياة وسننها، ولكن الأمور لاتتغير إلاَّ ببطء ـ ومادام الإنسان إنسانًا فإن طبائعه وغرائزه التى نشأت ونمت ورسخت فى مئات الآلاف من السنين لاتتبدَّل إذا تبدلت إلاَّ ببطء، فمثل الإنسان إذا غير نظام حياته وحسب أنه غير طباعه أو نسخها مثل من يغير ثيابه ويحسب أنه قد غير نفسه. وليس معنى ذلك أن نظم الحياة لايحسن أن تتغير، فقد قال أناتول فرانس فى مكان آخر إن: نظم الإنسان وشرائعه وقوانينه كثيرًا ما تكون مؤسسة على القسوة والظلم والمحاباة، فإذا لم تنظف من حين لآخر كانت كالحجرة المظلمة المهملة تحت الأرض تربى فيها الحشرات وتغزل فيها العناكيب خيوطها وبيوتها، فليس لها إلاَّ المكنسة.

٢٧ ـ الغريزة فى الفن كالغريزة فى الحب، هما الدليل الذى يعتمد عليه، فإذا فارق الإنسان غريزته فى الفن كان كالسمك الذى أخرج من الماء لاتطول حياة فنه بعده.

٢٨ ـ إن الأفكار الغالبة على الجنود وإن كان بينهم أبطال أفكار بعيدة عن البطولة، وكذلك تزعاتهم مثل الإقدام على العدوّ خوفًا من أن يبيدهم إذا نكصوا وولوا الأدبار أو مثل خوفهم من العار والتعيير إذا أدبروا وجبنوا، أو مثل اتقاء العواقب المتنوعة غير المعروفة للهزيمة إذا انهزموا خوفًا، أو مثل الخوف من الحكم بالإعدام على من يفر هربًا أو حتى مثل الخوف من الخوف، فإن الخوف من الخوف قد يؤدى إلى مظاهر الشجاعة والبطولة أو لأن الإنسان سريع الاستجابة للإيحاء، فإذا وضعت فى يده سلاحًا أحسَّ بميل إلى إدخاله فى بطن ما.

٢٩ ـ كثيراً ماتصدر عن المرء أعماله وأقواله كأنها آتية إليه من خارج نفسه، وإنما هى من استجابته لأمور الحياة واندفاعه فى تيارها، ومن أجل ذلك كثيراً مايكون المرء أعظم أو أحقر من نفسه، أى من المألوف منها فى حياته.

٣٠ ـ من فوائد العمل أنه يصرف المرء عن التفكير فى آلام حياته وعن الأفكار التى قد تستحوذ على العقل والنفس وتستعبدها فتكون مثل الجنون وهو يشيع الغرور فى الإنسان وقد يوهمه القدرة على مغالبة القدر ويلفت المرء عن مقدار عجزه فى أمور كثيرة.

٣١ ـ صديقات عقيلة برجريه أرغمنها على ترك زوجها، وكانت قد خانته وقبلت وهى تحتقره فى سرها، لأنه هو المظلوم، أن تَغتفر له لومه إياها وأن تصالحه وتبقى معه، ولكن صديقاتها أبينَ إلاَّ أن تترك بيته صيانة لكرامتها بعد أن اتهمها فى شرفها، وكنَّ يُظهرنَ مؤازرتها ومناصرتها، وإنما كان مقصدهنَّ الذى أخفينه رغبتهنَّ فى التخلص منها وهى ثقيلة لديهنَّ رعناء، وقد تَفْضَحُهُنَّ برعونتها

وحماقتها، فكان كيدهن لها يلبس لباس المناصحة والمؤازرة، كما أنهنَّ كنَّ يكرهنَ زوجها لأنه كان رجلاً مفكراً وكنَّ يسئنَ به الظن من أجل ذلك.

٣٢ ـ إن خلق عالم جديد ربما كان أسهل على المرء من فهم نفسه فهمًا كاملاً على سبيل التقصى من غير أن يفوته شيء من حقائقها.

* * *

خاتمة نظرات أناتول فرانس

-٧-

١ ـ ذهبت إلى أمى وأنا طفلٌ صغير وقلت لها: إن عاشق خادمتنا جوستين قد هجرها، فنظرت إلى وقالت: هل هى التى أخبرتك بذلك؟: قلت: لا، ولكنى لاحظت وعرفت، قالت: إن من التطفل المعيب أن نتحدَّث عما قد نلاحظ من أمور الناس، وأشد منه عيبًا أن نحاول معرفة ماليس من شأننا من أمورهم، أو أن ندَّعى تلك المعرفة.

٢ ـ ورأيت قصة تُمثَّل فى دار التمثيل، وكان أحد الممثلين يمثّل الشيطان، وكان من حوادث القصة أن يقتل بطلُها الشيطانَ، فلما رأيت الشيطان مقتولا اعترانى الوجوم والذهول وظللت فى مكانى بعد انصراف النَّظَّارة المشاهدين حتى جاءَت سوزان تبحث عنى فقالت: مالى أراك واجِماً حائرًا؟ قلت: لقد قُتل الشيطان يا سوزان، وإذا قُتل الشيطان زالت الشرور، وإذا زالت الشرور زالت الفضائل التى فى مكافحة الشرور وبها تُعْرفَ، فماذا يكون مصير الناس عامة والفضلاء خاصة ياسوزان؟ فضحكت سوزان وطوّقتنى بذراعها وقالت: لا تقلق فكرك ولاتزعج نفسك فإنَّ الذى رأيته تمثيل لاحقيقة فلا قُتل الشيطان ولا زالت الشرور ولاانمحت الفضائل التى فى محاربة الشرور وبها تُعرف؛ وهذا يذكرنا الذين يخشون إذا أمن الإنسان الفقر والجوع والعرى والمرض أن تضعف غرائز المقاومة فيه وعزائمه التى بها ارتقى بسبب الكد كى يأمن الجوع والعرى، وبسبب إعمال فكره لتجنب الفقر والمرض، فيضعف عقله أيضًا. ولمثل هؤلاء يقال:

---

(١) المقتطف: مايو سنه ١٩٤٨.

لاتجزعوا ولا تزعجوا أنفسكم ولا تقلقوا بالكم، فلا زال الفقر ولا المرض انمحى، ولا قُضى على الجهل.

٣ ـ كان اعتمادى فى الهروب من المدرسة وأنا صغير على الفوضى التى تخالط نظام الحياة مهما كان النظام سائداً، وهذه الفوضى المخالطة للنظام قد تلطف من ظلم الحياة وشدَّة العدل ـ أوقد تزيد ظلمها ـ والإحساس بهذا الاختلال الملازم للنظام، قلما يكون إذا كان المرء راضيًا عن الحياة. وفى الاطمئنان إليه كما فعل أناتول الصغير لذة وسعادة تحجب عنه الخوف من عواقبه؛ إذ أنه يرى أنه قد يُلَطف شدّة الحياة، وهذه الفوضى الملازمة للنظام تكثر فى أعقاب دول الأمم التى قاست عصوراً طويلة من الاختلال أو فى أوقات الانقلاب.

٤ ـ ينبغى للإنسان إذا اعتنق رأيًا أن يقبل نتائجه وعواقبه القَصيَّات وإلاَّ كانت مقدَّمات أفكاره تخالف أعقابها واختلَّ منطقه وحاول التوفيق بين المتناقضين، وقد يخدع نفسه ويخدع الناس وهو لايشعر بهذا الخداع. وهذه الفكرة تذكرنى أنى قرأت مقالين للاستاذ جوليان هوكسلى فى أولهما يأسف؛ إذ أن شركات الاحتكار وكبار الماليين تتخذ من نتاج العلوم فى الطب والهندسة وغيرهما وسيلة للكسب، بدلاً من أن ينتفع به الشعب كله إلاّ فى حالات الأوبئة التى يخشى منها كبار رجال المال على أنفسهم وإلاَّ فى مجهود الجمعيات الخيرية الضئيل، ولكنه لم يفسر كيف يستطاع منع احتكار نتاج العلوم للكسب تفسيراً مفصلاً مقنعًا إلاَّ بقوله تنشأ لجنة علمية مشرفة، وفى المقال الثانى يقول إن الحروب لا تزول إلا إذا كانت هناك تربية دولية تحاول أن تقضى على غرائز الكره والانتقام والحسد والاقتتال وغيرها، ولكنه لم يفسر تفسيراً عمليا مقنعًا كيف يقضى على هذه الغرائز ونظام المنافسة يحييها ويزيدها تمكينًا كلما حاول المعلم محوها بالوعظ، هل صحيح ماقال نيتشه الفيلسوف الألمانى إن الانجليز يحجمون عن تتبع أفكارهم إلى نتائجها القصيات أم أن هذه صفة أكثر المفكرين من كل أمة إذا غلب عليهم الفكر وخشوا من غلبته أن تزعزع ثبات حياتهم.

٥ ـ فى بعض الأحايين يتخذ المرء لنفسه عونًا على المصائب بأن يهزل معها أو يداعبها على سبيل الفكاهة والترويح عن النفس، كما كان يصنع المسجونون فى

سجون الثورة الفرنسية الكبرى وهم على وشك أن يُعدمُوا. فكانوا فى سجنهم يحاكون المحكمة الثورية على طريق الفكاهة والسخر، فيحاكمون إنسانًا ويدَّعون إعدامه، ثم ينتقلون به إلى الحياة الأخرى فيحاكمونه فيها. والإنسان إذا لم يستطع إلاَّ مواجهة الأمر المخيف أحس إيحاءً بالإقبال عليه، كالفتاة التى تركتها قريناتها فى حجرة مغلقة مع جثة على سبيل المزح فلجَّ بها الذعر وأحست هذا الإيحاء حتى احتضنت الجثة وهى لاتعى، فلما عادت قريناتها وجدنها جثة لاحراك بها معانقة للجثة، ومن المستطاع أن يفسر عمل المسجونين بأنه كان من محاكاة ميل النبلاء الذين كانوا قبل الثورة يتخذون من كل أمر جلَّ أو حقر مادة للهو، وشاعت هذه العادة حتى أن الملكة (مارى انطوانيت) أحبت أن تعيش فى أكواخ يخيل للرائى أنها مهدمة كأكواخ الفقراء، وإنما كان مظهر تهدمها زينةً وتصنعًا بالفن، فاتخذت من الفقر مادة للهو، وقصتها تذكرنا قصة محبوبة ابن عباد ملك الاندلس أو إشبيلية فإنها رغبت فى مثل هذه الرغبة؛ لأنها اشتاقت حياتها الماضية، فبنى لها ابن عباد كوخًا إذا رأيته حسبت أن أرضه من الطين كأرض أكواخ الفقراء، وإنما كانت أرضه من العنبر الغالى وأمثال هذا اللهو بكل شىء تكثر مؤذنة باضمحلال الدول، على أن لهو المسجونين فى سجون الثورة كان دليلاً على الشجاعة أو لاستشارة الشجاعة فى نفوسهم وقهر الخوف.

٦ ـ القط الأليف من فصيلة الأسد المتوحش، وكذلك الإنسان المهذَّب الخيّر من فصيلة الشرير الأثيم، والوديع المسالم المتحضر من فصيلة الهمجى الساطى، ولكننا ننسى ذلك حتى تبدر بادرات الغرائز الكامنة، والرجل الواحد قد يكون فى معاشرة إنسان مهذبًا كاملاً خيِّرا وفى اتصاله بإنسان آخر شرّيراً دنيئًا خبيثًا، وفى الثورات والحروب ينضو المسالم المتحضر الوديع لباس الحضارة والوداعة والمسالمة وقد يبذ المُسَمَّيْنَ بالمتوحشين فى قسوتهم وهمجيتهم، ولكن القسوة والهمجية قد تكونان ظاهرتين حتى فى أثناء السلم فى حياة الرجل المتحضر الذى يألفه أصدقاؤه وكأنهم لايرون شره وخبث طبعه.

٧ ـ بعض الكتَّاب إذا كتبوا للأطفال كتبًا اقتصروا فيها على لغو القول مدَّعين فيها أنهم أسفُّوا وهبطوا إلى مستوى عقول الأطفال، فتكون نتيجة ذلك أنَّ

الأطفال ـ ولاسيما الأذكياء ـ يضحكون منهم ويهزءون بهم، ولا أعنى أنه ينبغى التفكير النظرى، فهذا لاتستسيغه عقول الأطفال، ولكن الأطفال يعجبون بكتب الخيال مِمَّا ألفه العبقريون مثل كتاب روبنسون كروزو وأجزاء من الأوديسية، ونستطيعَ أن نقول أيضًا كتاب ألف ليلة المهذب المنقح وأجزاء من كتاب أسفار جاليفار ودون كيشوت وأسرة روبنسون السويسرية وأمثالها، وكتاب أليس فى أرض العجائب يقبله الكبار كما يقبله الصغار بالرغم من سخف العبقرية فيه؛ لأنه كأنه يعطى العقل إجازة مسلّية، وأما محاولة تلقين الأطفال النظريات العلمية فى كتب يحسب الكاتب أنها تفهمها عقولهم فهى محاولة لايقبلونها ولا يجدون فيها مسرةً، إذ هى للتلاميذ الكبار لا للصغار منهم.

٨ ـ لاشىء أكثر خداعًا للمرء من فطنة الحواس ـ لأنها إما ناقصة وإما ينتفع بها المرء كى يخفى عن نفسه مايريد إخفاءه لمنفعة عاجلة أو ميل نفسى ـ ولو اتضحت الأخطاء أنها أخطاء ما خُدع بها أحد، ولكن فطنة الحواس هى التى تكسوها ثوب الصواب والحقيقة فيتحامق الناس فى نصرتها والاقتتال عليها.

٩ ـ بالرغم من أنى رجل مسالم أحب السكينة والنظام، فإنى أحب أن يكون فى نفس كل إنسان شىء ولو قليل من التمرُّد، مهما كان سنّ ذلك الإنسان، أما الاستسلام التام للحياة فهو ركود وفناء.

١٠ـ لو استطاع الإنسان أن يدرس نفسه دراسة تامَّة وأن يعرفها حق المعرفة لسببت له تنغيصًا وشكا ويأسًا، ومن أجل ذلك أرى أن رسائل مونتانى الذى كان يدرس فيها نفسه لم تكن إلاَّ لهوًا يتسلى به كى ينسى آلام وجع الكلى الذى انتابه ونغّصه ـ ولكن أناتول نسى ما قال مونتانى وهو أنه كان يدرس فى نفسه نفوس الناس ولاسيما من حوله ومن كان يقابلهم. وفى مثل هذه الدراسة نجد تعزية لاتنغيصًا مادام يرى غيره شريكًا له فى صفات نفسه، بل ربما كان فيها إكبارٌ لنفسه.

١١ ـ مهما قسمنا العمل قسمة عادلة بين الناس فإنه سيظل عبئًا ثقيلاً على أكثر الرجال والنساء؛ لأنه عبء الحياة، وهذا لايمنع من إنصاف المثقل بأعباء الحياة والترويح عنه.

١٢ ـ إنه ليؤلم الإنسان إذا كادت حياته تنصرم أن يفكّر فى أن العالم بعد موته يعيش ويعمل ويحس ويفكر كأنّ حياته لم تكن، وعندئذ لايكون له رأى أو عمل أو إحساس فيها ولا يحاول تنظيمها كما يشاء، فيحسّ كأنه غارق فى مَدّ الحوادث وتيار الزمن، وقد عزاه (شوبنهور) بأنه ماهو إلاّ مظهر من مظاهر إرادة الحياة وأنه لاحياة له من غيرها، أى عزاه فى كتبه وهى تعزية لا تُعزّى.

١٣ ـ كما أن الطبيعة تُحوّل الإنسان وتُشكّله وتغيّره وتتحكم فيه، فالإنسان كذلك يغيّر الطبيعة ويشكّلها ويحوّرها. وهذا موضوع كبير، يرجع إليه فى كتب فون راتزل، ومس سميل، وفير جريفز وغيرهم، وقد أراد (أوسكار ويلد) أن يضع هذه الحقيقة فى أسلوب فكاهى فقال: إن الطبيعة تحتذى ألوان الرّسامين المصورين الحديثين فى ألوان الضباب الذى يحدث فى لندن، وإنّنا ما كنا نَرى للضباب مثلَ هذه الألوان قبل احتذاء الطبيعة ألوانَ الرسامين الحديثين، ومما هو أبلغ فى الفكاهة أنّ (ماكس نورداو) الناقد الألمانى الشهير أخذ هذا القول مأخذ الجدّ فقال: إن هذا الرأى يدل على سخافة عقل أوسكار وايلد وانحطاطه وقوله هذا فى كتابه المسمّى (الانحطاط)، ولكن ماكس نورداو معذور؛ إذ أن بعض الكتّاب لاتكاد تستطيع أن تميز فكاهته من جدّه.

١٤ ـ حقا إن للعقل أثراً فى الجسم، كما أن للجسم أثراً فى العقل (وهذا شىء يعرفه الأطباء حق المعرفة وهو موضوع كبير أيضاً) وقد كان بيير الصغير يدمن النظر فى صور المزارع، فتعاوده ذكرى الأيام التى قضاها فى المزارع وعاد بعدها نضير الوجه بضّ الجسم ظاهر الصحة يقبل على طعامه وينضّر وجهه ويعاوده مظهر الصحة إذا أدمن النظر فى صورها وتأملها تَأمُّلَ المستملى محاسنها، فكأنه عائد من نزهة ريفية.

١٥ـ إن شغفى بقراءة الكتب من صغرى جعلنى أحسّ من عهد ذلك الصغر بفناء العالم؛ إذْ كَمْ من فكرة جاءت ثم زالت، وكم من رأى ولد كى يموت، وكم من نظرية استحدثت كى تنمحى كما تنمحى الفقاقيع، وكم من مذهب ساد ثم باد، وبعد أن كان مقبولاً صار مرفوضًا، فصرت أحس برحلة عقل الإنسان فى فيافى الزمن.

١٦ ـ كان لى كلب كنت أتأمله وهو نائم، فأراه كأنه يحلم، وتارة يئن كما يئن المتوجع المهموم، وتارة يبسم أو كأنه يضحك، وتارة يبكى فكأن له نفسًا يقظى ووعيًا باطنًا كما للإنسان ـ وهَذا يذكرنى (تورجنيف) القصصى الروسى فى قصصه القصيرة التى تشبه الشعر المنثور، إذ كان يدمن النظر فى عينى كلبه فيرى فيها عواطف الإنسانية جميعها فناداه بالأخوة، وهى على الأقل أخُوّة فى الحياة.

١٧ ـ قال لى أنعون فورنيه الرحالة متفكها: احذر أن تكسر البيضة من الجانب المُحَدَّب الأصغر، اكسرها دائمًا من الجانب المنبعج الكبير؛ لأن قومنا يكسرونها من ذلك الجانب، وقد طُفْتُ العالم فوجدت أن الناس المعروفين بالخير هم الذين يصنعون كما يصنع غيرهم حتى فى الأمور الصغيرة التافهة، وإذا خشيت أن تنسى نصيحتى فعليك بالعزلة، اعتزل الناس كى لا يروا سهوك وكسرك البيضة من الجانب الصغير، وقد احتذى أناتول فى هذه الفكاهة سخر (يونوثان سويفت) الكاتب الإنجليزى فى كتاب أسفار جاليفار، فإنه أيضًا تخيَّل فى دولة الأقزام ليليبوت حزب جانب البيضة المنبعج، وحزب جانب البيضة المُحَدَّب، وأقام بينهما حروبًا ومؤامرات وعداوات، والموعظة فى هذه الفكاهة هى أن الناس كثيرًا ما يتعادون ويتقاتلون لأسباب تافهة.

١٨ ـ تذكر أنك لاتستطيع أن تهب أحدًا السعادة، بأن تقهره على أن يرى السعادة فيما تراه أنت سعادة، فلكل إنسان رأى فى السعادة، وكان يستطيع أناتول أن يقول أيضًا: إن هذا الرأى كثيرًا مايتغير فتارةً يرى الإنسان السعادة فى شىءٍ وتارة فى ضده، وفى بعض الأحايين يرى السعادة فيما فيه شقاؤه وهو لايدرى.

١٩ ـ لابدَّ لكل جيل أن يختبر تجارب الحياة بنفسه؛ لأن الحياة كأنها تنشأ من جديد بنشأة كل جيل؛ إذ أن التجارب لا تُعَلَّم وإنما يكسبها الإنسان بمزاولة الحياة، وقد لاينتفع بها بالرغم من ذلك، ولعلَّ ضرورة اختبار تجارب الحياة فى نشأة كل جيل من أسباب قلة تغيرها أو تغيرها ببطء.

٢٠ ـ بعض الناس إذا أصابه أمرٌ مخزن ونفَّس عن نفسه بمظاهر الحزن احتقر نفسه من الكبر، ولو تذكر أنه ليس أعظم من الأمر الذى أحزنه لما زاد على نفسه

المصائب بهذا الكبر، لأنَّ احتقاره لنفسه بسبب حزنه أو المخالط لحزنه يزيد المصيبة أو الأمر الذى حزن من أجله.

٢١ ـ بعض حقائق الحياة قد تكون غريبة على قربها وألفتنا لها حتى إنها لغرابتها قد نعدها فكاهة لاحقيقة ـ وهذا يذكرنى قصة من قصص (سموست موام) اشتهرت فيها امرأة بفطنة الفكاهة وذكائها وما كان ذلك إلاَّ لأنها كانت ساذجة فكانت لاتستطيع لسذاجتها أن تتجنب ذكر الحقائق المألوفة التى يحاول الناس نسيانها ويتحرَّجون من ذكرها.

٢٢ ـ المال له دولة عالمية حقيقية كبيرة قوية كدولة البابوية والكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى، وهى دولة مستقلة ذات سيطرة، ولكن كثيراً ما ننسى أن نعدها بين الدول العظمى.

٢٣ـ كثيراً ما تسرف الحكومات إسرافًا كبيراً فى مظاهر الأبهة والعظمة ومناصب السياسة النائية أو غيرها، وتحاول أن تقتصر فلا تستطيع فتوهم نفسها أن كل ذلك أمرٌ ضرورى لهيبتها وصيانة مصالحها، ثم هى تشكو من قلة المال الذى تحتاج إليه لإصلاح حال الناس فترهقهم بالضرائب.

٢٤ ـ ذوو العقائد المختلفة فى البقعة الواحدة قد يكونون أقرب أخلاقًا من ذوى العقائد المتفقة فى البقاع المتباعدة فكان الامبراطور جوليان الوثنى يصوم ويزهد فى لذَّات الجسم ويعتقد التكفير عن الخطايا، ويرى أن الألم مطهّرٌ للنفوس، كما كان يصنع المسيحيون فى عهده، ولو قارنت بين المسيحية فى أوربا وبينها عند الزنوج لوجدت اختلافًا كبيراً واختلافًا فى أخلاق الفريقين.

٢٥ ـ بعض الناس يكره العلم من شدَّة عشقه له، كما يكره العاشق محبوبته إذا وجد أنها بالرغم من جمالها وحسن أخلاقها لم تستطع أن تجلب له كل أحلامه وأمانيه، وكذلك بعض الناس يكرهون العلم لأنه لايستطيع أن يفسر كل شىء، وما ادَّعى أنه يستطيع ذلك، وبعضهم يكره العلم لأن الغرائز الإنسانية الموروثة قد تستخدمه فى الشرّ، والعيب عيب الإنسان لاعيب العلم.

٢٦ ـ الأفكار كثيراً ماتكون وليدة النزعات النفسية المتناقضة، فتتناقض أفكار الإنسان كثيراً وهو يحسب أنها غير متناقضة، وقد يغضب إذا نبهته إلى ذلك ويلج فى إنكاره.

٢٧ ـ حسن الذوق ضرورى... فكثيراً ما ترى إنسانًا قبيح الذوق يقول: فلانٌ «ليس عنده حسن ذوق»، وهو من ضرورات الحاكم والسياسى؛ لأنه يشمل صفات أخرى كثيرة مثل عدل المرء فى قوله وعمله وخلقه.

٢٨ ـ ما استطاع الإنسان أن يؤسس الحكومات إلاَّ لأنه يأمل أن يكون حاله فى غده أحسن من حاله فى يومه، وهذا الأمل يتجدد بالرغم من خيبته.

٢٩ ـ ليس انتشار ثورة أو نجاحها دليلاً على مقدار الظلم الذى ابتعثها، فإنه إذا كانت جماعة من الناس جائعة متبلدة القول والإحساس من التعاسة هزيلة الأجسام لاسلاح لها إلاَّ الغيظ والمقت كانت أضعف وأعجز من أن تزيل الظلم بثورة ناجحة، وهذا أمرٌ معروف فى التاريخ؛ فإن بعض الحكام كان يتعمد إيجاد مثل هذه الحالة أو المحافظة عليها كى يظل هو وأنصاره مستأثرين بخيرات الحياة والحكم، ومن المعروف أيضًا أن الثورة الفرنسية مااستفحل أمرها لأن الفرنسيين كانوا أتعس حالاً، بل لأن تعاستهم كانت قد قلت نسبيا عن تعاسة غيرهم من شعوب القارة الأوربية وتعاستهم فى أزمان غابرة.

٣٠ ـ ربما كانت القسوة جُمَّاع الرذائل، وربما كان العنف ضعفًا لايغتفر إذ هو على الأقل ضعف الإنسان عن أن يملك نفسه وأن يحكمها.

٣١ ـ يصح أن نختصر وصف أسباب الخصومات فى كلمة واحدة، فنقول: إننا نلوم من لايفكر كَمَنْ يفكر، ومن لايشعر كَمَنْ يشعر.

* * *

نظرات مارسيل بروست[1]

-٨-

ينتمى مارسيل بروست إلى أسرة يهودية فرنسية نشأت نشأة مسيحية كاثوليكية. وله صلة قرابة بالفيلسوف الفرنسى المشهور هنرى برجسون، وكتب مارسيل بروست على صعوبة قراءتها لايستغنى عنها الباحث فى النفس، وقد وجد نقاداً ومعجبين به، فمن نُقَّاده من ذكر أنه ينظر إلى الحياة بالمكرسكوب، أى العدسة التى يُنْظَرُ بها إلى الأمور الصغيرة؛ فقال بروست: إنه ينظر بالتلسكوب، أى العدسة التى تُرَى بها الأمور البعيدة، والواقع أنه ينظر بالاثنين معًا بالمكرسكوب والتلسكوب. ومنهم من سماه على سبيل الفكاهة مس جين أوستن الفرنسية، يعنى القصصية الإنجليزية المعروفة. وهذا الوصف لايشابه الحقيقة إلاَّ كما تشابه الحقيقة الصورة الكاريكاتورية المبالغ فى بعض ملامحها على سبيل الفكاهة، وصحيح أنه يتفق وجين أوستن فى ولوعهما بأحاديث المجتمعات والمجالس فى القصص، وأن لكل منهما بصيرة سيكولوجية وأنهما قد يهتمان بالأمور الصغيرة، ولكن بروست يتوغل فى الأمور السيكولوجية ـ أى النفسية ـ توغلاً لامثيل له. وقد نشأ مريضًا مُعْتَلا وقضى الثلث الأخير من حياته فى بيته لمرضه، واتهمه ناقد آخر بأنه كان فى أكثر قصصه مولعًا بحياة النبلاء والأغنياء ومن اتصل بهم من الخدم وأنه لم يرَ الحياة كاملة من كل وجه كما رآها شكسبير أو بلزاك أو أناتول فرانس، ولكن ولوعه بحياة هؤلاء القوم كان ولوع الباحث لا ولوع المعجب المأخوذ بما يرى، وإذا وصل فى بحثه إلى حقيقة سيكولوجية فإنها حقيقة فى كل النفوس بلا تمييز بين الطبقات، وقد نشأ لاعتلاله بين النساء،

(١) المقتطف: يونيو سنه ١٩٤٨.

ولعلَّ ذلك أكسبه شيئًا من أسلوب النساء فى التحدث عن جيرانهنَّ والاهتمام بأحاديث المجتمعات مهما كانت تلك الأحاديث صغيرة، وإعطاء تلك الأحاديث فى بعض الأحايين قيمة نفسية أكبر من قيمتها، ولكن القارئ إذا صبر على قراءتها عاد بفائدة ما قد تحتويه فى بعض الأحايين من الدراسات النفسية التى تتخللها، وبالرغم مما قد يعترض القارئ فيها من الملل فإن بعض كتبه قطعًا لايمل القارئ معاودة قراءتها، وقد يستطرد فى تتبع البحث النفسى استطرادًا بعيدًا. وله أسلوب شائق فى وصف مناظر الطبيعة والناس. وقد اعترف سمرست مُو ام القصصى فى كتابه المسمى (بالخلاصة)، أنه شعر بملل شديد فى قراءته كتاب (طريقة جرمانتيس) من كتب بروست، وقد شعرت بمثل هذا الملل، ولعلَّ من أسباب الملل أيضًا أن القارئ يود أن يقرأ عن حوادث هامة، وقصصه ليست قصص حوادث بل قصص زيارات وأحاديث أو بحث نفسى، أو يود أن يقرأ شيئًا من مثل فكاهة أو سخر أناتول فرانس الحيوى، وقد ذكر هافلوك إيليس فى كتابه المسمى (رقصة الحياة) وهو اسم رمزى مدحًا كثيراً لطريقة بروست فى البحث النفسى ولاسيما فى كتابه المسمى (فى الأجمة المزهرة) وأحسب أن هافلوك إيليس كان مصيبًا فى اختيار هذا الكتاب من كتب بروست ولو أن بعض المعجبين به يفضلون كتابه المسمى (طريقة سوان) ولكنى أفضل ما اختاره هافلوك إيليس وأراه أملأ لنفس القارئ، إلاَّ إنى أرى أن كاتبًا مثل بروست لاينال الإنصاف التام، ولا يعرف مقدار بحثه فى النفس إلاَّ بقراءَة كتبه كلها إذا كان ذلك من المستطاع، وبروست يذكر أن حياة الأثرياء التى يصفها حياة تبعث الملل بالرغم من وجاهتها وزينتها، فإذا كان ذلك حقا فهو يزيد فى براعة فنه الذى به استخلص منها الحقائق النفسية العديدة.

ومن نظراته النفسية ما يلى:-

١ - كثير من الناس يردّدون آراء معاشريهم بشغف واهتمام خاص إذا كانوا لم يعرفوها من قبل، ولا يستطيعون الحكم عليها أصواب هى أم خطأ، وإنما يولعون بترديدها وإظهار اللهفة فى ذكرها، وقد يقنعون السامع أنها آراؤهم وأنهم قادرون على فهمها والحكم عليها.

٢ ـ قد يسوء رأى المتحدث فى سامعه، ولكنه مع ذلك يشركه فى سماع ذم إنسان أخر غائب، كأنما السامع خال من صفات الذم التى ذكرها، فيسرع سامعه إلى التصديق والموافقة بشغف ولهفة وبضحك ومسرة؛ كى يبعد عن نفسه احتمال الوصف بالصفات المذمومة المذكورة، وهو قد يعرف أن محدثه يغتابه كما اغتاب الغائب، ويذمه فى غيبته كما ذم الآخر، ولكن ذلك لايمنعه من مشاركته فى ذم المذموم ظنا منه أن موافقته قد تبعد الريبة عن نفسه وتمنع محدثه عن اغتيابه فى المستقبل، وهذه منه محاولة خائبة، ولكنها تتجدد وتبعث الأمل والزهو والارتياح.

٣ ـ فى بعض الأحايين تبدر من إنسان شرير بادرة حنان وعطف أو يؤدى معروفًا غير متوقع، فنشعر بارتياح نحوه وشكر له أكثر من ارتياحنا وشكرنا إذا كان غير شرير. ولعلَّ فى شكرنا وارتياحنا تلهفًا إلى الاطمئنان من شره وارتياحًا لزوال توقع الشر منه أو سرورًا وتعاظمًا باختياره إيانا لعطفه وخيره وإن اختار غيرنا شره، وهذا بالرغم من أننا قد نسيء الظن بالباعث الذى بعثه على الخير وهو شرير. ولعلنا لانشعر بهذه اللهفة والارتياح إذا كان العطف أو المعروف من رجل من أهل الخير؛ لأن العطف أمرٌ مفروض ومتوقع من مثله.

٤ ـ من طبيعة الكذب أن الكاذب مهما أتقن كذبه، تبدو منه فلتة صغيرة فى أثناء إحكام الكذب وحبكه، وهو يظن أن سامعه لايهتم بالتأكد من صدقها والبحث عن حقيقتها لصغر شأنها، ولكن سامعه قد يتتبعها بالبحث ويتأكد من كذبها فتكون سببًا فى كشف كل كذبه، وتدعو إلى سوء الظن به وسوء الرأى فيه، وقد تطلع هذه الفلتة الصغيرة سامعه بغتة على كذبه فَيُفَاجأ الكاذب مفاجأة غير سارة ويحاول تفسيرها وتلافيها فلا يستطيع، وهذا كما يقال فى المجرم الذى يفكر ويتخذ كل أهبة لمنع نسبة الجريمة إليه، ثم هو بالرغم من كل تفكيره واحتياطه يترك أمرًا صغيرًا يدل عليه لايفطن له ويكون السبب فى كشف جرمه.

٥ ـ متى أقنع الإنسان نفسه أنه ذو أخلاق سامية ثم حقد على إنسان أو غضب عليه فإنه ربما استطاع أن يحمل نفسه على ارتكاب أى عمل دنيء لإشباع حقده وإرضاء غضبه إذْ أى شيء لايكون مُبَاحًا خلالاً للقِدِّيس الفاضل والملكِ الطاهر الذى يراه فى نفسه.

٦ ـ بعض المهذبين المثقفين إذا أدَّوْا خدمة أو أهدوا هدية قللوا من قيمتها وأصغروا من شأنها مجاملة وتأدبًا وتلطفًا فى العشرة، ولكن بعض من تهدى إليه الهدية أو تؤدى له الخدمة يأخذ قولهم مأخذ الجد، فيوافقهم عليه بطريق مباشر أو غير مباشر، إمَّا من قبح الذوق أو قلة العقل أو حُبا للتعاظم، فتكون موافقته لمن أدوا له الخدمة باعثة للامتعاض أو الغيظ، فيمتنعون من التلطف والتجمل معه أو من أداء أى خدمة أو صنع أى معروف.

٧ ـ قد يمدح المادح إنسانًا ولا رغبة له فى مدحه إلاَّ للتعريض بسامعه كأنَّ المادح يريد أن يقول لسامعه إنه ليس على صفات المدح التى ذكرها فى الممدوح، وقد يَفْتَنُّ فى إظهار قصده المستتر بلباقة تمنع من صراحة المؤاخذة فَيحَارُ السامع ويرتبك، وقد يجارى المادح فى مدح الممدوح لارغبةً فى مدحه ولا لأنه يعتقد أن الممدوح يستحق كل هذا المدح وإنما يجارى المادح خشية ـ إذا لم يجاره ـ أن يقال إنه يكره صفات المدح المذكورة فى الحديث وإنه خال منها وإنه فطن إلى التعريض به وإنه يستحق ذلك التعريض به.

٨ ـ كانت السيدة فيردوران لاتدعو إلى منزلها من الضيوف إلاَّ من يوافقها على كل رأى مهما كان سخيفًا، وعلى كل قول مهما كان باطلاً محالاً، فلم يبق لها من الزوار غير المستذلين المستضعفين، وكانت تقول لهم إن فلانة النبيلة الثرية لايزورها الضيوف والزوار إلاَّ لأنها تدفع أجرًا كبيرًا لمن يزورها على زيارته لها، وبالرغم من أن ضيوف السيدة فيردوران كانوا يتمنون أن تدعوهم تلك النبيلة الثرية وبالرغم من أنهم كانوا يعرفون أن الناس يتلهفون ويتوقون إلى زيارة تلك النبيلة الثرية وأن قصة دفعها أجرًا لمن يزورها قصة ملفقة باطلة، فإن أمثالهم من المحرومين الذين تستذلهم السيدة فيردوران لآرائها لأرائها وأقوالها كانوا يستطيعون أن يحملوا نفوسهم على نسيان الحقيقة وإنكارها، ويستطيعون أن يصدقوا قولها عن تلك النبيلة الثرية، وكان يحلو لهم ادعاء الترفع عن زيارة نبيلة تدفع أجرًا لمن يزورها على زيارته كما أوهموا أنفسهم وصدَّقوا، وهكذا تستطيع النفس أن تقبل المحال الباطل الذى لايخفى بطلانه، إذا كان فيه مايرضى زهوها أو حسدها أو

حقدها أو حتى ما يُرضى إيحاء الموحى الباطل إذا رجت من ذلك الموحى بالباطل عطفًا أو خيرًا أو ما يرضى أهواءها وخواطرها السانحة التى تستعز بها.

٩ ـ لعلَّ من أسباب نسبة المُحَدِّث عيوب نفسه إلى غيره من الناس، التلذذ بالتحدث عن نفسه بطريقة غير صريحة، وهى طريقة تطهره من تلك العيوب فى نظر بعض الناس كما يظن، وتعطيه لذة المعترف اعترافًا غير صريح وغير محسوس وكأنه يجد لذة فى مباشرة عيوبه التى ينسبها إلى الناس من غير أن يؤاخذه الناس على تلك اللذة ومن غير أن يفطنوا إليها، وكل إنسان مشغول منهوم بصفات نفسه وميولها، فتلفته تلك الصفات إلى مثلها فى غيره أو يتوهم أنها لفتة، ويقنع نفسه ويخادعها فى تلك اللفتات وهو يحسب أنه يرى الناس مرآة لنفسه فينسب إليهم مالايزينه، وعلاوة على ذلك فإن كل سيئة فى نفس المحدِّث كأنها مهنة يعرف أسرارها وكل عيب كأنه حرفة يدرك خفاياها، وكل صاحب مهنة أو حرفة مولع بالتحدث عن حرفته أو مهنته؛ لأنه يعرفها أكثر مما يعرف أى شىء آخر، كما يحلو للطبيب أن يتحدث عن الطب، وللمعلم أن يتحدث عن التعليم، وللمحامى والقاضى أن يتحدثا عن القضاء والقوانين، وللنجار أن يتحدث عن النجارة، وللزارع أن يتحدث عن الزراعة، وكذلك صاحب السيئة والعيب، يتحدث عنهما كأنهما مهنة أو حرفة الكلام فيهما غالب على لسانه، ولكنه ينسبهما إلى الناس بقصد التجمل والترفع.

١٠ـ بالرغم من شرور الناس وقسوتهم وتحاسدهم، فإن كل نفس بها جانب من الخير والحنان والكرم والرقة، وقد تجده غريبًا فى النفس بين صفات تخالفه كما قد تجد الزهرة النادرة النفيسة غريبة فى وادٍ مُوحش قفر مجدب. وإذا منعت الأثرة ومنع حب النفس من ظهور جانب الخير من النفس، فإن تلك الرقة وذلك الحنان والكرم صفات موجودة مستترة فهى موجودة بالرغم من خفائها. وقد تجد الرجل الفظ الغليظ الطبع القاسى إذا قرأ قصة مؤثرة يبكى لما حَلَّ بالضعفاء والأبرياء فيها من الآلام والظلم حتى تفيض دموعه وتبلل وجهه، وهو قد لايتورَّع فى أعمال الحياة من أن يفعل مثل ذلك الظلم الذى أثار عطفه وأراق دموعه عند ما قرأ القصة، ولكن الإنسان إذا قسا أو ظلم سَوَّغ عمله. فإنه يعد

نفسه دائمًا عادلاً مهما كان قاسيًا ظالمًا، ويقول إن القسوة قد تكون نوعًا من الرحمة، بمثل هذا القول يسوّغ المرء إتيان ما يجلب له منفعته أو يرضى نهمة غضبه بالرغم من جانب الرقة والعطف فى نفسه.

١١ ـ كثيراً ما يقول إنسان لآخر يسرنى أن أفعل كذا كى أسرك ثم يحسب أنه قد أدّى له خدمة، أو صنع معه معروفًا، وما يهم السامع ليس ما يدعى القائل أنه يود عمله ليسره، بل مايستطيع أن يعمله كى يسره، ولكن القائل يستطيع أن ينسى ذلك وأن ينسى أنه لم يعمل ما يدعى أنه يود أن يعمله كى يسر السامع، ويكاد يقنع نفسه أنه فى الواقع قد صنع معروفًا وأدّى خدمة، والمجاملة فى الكلام محمودة ولاشك، ولكن من غير المحمود أن يغالط المجامل القائل نفسه حتى يظن أن المجاملة تقوم مقام الحقيقة وحتى يحسب أن سامعه مدين له بالمعروف الذى يكاد يقنع نفسه أنُه أدّاه.

١٢ ـ إذا وصف إنسان إنسانًا آخر أمامك بمدح أو شر، فإنك قد لاتصدق القائل، ومع ذلك تتأثر بقوله المرفوض بالرغم منك أو قد تتأثر كلما رأيت ذلك الإنسان الموصوف أو كلما فكرت فيه أو سمعت به أو اتصلت به أى اتصال، ولعلّ ذلك من طرق الإيحاء، ولعلّ هذا التأثر يكون فى الوصف بالشرّ أكثر مما يكون فى الوصف بالخير؛ لأن أثرة النفس تجعلها أميل إلى التأثر بالشر إلاّ إذا كانت لها عند الموصوف حاجة ورأت أن الحصول عليها بأن تتأثر بوصف الواصف له إذا كان خيراً.

١٣ ـ إن الإنسان إذا حدثه محدّث مغرم بأن يطبق على نفسه كل حديث بالخير أو الشر؛ إذ أنه يفكر فى نفسه حتى ولو كان مُحَلِّقًا فى سماء التفكير النظرى العام، وبعض الناس يستطيعون إخفاء هذا التطبيق إذا كان الحديث كريهًا يخفض من قدر أنفسهم ويظهرون أنهم لم يطبقوا الحديث على أنفسهم ولاصلة لهم بموضوعه، وبعضهم ترى فى عينيه شيئًا من الشك والقلق وسوء الظن خشية أن يكون المحدّث يريد بحديثه النظرى العام الإشارة إلى شىء فى أنفسهم لايستملح.

١٤ ـ ليس الإفحام فى المجادلة والمحاجة دليلاً دائماً على رجاحة رأى المناظر الذى أفحمك، فقد يُفْحِمُك المجادل فلاتستطيع الرد والقول، إذا كانت آراؤه لاتصال لها بنفسك وعقلك أو لاحقيقة لها على الأطلاق، أما المناظر اللبق فهو إذا أدلى بحُجَّة ورأى راجح قد يستطيع أن يجد جانبًا من عقلك يألف ذلك الرأى وإن خالفته فيستطيع أن يتصل بأفكارك ويلقحها كما تلقح الأشجار؛ ومن أجل ذلك كان «برجوت» إذا ناظرنى أستطيع أن أرد عليه القول، ولكن رأيه كان يلقح رأيى ويتداخل فى نفسى، وكانت طريقته فى المناظرة أن يرد على قولى بما يخالف رأيى وكأنه لايخالفه إلاَّ فى بعض الأمور دون بعضها، فكان يصل رأيه برأيى مظهراً موضع الاتفاق، حتى ولو كان صغيراً، وموضع الاختلاف وأسباب الاختلاف، فتكون مقبولة أكثر مما تكون لو فصل بين رأيى ورأيه فصلاً تاماً.

١٥ ـ إن سرور المرء إذا فهمه وقدّرَهُ رجل ذو عقل كبير راجح، أقل من غيظه أو حزنه إذا لم تفهمه ولم تقدره امرأة، كأنها لاعقل لها ولا ذكاء، لغباوتها، إذا كان يحبها؛ فالإنسان يغتبط إذا فهمه من يحبه أكثر من اغتباطه إذا فهمه من لايحبه.

١٦ ـ إن اتفاق الآراء والنظريات لايؤدى إلى تدانى المثقفين قدرمايؤدى إلى تدانيهم ائتلاف الأرواح والأذواق والأمزجة، وقد يُظْهر المرء امتعاضًا وغيظًا إذا وافقه على رأى يستعز به إنسان يعتقد أنه فاسد الذوق جامد الروح ثقيل الظل حتى ليكاد من امتعاضه وغيظه أن يتهم الرأى الذى شاكله فيه ووافقه عليه من يستثقل من الناس، إلاَّ إذا كان صاحب الرأى سياسيا فيخفى غير ما يظهر؛ لأن همَّ السياسى كسب الأنصار وإن كان يستثقلهم، أو إذا كان صاحب الرأى فيه ذلك الشعور بالنقص الذى يدفعه إلى العطف على كل من يردد رأيه ويوافقه عليه، وإن كان يخالف ذوقه ومزاجه. ومع ذلك فإن الرغبة فى احتكار الرأى لنفسه ولمن وافق مزاجه وذوقه نوع من الأثرة وحب الذات.

١٧ـ كثيراً مايدَّعى المرء عاطفة أو يتصنع شعوراً أو يهيئ فكرة باطلة وهو يعرف بطلان كل ذلك، فإذا لجَّ به هذا الادعاء وألحَّ عليه التصنع انقلبت هذه الأمور فى نفسه حقائق ومثَلُهُ مثَلُ الإنسان إذا أوحى إلى نفسه أنه مريض فلا

يزال به الإيحاء النفسى حتى يكون مريضًا معتَلا، وكذلك إذا ادَّعَى على إنسان دعوى تسوجب الملامة والمؤاخذة وهو يعرف أنها دعوى باطلة، فإنه لايلبث أن يصير ادعاؤه حقيقة فى نفسه، إذا لم يُراجَع مراجعة تؤدى إلى التفاهم.

١٨ ـ مما كنت أتعجب له أن «بلوش» كان كثيراً ما يذم من لايستحق بعض ذمه أو كله حبا للذم لالسبب آخر، كما أنه كان يمدح من لايستحق كل مدحه أو بعضه. وقد يختلف تفسير هذه الظاهرة منه؛ فلعله كان يتخذ من مدح المَمدوح وسيلة يخدع بها السامع كى يقبل ذم من يذمه، إذ أن مدحه الناس قد يُبعد عن الأذهان أنه حقود سيئ الرأى فى الناس، فاذا ذمَّ بعضهم تلمسوا له عذرًا أو لعل التفسير أنه كان يرى فى مدح الممدوح تكفيرًا عن ذم المذموم، أو لعلَّ الدافعين كانا يمتزجان فى نفسه، أو قد يكون المدح والذم استجابة منه للحالة الغالبة على نفسه من راحة أو تعب أو حزن أو سرور أو غيظ عام يحيله على إنسان معين أو ارتياح عام يشمل به نفس إنسان آخر فيصير مدحًا، وهذه الصفات كلها تشاهد فى الناس.

١٩ـ كان «بلوش» يُقْسِم ويحلف لا أملاً فى إقناع الناس بصدق الكذب الذى كان ينمقه بالقسَم، فما أظن أنه كان يأمل ذلك، وإنما كان يُقْسِم بدافع أشبه بالهستيريا وانسياقًا مع الشعور المتغلب على نفسه وجسمه، وذلك الدافع إلى الحلف والقسم كان يمنحه لذة شديدة فى تزيين الكذب بالحلف وتجميله بالقسم، وكان وهو يحلف يُخَيَّل لمن يراه أنه يفيض حنانًا ورقة ويذوب لطافة وإن كان موضوع الحلف يخالف كل ذلك، وكأنما كان ينتشى من عذوبة الإحساس الغالب عليه الذى دفعه إلى الحلف كذبًا ـ وبعضهم إذا حلف كذبًا يخالف عذوبة حلف «بلوش» بالكذب، فإن بعض الناس من إحساسه أنه كاذب ومن غيظه وخوفه أن يعرف السامع ذلك يحلف كذبًا وكأنه يكاد يلتهم سامعه، ويقسم كذبًا وكأنه يكاد يبتلع ذلك السامع، كأنه بالعنف يريد أن يخيفه فيصدقه.

٢٠ ـ إن بعض الناس قد يريدون أن يسمعوا من جليسهم قولاً يسرهم ويرضيهم، ولكنهم مع ذلك يريدون أن يوهموا أنفسهم أنهم لم يحثّوه على قوله، ولم يغروه به ولم يلحوا عليه فى طلبه، ولم يلجُّوا معه فى الحديث حتى

يذكر القول الذى يريدون أن يسمعوه منه، وهكذا فعل دوق «جرمانتس» مع «سوان» عندما أراد أن يسمع منه أن صورة جَدَّهِ من رسم كبار الرسامين المصورين، فجعل يقول له لا تملّقني، اذكر الحقيقة، ما رأيك فى الصورة؟ فلما ضاق «سوان» ذَرعًا قال: إنها كالنكتة الباردة والفكاهة الغثة، فلم يستطع الدوق أن يخفى إشارة تدل على الغيظ؛ لأنه لم يظفر بالقول الذى كان يُحِبُّ أن يسمعه، بل ظفر بعكس ذلك، والحقيقة هى أن هذا الإلحاح كثيراً ما يشاهد فى الناس.

٢١ ـ قد تكون خشيتنا فقد ما نود أن نملك ولم نملكه بعد، ولكنا نأمل ذلك فى المستقبل، أعظم من خشيتنا فقد ما قد ملكناه وتمتعنا به، ولعلَّ هذا من أهم أسباب غيظ المرء واضطغانه إذا نال أحد الناس شيئاً لايملكه المضطغن وقد لا يملكه، ولكنه قد يوهم نفسه أنه ربما حاز بعضه أو كله فى المستقبل، فيخيل له الوهم كأن الذى فاز به قد سلب منه أمراً واختلس منه شيئًا يملكه، وربما كان من البعيد أو المحال أن يملكه حتى فى المستقبل البعيد، فاضطغانه وغيظه مؤسس على وهم الأمانى الباطلة التى تجعل مالايمكن أن يملكه كأنه قد ملكه وسلبه منه الفائز به.

٢٢ ـ عندما نتكلم ونسمع كلامنا، كثيراً ما ننسى أن وقع كلامنا فى آذاننا وعقولنا ونفوسنا قد يختلف اختلافًا كبيراً عن وقع كلامنا فى آذان غيرنا وفى عقول السامعين ونفوسهم، فالأثر الذى نظنه لكلامنا فى آذان غيرنا يكون فى هذه الحالات أثر كلامنا فى آذاننا وفى عقولنا ونفوسنا، وننسى أن السامع قد لايصله كلامنا إلاَّ من وراء حجاب نفسى وعقلى أو جثمانى، كما يسمع المرء كلام من يحدثه من وراء مسقط مائى لجب صاخب، فيصله مختلف المخرج، وقد يختلف معناه فى ذهنه أو يفهم بعضه أو كله على غير ما أراد المتكلم، وهذه حقيقة ينبغى ألا يغفل عنها المتكلمون، ولاسيما من كان معلمًا منهم.

٢٣ ـ إننا إذا قابلنا إنسانًا يحدثنا واتجه عقلنا لسماع كلامه ولفهمه، لانشعر بسرور كالسرور الذى نشعر به إذا اتجه عقلنا إلى أنفسنا، هذا إلاَّ إذا كان اتجاه عقلنا لسماع المحدث لا يشغلنا عن التفكير فى نفوسنا أو كان قصير الأمد أو كان داعيًا إلى التفكير فى أنفسنا وفيما يهمنا.

٢٤ ـ بعض المثقفين من ذوى الأدب والحياء يخجلون ويتحاشون أن يعرف جليسهم وعشيرهم أنهم قد اطلعوا منه أو أن الناس قد اطلعوا منه على زلة بدرت منه أو نقص ظهر فيه. فإذا بدرت من الجليس بادرة سقطة، استحيوا له خشية أن يتأثر بظهور تلك السقطة وهم قد لا يهولون من أمر هذه الزلة، وقد لايعيرونها اهتمامًا، ولكنهم يخشون أن يهتم ويتأثر صاحبها لظهورها منه ويستحيون له أن يجرح ظهورها إحساسه، وهذا منهم من فرط لطافة الحسِّ التى قد تخشى أن يتألم الجليس إذا علم أن الناس قد فطنوا إلى زلته أو سقطته ـ ومن العجيب أن استحياء لطافة الحسِّ هذه قد يُفَطّن الجليس صاحب الإحساس والشك والفطنة إلى أن زلته قد كُشِفَ أمرها، وقد يحقد على من استحيا له، ويعد استحياءه نفوراً من زلته ويغيظه اطلاع صاحب الحياء على سقطته، وقد يكون هذا التحاشى والاستحياء عناء لاطائل تحته إذا كان صاحب الزلة ممن لايهتم باطلاع الناس عليها، ولكنه على أى حال يدل على أن صاحب الاستحياء ليس ممن قلت ثقافة نفسه، فيتتبع سقطات جليسه كى يظهرها ويكيده بها أو يسخر منه بسببها.

* * *

تكملة نظرات مارسيل بروست[1]

من مؤلفاته التى تسمى «ذكرى الأمور الماضية»

- ٩ -

١ ـ بعض المزايا التافهة التى نجدها فى أنفسنا قد لانقيم لها وزنًا ولا نأبه لها، ولكنها قد تزداد منزلة وتكتسب قيمة كبيرة فى نظرنا إذا أحببنا من يهتم لها ويقدرها ويرى لها فضلاً كبيراً.

٢ ـ بالرغم من ميل النفس إلى التخلص من سيطرة المسيطر عليها فإنها تشعر بخشوع واحترام وإعظام لمن يستطيع ضرها والتحكُّم فيها (فإذا استطاعت التخلص من ذلك التحكم بطل سحر الخشوع والخوف وحلّ محله العداء والسخر، وقد يزداد العداء بمقدار قديم خشوعها وبمقدار خوفها أو حذرها من عودة ذلك التحكم إلاّ إذا كان تحكُّمًا محبوبًا كتحكم المحبوب وأقربائه ومن يلوذ به ويقرب إليه، ومع ذلك فقد يخالط الحب العداء بسبب بين الخشوع والخضوع والذل) وقد يبقى أثر الخشوع بعد السيطرة.

٣ ـ من المألوف أن التفكير فى شىء أو الرغبة فى الحديث والتفكير فى معانى ما سيقال قد يمنعان المرء من سماع مايقال له ـ بل إن كل ذلك قد يمنع من أكثر من ذلك، فيمنع من رؤية الأشياء وتدبرها كأن ما قيل لم يُقل وما رُئِىَ غير موجود، وهذا يذكرنى قول المستر تشرشل فى كتابه فى حرب الدراويش فى السودان: إنه فى إحدى المواقع كان مشغول الفكر يتدبر الموقعة حتى أنه لم يسمع قصف المدافع وأصوات طلقات رصاص البنادق وغيرها من الأصوات فكأنما كان

(١) المقتطف: يولية سنه ١٩٤٨.

ينظر إلى صورة معركة ـ أو إلى السنما الصامتة، ويتفق أن يمر بالمرء صديق يحييه فيغفل عنه وعن تحيته سوادٌ رآه أو لم يره، وماتلك الغفلة إلاَّ من انشغال البال وإعمال الفكر.

٤ ـ إذا حسد الإنسان غيره فإنه يستطيع أن يقنع نفسه أنه لايحسده، بل يحتقره ويزدريه أو يكرهه لعيب فيه ـ كثيرًا مايخفى مظهر هذا الحسد عن صاحبه وعن الناس؛ لأنه يتقن التخفى ويتخذ لباسًا من الأمور الممدوحة. والواقع أن المرء يستطيع أن يقنع نفسه بهذه الوسيلة.أنه لايحسد بل يحتقر، وكلما أوغل فى إقناع نفسه استطاع أن يقنع الناس أيضًا. ومن أجل ذلك قد لايفطن المرء إلى حسده لغيره كما قد لايفطن الناس إليه إذا أقنعهم بما أقنع به نفسه.

٥ ـ كنت أرى فى أسرة جرمانتس ذلك التحول الذى ذاع فى عهد لويس الرابع عشر، أى تحول الإحساسات والأخلاق والفضائل إلى مظاهر من مظاهر اللطافة فى المقابلة والحديث والحركات وهى تخفى تحتها خشونة فى الأخلاق والإحساسات أو القسوة وقلة الاهتمام بما يعترى الناس من آلام الحياة، ولا أحسب أن بروست يريد أن يقصر هذه الظاهرة على أسرة أو طائفة أو عصر من عصور الإنسانية، وإن كانت أكثر ذيوعًا فيه وفي طبقة خاصة فإن الأثرة إذا اقترنت بحب ادعاء الفضائل ولَّدت مثل هذه اللطافة الكاذبة إذا وجد المرء فيها إخفاء لحقيقة نفسه، ومن الغريب أن طائفة أخرى من الناس تحاول أن تخفى قسوة أخلاقها وإحساسها بادعاء الصراحة التامة والتهجم بهذه الصراحة الكاذبة فى خشونة تشبع نهمة الأثرة فى النفس، ثم تدعى أن كل ذلك من فضيلة الصراحة.

٦ ـ بعض الناس إذا أدَّيت له معروفًا أو أهديت إليه هدية محبوبة يتملكه السرور حتى يعجز عن النطق بالشكر، فإذا رآه المُهْدى المؤدَّى للمعروف وكان مثقفاً فطنًا حاضر الذهن بصيراً بالنفوس وجد فى عجزه عن الشكر وحيائه فى مغالبة الفرح ماهو أجلُّ من الشكر، أما إذا كان على نقيض هذه الصفات لم يفطن إلى ذلك الاعتراف الصامت بما أدَّى من معروف فيحسب أن من نال

المعروف جاحدٌ للنعمة. ومن أجل كثيراً ما ينشأ سوء الظن وسوء التفاهم والفهم بين الناس.

٧ ـ قد يسمع المرء كلمة فيرى فيها تعريضًا به أو إساءة إليه، ولا يظهر أثر ذلك إلاَّ بعد مضى زمن قد يطول، وقد يظن قائلها أو صانع الإساءة أنها قد نسيت، وإنما يظن ذلك لأن من مصلحة المسيء أو مايراه مصلحة أن ينسى إساءته ولكنها تختمر فى نفس من أسيء إليه وبعض الناس كأن لهم ملكة ينسون بها ويحسبون أن من أساءوا إليهم يحبونهم ويودونهم وقد يظهرون لهم الود ويتحينون فرصة للانتقام والغدر ـ وقد يدهش هذا الذى ينسى إساءته وينعجب؛ لأنه مخدوع بنفسه وبالناس من كثرة نسيانه إساءاته.

٨ ـ الجمال الذى لاتلمحه غير لمحة عارضة مرة واحدة ويغيب عنك قد يكون له أثر فى النفس أكثر من الجمال المألوف، وقد يكون التفكير فيه أكثر والشغف به أعظم وأتمّ، ومن الغريب أنه قد لايشغف النفس إلاَّ بعد غيابه، وقد لايكون له غير أثر ضئيل فى نشأة الدافع النفسى المُلحّ الذى يدفع إلى التعلق به وإلى استعادة ذكراه والحنين إليه، والواقع هو أن أكثر أحاسيس الحب وصور المحبوب من العاشق نفسه لا من المعشوق.

٩ ـ إن عقولنا دائمًا تنسى من أحوال من نعرفهم ومن صفاتهم وأمورهم مالا يتفق وحاجاتنا الحاضرة التى نباشرها، فإذا تغيرت تلك الحاجات والرغبات والنزعات فإننا نتذكر ما نسينا ثم ننسى مايتفق ورغباتنا الجديدة، وهذا مظهر من مظاهر القاعدة السيكولوجية العامة التى ذكرها فرويد فى كتاب ـ العلل النفسية فى الحياة اليومية ـ أى أن النفس تستطيع أن تنسى عمدًا ما ترى فى نسيانه نفعًا أو زينة، وقد كان فرويد يتحدث عما تنساه من أمورها وبروست يتحدث عما تنساه من أمور الناس.

١٠ ـ إذا وجدنا فى أول عهدنا بمعاشرة بعض الناس شيئًا مما نكره ونبغض فإننا بعد أن نألفهم وتزول الوحشة وبعد أن يخفى عنا بسبب ذلك ما كرهنا فى أول لقاء وعشرة لانزال نشعر فى صميم النفس بشيء من القلق توَقُّعًا لعودة ظهور

ذلك الأمر القديم المكروه فيكون سرورنا بلقياهم ممزوجًا بخشية رجوع مالانود منهم ـ وهذا يصدق أكثر مما يصدق فى ذوى الإحساس والخيال والذاكرة القوية أو فى ذوى الحذر الذين يبالغون فى الحيطة من الناس، ولكن الواقع هو أن المرء يحاول أن ينسى عن أصدقائه مالايتفق ونزعاته الحاضرة، كما قال بروست فى النظرة السابقة.

١١ ـ بعض السرور لايلتذه المرء وقت حدوثه، وإنما يلتذه بذكراه وكأن صورة السرور التى حصل عليها عند حدوثه هى الصورة الفوتوغرافية السوداء التى تؤخذ إلى حجرة مظلمة وتستخرج منها الصورة الواضحة وكذلك بعض السرور يحتاج إلى حجرة النفس المظلمة أو وعيها الباطن كى تستخرج منه صورته الواضحة ـ وقد يصدق هذا أيضًا فى أسباب الحزن والإساءة.

١٢ ـ كنت فى سذاجة الطفولة والصغر أحسب أن المتحابين المتآلفين تخطر فى نفوسهم خطرات متجانسة وإحساسات متشابهة فى وقت واحد من صفاء الألفة والمحبة وتختلج فى نفوسهم النزعات المتقاربة والرغبات المتفقة فى وقت واحد، ولكن الحياة علمتنى أن هذا قلما يكون، وأن أكثره من وهم المحبة وخيال الألفة، وأن الواقع يخالفه؛ فإنى عندما كنت أذكر أبوى بحنان وعطف يتضح لى أنهما كانا يتذكران ذنبًا لى نسيته، وأنهما يريدان أن يؤنبانى أو يعاقبانى، وعندما كنت أحس بالحاجة إلى الائتناس بمحادثة صديق عزيز أرى به مللاً من المحادثة.

١٣ ـ العاقل المثقف ينتقد الرجل الذى يظهر مايعرف من غير ضرورة البحث العلمى، بل على سبيل المباهاة والمفاخرة، ولكن للنفس حالات تغرى ذلك المهذب المثقف أن يباهى بعمله فيصنع الشىء الذى ينتقده، ولعلَّ امتعاض النفس من الذى يباهى بعلمه من مظاهر الأثرة فيها فى أكثر الأحايين، وإن كانت المباهاة بمايعرف المرء منتقدة فى كل إنسان إذا لم تكن هناك ضرورة البحث العلمى.

١٤ ـ إن من لهم منزلة اجتماعية كبيرة لا يتكلفون غير طبعهم وعاداتهم إلاَّ مع من هم دونهم، وبالعكس ترى من هم دونهم لايتكلفون إلاَّ مع من هم فوقهم منزلة.

١٥ ـ كنت فى غرارة الصبا ينطبع فى عقلى حديث الناس وادعاؤهم المودة، وكنت أرى كل ذلك حقيقة لاريب فيها، فما كان يخطر ببالى أن إنسانًا يكذب ويقول أنه يودنى وهو لايودنى، فكنت فى هذا الأمر كخادمتى فرنسواز التى كانت كلما رأت إعلانًا عن دواء يشفى كل الأمراض أو أكثرها آمنت به وما كان يخطر ببالها أن التاجر الذى يبيع الدواء دجَّال يريد الكسب؛ وكان ينبغى أن أعرف أن الناس لايقولون الحق دائمًا، وأن ملامح الناس وحركاتهم وسكناتهم وهيئة تقاسيم أوجههم أدَلُّ على الحق من كلامهم (ولا أذكر هل كان فولتير أم تالبران هو الذى قال: إن الإنسان خلق له النطق كى يُخفى به الحق، ولعلَّ ذلك القول من فكاهات الأول منهما)، ومما كان أدى إلى تعريفى كذب الناس أنى كنت مثلهم أقول غير ما أخفى، ولكن كيف كنت أنتفع بالمثل الذى أعرضه بنفسى على نفسى إلا إذا اعترفت أنى أنافق وأكذب. والإنسان كثيراً ما ينافق ويكذب من غير إدراك لهذه الصفات ومن غير تَنَبُّه إليها، إمَّا دفاعًا عن النفس، وإما لنيل غرض عارض، وإما لإشباع عاطفة، وهو يفعل ذلك وذهنه منصرف إلى أمور أخرى، فيسمح لأخلاقه التى فى حضيض نفسه بالتخلق بها من غير رادع أو بصيرة متنبهة تبصره بها.

١٦ ـ كانت خادمتى فرانسواز تحبنى، ومع ذلك فقد علمت أنها قالت إنى لاأستحق ثمن الحبل الذى يجب أن أشنق به، فراعنى قولها، ولاسيما أنها هى التى كانت تلفتنى وتفطننى، إلى نفاق أصدقائى، فقولها هذا جعلنى أشك فى حقائق الأشياء كلها، وقلت إن الأشجار والشمس والسماء لعلها ليست كما نراها، أو ربما يراها على أشكال أخرى من يراها بعينين غير عينى الإنسان، أو من يراها بجهاز طبيعى آخر غير العينين: فقد يرى هذا ماهو عوض عنها وبدأت أشك فى أننا نعرف الناس معرفة واضحة، بل بدأ يخيل لى أن مايقوله كل إنسان أو يعمله إنما هو ظل نرى خلفه شعاع الحب أو لهيب الكره، ولنا مُسوِّغ إذا رأينا هذا أو ذاك، وفطنت إلى أن مزايا الإنسان وعيوبه وإحساساته ومقاصده ليس

لكل منها مظهر واحد ثابتٌ محدود ـ والإنسان بالرغم من ذلك يحاول أن يبسّط الحياة والنفوس فيلبسها لباسًا واحداً ذا لون واحد كما فعل رتشارد الدنجتون فى قصة ـ الناس كلهم أعداء ـ فإنهم حتى لو صحَّ حكمه لابدَّ أن يأتدِموا بشيءٍ من المودَّة كى يسيغوا خبز الأحقاد والتحاسد.

١٧ ـ ومهما كان للإنسان من شخصية مستقلة فإنه جزء من جماعة أكبر يتأثر بها فى أسلوبه وصوته وحركاته وعاداته وعباراته وآرائه. وشخصيتُه مكتسبة من شخصيات كثيرة ومتصلة بها اتصال عجلات الساعة ومختلطة بها اختلاط مواد الكيمياء.

١٨ ـ إن الإنسان ينمو نمو النبات لانمو البناء، والنبات ينمو من داخل نفسه والبناء ينمو من خارجه بأن تضاف طبقة على طبقة ولبنة فوق لبنة، نعم إن النبات يستمد الماء والضياء والهواء، ولكن مايستمده منها لابد أن يمتزج بكيانه، أما الذى يحاول أن ينمو نمو البناء فلا يزداد بما يضاف إليه، لأنه لم يمتزج بكيانه كما يمتزج الماء والضياء والهواء بكيان النبات.

١٩ ـ مباهج غضارة الصبا ومحاسن نضارته تكون قبل أن يتحجر وجه المرء، أى يكون شبيه المتحجر بسبب مكافحة الحياة وأثقالها وعاداتها، فنرى وجه الصبا يتغير ويعطى الرائى مناظر مختلفة تتغير مثل تغير مناظر الطبيعة، فإذا فارقه الصبا قلما يكون إلاّ متحجراً فتمل رؤيته. (ويختلف تغير مناظر الوجه حتى فى الصبا فإن بعض الوجوه تُسجّل على تقاسيمها ما يجول فى خاطر أصحابها من أفكار وخواطر وإحساسات تسجيلاً واضحًا عظيمًا، فإذا جمع الوجه إلى هذه القدرة على التسجيل الجمال كان لاتمل رؤيته، وقد أدهشتنى مرة قدرة وجه إنسان على تسجيل الخواطر حتى كان وجهه يعرض صورة تختلف فى كل لمحة ولحظة، وحتى خُيِّل لى أن وجهه يسجل مافى وعيه الباطن كأنه يدركه بالوعى الظاهر، وخُيِّل لى أنّه أناس كثيرون لا إنسان واحد، وهذه القدرة على تسجيل الوجه لخواطر النفس تلاحظ حيث يكون الذكاء والإحساس المرهف).

٢٠ ـ كما أن القائد يحاول معرفة أماكن الضعف فى جيش عدوه كى ينتصر

عليه من نواحيها، يتعرَّف الخدم أماكن الضعف فى صفات المخدوم كى يعززوا مراكزهم من نواحيها، ومن أجل ذلك كنت أعرف وأدرس أوجه النقص فى صفاتى بدراسة سلوك خدمى نحوى: ترى هل من المستطاع تطبيق هذه القاعدة فى قصة المأمون الخليفة العباسى الذى أكثر من مناداة غلام خادم والغلام غير آبه، ثم لماضجر بمناداة الخليفة له قال: أفى كل حين ياغلام ياغلام؟ أما ينبغى للغلام أن يستريح؟ فتعجب أحد ندمائه، فقال المأمون: إذا حسنت أخلاق المخدوم ساءت أخلاق الخادم، وإذا ساءت أخلاق المخدوم حسنت أخلاق الخادم، ونحن لانرضى أن تسوء أخلاقنا كى تحسن أخلاق خادمنا.

٢١ ـ للخدم ماهو شبيه ببريد سرى تنتقل به الأخبار من أسرة إلى أسرة بسرعة البرق، كما تنتقل الأخبار فى مجاهل إفريقيا بسرعة البرق من قبيلة إلى قبيلة (إما بدقات الطبول وإما بإشارة النار). ولقد كانت دهشتى عظيمة من معرفة خدمى صلاتى بأصدقائى وإحساسهم نحوى قبل أن أعرفه وأستوضحه، وما كان ذلك إلاَّ لأن الخدم يلتقطون الكلام أو يسترقون السمع خلسة. ومن كلمات قليلة ولمحات أوجه المخدومين يستطيعون أن يعرفوا ما يريدون كما يستطيع العالم بعلم الحيوان أن يعرف من فحص عظام قليلة كيف يكون الهيكل العظمى للحيوان وهو تام كامل. (ومما يساعد الخدم أن بعض المخدومين ينزلونهم فى نفوسهم عن مرتبة الإنسان، فلايتحرجون من الكلام أمامهم كما لايتحرجون من الكلام أمام الخيل أو القطط أو الكلاب) إلاّ إذا تعمدوا إسماعهم ما يريدون إذاعته لنكاية غير مباشرة.

٢٢ ـ يخيل للمرء أولاً إذا سمع العصافير أن صوتها كلها صوت واحد لايتغير، ولكن الذى يحب العصافير ويكثر من سماعها فى الغابات يستطيع تمييز أصواتها، فيعرف صوت البلبل ويميزه من صوت القنبرة أو غيرها، وكذلك لايستطيع أن يميز اختلاف دقائق محاسن الجمال ومباهجه إلاَّ من أحبه وألفه. (وهذا أيضًا مشاهد فى اكتساب القدرة على تمييز اختلاف الوجوه أو الصفات وإن كانت الصفات، النفسية زئبقية متقلبة، وقد ينزل المرء فى أمة نائية فيخيل له أن أكثر أهلها يتشابهون تشابهًا تاما إذا كان لم يألف وجوههم من قبل كما يخيل

للمرء هذا التشابه التام فى أوجه الصينيين أو اليابانيين، فإذا ألفهم استطاع أن يميز الصفات المختلفة).

٢٣ـ قد تنبع من الوعى الباطن ذكرى مباغتة، فلايعرف المرء لماذا ظهرت وتغلبت على باقى الذكريات المنسية التى رسبت بسبب ضغط عدم المبالاة بها الموزع عليها جميعًا على السواء. وكذلك قد يتذكر المرء صورة من يود بغتة، ولايعرف سبب تذكرها ولايستطيع أن يصل هذه الذكرى بذكرى أمور أخرى تبعثها، فلا تعليل لذلك إلاَّ أن للوعى الباطن حياة مستقلة توحى بأمثال هذه الذكريات، على أن بعض ما يتذكر قد يكون تذكره لأسباب تافهة موصولة بها، كأن يشم المرء رائحة، أو يرى أو يلمس شيئًا تافهًا كان قد طرده المرء من وعيه الظاهر لتفاهته فلم يستهلك مجهوداً من نفسه فيعود إذا عاد قوى الأثر، وكثيراً ما يخطئ المرء فيخيل له أن تذكره صورة من يود ناشئ من أن ذلك الذى يود يتذكره فى تلك اللحظة، فيحدث الاتصال الروحى (وليس معنى هذا أن الاتصال الروحى عن بعدٍ محال باطل).

٢٤ ـ كثيراً ما يتغير شكل الإنسان وتتغير صورته فى نظرنا بسبب عوامل فى نفسه، وننسى أن هذا التغير قد يكون أيضًا بسبب اختلاف إحساسنا نحوه، فنتعجب من تغير صورته، ونحن نسبب التغير أو قد يكون السبب النظر إليه من جهات مختلفة أو فى بيئات متغايرة كما تختلف مظاهر المبانى إذا نظرت إليها من جهات مختلفة.

٢٥ ـ أنا بين طائفتين من المعاشرين: طائفة أمنت اغتيابهم لى، لامن سلامة طويتهم وصدق إخلاصهم، بل لقلة مبالاتهم واهتمامهم بأمرى، وقلة اهتمامهم تظهر حتى فى أحاديث مجالسهم فى حضورى، وفى نظراتهم وفى أصواتهم وملامحهم، والطائفة الثانية يتلقانى آحادها بالمودة والحنان والعطف، ثم إذا غبت يأخذون أجرًا على ذلك باغتيابى إذا غبت، ومجالسة الطائفة الثانية أكثر راحة، (وإن كانت راحة قد تكون محاطة بالقلق إذا فطن جليسهم إلى عواقب ائتناسه

بهم من اغتيابهم إياه إذا غاب، والواقع أن آحاد الطائفة الثانية يتقنون مظاهر المودة إتقانًا عجيبًا حتى ليدهش المرء الغريب إذا رآهم يغتابون جليسًا انصرف عنهم أشنع اغتياب، بعد أن تلقوه بالترحيب والعطف والثناء والإخاء).

٢٦ـ قال لى برجوت: لاداعى لأن يحزنك مرضك؛ فإنه لايمنعك من لذات الفكر، قلت: بل يمنعنى، فنظر إلىّ وقال: أنا واثق أنه لايمنعك، فأحسست بسرور، بالرغم من أنى لم أقتنع. ولهذا السرور أسباب كثيرة منها لذة الإيحاء وقبول النفس له بالرغم من مظاهر عدم الاقتناع، والشعور بعظمة من يتمتع بلذات الفكر، وفى هذا الشعور لذة، ولذة التمتع من قبول رأى سار يريد أن يصدقه؛ فإن فى هذا التأبّى والتمنع لذة ورغبة فى أن يُرَدَّدَ له. ولذة المغالطة إذ ما من شك أن بروست كان يتمتع بلذات الفكر وإنما عدم اقتناعه مغالطة منه. ولذة فى مباشرة أمر سار أو متعة بريئة يخفيها كى يحتال الناس لمعرفة مايخفى، ولذة فى الرثاء لنفسه من عدم القدرة على التمتع بلذات الفكر كما يدعى إلخ.

٢٧ ـ إن إحساسات المرء وخواطر نفسه لاتتبع دائمًا نظام تاريخ حياته، فهو وإن كان عائشًا بظاهر حسه فى الزمن الحاضر، فإنه قد يكون عائشًا فى الحقيقة بإحساسه وخواطر نفسه فى عهد قديم مضى من حياته قبل حوادث أمس واليوم.

٢٨ ـ قد يبدى المرء شيئًا من السخر ممزوجًا بالاحترام إذا واجه نوعًا من العظمة يرى أنه من قلة الذوق وقبحه أن يزدريه، ومن الحماقة أن يحتقره، ومن حسن الذوق والفطنة الإشارة إليه بشىء من الدعابة الممزوجة بالاحترام. وبذلك يرضى أثرته كما يرضى مايحب أن يعرف به من حسن الذوق والتمييز والفطنة.

٢٩ ـ قد يدعو المرء إنسانًا لزيارته على سبيل المجاملة وهو يُسَرُّ لو أن المدعو لايقبل الدعوة، ويفرح لو أغفلها، فتأتى الدعوة فاترة ممزوجة بما يشير إلى رفضها وهكذا دعا سنت لوب بلوش لزيارته قائلاً: (ولكنى قلما أكون موجودًا) كى يظهر أنه غير جادّ فى دعوته. ولكن بلوشَ بالرغم من هذا التنبيط الظاهر صار يمدح تلطف سنتّ لوب ويقول (بعد هذا التلطف منه ينبغى أن نزوره عاجلاً وإلاّ كان امتناعنا عن زيارته أو تأخيرها خارجًا عن حدود اللياقة) وغضب منى لأنى

لم أوافقه ولم أحدد ميعادًا لتلك الزيارة، وما كان يمكننى أن ألفته إلى أن صيغة الدعوة دليل على الرغبة فى رفضها.

٣٠ـ للجفاء أسباب عديدة منها خشية المحب أن يظهر حبه فيتغاضب ويدعى الجفاء (ومن الناس من يتغاضب ويدعى الجفاء أمام الناس كى يعرفوا أنه يستطيع أن يعامل إنسانًا يفوقه بمظاهر الغضب أو الجفاء أو بلهجة الأمر).

٣١ـ أعز الحكمة وأثمنها التى نقتبسها بأن نعيش ونتغلب على زلاتنا، وليست هى التى تلقن بالتعليم أو الأمر، وإنما صاحب الثانية كالعبد الذى يعمل الصواب كما أُمرَ، ولافضل له فى صوابه.

٣٢ـ كان «لجراند» عندما يكون فى صحبة مدام ف. يتحرك كأنه لعبة تحركها السعادة كما يحرّك الأطفال لعبهم التى لاحياة فيها، وبعض الناس إذا استسلموا للسعادة العارضة كانوا أشبه الأشياء بتلك اللعب؛ لأنهم لاسيطرة لهم على حركاتهم وأعضائهم.

٣٣ـ مما يدل على أن آراء الناس وفق رغباتهم وميولهم أن المرأة من العامة إذا تلطّفت معها امرأة نبيلة غبية قبيحة الوجه والشكل تنسى غباوة المتلطفة وقبح وجهها، ولا تفتأ تذكر ذكاءها وفطنتها وحسنها، وكذلك قد يتلطف الرجل مع من هو أقل منه منزلة تلطفًا ممزوجًا بالزهو والخبلاء الكامنين، فينسى هذا عيوب الرجل المتلطف معه، وقد يصفه بأضدادها من المحاسن.

٣٤ـ فى بعض الأحايين إذا توقع المرء حادثًا فى حياته مستقبلاً يخيل له أن حياته كالمسرح الذى يمثّل عليه فصل من القصة، بينما تعد معدات الفصل التالى وراء ستار خلفى.

* * *

نظرات ميشيل مونتانى[1]

-١٠-

ميشيل مونتانى هو الأديب الفرنسى صاحب الرسائل المشهورة، وكان ثمرة من ثمرات عصر إحياء العلوم فى أوروبا، كان من أسرة نبيلة، وولى القضاء وصار حاكمًا لإحدى المدن فترة من الزمن، ولكنه قضى أكثر حياته فى قصر أجداده بين الكتب، وكانت القراءة وكان التفكير والتأمل فى صفات النفوس، أحبّ شىء إليه فى الحياة مع أنه أخذ نصيبًا من كل مباهجها، فإنه كان يحب الحياة شأنه فى ذلك شأن أدباء عصر إحياء الآداب والعلوم، ولكنه كان يفضل القصد فى كل الأمور، ويرى أن الخطة الوسطى هى مفتاح السعادة، فلم يكن متهالكاً على اللذات كما تهالكَ عليها كثير من الأدباء بعد عصر الترهب والتقشف، ورفض الدنيا والخشية من متعها. وكان يقول بتحكيم العقل، ولكنه كان يَحْذَر الاغترار بأحكامه، وكان يعرف قصوره وأنه داعية إلى الكبر والغرور. ورسائله تدل على اطلاع كبير على أدب القدماء وعلمهم، ولا غرابة فى ذلك؛ فإن أباه كان قد قضى عليه أن يتعلم اللاتينية فى سن الطفولة. وله آراء كثيرة كآراء المعاصرين لنا، مثل رأيه فى اجتماع الشخصيات العديدة فى النفس الواحدة، ورأيه فى أنّ الغريزة فى الحيوانات هى فى الحقيقة نوع من العقل ومظهر من مظاهره، ورأيه فى أن التفكير المؤسس على التجربة أصدق من التفكير المؤسس على النظريات العامة التى تعتنق أولاً ثم يحاول صاحبها إثباتها بعد ذلك بما يشاهد، وهو على اعتزازه بحكمة القدماء يرى أنّ المشاهدة والملاحظة والتجارب أهمّ منها، ولكن مما لاشك فيه أن دراسته لكتب القدماء كانت رياضة صالحة لعقله مكنته من الانتفاع بالتجارب

(١) المقتطف: أغسطس سنه ١٩٤٨.

والملاحظة، وكان يرى أن الاقتناع بالآراء والعقائد لايكون بالقهر والقسر، ولذلك كان ينعى على الطوائف الدينية فى عصره حرق بعضهم بعضًا وقتال بعضهم بعضًا، ولذلك كان يقول لهم إن آكلى اللحوم البشرية أرأف منهم وأكثر إنسانية. وقد كان معتدلاً فى نقد الآراء المقررة، وكان على اعتداله وتحفظه صريحًا فى بعض رسائله، وكانت لمونتانى آراء جديدة فى التربية مؤسسةً على تجاربه ومشاهدته، وربما كانت كما يقال (رد فعل) بسبب ما ألزمه أبوه فى صغره، وكانت دراسته النفس البشرية فى رسائله وسيلة من وسائل التربية، كما كانت ذريعة إلى السعادة ولذّات الفكر، وكان ذا رأفة كبيرة بالحيوانات والطيور، ولاغرابة فى ذلك بعد أن رأيناه ينسب إليها العقل، وكان يرى أنها أكثر شبهًا بالإنسان فى إحساسه وعقله مما يظن الإنسان: وقد ترجمت رسائله عقب نشرها إلى لغات كثيرة، وكان الأدباء مولعين بقراءتها وتدبر أوصاف النفس فيها، فكانت لشكسبير الشاعر الإنجليزى نسخة منها ـ وقد ذكر مونتانى فى بعضها أنه يفضل من الكتب تلك التى لايرتبط فى قراءتها بإتمامها دفعة واحدة بل يتنقل فيها ويغادر القراءَة متى شاء ويعاودها متى أراد، وهذه كانت خطته فى كتابة أكثرها؛ فإنه فى الرسالة الواحدة يتنقل من موضوع إلى موضوع يتصل بالأول ويوحى به ذلك الموضوع الأول.

ومن نظراته مايلى:

١ ـ إذا كان المرء أقدر على الفكر وأدقّ فيه نظرًا وأبصر بمسالكه وحيله وعرف الناس منه ذلك فإنهم يكونون أسرع إلى كرهه وأعجل إلى بغضه؛ خوفًا من قدرة عقله أن تصيبهم بسوء وأن تعاجلهم بشر، ولاسيما إذا ظنوا فيه نقصًا فى الأمانة والنزاهة، أما إذا كان غير قادر على الفكر فإنهم قلما يختصونه بمثل هذا البغض حتى ولو كان سيئ الخلق، فالناس يخشون أن يستخدم المرء فكره فيما يسوءهم ويضرهم، سواءٌ أكان أمينًا أم كان غير أمين، وهذا سبب من أسباب كره جمهور الناس لذوق الفكر ـ وهم فى هذه الحالة ينسون أن الغنى الماكر قد يبلغ بمكره من أذاهم مالا يبلغه المفكر.

٢ ـ بعض الناس يتعلم المنطق كى يخالف به أصول المنطق والحق، وكى يقنع الناس بالباطل، وهو كالذى يتعلم القوانين كى لايتقيد بها وكى ينجو من قصاص

خرق سياجها؛ لأنه بتعلُّمها يعرف منافذها ومخارجها وأبواب نقصها وحيل التهرب منها، وكذلك نرى أناسًا يتعلمون المنطق لمثل هذه الغاية فى تلبيس الحق على الناس، على أن أكثر من يتعلم المنطق كى يطبقوه على الحياة بحسن نية، يعجزون عن تطبيقه تطبيقًا صحيحاً بسبب غلبة الطباع والنزعات النفسية والشهوات والرغائب والمطامع، فالمنطق الصحيح كثيراً ما يكون مهجوراً منبوذًا فى الحياة سهواً أو جهلاً أو عمداً أو مخادعة من الطبع للعقل، ولولا هذه الموانع لكان نفعه للناس فى الحياة أعظم وفائدته أتم، ولكن المرء كثيراً ما يعتنق الرأى أولاً ثم يتخذ من المنطق ما يسوِّغه.

٣ ـ قد تكون للإنسان ميول نفسية مستترة وصفات لايفطن لها، ولكن جسمه قد يدل عليها، فقد كان شيشرون الخطيب الرومانى به ميل شديد إلى السخر يظهر منه وإن أخفاه بدلالة تجعُّد أنفه وتقلُّصه، وكان الإسكندر المقدونى والكبياديس الأثينى معجبين بجمالهما، وكانت دلالة هذا الإعجاب فى جسم الأول أنه يميل برأسه زهواً، ودلالته فى جسم الثانى لثغة بها أنوثة فى كلامه، وقس على ذلك باقى الصفات المستترة. وقد يحاول المرء أن يخفى الحسد أو الحب أو البغض فينمُّ عليه جسمه، ثم يتعجب إذا نسبت إليه هذه الصفات.

٤ ـ قد يظن بعض الناس أن الكذب صفة مقصورة على الأراذل والأوغاد والأنذال، ولكن الحقيقة هى أنها صفة عامة شاملة، فإنا نجد كثيراً من الأخيار الأفاضل الذين تكاد لاتجد فيهم عيبًا آخر بارزاً لايتورعون من الكذب، إما على سبيل العمد أو المغالطة للنفس.

٥ ـ بعض الناس قد يتعوَّد الكذب حتى لايستطيع أن يَصدُق وإن كان الصدق منجيه من ضرر أو تلف. وهذا من غرائب تحكُّم العادة إذا توهم المرءُ أن الكذب هو الذى ينجيه كما تعوَّد أن ينجو بالكذب فى حالات، فيحسب أنها قاعدة مطردة حتى ولو بدا أن الصدق منجيه فإنه يشك فيه ويحذره. وتحكُّم العادة يذكرنى قصة رجل ممن يعرضون أعمال المهارة فى إصابة الهدف كان يوقف امرأته أمام جدار من الخشب ويرسم حول جسمها خطا ثم يقذف بالـمُدى من مكان بعيد بعض البعد فتصيب الـمُدَى هذا الخط ولاتمس المرأة ولا تجرحها، واتفق أنه نقم

على امرأته وأراد أن يقتلها قتلاً يظنه الناس خطأ فى إصابة الهدف من غير عمد، فصار يرمى بالمدية إثر المدية فلا يستطيع أن يصيبها ولكنه يصيب الهدف الذى تعوَّد أن يصيبه، وذلك من حكم العادة، ولعلَّ عاطفة فى صميم نفسه كانت أيضًا تمنعه من قتلها، وإن كان لم يفطن إلى عاطفة الحب أو الرحمة المستترة وفطن إلى عاطفة حب الانتقام الظاهرة، ولعلَّ اعتزاز نفسه بفنِّ إصابة الهدف، منعه من أن يتكلف الخطأ بإصابة زوجه، مهما حاول ذلك.

٦ ـ فى بعض الأحايين يدفع الخوف الإنسان إلى الانتحار خوفًا من الأمر الذى يتوقع ضرره، وإن كان ذلك الضرر أهون من الموت، وقد ينتحر المرء خوفًا من الموت فى أى شكل من أشكاله، فهو يموت من خوف الموت، وهذا يدل على أن الخوف أشد على النفس من الموت، ولا أخاف من شىء قدر خَوفى من الخوف، فإن للخوف عدوى وأخذة وبغتة وإلحاحًا، وقد يخاف المرء حتى مما هو عونٌ له على الخوف، ومنجاة له منه. وإذا لم يدفع به الخوف إلى التهلكة فقد يدفع به إلى الجنون أو إلى الأقدام على مايخشى ويخاف، وقد يسرى الخوف فى أهل المدينة الواحدة فيقاتل بعضهم بعضًا من سوء الظن وتَوَقُّع الأعداء، وكل منهم يظن أنه يقاتل العدو المخوف الذى بغتهم، وخوف المرء من الألم قد يكون أشد من الألم، وخوفه من حوادث تصرف الأقدار وانشغال باله بذلك الخوف قد يكون أشد من تلك الحوادث، وقد تسرى عدوى الخوف فى الجيشين المتقاتلين فيفر كل منهما من الآخر، كما حدث فى بعض وقائع الحروب المعروفة فى التاريخ. وهذا يذكرنى بما ذكره (هازليت) فى إحدى رسائله من أن فتاة تُرِكَت فى حجرة مغلقة بها جثة فلج بها الذعر والرعب، حتى أقدمت على ماتخشاه، فعانقت الجثة وماتت من الهلع والذعر، ويذكرنى بقصة أظن أنها فى كتاب من كتب (أناتول فرانس) عن رجل من أهل مدينة ذهب إلى الريف ونزل فى نُزُلٍ صغير، ولأمر ما ذاع بين الريفيين أنه فوضوى جاء من المدينة كى ينسفهم بالقنابل، فصدقوا الإذاعة الشائعة وتسللوا إليه فى خفوت وسكون فى جنح الليل كى يقبضوا عليه مباغتة قبل أن ينسفهم بالقنابل، وكانوا يرتعدون وهم يتقدمون خلسة نحو حجرته ويفرون عائدين كلما ظنوا أنهم سمعوا صوتًا، وكان

الرجل قد أحسَّ بهم فظن أنهم لصوص جاءوا ليقتلوه، فسرى الرعب فى نفسه وفى أوصال جسمه وجعل يرتعد من الخوف وعندما فتحوا الحجرة وجدوا أنه مات من الرعب. ويذكرنى قصة (الجبان) لجى دى موباسان. وهى قصة رجل صفع آخر فدعاه المصفوع إلى المبارزة، فاشترط الصافع ألا تقف المبارزة إلا بعد جرح أو موت أحدهما، ولكنه عندما خلا بنفسه فى بيته، وجد جسمه يرتعد ويرتعش وخاف أن يغمى عليه أمام أصدقائه وخصومه إغماءة الخوف فيفتضح ويُعرف بالجبن ويلحقه العار، فانتحر خوفًا من ظهور خوفه ودلالاته أمام الناس. وأتذكر أيضًا ما يسمى بالفزع الأكبر أيام الثورة الفرنسية، إذ أن الفزع قد يعم فى عهد الثورات، وقد يكون معينًا عليها فكثيرًا مايقسو المرء من الخوف. ومن عجائب الخوف خوف عبد الله بن الزبير وهو من الشجعان، ولكنه لما رأى أن الغلبة ستكون لجند بنى أمية استشار أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ذات الطبيين فى أن يستسلم، فقالت له: عش كريمًا أو مت كريمًا وحثته على القتال، فقال: إنه يخشى إن يُمثَّل به أعداؤه بعد موته، فقالت: لايضير الشاة سلخها بعد موتها. والواقع أن الإنسان كثيرًا ما يغم نفسه بأمور وحوادث مختلفة قد تحدث بعد موته، ومن الشجاعة حقا قول الأستاذ (هالدين) الإنجليزى فى كتابه (تفاوت الناس) إنه اتفق وزوجه أن تُهْدَى جثَّتاهما بعد موتهما للمستشفى للتشريح كى يستفيد البحث العلمى وتستفيد الإنسانية. وهذا يذكرنى قصة إهداء الشَّنْفَرى الشاعر جثته بعد موته للوحش كى تنعم بأكلها، وذلك فى قوله:

إذا قطعوا رأسى وفى الرأس أكثرى ... وغُودر عند الملْتَقى ثم سائرى

فلا تدفنونى إنَّ دفنى مُحَرَّمٌ ... عليكم ولكنْ أبْشِرِى أُمَّ عامر

ويعنى بأم عامر الضبع ـ ومن فكاهات الخوف قصة الجبان الذى يدعى الشجاعة مثل قصة ترْتَرَنْ التَّرَسْكونى لمؤلفها ألفونس دوديه، وكان ترترن يدعى مغالبة الليوث والوحوش مع أنه كان يخشى حتى الأسفار وركوب البحر، ولكن من الأغاليط المألوفة أن يحسب الناس كل من يدعى الشجاعة ويتوعد كى يخيف، جبانًا. حقيقة أن بعض الناس يخفى جبنه وخوفه بادعاء الشجاعة،

ولكن المفاخرة بها قد تكون مفاخرة بحق كما أثبت شارلز لامب فى رسائل (الأغاليط المشهورة) ولامبروز بيرس فى قصص الخوف من الجثث والأفاعى المحنطة خوفًا أدى إلى الهلاك.

٧ ـ قد يكون قبول المرء للأكاذيب من السذاجة الفطرية التى تفترض الصدق فى نفس محدثها، وقد يكون ذلك القبول من الجهل، وهو عيب العامة، أما عيبى فهو عيب المتعلمين، فقد أبالغ فى تكذيب مالم يقم دليل حسى على صدقه ولا أكتفى بأن أقول: إنه لم يقم دليل حسى على صدقه، بل أقطع ببطلانه واستحالة كونه، كأن الكون يقاس بملكات الإنسان وهو غير محدود بحدود فكره ونفسه. وقد فطنتنى الخبرة إلى أن المادة لا المعرفة هى التى تزيل غرابة الأمور، ولولا اعتياد الإنسان الحقائق المألوفة لقطع ببطلان مالم يتعوَّد منها. وهذا يذكرنى الدكتور صمويل جونسون، وهو أديب أريب، ولكنه كان يكذب البحارة بعنف إذا حدَّثوه عن بعض الظاهرات الطبيعية التى تحدث فى البحار مثل ارتفاع مياه البحر فى شكل نافورة فى بعض مناطق الضغط الجوى المنخفض، وكان يقطع ببطلان قولهم ويعده من الأساطير والخرافات التى أولع بها أهل الرحلات من قديم الزمن، ولكن من غرائب خصال النفوس أنه كان يسرع إلى تصديق أمور أخرى مما يصعب إثباته. وقد يكون للخداع فيه سبيل. وقال مونتانى: (ينبغى للإنسان أن يعرف أن الحياة والعالم كتاب لا آخر له) أى لايستطيع تقصيهما بالمعرفة.

٨ ـ قد تتبدَّل وتتغير صفات النفوس الغالبة حسب أحوال الحياة ودوافعها: فإن نيرون الأمبراطور الرومانى الذى اشتهر بالطغيان وسفك الدماء كان فى أيام شبابه قد طُلب منه إمضاء حكم الإعدام على أحد الأشقياء، فقال آسفًا: وددت لو أنى لم أتعلم الكتابة ـ وهذا يذكرنى روبسبيير زعيم الثورة الفرنسية الكبرى فإنه كان فى صباه قاضيًا فى محكمة أراس، ولكنه استقال من منصبه كى لايمضى حكم الإعدام فى رجل، وبعد ذلك كان خطيب حكم الإرهاب، وأرغم النواب على إقرار قانون يجيز للمحكمة الثورية أن تحكم بالإعدام من غير سماع أقوال المتهم أو شهوده أو دفاع عنه ومن غير مناقشته، وهو الذى كان فى صباه

يرفض الحكم بالإعدام، حتى إعدام المعترف بجرمه أو الذى فحصت الأدلة وثبت جرمه بعد البحث ومع ضمانة العدالة فى المحاكمة.

٩ ـ اختلاف الميول النفسية والنزعات فى النفس الواحدة، حمل بعض المفكرين على أن يروا فى كل إنسان أكثر من نفس واحدة، ولكن المفكرين الحديثين يقولون شخصيات لانفوسًا، وقد لوحظ انفصال الشخصيات فى النفس الواحدة فى أوقات مختلفة بسبب حوادث أو أمراض، وعلى هذه الحقيقة أسس ستيفنسون القصصى البريطانى قصته المسماة (الدكتور جيكل والمستر هايد) والأول من أهل الخير، والثانى من أهل الشر والإجرام.

١٠ ـ من أصعب الصعاب أن نقطع بأننا قد عرفنا الحق الذى لاشك فيه مادامت حواسنا وملكاتنا، وما دام غيرنا من الناس كلٌّ يمدنا عمدًا أو سهوًا أو جهلاً أو عجزًا بما هو أساس حكمنا مما قد يجافى الصواب. ومن أجل ذلك ينبغى للمرء ألا يتشبث برأى كل التشبث، وعلى ذكر هذا القول أذكر كلمة لأوليفر كرومويل معناها أن من رحمة الإيمان وصحته، أن يؤمن المرء بأنه قد يخطئ، ولكن حتى هذا الإيمان بالخطأ لايعصم المرء من الخطأ والتشبث به إذ أن صاحبه لايراه خطأ.

١١ ـ إذا كان تنوع حجج التفكير النظرى يدعو إلى الحيرة والارتباك، فإن تنوع تجارب الخبرة قد يدعو إلى حيرة مثلها، لأن الأمور والأحوال المتشابهة مهما عظم أوجه الشبه بينها، لابد من أن يكون بينها من الاختلاف ما يتطلب نوعًا خاصا من أحكام الخبرة، فلا يصح الاعتماد كل الاعتماد على حكم الخبرة والتجربة فى أمر من الأمور؛ لأنه مشابه مشابهة قليلة أو كبيرة لأمر آخر خبرناه، فقد يقتضى الاختلاف القليل مسلكاً آخر من مسالك العمل وحكمًا آخر من أحكام العقل، ولكن الناس كثيراً مايكتفون بالمشابهة ويتخذونها نبراسًا وهاديًا ودليلاً فيخطئون من حيث لايفطنون، على أن أحكام الخبرة قابلة للزلل الذى ينشأ بسبب أهواء النفس فشأنها فى ذلك شأن التفكير النظرى، وهم يحسبون أن

الخبرة عاصمة منه لأنها أمر عملى ـ وهذا يذكرنى قول أحد المفكرين الذى قال: إن خطأ الخبرة بسبب الأهواء قد يكون حتى فى تجارب معامل البحث الكيميائى.

١٢ ـ قلما يتفق اثنان فى الحكم على أمر من الأمور اتفاقًا تاما مهما تشابه رأياهما ـ ولو أن حادثًا حدث فى الطريق ورآه كثير من الناس ثم طُلب منهم وصفه لاختلفوا فى تفاصيل المرئيات حتى ليظن المرء أن بعضهم يكذب عمدًا، ولكن الاختلاف قد يكون من غير كذب متعمد، لأن نظر كل إنسان إلى الأمور يختلف عن نظر غيره بعض الاختلاف إلا إذا كان هناك إيحاء ورغبة فى الاتفاق لأَرَبٍ ما.

١٣ ـ اتفق أن رجلاً اتهم بالقتل وشبَّهَت بعض القرائن ولبَّست الحقيقة، فحكمت المحكمة عليه بالإعدام، ثم ضبط رجل آخر واعترف أنه جنى تلك الجناية وظهرت أدلة ذلك، فأبت المحكمة أن تعيد النظر فى الحكم على الرجل الأول احترامًا لقداسة القوانين والشرائع، وهذه سُنَّة لاتزال بعض الدول المتحضرة تأخذ بها. وكثيرًا مايفعل الناس ذلك ويعملون بهذه السُّنة فى حياتهم الخاصة ـ وهذا يذكرنى قصة تحكى عن كاليجيولا الامبراطور الرومانى إذ حكم على رجل بالإعدام، ثم ظهر أنه لم يجن ما نُسِبَ إليه، فقال: إنه إنسان فإذا لم يكن قد جنى هذه الجناية فلا بدَّ أن يكون قد جنى جناية أخرى فاقتلوه، وهذا من عنت القضاء وجنون الحاكم، ولكن للناس مايشابه هذه الصفة.

١٤ ـ ادعاء المرء أنه يعرف نفسه دليل على أنه يجهلها. فإن المرء يسبر غور النفس ويجد بعد طول ممارسته للبحث فيها أن الذى يعرفه من أمورها وأحوالها قليل جداً إذا قيس بما لا يعرف.

١٥ ـ الناس يكرهون النقد، وهذا بالرغم من ادعائهم ضد ذلك، وقد يُلِحُّ إنسان على صديق ويدعوه إلى نقد نفسه أو أعماله أو أقواله ويدعى أنه يحب الصراحة ويكره التملق، فإذا خُدِع صديقه بهذا الادعاء ونقد أعماله أو أقواله أو صفاته وجد منه نفوراً أو عداءً أو حقدًا أو غيظًا، وكلٌّ منا يلوم الحكام لحبهم

التملق، وكلٌّ منا يود أن يحاط بالمتملقين ـ إلاَّ إذا خشينا من تملقهم أن يراد به الاحتيال لنيل مالا نريد أن نجود به.

١٦ ـ ينبغى للإنسان أن يزداد قوة بمعرفة سقطات عقله ونفسه، وأن يكون مثل الجنِّى فى أساطير الإغريق الذى قيل إن أُمَّه الأرض وإنه كان كلما صُرِع وغُلِب ومسَّ جسمه الأرض ازداد قوة ونشاطًا وقدرة على الكفاح.

١٧ ـ ينبغى لكل إنسان ألا يحكم على أعماله بظاهر ما يؤيدها به من حجج. وأن يُعوِّد نفسه على أن يبحث عما وراء ذلك من أسباب مستترة ولا يطمئن حتى يصير ذلك البحث عادة تؤاتيه من تلقاء نفسها، ولكن ينبغى مع ذلك أن يعوف أن هذا البحث مطلب عسير، إذ أن النفس كثيرًا ما تَضلِّلُ صاحبها فيه بوسائل مختلفة.

١٨ ـ إن الإنسان الذى يتطلع إلى بلوغ منزلة كمال الملائكة قد تتدلّى به غرائزه فى سبيل هذا المطلب، وتهوى به طبائعه فى العمل للوصول إلى منزلة الأبرار حتى يصير فى حضيض الشياطين أو فى مرتبة البهائم أو الوحوش وهو لايدرى بل يُخيَّل له أنه يعمل للخير، فينبغى أن يحذر المرء ذلك.

١٩ ـ العادة تشكل الحياة كما تهوى، فكأنما هى خمرة الساحرة سيرسية التى يحكى عنها فى أساطير الإغريق والتى كانت تسقى من تستهويهم خمرة تُحيلهم قردةً أو خنازير أو وحوشًا ضارية أو حيوانات مُستَذَلَّة. فليحذر المرء العادة إذا استطاع الحذر منها والتحكُّم فيها بدل تحكمها فيه، وهى فى أول أمرها أسلس قيادًا للمرء وأضعف، فإذا تأصَّلَتْ ركبته وغلبته على نفسه، وقد يكون تأصلها إما بسبب أن صاحبها يجهل عواقبها ويستلذ مواقعتها ومؤاتاتها، وإما من كسل الرأى والجسم، واليأسُ من التغلب عليها يؤدى إلى تحكمها وإلى ازدياد سوء عواقبها.

٢٠ ـ الموسيقا على لذتها إنما هى ائتلاف نغمات مختلفة الأصوات والمخارج والوقع، ومع ذلك يستطيع صاحبها أن يؤلف منها أنغامًا عذبة مقبولة إذا كان ممن يجيد فن الموسيقا، وكذلك من يجيد فن الحياة يستطيع أن يستخدم أحوالها

المختلفة من سرور وحزن ونعمة وشقاء وغنى وفقر، لكى يؤلف منها فنا مؤتلف النغمات عذبًا مقبولاً.

٢١ ـ مقاساة الآلام والخطوب هى فى الخوف من مقاساة الآلام والخطوب، فإن المرء بهذا الخوف يُقْبِلُ على مايخاف كبعض الحيوانات الضعيفة التى يقال إنها إذا تملكها الذعر كل التملك تُقْبل على الوحوش التى تفترسها.

٢٢ ـ كما أن علم الطب مؤسس على التجارب فعلم الحياة أيضًا مؤسس على التجارب، ولا صلاح لها إلاَّ بها ـ ولكن بعض الناس خلقت لهم غرائز وطبائع يعرفون بها طرق النجاح والصواب وإن قلت تجاربهم، كما أن بعضهم لاينتفع بكثرة تجاربه كالملاَّح الذى يطوف العالم فتحسب أن أسفاره قد جعلته خبيراً حكيمًا عاقلاً عالماً، ولكنه قد يرجع من أسفاره وهو جاهل غبى كما كان قبلها، ولم تفده تجاربه ومشاهداته عقلاً أو علماً.

٢٣ ـ لا يمتاز الحق على الباطل بأن الحق من حقه أن يقال فى كل زمان ومكان، فقد يكون قول الحق مؤذيًا للناس مُضراً بالعدل أو قد يكون قوله لا طائل تحته ولا فائدة إلا العناد الذى يجر إلى خبث النفس والحقد والمهاترة، أو قد يكون قول الحق كأنه لم يُقَلُ من صمم السامع، ولكن متى وجد الإنسان فرصة مؤاتية وزمانًا موافقًا واعتزم أن يتكلم وجب عليه ألا يتعدَّى الحق وألا يتخطَّى الصدق إذا وجد أن قوله غير مُضربالعدل والخير، فلو أن رجلاً فرَّ من مجرم حتى غاب عنه ورأيت الطريق التى سلكها وسألك المجرم أن تدله عليها كى يقتله، ما كان من العدل والخير أن تخبره، ولهذا المثل أشباه فى الحياة كثيرة.

٢٤ ـ كثيراً مايحكم الناس ويتخذون رأيًا فى أمر من الأمور قبل تمام المعرفة وقبل اتخاذ الأهبة للحكم وقبل الاستعداد حتى لايفوتهم شىء من صواب أمره، وهذه عادة شائعة لها أسباب كثيرة مثل الكسل أو قلة الاكتراث والاهتمام بالحق أو الخوف من إرهاق النفس وكدها بالتقصى والتمحيص أو الاكتفاء برأى الغير وحكمه اعتماداً على أنه قد كلف نفسه مئونة البحث، وربما لم يكن قد فعل، كما لم يفعل من اعتمد على رأيه إلى آخر ما هناك من الأسباب العديدة.

٢٥ ـ إن الإنسان يخلق لنفسه ضرورات، فإن كثيراً من الأشياء والأمور لاتصير ضرورية إلا لأن الإنسان ألفها فاحتاج إليها، ألا ترى أن الثياب ما كانت ضرورية قبل أن اتخذها الإنسان ورققت بشرته وأعصابه وإحساسه، فإذا حاول أن يستغنى عنها بعد ذلك هلك، ولكن قد يستغنى عنها من لم يتعوّدها من القبائل. وقد ذكر هيردوت المؤرخ أن جماجم قدماء المصريين كانت أكثر صلابة من جماجم الفرس؛ لأن قدماء المصريين تعودوا الإقلال من غطاء الرأس أو الاستغناء عنه، وتعوّد الفرس عطاء الرأس الثقيل، فالعادة تشكل الجسم وتتحكم فيه كما تتحكم العادة أيضًا فى النفوس والأمور النفسية. والمؤرخون يقولون إن اتخاذ الإنسان الثياب كان بسبب عصر الثلج الذى زحف فيه الثلج جنوبًا وبرد فيه الجوّ، فإذا صح ذلك كانت الضرورة هى التى دعت إلى الحاجة للثياب واتخاذها من جلود الحيوانات وفروها قبل أن يتعلم الإنسان الغزل والنسيج، ولكن بعض القبائل حتى فى الأقاليم الباردة لاتزال تعيش شبه عارية أو كان ذلك إلى عهد قريب.

٢٦ ـ ليست عظمة الأمور وقيمتها هى التى تدعو إلى البحث عن أسبابها، بل جدتها أو مفاجأتها أو غرابتها هى التى تدعو إلى ذلك وتغرى النفس بالتعلق والشغف بها وباستطلاع أمرها، وهذا يصدق فى أكثر الناس إلاّ من خصص حياته لدراسة أمر هام، ومن أجل ذلك جاءت المخترعات والمستكشفات القديمة عفواً كالنار مثلاً ـ ويقال إن البنسلين فى عصرنا كشف عفواً، على أن غرابة الأمور لاتمنع من أن تكون لها قيمة وعظمة.

٢٧ ـ من الخطأ وقلة الإنصاف أن نحتقر بعض الأعمال الضرورية لأنها ممضة متعبة كريهة مع أن الحياة لاتستقيم إلاّ بها، فضرورة العمل من مقاييس قيمته، والسعيد من تطاوعه نفسه على أن يستنبط سروراً فى كل عمل ضرورى يعمله مهما كان كريهًا.

٢٨ ـ العقل يعرف بملكاته، فحيث توجد يوجد العقل. ومن ملكات العقل الحافظة والذاكرة وقياس الأمور والتهدى به إلى الصواب وإلى الرجوع عن الخطأ وهذه ملكات نجدها فى الحيوانات والطيور، ومن بحث فى حياتها وعرف صفاتها من وفاء وتذكر للجميل وحفظ ما تستوعبه حواسها ومن التأتى للانتقام ممن أساء

إليها ومن شهامة أو خبث تعد لهما الوسائل وتدبر الأمور، ومن حزن أو سرور، ومن ندم أو توبة، ومن مكر أو دعابة، ومن تهدٍّ إلى الصواب بعد الخطأ ومن نظر إلى ماتستطيع أن تعمله إما بتدريب أو بغير تدريب ـ لايستطيع أن ينكر أنها عندها قوة الإدراك وحفظ ما تدركه وعندها التذكر والاستنتاج، وقد أطال مونتانى فى ذكر شواهد ذلك وقصصه، وذكر أنها ماكانت تستطيع كل ذلك لولا ملكات العقل المذكورة.التى نسبها إليها. وللرحالة (هانز كودنوف) حجج وقصص مثلها فى كتاب (جيرانى الإفريقيون)، ولجاك لندن القصصى الأميركى أيضًا.

٢٩ ـ لو كان للكذب وجه واحد فربما استطاع الإنسان معرفته، ولكن الأكاذيب تختلط وتتفاعل فتنشأ عنها أكاذيب أخرى مختلفة الوجوه والأنواع والأشكال، فلا تستطاع معرفة الباطل بسبب هذا التفاعل، وقد يكون الكذب شبيهًا بالحق فيخدم المرء وجه الشبه أو قد يكون فى الكذب شىء من الحق وكل ما أضيف إليه من الكذب والباطل يخرجه عن حد الحق، وقد يجعله أبلغ فى باب الكذب.

٣٠ ـ من الخطأ أن يحتقر المتعلق بأمور الروح أو صفات العقل جسمه إكرامًا لنفسه، فإنه لاكرامة للنفس من غير كرامة الجسم والاهتمام بأموره.

* * *

نظرات لابروبير[1]

- ١١ -

لاتتم النظرات التى اقتبسناها من الأدب الفرنسى من غير اقتباس بعض نظرات (لابروبير) والتعليق عليها بما يناسبها من الآراء، وقد ترجم حياته ونقده الكاتب المطلع جورج نيقولاوس فى عدد ماضٍ من أعداد المقتطف، ولكنه لم يكثر من الاقتباس منه، وكنت قد اطلعت على إعلان عن ترجمة كتابه الأخلاق، ولكنى لم أره، وفى بعض التعليق الذى نضيفه إلى نظراته مايجلوها بذكر ما يوافقها أو يخالفها من آراء المفكرين. وقد كان لابروبير معاصراً للاروشفوكولد، وهو ينحو نحوه، وتارة يرتفع إلى مستواه، وتارةً ينخفض عنه، ونجده فى بعض نظراته يتردد فى رد فضائل الإنسان كلها وعيوبه إلى الأثرة وحب الذات كما ردها لاروشفوكولد، والمفكرون مختلفون فى هذا الرد كما سيتضح، وقد درس لابروبير القضاء وزاول منصبًا إداريا فى نورمانديا، ثم عين مربيًا ومعلمًا لدوق بوربون حفيد أمير كوندى، وانتخب عضواً فى المعهد العلمى الفرنسى، وعندما أدركته المنية كان قد ألَّف من هذه النظرات ألفًا ومئة، فلعلَّ إكثاره سبب تفاوته فيها، وقد وصف الفلاح الفرنسى وصفًا ينذر بالثورة الفرنسية قبل أوانها.

وهذه بعض نظراته وأفكاره:

١ ـ إذا صحَّ مايقولون من أننا نشفق على التعساء إشفاقًا على أنفسنا أن نصير يومًا مثلهم تعساء، فلماذا لا نعطف عليهم ولانحسن إليهم ولا نشاركهم فيما ننال من النعمة إلاَّ بهذا القدر الزهيد التافه؟!، ولهذا أسباب منها: أنه اذا كان جانب من النفس يعطف ويحسن خشية أن تصير مثل من تحسن إليه، فإن للأثرة جوانب

(١) المقتطف: ١من يناير سنه ١٩٤٩.

أخرى تدفعها إلى الاستئثار بخيرات الحياة، ثم إن الإحسان الزهيد التافه قد يُرضى ضمير المحسن فلا يُحسُّ ألـمًا، بل إن الرحمة من غير إحسان ومعونة قد يعدها من يشعر بها تكفيراً عن كثير من وسائل الاستئثار بالخير، وإن لم يصحب الرحمة برّ فتعيد إلى نفس صاحبها الاطمئنان، وتدعوه إلى استئناف الكفاح والمنافسة في خيرات الحياة. ومن عوامل الزهد في البر والإحسان الخوف إذا بذل المرء ما عنده أن يصير مثل من يحسن إليه، وكل هذا لا ينافي أن المرء قد يحسن إحسانًا زهيداً تافهًا خشية أن يصير مثل من أحسن إليه، وإن الإحسان هنا من الأثرة وباعثه حب الذات، والتكفير عن وسائل الاستئثار أو عن السعادة.

على أن كثيراً من المفكرين ينكرون أن تكون كل دوافع النفس أساسها واحدٌ، وينكرون أن تكون كلها مردودة إلى عامل الأثرة وحب الذات، قال هازليت: إن أحاسيس النفس المتضاربة وأهواءها المتباينة وهواجسها المتنافرة تُبطل أن يكون للنفس أساس واحد وهو حب الذات، إذ كثيراً ما يتعس المرء نفسه لأسباب تافهة لاتفيده بل تضره، على أن هذا لايمنع أن يكون مَرَدُّ كثير من الأمور التي تتعس المرء إلى الأثرة الخرقاء الحمقاء التي تتعس المرء وهو يظن أنها تسعده، كما لايمنع أن يكون الإيثار نوعًا من الأثرة كأن ترجو به النفس العلاء والحمد وطيب الذكر والظفر بالإيثار، فهي تتجنب الأثرة وتختار الإيثار لأوجه من النفع. وإذا أخذ الإنسان برأي شوبنهور في وحدة الحياة وأنه مظهر من مظاهرها فحسب، وأن اعتبار نفسه وحدة مستقلة من خطأ الحواس والإحساس استطاع أن يتخلص من بعض أثرته إلاَّ إذا عدَّ نفسه الممثِّل الأعظم لوحدة الحياة وإرادتها، وأنه من أجل ذلك أحق بالخيرات والاستئثار بها. وكان (كانت) الفيلسوف الألماني يعد الواجب المفروض فكرة أولية في النفس، وقال: ينبغي أن يعمل الإنسان بحيث يصح أن يكون عمله وخلقه مبدءًا عاما، وهذا مشتق من قول جان جاك روسو: إن كل إنسان ينبغي أن تكون إرادته الخاصة مطابقة للارادة العامة للأمة. وأعتقد أن كل هذه الآراء مشتقة من الفكرة القديمة التي توجد في كتب الأدب العربية كما توجد في الإنجيل على لسان عيسى عليه السلام وهي: ينبغي للمرء أن يعامل الناس كما يود أن يعامله الناس، أي حب للناس ما

تحبه لنفسك. ومن الغريب أن الأستاذ توما هوكسلى (أى هوكسلى الكبير) فى مجموعة أرسطو طاليس رفض هذا المبدأ بدعوى أن كل إنسان يود أن يغتفر الناس قسوته وجرائمه وآثامه، فلو اغتفرت كل الآثام والجرائم أصبح العالم فوضى وانتشر الشر. وبديهى أن هوكسلى فسرها على غير معناها، إذ أن معناها: عامل الناس بمثل ما تود أن يعاملوك به من التعاون التام والامتناع عن القسوة والآثام فى معاملتهم لك، على أن أداء الواجب ليس فكرة أولية كما زعم (كانت) بل هى فكرة مكتسبة، ولا هى راسخة فى النفوس، بل كثيراً ما تنتفى فى النفس وتحل محلها الأثرة الجامحة القاسية. ولكن مالا شك فيه أن الإنسان قد تتأصل فيه روح التضحية حتى يكون عمله بباعث نفسى عكس قوله ورأيه، كما فى قصة روبرت جرانت الكاتب الأمريكى المسماة (عمله ضد رأيه) وهى قصة رجل مفكر أبى أن يحبذ عمل إنسان أودى بحياته فى إنقاذه طفلاً صغيراً؛ لأن هذا المضحى الذى أنقذ الطفل ومات فى أثناء إنقاذه قد خلف زوجة وسبعة أطفال وهو كاسب رزقهم وتحمل المنكر عليه عمله اشمئزاز أصدقائه من رأيه، ولكنه بعد زمن فعل مثل الفعل الذى أنكر تحبيذه بدافع خفى من نفسه فأنقذ طفلاً من الهلاك وهلك بسبب ذلك، وهذا يذكرنى قصة (على الحدود) لموريس لى بلان. وبها مفكر يرى أن الحروب لاتبطل الاَّ إذا امتنع كل إنسان عن القتال حتى ولو غزيت أمته فى عقر دارها. ولكنه لما رأى الألمان أغاروا على الحدود حمل سلاحه بدافع غريزى من نفسه وذهب ليقاتلهم وليدافع عنها، وهذا غير ما فعل رومان رولان الكاتب الفرنسى الذى أبى الحرب وأبى القتال ورفض حمل السلاح وترك فرنسا وذهب إلى سويسرا فسقط فى نظر كثير من الفرنسيين. وقد قال «كانت»: إن المرء لا يستطيع أن يحكم أن الواجب هو الذى يدفعه إلى عمل من الأعمال إلاَّ إذا كان هذا العمل يخالف رغباته المحبوبة السارة، وليس معنى ذلك أن الواجب لايكون واجباً إلاَّ إذا كان كريهًا بغيضًا مخيفًا، وإنما هذه فكاهة من شيلر الشاعر الألمانى يداعب بها «كانت» وقد كان معجبًا به، وبعد كل هذه الجولة فى التفكير فإننا لم نقطع برأى باتّ فى تساؤل لا برويير.

٢ ـ قلما يلتذ المرء أن يرى نفسه مكلفًا معاونة إنسان فى حاجة اليه. ولكن من الغريب أن الحظ السعيد إذا جعل هذا الإنسان فى غنى عنه وعن مساعدته فانه قد يسر لرفع العبء عنه، ولكن سروره لايكون تاما، بل قد يمازجه شيء من الامتعاض كأنما ذلك الحظ السعيد الذى أغنى ذلك الإنسان عنه قد انتقص من قدره، لأن احتياج المحتاج إليه يشبع غروره وزهوه بالرغم من عبئه. وإشباع زهوه يدعو اطمئنانه إلى قدر نفسه وعظمتها، أو قل إن الإثرة فى باطن نفسه كانت تفضل أن يزاد سعدًا على سعد بأن ينال الحظ السعيد الذى ناله المحتاج إليه، ثم يظل ذلك المحتاج إليه محتاجًا إليه. وكذلك إذا نال صديق نعمة أو منزلة أو جاهًا فان المرء يبتهج بما نال صديقه ويسر له، ولكن سروره كثيراً ما يمازجه امتعاض خفى، فالسرور بنعمة الصديق لا ينفى وجود عكسه من حسد أو تنغيص أو ألم، لأنه لم يزد حظا على حظ بدل أن ينال الحظ صديقه، وهذا من اجتماع الأضداد فى النفس وقد تجتمع.

٣ ـ إن الذى يستطيع أن يصبر صبراً طويلاً قبل نيل ما يريد لاييئس كل اليأس إذا لم ينله. أما الذى يترقب نيله بشغف ولهفة لاصبر فيهما فإنه أكثر تعرضًا لليأس، ثم هو إذا نال ما يريد لايرى ما ناله بعد آلام اللهفة كفاءً لما قاسى فى سبيل توقع نيله وارتقابه من عنت الشغف واللهفة، فكأنه لم ينله كله أو بعضه.

وهذا إذا كان الشغف به لايزال فى نفسه كله أو بعضه، أما إذا كان قد زال أكثره فإن مارسيل بروست صادق فى قوله: إنه إذا تحققت الرغائب بعد زوال الشغف بها قنعنا منها بأقل مما كنا نقنع من قبل؛ إذْ الشغف لايزال قاهراً حادا.

٤ ـ الإنسان يزداد مع الزمن ألفة لمن صنع معهم جميلاً وأحسن إليهم، ولكنه يزداد نفوراً ممن أساء إليهم، وذلك لأن رؤية الطائفة الأولى تزيد حسن رأيه فى نفسه، أما الطائفة الثانية فإن رؤيتها تذكره إساءته إليهم فتقلل من حسن رأيه فى نفسه حتى ولو كان جانب من نفسه يباهى بقدرته على الإساءة فإن جانبًا آخر من نفسه يبصره بعيوب نفسه ولو كان ذلك عن طريق الوعى الباطن الخفى.

٥ ـ الناس يذمون الإسراف فى كل الأمور إلاَّ الإسراف فى شكر نعمتهم عليهم، فإنهم قلما يذمون الإسراف فى شكر نعمتهم ـ إلا إذا فطنوا إلى أنه يراد به المزيد من النعم التى لايريدون أن يجودوا بها ـ ولكن الناس فى أكثر الأحوال يطلبون المزيد من شكر نعمتهم مهما بالغ الشاكر فى شكرها، ولا يُرون شكره كفاءً لما أولوه من النعمة، بل يرون أنه دائمًا مدين لهم بالشكر.

٦ ـ الحديث المحبوب لدى القلب أطيب من الحديث المقنع للعقل بحججه. ومن أجل ذلك تُصغى النفس إلى ما تود أن تسمعه أكثر من إصغائها إلى ما يقنعها ـ بل هى تصنع أكثر من ذلك فتستنبط للحديث الذى تود أن تسمعه براهين وأدلة كى تقنع نفسها أنه أقنعها، وأنها لم تصغ إليه لأنه محبوب تود سماعه، بل أصغت إليه لأنه يدلى بالمنطق الحق والبرهان الصادق، وأحيانًا لاتكلف نفسها مئونة ذلك وتكتفى بأنه حديث شائق محبوب تود سماعه.

٧ ـ الرجل يصعب عليه، لاسيما إذا كان على شىء من الكبر، أن يغتفر لآخر اطلاعه على سقطة أو زلة أو سيئة بدرت منه، وخاصة إن كان عند المطلع على زلته أسباب وجيهة تدعوه إلى مؤاخذته أو لومه، ولا يهدأ غضب صاحب السقطة أو الزلة أو السيئة إلاَّ إذا ألزم الآخر مثلها وأظهره فى مظهر شبيه بها، فكأنه بذلك يمحو أو يخفى أو يهوّن من أمر زلته أو عيبه، ويزداد قدرًا لدى نفسه، ولما كانت العيوب والسيئات شائعة بين الناس كثيرًا ما يتعاونون لتهوين زلاتهم بإلزام غيرهم سيئات مثلها.

٨ ـ كثيراً ما تصدر من المرء أعمال عظيمة وإحساسات نبيلة فتنسب إلى حب الخير الغريزى فى النفس البشرية. والحقيقة أنها بسبب ما اكتسبه بالعادة والمراس والمحاكاة للخلق السائد الممدوح لدى الناس، فإن هذه الأمور تكسب المرء قوة خلقية، أما غريزة الخير فإنها تضعف لولا العادة والقدرة، وهما يزيدانها تمكنًا.

٩ ـ كثيراً ما يكون ضعف المرء وعجزه باعثين له على البغض والكره والمقت، إذْ لو كان قادراً غير عاجز للجأ إلى وسائل أخرى. والرغبة فى الانتقام وطول التفكير فيه هما بسبب هذا الضعف؛ لأنه لم تتم له بعد أسباب القدرة عليه،

فضعف المرء يدعوه إلى كره الناس. ولكن كسله وحبه الراحة والدعة والاطمئنان والسكينة أمور قد تدعوه إلى التخلى عن كرهه وعن محاولة التشفى، ومن أجل ذلك كان من الصعب أن يقهر المرء غضبه فى أول الأمر إذا غضب على إنسان، ولكن إذا تراخى به الزمن كان من الصعب أن يعانى شعور الغضب والبغض على الدوام؛ لأنه يقلل من راحته وهناءته، إلاَّ إذا جعل للسخط والرضا، تداولاً وتعاقبًا على نفسه.

١٠ ـ من الصعب محاولة إغراء المرء باتباع رأيك فى الأمور الكبيرة قبل أن تتمكن من أن تعوّده على اتباعه فى الأمور الصغيرة التافهة. فإن المرء يأنف أن يعمل حسب ما يوحى به غيره ـ حتى ولو كان صوابًا ـ إلاَّ إذا كان الموحى المغرى صاحب لباقة تمنع الموحى إليه من الشعور بالأنفة والغضاضة والهوان إذا اتبع رأيه، وتنيم إباء نفسه أن ينقاد لرأى غيره، فإذا لم يكن المغرى بالرأى الموحى به صاحب لباقة كهذه اللباقة دفع المرء الاستحياء أو الكبر أو هوى النفس إلى رفض ذلك الإغراء والتحكم، ولكنه إذا تعوَّد أن ينقاد فى الأمور الصغيرة التى لايرى أنفة فى الموافقة عليها بسبب زهادتها وتفاهتها، انزلق واسترسل به التعود فينقاد فى الأمور الكبيرة. وهذه حقيقة يعرفها الناجحون فى الحياة الذين يحملون الناس على قضاء مايريدون، وقد يحملون من هم أكبر عقلاً منهم، ومن تظن أنهم لاينقادون لأمثالهم، وإنما يفعلون ذلك باتباع هذه الحقيقة النفسية السيكولوجية، وكثيراً ما يكون الضعف سبب انقياد المرء لرأى غيره. ولكن الكسل وحب الراحة من أسباب هذا الانقياد، وهى حقيقة يستغلها ويستثمرها ذوو الإلحاح لنيل مطالبهم، وكأنهم ينتهزون فرصة استرخاء الكسل والدعة ومحبة الراحة ويعرفون صفاتها وأوقاتها فيهجمون فى حالاتها على من يريدون الإلحاح معه باللّباقة كتلك التى وصفت.

١١ ـ قد يكون من الدهاء أن نعامل أعداءنا على أمل أن يكونوا يومًا أصدقاءنا، وأن نعيش مع أصدقائنا على حذر من أن يصيروا يومًا أعداءنا، ولكن هذا يجافى أصول المودة والعداوة. وقد يدعو إلى أخلاق غير فاضلة وإلى تكلف ماليس من الصدق والنبل، وإلى استخدام الكذب والرياء. وأفضل من ذلك ألا

يصاحب المرء إلاَّ ذوى العقل والأمانة والشهامة الذين إذا صاروا أعداءه عادوا من غير أن يتعدوا حدود العقل والأمانة والشهامة ـ ولكن هل يستطيع دائمًا أن يميز من لايتعدون حدود العقل والأمانة والشهامة فى عداوتهم؟ فى بعض الأحايين يستطيع تمييزهم بأن يفحص معاملتهم لأعدائهم قبل أن يصادقهم. فإذا وجد أنهم يعاملون أعداءهم بالخيانة وقلة الشهامة والرعونة، استطاع أن يعرف أنهم لو صاحبوه ثم عادوه، عاملوه بمثل تلك المعاملة التى تدل على لؤم العداوة وخستها وغدرها وحماقتها.

١٢ـ لو أننا لم نسرّ وتأنينا فلم نضحك إلاَّ بعد زوال جميع منغصات حياتنا، وبعد كمال سعادتنا، لكان من المخوف أن نموت قبل أن نضحك. والحقيقة أن الضحك أو حتى تكلف الضحك، قد يقلل من متاعب الحياة، ولكن كثيراً من الناس يتشبثون بمنغصات حياتهم ومتاعبها، بألا يبيحوا لأنفسهم الضحك إلاَّ بعد زوالها، فيكون تشبثهم بها بحرمان أنفسهم من الضحك باعثاً على بقاء متاعبهم وثقل عبئها.

١٣ ـ أحب الرغبات إلى الإنسان التى لاتتحقق؛ لأنها متى تحققت وفاز بها ألفها واعتادها ووجد بعض الملل فى نفسه إليها سبيلاً فى بعض الأحايين فتقل قيمتها. وكثيراً ما نرى الرغبات التى تتحقق ويفوز بها الراغب تواتيه فى غير أوانها الذى يسعد بها فيه أو توافيه فى حالات من حالات نفسه. وفى ظروف من الحياة تقلل من المتعة بها، ولهذه الأسباب كلها تقل قيمة الرغبات إذا تحققت مهما كانت عزيزة محبوبة قبل الوصول إليها فلا تقنع الفائز بها، ولا ترتاح نفسه، ولا تهدأ. وهو كذلك لا ترتاح نفسه، ولا تهدأ إذا لم تتحقق الرغبات بسبب ألم اللهفة؛ فالإنسان قلما يرضى سواء تحققت رغباته أو لم تتحقق. وفى هذا عظة له وعبرة لو يعتبر.

١٤ ـ إنَّ ألم الحزن لفقد من نحب أقل ثقلاً على النفس من نكد العيش مع من نكره ومن منغّصات الحياة مع من نبغض؛ لأن ألم الحزن على الفقيد المحبوب يقلله مرور الأيام، ويكتسى وشيًا من الذكريات الجميلة التى تكسب

الحزن شيئاً من مباهج الجمال. أما العيش مع البغيض المكروه فإنه يزداد ثقلاً على النفس فتزداد به غما مادام دائماً لم يزل.

١٥ ـ المودة المستكملة الصادقة فى كل بواطنها ومظاهرها، أندر وأقل حدوثًا من العشق الشديد. وفى المودة نأتمن الصديق على أسرارنا بمحض إرادتنا، أما فى الحب فلا إرادة فيه، بل قد نذيع أسرارنا بالرغم منا. وقلما تزول الصداقة إلا لأسباب تدعو إلى نقصها كالغدر أو الإساءة التى لاتُقْبل، أو الجفاء الذى يدل على الغلظة، أما الحب فقد يوجد كأشد ما يكون بالرغم من هذه الأسباب. فإذا زال فقد يزول من غير ماسبب، بل يفيق المحب إلى أنه قد صار لايحب حبيبه وهو هو لم يتغير. وقد يولد الحب بغتة من غير إرادة أو تفكير. أما المودَّة فإنها فى حاجة إلى العشرة والألفة والزمن كى تنضج ثمراتها. وقد يكون أشد الحب الحب المباغت من أول نظرة. وربَّ نظرة إلى وجه جميل أو يد رشيقة قد تصنع بالقلب فى طرفه عين، مالا تصنعه أعوام طوال زاخرة بالعطف والمودة وأداء المعروف.

* * *

نظرات لورد بيكون[1]

-١٢-

من الغريب أن لورد بيكون من المفكرين الإنجليز الذين أُولع أهل الخيال والأهواء بهم، فتارةً يزعمون ـ كما قرأت فى مقال ـ أنه إدوارد السادس مع أنَّ بين ميلاديهما فرق يقرب من الجيل، ومات إدوارد السادس بعد ضعف ومرض وحضر موته الأطباء. وكان فرنسيس بيكون وهو غلام يصطحبه أبوه السير نيكولاس بيكون إلى قصر الملكة اليصابات، وكان من أعوانها، وكانت الملكة تداعبه فتسميه كاتبها أو وزيرها الصغير، وأسرته معروفة، والبيت الذى ولد فيه غير مجهول، وكل حوادث حياته حقائق معلومة، فليس فى حياته أى غموض. وبعض أهل الخيال والأهواء يدعون أنه كتب قصص شكسبير الشاعر العالمى، ولكن شكسبير كان مكثرًا من العمل، وبيكون كان مكثرًا من العمل، ويستحيل أن يقوم إنسان واحد بالعملين معًا مهما كانت قدرته، وبالرغم من أن بيكون كان أديبًا فإنه كان يعد البحث العلمى العملى أهم من الأدب، وقد مات بسبب أنه خرج فى يوم بارد كثير الثلج ليجرب تجربة علمية عملية نافعة وهى حفظ اللحوم بالثلج ومنعها من التعفن، وقد كان يثنى على القدماء تفضيل الفلسفة النظرية والأدبية على البحث العملى العلمى. وله مؤلفات كثيرة: فله كتاب الرسائل وكتاب حكمة القدماء فى أساطيرهم، وكتاب أقوال مشاهير الرجال، وكتاب أطلنطيس الجديدة، وكتاب تاريخ حياة هنرى السابع، وكتاب (نوفام أرجانوم) أى الأداة الجديدة فى العلم والتعليم، وكتاب تقدم العرفان؛ وعلاوة على ذلك فقد كان له عمله فى البرلمان وفى المحاكم فى سماع القضايا والحكم فيها وكتابة

(١) المقتطف: فبراير سنه ١٩٤٩.

أسباب حكمه بعد التفكير فيها، وكان مستشاراً لبعض وزراء الملك جيمس الأول يكتب لهم التقارير، ولم يشتهر بشيء من الشعر، مع أن بعض الأشراف لم يعدوا كتابة الشعر فى عهده حطة لهم، فكيف كان يستطيع مع كل هذه الأعمال أن يؤلف قصص شكسبير العديدة؟ على أن فى قصص شكسبير من الأغاليط التاريخية مالا تقلل من عظمة عبقريته كشاعر، ولكنها هى والأغلاط الجغرافية ما كان يقع فيها مؤرخ مثل بيكون. وشكسبير فى بعض قصصه يشكو حظ الممثل أو الأديب أو نكاية زملائه، وهذا لاينطبق على بيكون، كما أن شكسبير كان فى بعض قصصه يداعب أو يسخر من قول بعض الشعراء. وهذا أيضًا يستبعد من بيكون الذى يزعم أهل الأهواء أنه قد ترفع عن طبقة الشعراء وإن كان أكبرهم فنسب قصصه إلى غيره. أما بحوثه العلمية التى كان يقضى بها وقت فراغه وآراؤه فيها فليست كلها مقبولة لدى علماء هذا العصر. ولا غرابة فى ذلك، ولم يكن مبتكراً فكرة تقديم الخبرة والتجربة فى العلم والوصول من الشواهد الخاصة إلى القاعدة العامة، ولكنه أذاعها وجعل هذه الفكرة مبدأ عاما واشترطها فى البحث العلمى العملى فى كتابه عن العلم والتعلم، ولاشك أن عقله كان أكبر من قلبه، ولا داعى للخوض فيما اتهم به من العيوب إلاَّ أنه من الضرورى أن نقول إنه حوكم لقبوله الرشوة فى القضاء واعترف بذلك قائلاً: إن أحكامه بالرغم من ذلك كانت وفق العدل، وقد ندم على ما فعل، وقد عومل بالرفق فى محاكمته ثمَّ مالبث أن أطلق سراحه وأسقطت عنه الغرامة التى فرضت عليه.

وهذه النظرات من رسائله تدل علي كبر عقله وخبرته بالنفوس البشرية:

١ ـ الحق كضوء النهار لايزين قناع زخارف الحياة المموَّهة وأباطيلها وبهارجها وآمال الناس فيها وأعمالهم ونزعات نفوسهم إذا كان الحق خالصًا من شائبة الخداع للنفس، كما يزينها إذا كان مشوبًا بشيءٍ من الخداع للنفس بالباطل خداعًا قد يكون غير مُدْرك. وضوء هذا الحق، الحق المشوب بخداع النفس، قد يكون أشبه الأشياء بضوء الشموع فى المراقص المُقَنَّعة ليلاً يخفى نقائص ألوانها وبهارجها وحقيقتها ويكسبها شيئاً من الجمال المصطنع ويزين لباسها المستعار ويخفى بعض ما بها من ادعاء، ومن أجل ذلك كثيراً ما يخالط الحق حتى من

غير تعمد للخلط شيءٌ من الباطل كى يقلل من نور الحق فلا ينمُّ على أكاذيب الحياة وهى كثيرة، وهل من شك فى أنك إذا سلبت من إنسانٍ كل ما فى عقله من آراء لا أساس لها من الحق، ونزعت عنه كل آماله الباطلة التى تملقه وتزين له أمره وعيشه وتحثه على استئنافه والاطمئنان إليه وحرمته من مقاييس عقلية باطلة ومن أحكام وموازين يتشبث بها ومن أحلام فى الحياة جميلة لا حقيقة لها ولكنها تريحه وتسعفه ويتعلل ويتسلى بها ـ إذا نزعت من عقله ونفسه كل ذلك لم يبق له غير عقل ضامر هزيل ونفس ضئيلة حائرة خائبة، فالباطل قد يمازج الحق كما يمازج المعدنُ الخسيس الأشد صلابة الذهبَ الإبريزَ كى يزيده صلابة ويجعله أصلح، كنقودٍ فى المعاملات، وإن كان ينقص من قيمة عنصر الخليط.

٢ ـ جلال الموت وما يحاط به أشد رهبة من الموت، وبعض المفكرين يخيف الناس من الموت بأن يقيس ما فى الموت وهو تلف الجسم كله بما فى تهشم أصبع وهو جزء صغير من الجسم. وهو قياس غير صحيح؛ لأن الأعضاء الحيوية أقل تأثراً بالألم، والألم فيها أسرع مفعولاً. فكثيراً ما يموت الناس من غير إحساس كبير بالألم، وليس فى النفس إحساس قوى يعجز عن التغلب على الخوف من الموت، فالغيظ وطلب الثأر والحب وطلب المجد والإحساس بدافع الدفاع عن الشرف والحزن والخوف والشجاعة وحتى الإشفاق والرحمة وهى أرق الطباع ـ كلها أمور تستطيع التغلب على الخوف من الموت، وحتى الملل من الأمر المعتاد والمكرر قد يتغلب على الخوف من الموت؛ فالموت إذاً أقل شدة وبأساً وهولاً مما يصوره بعض القائلين.

٣ ـ من الحماقة والغفلة أن يريد المرء بغيظه وحنقه وكرهه وقسوته أن يحقق إرادة الله، فيؤدى ذلك إلى الإجرام وإلى مثل مذابح سان برثولوميو. لقد كان من الكفر والإجرام قول إبليس إنى أريد أن أصعد إلى عرش الله. أليس مما هو أشد كفراً وإجراماً أن يريد المرء إنزال الله من علىٍّ عرشه كى يشركه فى قسوة الإنسان إذ يتوهم أنه يخدم الله بقسوة مثل قسوة قرصان البحر.

٤ ـ إن من أعظم العظمة التى هى فى منزلة عظمة المعجزات أن يحكم المرء نفسه كل الحكم فيما ينوبه من حوادث الدهر. ويعجبنى قول سنكا الفيلسوف

الرومانى فى هذا الموضوع (أسمى ما يكون عجز المربوب إذا اقتدى باطمئنان الرب).

٥ ـ إن الحزن الذى تزينه أسباب الأمل والاطمئنان والإيمان كالثوب القاتم اللون المطرز بالخيوط الزاهية البهجة. فهو أملأ للعين وأشرح للصدر من السعادة التى تحيط بها المكاره والمخاوف المقلقة والتى تكون كالثوب الأبيض المطرز بالسواد.

٦ ـ مهما كان الرياء لازمًا فهو مظهر من مظاهر العجز فى الأمر الذى لجأ إليه المرائى؛ إذ لولا العجز فيه ما لجأ إلى الرياء.

٧ ـ من الناس من يتقنون الصراحة ويتخذونها خطة حتى يعرفوا بها، فإذا لجئوا إلى وسائل المكر والنفاق لم يصدق أحد أنهم من أهل المكر لما عهد من صراحتهم، فكأنهم بهذه الوسيلة يختفون فى مكرهم من أبصار الناس. وهذا يذكرنى قول أبى تمام الطائى:

سكنَ الكيدُ فيهمُ إن من أعْـ ظم إربٍ ألا تُسمى أريبا

٨ ـ الرجل الذى يقول كل ما يعرف كثيراً ما يسوقه طبع الكلام وعادته حتى يقول مالا يعرف، ويدَّعى أنه شاهد مالم يشاهد، وحضر مالم يحضر. والناس يأتمنون الرجل الكثير الصمت على أسرارهم، والثرثار مكشوف العورة كالرجل العريان. وكما أن الثياب تزيد المرء وقارًا فالكتمان يزيده هيبة ووقارًا، وليس الكتمان باللسان وحده بل أبلغ منه الكتمان بضبط المرء تقاسيم وجهه وحكم تقاطيعها حتى لاتنم على مايكتم؛ لأن الناس يصدقون ماتنم عنه ملامح الوجه أكثر من تصديقهم كلامه وإن نمقه وزينه. ومن مزايا الكتمان أنه يدعو إلى استنامة أعدائه وإلى مباغتة مناضليه وأنه يدع لنفسه طريقًا للتراجع إذا اضطره الأمر؛ إذ لو أعلن أمره اضطر إلى المضى فيه أو إلى إظهار العجز والخيبة. وهو بكتمانه وسكوته وإصغائه بدل الكلام، يستطلع ما يريد أن يعرف من آراء الناس وأغراضهم وخططهم، لكن المبالغة فى الصمت والكتمان قد تغرى الناس بأن يظنوا به الجبن والوجل، ثم إن صمت مثل هذا المُبالغ قد يحير من يريد أن

يعاونه وأن يشركه فى أمره فيفقد ثقة بعض الناس، ولعلَّ هذا من أسباب شك الناس فيمن لايعاشرهم ولا يحادثهم.

٩ ـ يشترك الآباء والمعلمون والحكام والأتباع وأمثال هؤلاء فى تنمية روح المنافسة، فينمو التحاسد والتباغض فى نفوس الأطفال الصغار من حيث لايشعر القائمون بأمرهم الذين تسرهم عاقبة المنافسة العاجلة الفانية ولا يفطنون إلى مايمكنونه فى النفوس البشرية من عواقب تبقى مدى الأجيال وضررها فى الحياة كثير، وهو ضرر غير مقصور على عهد الطفولة. وإنما يلجئون إلى هذه الخطة لأنها فى نظرهم أسهل خطة للحصول على ما يريدون أن يكون عليه الأطفال.

١٠ـ فى النفوس صفة لؤم ذائعة، وهى أن كل من لم يستطع إصلاح حاله يحاول إفساد حال غيره؛ ومن أجل ذلك كان ذوو العاهات والخصيان والشيوخ وأمثال هؤلاء من أشد الناس حسدًا إلاّ إذْ صادف نقصهم نفسًا كبيرة تجعل نقصها زائداً فى شرفها وشفيعًا لمدحها، إذا يقال إن صاحبها أتى بالأمر العظيم بالرغم من عاهته أو نقصه. والحسد داء الأمم والدول ومضعفها، ولكنه قد يكبح جماح طغيان الحكام والمقربين لديهم إذا خشوا عاقبته، والحسد كالوباء فمن خشى الوباء كثيراً وذعر منه أصابته غائلته من الرعب. وكذلك من يذعره حسد الحاسد فيظهر الاستخذاء والضعف والذعر فينتهز الحاسد فرصة ذعره ويصيبه بسوء، وإذا فشا الحسد فى أمة أصاب السليم الصفات الكريم الأخلاق الفاضل النفس، كما يصيب الوباء السليم الجسم فيمرضه. وفى أمثال هذه البيئة التى فشا فيها الحسد يصبح الفضل نقصًا، والرأى السديد خرقًا، والعمل الصادق عملاً كاذبًا فى دعوى ذوى الحسد الذين يرون فى انقلاب الأمور وحقائقها إخفاءً لحسدهم ونقصهم، وهم مثل الزارع الذى يزرع الشوك والحسك فى الظلام بين الحنطة وغيرها من النبات حتى ينتشر الشوك والحسك ويمنع القمح وغيره من النمو.

١١ ـ قال ديموستنيس الخطيب الأثينى: أول صفات الخطابة وثانيها وثالثها الجرأة فى الحركة والفعل. وكذلك ألزم صفات النجاح فى الحياة المدنية وأولها وثانيها وثالثها الجرأة، مع أن الجرأة تدل على أن تفكير صاحبها محدود؛ لأنه إذا

تشعب منه الفكر تردَّد فى شعابه وألهاه عن الجرأة وشغله عنها، فالجرأة أحطُّ من غيرها من الصفات الفاضلة، ومع ذلك فهى من صفات النجاح أولها وثانيها وثالثها.

١٢ ـ قد يكون المرء صالحًا جِدا حتى أنه من شدّة صلاحه لايصلح لمباشرة أى عمل من أعمال الدنيا بنجاح. والحقيقة هى أن النجاح فى الحياة قد يتطلب ـ إلاَّ إذا جاءَ عفوًا ـ شيئًا ولو قليلاً من المكر والاحتيال يخالط فضله وصلاحه، وقد يخفيه ذلك الفضل ولكنه موجود يخفى حتى على بعض من يتفكه ساخراً بغباوة أغنياء الحرب إما حسداً لهم، وإما دعابة يخالطها بعض الحسد ولو القليل منه، وإما جهلاً بأن الغباوة لاتجافي المكر والاحتيال. وأن المكَر من مظاهر العقل وهو من صفات النجاح، وكثيراً ما يلجأ إليه الغبى كى يجعله عوضًا عما حُرِمَه من الذكاء والفكر.

١٣ ـ قد ينسى بعض الناس الذين طبعهم الإسراف (وبعضهم يسرف من غير شعور فى أمور لاحاجة إليها وإن توهم غير ذلك) أن الإسراف فى أمر من الأمور يقتضى الاقتصاد أو التقتير فى أمور أخرى ـ وهذا يذكرنى قول معاوية فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ:ـ ما رأيت إسرافًا قطّ إلاّ وإلى جنبه حق مُضيَّع.

١٤ ـ سوء الظن يكثر فى ظلام العقل كالخفافيش تكثر فى الظلام، وإذا عظم سوء الظن عَطَّل العمل وفصم الصلات وعكر العقل ودعا إلى الظلم والغيرة والتردد والحزن وإلى فقد الأصدقاء. وإذا كان سيئ الظن جبانًا هلوعًا يتملكه الذعر والرعب إذا فكر فيما يسىء به الظن فإن رعبه قد يدفعه إلى عدم التشبث ظنا أنه إذا تعجَّل بادر ما يخشاه قبل وقوعه. واتقاء ما يساء به الظن كأنه أمر حقيقى لاخطر منه، بل هو لازم إذا لم ينزله المرء فى نفسه منزلة اليقين ويتعجل بالحمق لمعاقبة من يسىء به الظن، وكذلك الذى يساء به الظن وهو برىء أو يخشى أن يساء به الظن ينبغى ألا يظهر فى ملامح وجهه وحركات جسمه أنه يخشى أن يساء به الظن وإلاَّ أسىء به الظن ريبة وإن كان بريئًا كما قال الطغرائى الشاعر (إن الهَيُوبَ مُريبُ) فى بيته الآتى:

تخفى بسالتُهُ مَطارح هَمِّهِ ومَرامهُ إن الهَيُوبَ مُريب

١٥ـ إخفاء سوء ظنك بصديقك عنه يزيد من سوء ظنك به، وقد تمحوه الصراحة وتبطل الوساوس التى تنمو بسبب سوء ظنك به، ولكن بعض الناس يكره أن تصارحه ويحقد عليك من أجلها، حتى ولو كانت صراحة بلباقة ولطف فلا يخلص لك بعد مصارحتك أبداً ـ وهذا يذكرنى قول البحترى:

أدعُ الصاحب لا أعذله لايُسمَّى بِعقُوق فيُعَق

١٦ـ ينبغى لمن وهبه الله قدرة على الفكاهة والسخر، أن يتذكر دائمًا أن هذه القدرة تبعث الشك وسوء الظن به وبمقاصده حتى يحمل الناس كل ما يقول أو يعمل على محمل السخر بهم والاحتقار لهم وإن لم يكن يريد ذلك. وقد يذكر المرء قولاً بريئًا لاسخر فيه فيحمل الناس معناه على ما بدر منه فى أوقات أخرى من السخر (وهذا يذكرنى قول لورد تشسترفيلد: ينبغى لصاحب الفكاهة والسخر أن يتقلّدها مغمدة كما يتقلد السيف، لا مُصلِيًا لها، وأن يتخذها عدة للدفاع إذا لزم لا للاعتداء) وأبغض الفكاهة فى نظر لورد بيكون ما تناول بالتنادر والسخر الأمور الخليقة بالخشوع والإجلال.

١٧ ـ كل من كان فى نفسه شىء يدعو إلى احتقاره مُزَوَّدٌ بدافع نفسى يعمل للنجاة من ذلك الاحتقار بالحيلة أو المكر أو الشجاعة أو العمل العظيم الذى يدعو إلى الاعجاب أو بالظهور بين الناس إما بالفضل وإما بالشر كى يخيفهم بشره وينال الهيبة والخوف منهم إذا لم يستطع نيل الإعجاب بفضله. فكم من عاهة أو نقيصة فى حياة المرء حَثَّتْ على العظمة أو على الإجرام. وإذا كان صاحب النقيصة عاجزاً كان شديد الحسد.

١٨ ـ المظاهر المألوفة الصغيرة من مظاهر الفضل أجلب لرضا الناس ومدحهم من مظاهر الفضل العويصة العظيمة النادرة؛ لأن الحياة اليومية أحوج إلى الأولى كما أنها أحوج إلى النقود القليلة القيمة فى التعامل اليومى ـ ولأنها أقرب إلى فهم جمهور الناس وأقل هدفًا للحسد.

١٩ ـ أكثر الناس تغاضبًا الأطفال والشيوخ والنساء والمرضى والمدلّلون الذين هم أشبه بهؤلاء. ومن أجل ذلك ينبغى أن يستحى العاقل من أن ينزل نفسه منزلتهم بالتغاضب ظنا أن الغضب من مظاهر العظمة، وهو ليس من مظاهر العظمة بل من مظاهر الجهل والمرض والضعف والعجز عن حكم النفس، فهو اعتراف بالنقص، لأن كل هذه المسببات من باب النقص وأشكاله.

٢٠ ـ بعض الناس عقلهم أعظم مما يُخيَّل للناس فيهم من العقل. وبعض الناس يخال فيهم من العقل أعظم من نصيبهم منه. فملامح الوجه قد لاتدل دلالة قاطعة على مقدار المرء من الفهم والتعقل، وقد يستر المرء نقص عقله بالوقار والحشمة، وبعض الناس له مهارة فى إلباس الأفكار التافهة لباس الحكمة، وبعض الناس يوهمون غيرهم بالصمت أنهم يعرفون أكثر مما يريدون أن يقولوا، وبعضهم يوهم ذلك بإشارة وجهه أو يده أو طرف من بدنه أو بالابتسام الماكر أو بالظهور بمظهر المتأمل المفكر وهو لايتأمل ولا يفكر. وهؤلاء وأمثالهم على قلة عقلهم يشتهرون بالفضل ـ (وهذا يذكرنى قول شيرير الناقد الفرنسى: إن بعض الناس كالمنازل الضيقة التى تكاد تكون لاعرض لها وطولها كله على الشارع الرئيسى البارز فيحسب الرائى أنها منازل كبيرة وهى صغيرة جدا).

٢١ ـ بعض الناس لإخفاء نقص عقولهم يتخذون وسائل أشبه بحيل التاجر المفلس الذى يريد أن يقنع الناس أنه غنى كى يجد من يقرضه مالاً ليتلافى أمر إفلاسه وكى يعود إلى الكسب وإلى الارتزاق. وهؤلاء إذا عَنَّ موضوع أظهروا عدم الاحتفال له وتهوين أمره أو السخر به بدل فحص فكرته والإدلاء برأى فيها.

٢٢ ـ قد يكون الرجل ذا إثرة محبا لنفسه، ومع ذلك يكون فى حاجة شديدة إلى صديق، فليست الحاجة إلى المصادقة والمودة من سلامة الطويَّة وطيب القلب، وإنما هى ضرورة كضرورة من يأخذ الدَّواء كى يجرى به المرارة فى جسمه ويُدرهًا. وأمثال هذا إذا افتقدوا الجليس المصاحب كانوا كمن يأكلون قلوبهم ـ ولعلَّ هذا هو السبب فى غيظ ذوى الأثرة ممن ينقطع عن مجالسة الناس أو لعلَّه سبب من أسبابه ـ وبعض الناس لاتتم متعتهم بالسرور إلاَّ بإعلانه لصديق أو

جليس، ولايسهل تحملهم للشقاء إلاَّ بالشكوى لعشير أو جليس أو صديق ومكاشفته. وهذا يذكرنى قول الشاعر العربى:

ولابدَّ من شكوى إلى ذى مروءَة يواسيك أو ينسيك أو يتوجع

٢٣ ـ تزداد آراء المرء صحة ووضوحًا بالمحادثة؛ لأنه قد يتكلف بحثها ووضع حدّ لمعناها وأسبابها، فيزداد المرء دقة وحكمة بالمشافهة أكثر مما يزداد بالتفكير خاليًا بنفسه منفردًا. فهو بالمحادثة يشحذ ذهنه كما يشحذ السلاح على الحجر حتى ولو كان محدثه لايستطيع أن يجيد مبادلة الرأى ونقده، ويستثنى من ذلك الحديث الذى لا يراد به هذا الأمر بل تراد به الضجة وتعطيل الفكر والمهاترة.

٢٤ ـ اختلال الأمن أكثر مايكون بسبب الحاجة والفقر ولا يداوى ولا يكبح إلاّ بمداواتهما. وقد قال تاسيتوس المؤرخ الرومانى فى وصف أمثال هذه البيئة المختلة: بعض الناس لهم جرأة على عمل الشر، وبعض من ليست لهم جرأة على عمله يرغبون فى أن يعمل غيرهم الشرور أكثر من هؤلاء وأولئك الذين يسمحون بعمل الشر ولا يعينون ولا يدلون على من يعمله ولايحاولون منعهم. فإن رأيت أمة اجتمعت فيها هذه الطوائف الثلاثة واستفحل أمرها فأنذرها بالتدهور فى نظامها وحياتها التى تحياها، ولاسيما إذا انتهز الوجهاء والأعيان والأدباء والمفكرون فرصة امتعاض الجمهور من سوء حالهم كى يثيروهم بوسائل ظاهرة أو خفية لمآرب خاصة بهم. وإذا كثر فى مثل هذه الأمة الذين يسرفون فى الترف أكثر مما ينتجون وازداد فيها عدد المتعلمين الذين يعتمدون على مناصب الدولة ولا عماد لهم غيرها فهى أمة معرضة دائمًا للتدهور مهما غرَّت ظواهرها.

٢٥ ـ مظاهر الحزن قد تكون مثل صمامات الأمان، فالذى يحاول منعها إذا اشتد الحزن قد يكون حاله مثل حال الذى يجعل جروحه تدمى فى داخل جسمه بدل أن تدمى على ظاهره وعلى جلده فيعالجها، وهى إذا دميت فى داخل جسمه سببت التقيح والتسمم فى بدنه، وكذلك من يقهر أحاسيسه الشديدة كل القهر ولاينفس عنها بعض التنفيس بالعمل أو القول أو الكتابة وما شابه ذلك يكون كأنه تسمم بها.

٢٦ ـ إذا لم تجد النفس منفذاً إلى النجاح والتبريز فى الأمور العظيمة فلا تنتعش إلاَّ بالنجاح والتبريز فى الأمور الصغيرة، وقلما تنتعش وتطمئن إلى السكينة التامة الخالية من أى مظهر من مظاهر النجاح، فإنها حينئذ تنطوى على نفسها ويصيبها الملل والحزن إذا لم تجد ماتتلهى به مما يؤدى إلى النجاح والتبريز فى أى أمر من الأمور صغيرها وكبيرها.

٢٧ ـ أشد الناس أثرة وأنانية لا يتورعون من إحراق مدينة كى يقلوا بيضة، أى لايتورعون من تسبيب أشد الضرر من أجل منفعة تافهة، ومع ذلك لايغتر الناس كما يغترون بذوى الأثرة والأنانية، لأن مطالب أثرتهم والرغبة فى الفوز بها قد تدعوهم إلى ملاطفة الناس واسترضائهم، فيخال ذلك من سلامة طويتهم وطيب أنفسهم فيأنس إليهم الناس ويثقون بهم، وبهذا الائتناس بهم وبتلك الثقة ينالون ما تتطلبه أثرتهم إلاَّ إذا كان صاحب الأثرة أحمق لايعرف كيف يستدنى مآربها بملاطفة الناس وإظهار غير ما يبطن.

٢٨ ـ خطرات النفوس الخفية تكون حسب ميول الناس ونزعاتهم، أما آراؤهم فحسب ما تعلموا، ولكن أعمال الناس حسب العادات التى تعودوها؛ ومن أجل ذلك لايصح أن يخدع المرء بالناس وأن يخلط بين هذه الأمور الثلاثة كما لايصح أن يعتمد على طبع واحد من طباع نفس إنسان يعرفه؛ ففى النفوس طباع متناقضة، ولا يصح أن يعتمد كل الاعتماد على آرائه وأقواله وأحاديثه إلاَّ إذا صدقتها ووافقتها عاداته وإلاَّ كان عمله ضد رأيه فى بعض الأحايين. فكثيراً ما تسمع الرجل يفصح عن رأى أو عقيدة ويعطى المواثيق على أن يعمل وفقها ثمَّ لايفعل، بل يفعل ما تقتضيه عاداته، فكأنما الإنسان آلة مسيَّرة يديرها لولب العادة كما تدار الآلة فى المصنع.

٢٩ ـ للإنسان مزايا ظاهرة تجلب المدح ولا ينال صاحبها غير المدح وقد يكون ممدوحًا خائبًا فكأنه مدحٌ عقيم، وللإنسان مزايا أقل ظهوراً من نالها جلبت له السعادة وأعانه الحظ ومثل هذا الإنسان الذى نالها كأنما محركات عقله ونفسه متفقة ومحركات الحظوظ كما تتفق عجلات الساعة فى سيرها أو عجلات الآلة. ومثل هذا الرجل قلما يخطئه الناس أو يذمونه أو يسببون له الخيبة، ومثل هذا

لايشترط فيه تمام الفهم وكمال الفضل، بل قد يكون نقصه فيهما معينًا له على النجاح، وبعكس ذلك تجد أناسًا لايستطيعون تجنب مؤاخذة الناس ولومهم وانتقادهم مهما أجادوا وأحسنوا فى القول والعمل.

٣٠ ـ المتملق الساذج يمدح كل إنسان بكلام يعده لكل من يريد مدحه وهو على وتيرة واحدة والمتملق الماهر يمدح كل إنسان بما يود ذلك الإنسان أن يُمدَح به وبما يمدحُ به نفسه. والشرير هو الذى يمدح إنسانًا بما يضره ويؤذيه. وإذا مدحت من كان فى مثل فضلك أوجبتَ لنفسك المدح، وإذا لم تمدح من هو أكثر منك فضلاً أنكر الناس فضلك بالقياس.

٣١ ـ بعض من يود معرفة أسرار الناس يبادرهم بالحديث بالأمر الذى يريده على غفلة منهم واستئناس كمن ينادى إنسانًا أخفى وغيرَّ اسمه فيناديه باسمه على حين غفلة منه أو يعرِّض له بما يريد معرفته ويتأمل وجهه خلسة. وقد يصلح رأى هذا الباحث إلا إذا كان جليسه هيوبًا فيصدق فيه قول الطغرائى (إنَّ الهيوب مريب).

٣٢ ـ ينبغى للقاضى أن يذكر دائمًا أن الشرائع والقوانين لم تنشأ كى تكون أحبولة صيد وفخاخًا وشباكًا يصاد بها الناس كيفما كانوا وبأية طريقة.

* * *

نظرات جوناثان سويفت[1]

-١٣-

كان سويفت إنجليزيا ولد فى أرلندة وعاش بها فى صباه ثم عاد إليها فى أواخر أيامه ومات بها. وقد كان فقيراً فأكسبه الفقر غيظًا وشعوراً بالنقص كان يخفيه بالكبرياء عندما نبغ وعاشر العظماء والوزراء. وقد عاش مدة فى إنجلترا أشبه بكاتب للسير وليام تمبل السياسى الإنجليزى. وقد استشهد ثاكرى فى رسالته عنه برسائل سويفت التى تذلل فيها للسير وليام وأظهر أن ضرورة هذا التذلل كانت تحز فى نفسه وقلبه وتزيد من شعوره بالنقص. ولكن ما كولى فى رسالته عن السير وليام تمبل وصف كيف أن سويفت قد استفاد علمًا من مكتبة متبوعه كما استفاد خبرة عملية من معاشرته رجلاً تقلب فى مناصب مختلفة واكتسب خبرة بالحياة والناس. وقارن ماكولى بين الدكتور صمويل جونسون الأديب الإنجليزى والكاتب الشهير وبين سويفت فقال: إن آراء الأول مكتسبة من الكتب، أما آراء سويفت فهى مؤسسة على الخبرة بالحياة. وقد خدم سويفت وزراء حزب المحافظين أولاً بقلمه، وكان يأمل أن ينصَّب أسقفًا فى الكنيسة ولكن الملكة رفضت ذلك؛ لأنه فى بعض كتبه يسخر برجال الدين وطوائف الكنيسة وينقد حزازاتهم واختلافهم فى أمور تافهة. وأشهر مؤلفات سويفت كتاب أسفار جاليفار يطالعه الصغار لغرابة قصته والكبار لما فيه من نقد لحياة الناس. وقد خولط فى عقله فى أواخر أيامه، وقلما سلم منه صديق لحدة طبعه. وبالرغم من تلك الحدة أحبته امرأتان: وهما التى رمز للأولى باسم ستيلا، وللثانية باسم فانيسا. وقد قال ثاكرى: إن انهيار عقله فى آخر حياته كان مثل انهيار دولة

(١) المقتطف: مارس سنة ١٩٤٩.

كبيرة، ويقول سير والترسكوت: إن فانيسا ماتت غما بسبب زواجه سرا من ستيلا، ولو أنه من المعروف أن فانيسا ماتت من السل، وقال ناقد: إن سخر فولتير كان مثل وخز سلاح المبارز؛ أما وخز سخر سويفت فكان أشبه بوقع فأس القاتل. وقد اتخذ من سخر عبقريته وشدّته فى القول وسلاطة لسانه سلاحًا فى السياسة لم يسبق له مثيل، فجعل المقالة السياسية مقالة أدبية مرهوبة؛ لأنه أكسبها رائع الأسلوب، كما أكسبها الخيال والأدب والفكر والسخر والشدة. ولكن شدة سخره كما تظهر فى المقالات السياسية كمقالات دريبر التى يقترح فيها على سبيل السخر بخصومه من الوزراء طهى أطفال الأرلنديين وأكلهم ويَفْتَنّ فى وصف طهيهم. كذلك تظهر شدة سخره فى وصف ياهو المخلوق القذر فى كتاب أسفار جاليفار وقد رمز به إلى الإنسان وفى مواضع أخرى كثيرة. وقد قارن فولتير بين رابليه الساخر الفرنسى وبين سويفت فقال: إن كليهما ذو بصيرة وفطنة، ولكن رابليه كان يحب الحياة والناس، أما سويفت فكان يكره الحياة ويحتقر الناس.

وحب رابليه للحياة سواء أكان حبا للذات الجسم أم كان حبا للذات الفكر، أمر مشهور تفيض به كتبه. وكان يحارب به الرهبنة فى المسيحية ونظرها إلى الحياة والفكر. ويمتاز سويفت بأنك لا تجد حرفًا أو كلمة يصح حذفها فى قوله. أما رابليه فقد كان أسلوبه غزير المترادفات وأشباهها فكأنه فى غزارته السيل المتدفق أو النمو النباتى الغزير. وكما أن كليهما قد يعوق السير فكذلك قد يعوق إتمام قراءة رابيله ما به من غزارة الكلام وكثرة الإشارات إلى أمور غامضة كانت معروفة فى ذلك العهد البعيد. إلاّ أن قراءة كتبه تحبب الحياة وتدعو إلى الأمل وإلى الرغبة فيها. أما كتب سويفت فقد تدعو إلى احتقار البشرية واليأس من الناس.

ولكن هذا لا يقلل من رصانة تفكيره كما يتضح فى النظرات الآتية التى نوردها مع التعقيب عليها.

١ ـ قد يكثر الناس من الأعذار والأسباب حتى ينتحلوا الزائفة منها فيضيفونها إلى الوجيهة؛ ظنا منهم أن كثرتها تزيد الراجحة الوجيهة رجاحة ووجاهة. وهم قلما يفطنون إلى أن زيف الزائفة ينتقص من رجاحة الراجحة، ويدعو إلى الشك

فيها، وهذا أمر شائع يضيع الناس به حجتهم ويبطلون حقهم، وإن كانوا على حق، وكذلك الضعيفة من الحجج تضعف ما أضيفت إليه من الحجج القوية، ويحسبون أن كثرتها تقنع المفكر فيها، ولكنه إذا فطن إلى ضعف الضعيفة ربما خالجه الشك فى غيرها. وقد يحسب الناس قوةً الأخيرة من بلاغة صاحبها أو مكره واحتياله، فإذا وثق السامع من بطلان بعض الأسباب أو ضعفها أبى الاقتناع كل الاقتناع بالسليمة، وتحرز من قبولها كل التحرز. وهذا مثل أن يتضح للسامع كذب بعض القول، فيشك فيه كله أو يرفضه أو يحكم ببطلان الصدق لجناية الكذب الذى أضيف إليه.

٢ ـ مهما عظمت المنافع التى استفادها المرء منك فإنه قد يحقد عليك إذا كانت له شهوة ظلم أو حقد أو بغض لإنسان ولم تُعِنْهُ على ظلم ذلك الإنسان أو على إيذائه أو انتقاصه ولم تساعده على التشفِّى منه، فإنه يعدك ممالئاً له وإن لم تكن ممالئاً، ويراك خاذلاً لنفسه كأنك خذلته فى الخير والعدل. فإن الشهوات لاتنصف ولا تتذكر خيراً استفاده منك صاحبها ولا تأبه لما يفرضه عليك العدل من الامتناع عن ظلم الناس وإيذائهم. فكأن ما أسديت إليه كان نفعًا زائفًا وأمرًا مدلسًا ـ ويدهش الناس لو فطنوا إلى حدٍّ ينقادون إلى مثل هذا الإغراء بالشر والإلحاح فى الحث عليه، وهم ينقادون إمَّا خوفًا أو طمعًا أو كسلاً أو استهواءً أو شهوةً أو جهلاً أو ماشابه ذلك. وبعضهم يحسب الانقياد إلى الشر ضرورة لامناص منها مع هذا الإلحاح وإن كرهها أو ادَّعى لدى نفسه أنه يكرهها أو كان يهاب عاقبتها، وربما ينقاد إليها وهو لايسوِّغها فقنع نفسه بالباطل، إنه إنما انقاد إلى ضرورة من ضرورات الحياة التى لامناص منها، وربما غالط نفسه وعدَّ انقياده إلى الإلحاح على عمل الشر والأذى من ضرورات الحياة التى لامخرج منها ولامناص كى يطلق لنفسه العنان لإشباع نهمتها الغريزية فى عمل الشر ولتسترسل فيما هو حبيب إليها منه. والإنسان قلما يتجنى أو يعمل الشر بإلحاح مغر أو بغير إغراء وإلحاح إلاَّ وهو يعد لنفسه الأعذار كى يستريح إمَّا من تأنيب الناس وإما من وخز الضمير.

٣ ـ أكثر الناس عندهم من الإيمان والدين القدر الذى يغريهم بكره الناس لمخالفتهم إياهم فى أمر من الأمور، وليس عندهم القدر الأعظم من الإيمان

الذى يغريهم بحب الناس ـ فترى الناس يضطهد بعضهم بعضًا، وقد يكون هذا الاضطهاد خشية عدوى آرائهم وأعمالهم، أو قد يدعون أنهم يضطهدونهم لأنهم يحبون لهم الخير ويخشون عليهم الشر أو الأذى. وهذا يذكرنا بقصة (العذاب بالأمل) لمؤلفها فيلييرده ليل آدم الفرنسى. وفيها أحد رجال الكنيسة من أعوان محكمة التفتيش يعذب الناس وتكاد تذوب نفسه إشفاقًا عليهم ورحمة لهم، إذ لم يعذبهم كى يطهرهم بالعذاب، ولم يكتف بالعذاب المادى بل كان يعذب السجين بالأمل، فيترك له باب سجنه غير موصد كى يطمعه فى الهرب، فإذا أوشك الرجل أن يهرب وينجو من العذاب دلف إليه واعتنقه واحتضنه رحمة له وعاتبه برفق لرغبته فى الهرب من التطهير بالعذاب والألم وقلبه يكاد يذوب إشفاقًا عليه من تلك النجاة. وهذا يذكرنى قول الشاعر:

فكنتِ كذبَّاح العصافير جاهدًا وعيناه من وجد عليهنَّ تهمل

وهذه القسوة الموصوفة فى القصة قسوة ممزوجة بهستريا الرحمة، ولكن أكثر النفوس فى قسوتها فى الحياة لاتحتاج إلى مزيج من هستريا الرحمة الكاذبة.

٤ ـ كثيراً ما يخطئ ويخيب ذوو الفكر فى أمور الحياة العامة حيث يصيب النجاح من قل عقله وفكره فإنَّ شدَّة تصورٌ ذوى الفكر وإدراكهم جوانب الأمور واحتمال مايكون، وحدة ذهنهم فى بحث تفاصيل الأمر صفات قد تدعو إلى الحيرة والارتباك والتوانى وإلى الشطط عن القصد فى أثناء تلمسهم جوانب الفكر فى الأمر، بينما يمضى الرجل الذى لايفكر كثيراً إلى مايكلَّف عمله فيعمله عملاً متقنًا ويصل إليه من أسهل الطرق وأقربها وأكثرها وُرَّادًا. وإنما مَثَل ذلك مثل المدية إذا شحذت شحذًا شديداً وأردت أن تقطع بها أطراف أوراق كتاب فإنها ربما حادت وجنحت من حدَّتها فلا تقطع أوراق الكتاب قطعًا منتظمًا بل قد تتلفها، بينما لا تحيد المدية التى هى أقل منها شحذًا. ولعلَّ سَعَة الفكر تدعو إلى أن يعد صاحبها من الممكن عمليا ماهو من المحال. ولقد رأينا نابليون بونابرت ينجح فى تنظيم إدارة فرنسا وفى تنظيم معاركه، بينما كان خياله وفكره يدعوانه أحيانًا إلى طلب المحال، ولقد عرفت من الشبان الأذكياء من أصابوا نجاحًا كبيراً فى الحياة

وكان يتنازعهم العاملان عامل الإرادة الواقعية العملية وعامل الخيال والفكر اللذين كانا يؤديّان إلى فشلهم لو استسلموا إليهما كل الاستسلام.

٥ ـ يلوم الناس الإنسان لأنه لايعرف حدود مقدرته ومقدار عجزه ونقصه، ولكنهم قلما يعترفون أنه قد يجهل قدرته وكفايته وملكات نفسه، وقد يبخسها وينتقص نصيب نفسه منها؛ لأنها تكون كامنة خافية عنه لاتظهرها إلاَّ الحوادث المواتيه المناسبة، وإنما اختفاؤها عنه كاختفاء منجم الذهب ومعدنه فى بطن الأرض، فإنه يخفى على من هم على سطح الأرض. ومثل هذا الإنسان الذى يخفى عنه مقدار ملكاته كأنما يعيش على سطح نفسه كما يعيش الغافلون عن المعدن الذى فى بطن الأرض ممن هم على سطحها ـ وقد يستنبط هذه الملكات الإيحاءُ أو الحب أو المنافسة أو الضرورة، والضرورة التى تستنبط الحيلة والقدرة والملكة فى بعض النفوس إذا صحبها مايدعو إلى الارتباك أو كان فى جهاز جسم صاحبها ما يدعو إلى الحيرة، أخلَّ بملكاته ولم ينتفع بها كل الانتفاع، كالذى لاتظهر كنوز نفسه إلاَّ إذا ابتعد عن الضوضاء. فإن ضوضاءَ الحياة قد تشردها كما يشرد لب المرء وكما تشرد أفكاره إذا سمع جلبة وأصواتًا صاخبة. ولكن بعض الناس لاتظهر كل مقدرته وملكاته وكنوز نفسه إلا إذا خاض غمار الحياة وعالج الناس وعشرتهم واحتكت نفسه بالنفوس كما يحتك حجر الصوان بالصوان. وقد يفاجأ المرء ببروز ملكاته وقدرته كما يفاجأ غيره مباغتة، وقد كان لايظن أن عنده تلك القدرة كما كان الناس لايرونها فى نفسه وبغتات النفوس متنوعة.

٦ ـ دعانا بعض الفلاسفة إلى نبذ أكثر رغباتنا حتى إذا بلغت أقل حد مستطاع أمكننا أن نحصل عليها من غير مشقة كبيرة ومن غير أن نشقى فى الحياة. وهذه الدعوة مثل دعوة من هو فى حاجة إلى النعل أن يقطع رجليه كى يستغنى عن النعل فلا يشقى بطلبه ولكن ما تقدم إلاَّ بالطلب كما لايتقدم من هو فى حاجة إلى النعل إلاَّ بقدميه. ومن قديم الزمن ما شحذ ذهن الإنسان ونما عقله ومرن بدنه إلا لأنه خالف هذه الدعوة إلى انتقاص الرغبات والحاجات واستَنَّ لنفسه سُنَّةَ الإقبال على طلب الدنيا.

٧ ـ لو أن إنسانًا كتب جميع آرائه فى أمور الحياة المختلفة منذ صغره إلى أن صار شيخًا لوجد اختلافًا وتناقضًا كبيرًا فى آرائه فى كل أمر من الأمور فى مراحل العمر المختلفة، ومع ذلك فإن الناس كثيرًا ما يلومون المرء لأنه غيَّر وبدَّل فى آرائه، وهم لايفطنون إلى أنهم يغيرون ثيابهم وأزياءهم ومطالبهم. ولو أن إنسانًا لم يتغير رأيه فى الأمور من عهد طفولته إلى مماته لَدَلَّ ذلك على أن عقله لم يكبر وأنه أشبه بالحفريات المتحجرة وإن كانت هذه يصيبها التغير أيضاً ـ ولعل السبب فى ذلك أن الناس يخلطون بين تغير النفاق الذى سببه الأهواء وتغير النمو، وهم يميلون إلى سوء الظن فينسبون كل تغير إلى النفاق الذى يجعل المرء شبيهًا بالآلة التى توضع فى مَهَبِّ الرياح فتعرف بها الجهة التى تهب منها. فتغير الرأى قد يكون تَهَدِّيًا إلى الصواب ونموا فى العقل وقد يكون طيشًا وعبثًا فيمن لارأى له. وقد يكون مكرًا واحتيالاً للكسب. وبالرغم من أن الناس يلومون من غَيَّر رأيه فإنهم إذا وجدوا أَرَبًا أو نيلاً منه أو قدحًا فيه تناسوا رأيه الجديد وألزموه رأيه القديم وهو يتبرأ منه.

٨ ـ عرفت أناسًا كانوا ذوى مواهب كبيرة نفعت غيرهم ولم تفدهم فَهُمْ كساعة الظل التى كان الناس يضعونها أمام بيوتهم فينتفع بها المارَّة ويعرفون بها مرور الزمن ولا ينتفع بها أهل البيوت. الذين نَصَبُوها. وتلك المواهب النفيسة قد لاتنفع أهلها فحسب، بل قد تضرهم؛ فإن الفائدة المرجوَّة للمرء فى الحياة لاتكون على قدر مواهبه وإنما تكون على قدر مايستطيع الاحتيال له من المكاسب والمزايا. فإذا لم تسعفها تلك المواهب على ذلك الاحتيال أخطأت تلك المزايا ولو أن نفوسًا أخرى غير نفس ذلك الإنسان لم تنل ما تريد مما يعدل مواهبها ويناسبها ويوازنها ما بالت نفسه، وقلما تسخَّطت أو حاولت عبثًا أن تغير سنة الحياة إلاَّ فى حالتها.

٩ ـ رغبة بعض المفكرين فى إبطال مطامح الناس التافهة ورغباتهم التى لاقيمة لها فى ذاتها، وإنما تكتسب قيمتها من تكالب الناس وتهالكهم عليها، خطة تدل على نقص فى الحكمة والخبرة بأمور الحياة؛ إذ أن كثيراً من أمثال تلك المطامح إذا جعلت جزاءً للعامل ومكافأة للمُجِدِّ، ترغبه فى الكدح والعمل وفى ارتياد

سبل الفضائل والفضل. أما أن يقال إن الفضائل ينبغى أن تطلب لمحبتها والرغبة فيها لا لجزاءٍ عليها فنظرة حسنة، ولكن طباع الناس فى الحياة تخالفها وتتطلب جزاء عليها، ولامناص مما تتطلبه الحياة، فالشهوة والرتب والأوسمة وما شابهها أمور لاقيمة لها فى نفسها، ولكن قيمتها فيما تؤدى إليه من العمل والجد. ولقد ترى الرجل الفقير الجاهل يكدح طول حياته ويتخلق بخصال الحمد ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ كى ينال رثاءً حسنًا إذا مات، وكى يكتب بعضه على قبره ـ وهذا يذكرنا كلمة لنابليون بونابرت فى هذا المعنى وفى فائدة الرتب والأوسمة عندما ليم على إحيائها بعد أن محتها الثورة الفرنسية. ولكن سويفت بالرغم من فطنته إلى أنها وأمثالها مدعاة إلى العمل ومن محركات الحياة فإنه يسخر بالمتهالكين عليها فى كتاب أسفار جاليفار. إذا اتخذوا الائتمار والكيد والتملق وسائل إليها وأمعنوا فى عمل الشر بسببها.

١٠ ـ بالرغم من أنه لم يكن بين الناس من استطاع أن يجعل آراء الناس ذات طول وعرض ونظام ومقصد واحد فإن كل مفكر يود أن يحمل الناس على اعتناق آرائه أو يأمل كما أمل أبيقور أن يصير الناس يومًا إلى زمن مقبل تتشابه فيه الآراء والأنظمة بعد أن يُشَذَّب بعضها بعضًا كما يشذَّب الحَصَا باحتكاكه، فتتحول الحصوة الثقيلة والخفيفة والمستديرة والمستطيلة إلى شكل واحد ووزن واحد أو كما أمل كارتيزيوس أن تجذب فلسفته الآراء الفلسفية المتناقضة إليها فتدور حولها كما تجذب الكواكب غيرها من الكواكب. ومن هذا السبب نشأ اضطهاد الفكر للفكر. فلو تقصينا التاريخ لوجدنا كل طائفة تدعو إلى حرية الفكر مادامت تضطهدها غيرها، فإذا تخلصت من الاضطهاد وصارت لها السيطرة حاولت أن تقيد أفكار غيرها؛ ومن أجل ذلك كانت محاولات تحرير الفكر مصحوبة بالرغبة فى تقييده أو يعقبها اضطهاد من نوع آخر ـ وقد تَتَبَّعَ (فان لون) فى كتابه (تحرير الإنسانية) خطوات هذا الاضطهاد من عهد الكهوف إلى عهد الجيلوتين. ولو كان الفكر غير باعث على العمل ربما استطاعت الفئة الغالبة إهماله. وما صنعه (فان لون) صنعه فى صيغة أخرى برتران ده جوفنيل فى كتاب (القوة) وقد قال جوفنيل: إن كل من يستبد بالقوَّة إنما يفعل ذلك بدعوى أنه

ينوب عن الشعب. والواقع ـ كما أوضح ـ أن فى استسلام الشعب ما قد يسوغ هذا القول، وإنما كان ينذر الشعوب من عواقب المستقبل. ومن الغريب أن جوفنيل ـ وكان مندوب فرنسا فى سوريا ـ يقول فى القوَّة قولاً قاله قبله شيلى الشاعر الإنجليزى فى صيغة أخرى، فقد قال فى بعض قصائده (إن القوة كالوباء الذى يتفشى فيصيب كل مايقربه والخنوع لها عدو للذكاء والفضيلة والحرية والحق ويحيل الناس أرقاء ويجعل أجسامهم آلات مسيرة) ولكن كيف يستطيع الإنسان أن يكون فى غنى عن القوَّة أو أن يقيدها؟!

فالثورة الفرنسية التى كانت ثورة على القوَّة وأعطت فى أول الأمر كل مدينة أو إقليم حق انتخاب حكامه كلهم، حتى ضعفت سلطة الوزراء فضعفت الدولة بسبب ذلك، مالبثت أن صارت فى عهد مجلس أو لجنة السلامة مركزية شبه توتا ليتارية. وبالرغم من أن جان جاك روسو فى كتابه (العقد الاجتماعى) كان بشير الحريات الفردية فإن به نزعة توتاليتارية تظهر فى أمور كثيرة منها: تقديس الدولة، والقول بانعدام حق كل إرادة فى الإرادة العامة. ومنها: إباحة حكم الحاكم الدكتاتورى الفرد الذى ينوب عن الديموقراطية فى بعض الأحايين. ومنها: القول بنفى أو قهر من له إرادة لم تنعدم فى الإرادة العامة. ولما كانت الإرادة العامة كالديموقراطية أمراً تقريبيًّا فهى إرادة الكثرة أو ما يُسَمَّى الكثرة، وإن كانت كثرة ظاهرية. وبعض اليعقوبيين الديمقراطيين قالوا ـ عند ما كانوا قلة ـ إنهم كثرة؛ لأنهم يمثلون مرافق الشعب الحقيقية وإرادة أجيال الشعب فى العصور الطويلة المقبلة عندما يتعلم كل آحاده أن يعدم إرادته فى الإرادة العامة. فالعالم لاتزال تتنازع فيه القوَّة الطوائفُ والأحزاب المختلفة وكلٌّ يريد أن يسود رأيه وأن يقهر رأى غيره. ومن الطريف أن نابليون بونابرت وقف يومًا على قبر جان جاك روسو وقال ـ وقد كان فى صغره يردد آراءه ـ لقد كان من الصالح العام لو أن هذا الرجل لم يولد. فقال له جيراردين إن آراءَه أفسحت لك الطريق، يعنى بأثرها فى الثورة الفرنسية، فقال نابليون: ربما كان من الصالح العام لوأن كلينا لم يولد.

١١ ـ ربما خُيِّل لنا أن الكلام المواتى الكثير من المحدث أو الخطيب دليل على غزارة مادته من اللغة والرأى. وهو كثيراً مايكون دليلاً على أن مادته محدودة فيستطيع اختيار مايختار من الكلام من غير مشقة. فإذا غزرت مادة الإنسان من لغة أو علم أو رأى قد يطول تردُّده قبل الكلام ـ ولعلَّ فى هذا بعض العزاء لذوى العى؛ إذ غاية ماتصل إليه غزارة المادَّة أن يكون المرء أشبه بالعَيِىّ فى تردُّده قبل الكلام من وفرة المادة، كما قال الشاعر:

تكاثرت الظباء على خراشٍ فلا يدرى خراش مايصيد

وكثرة الكلام مع قلة المادَّة أمر معروف. ولعلَّ أفكه مثل لهذه الثرثرة وإن كانت ثرثرة كُسِيَت من بلاغة الأديب مؤلفها كتاب (محاضرات الكِلَّة) أو الناموسية والسرير، وهى محاضرات تعظ فيها مسز كودل زوجها وتؤنبه بعد ذهابهما إلى الفراش، وهى من تأليف دوجلاس جيرولد. وقلة المادَّة لاتعوق تأثير الكلام الكثير فى السامع، فإن الكلام يؤثر بترداده كما هو مشاهد فى السياسة وفى غيرها من مظاهر الحياة المختلفة. بل لعلَّ قلة المادة تدعو إلى أن يفضله كثير من الناس لقلة العنت فى فهم مادته القليلة.

١٢ ـ قد يتحدث الرجل صاحب الفطنة والذكاء فيخالط بعض كلامه شىءٌ من الفكاهة العامة البريئة فيحسبها السامع انتقاصًا له، وهى ليست انتقاصًا وإنما يفعل ذلك إذ يقول فى نفسه: إن هذا الرجل المفكر لابدَّ أن يكون وراء كلامه معنى مُسْتَتِرٌ غير ظاهر معناه ـ ومثل هذا الشك غير مقصور على المحدَّث الفَطِن أو من كان من أهل الفكر من الناس وإن كان يساء الظن بهم أكثر من غيرهم. فإن السامع إذا صادف كلامُ القائل صفةٌ يخشى أن يظنها الناس فى نفسه عد كلامه تعريضًا به، وربما تسرَّع بالإساءَة إلى قائلها، ومن أجل ذلك يُفرَض على مؤلفى القصص أن يقولوا إنهم لايعنون أحداً بأناس قصصهم وإنهم من صنع الخيال. والواقع هو أن صاحب الفن يستمد من الأمور المشاهدة العامة مادَّة لفنه فيجعلها فن عاما، ولكن الناس كثيراً مايحيلون الفن العام إلى شخصيات معينة، وذلك

فى قول المفكر أو القصصى أو الشاعر. وأكثر هذه الإحالة ترجع إلى العقد النفسية وإحساس الناس بصدق قول فرويد فى كتاب (العلل النفسية) إن كل نفس إنسانية تجمع فى وعيها الباطن ونزعاته وصفاته الكامنة كل ماهو إنسانى فى جميع النفوس، بل كل ماهو حيوانى فى الحيوانات كلها، فيجعلون كل مافى الوعى حقيقة كائنة فى الحياة متى أرادوا. وانتقالهم بالفن أو الفكر من التعميم إلى التخصيص يكون بالرغم من ميل الناس إذا كان لهم أرب أو شهوة إلى التعميم فى أحكامهم المخطئة. كتعميمهم فى الحكم على الأمم أو الأحزاب أو الطوائف الكبيرة.

١٣ ـ فى أثناء طلب أمر من الأمور ومحاولة نيله والسعى والعمل له يفكر المرء فى محاسنه وأطايبه ومسراته وفضائله، فإذا ناله بدأ يفكر فى أوجه النقص فيه وفيما قد يكون فيه من المساوئ والعيوب، وإنما رُكِّبَتْ النفس على هذا الوجه وجبلت على هذا الطبع كى تستأنف مطالب الحياة وكى تطمع فى المزيد من محاسن الأمور فتعمل وتكد، وربما بخست الأمر الذى نالته كى تستطيع تحقيق هذه السنة الحيوية التى هى قوام الحياة.

١٤ ـ إذا هاج البحر ورأى أهل سفينة أن تُخَفَّفَ أحمالها وأثقالها كى تنجو وينجوا من الغرق بأن يقذفوا بعض أحمالها فى البحر، ربما حاول كل منهم أن يخفى متاعه ويعظ غيره كى يلقى متاعه فى البحر، وهذا مثل الذين يفضلون نفع أنفسهم على نفع الجماعة ونجاتها، فتضيع أنفسهم وتضيع الجماعة التى هم منها. وهذا التواكل يكثر عادة فى الأمم التى فقد آحادها الثقة بعدل حكومات بائدة وحكومة كائنة.

١٥ ـ إذا أراد الإنسان أن يتسلق ويعلو فلابد أن يتسلق كما تفعل القِرَدة على قدميه ورجليه. والطمع فى مناصب الجاه والسلطة قد يتطلب من المرء ماهو شبيه بالزحف على اليدين والرجلين ويعنى التقرب بوسائل التملق والخنوع ومعاونة من يرجى نفعه على شهوات غضبه أو حسده أو محاباته إلى آخر هذه الأمور، فقد شبهها بالزحف على القدمين واليدين أو بالتسلق بهما كما تفعل القرود.

١٦ ـ السبب فى خيبة كثير من الأزواج أن نساءهم بدل أن يتخذن من الزواج أقفاصًا لأزواجهن كأقفاص العصافير المُدَلَّلة البيتية التى تزيَّن أقفاصها كى تأنس إليها، يتخذن من الزواج ما يراه الرجال أشبه بالفخاج والشباك التى تصاد بها الحيوانات.

١٧ ـ كثيرًا ما يذكر أهل التعاسة حكم الدهر ومشيئة القدر الغالبة الناقذة. أما السعداء فقلما يذكرون هذه الأمور، ولاسيما الذين يثقون أن الجاه والثروة والسعادة لن تزول عنهم؛ إذ إن هؤلاء، ينسون حتى أثر الأقدار فى توزيع الصحة والمرض والذكاء والغباوة والأحوال المساعدة للنجاح. وهذا يذكرنا قصة رجل أصاب غنيمة من مال كثير اختلسه من غير تعب، فكان إذا طلب منه إنسانٌ صَدَقَةً يقف ويلقى عليه محاضرة فى فوائد الاجتهاد والجد فى العمل، ويقول له: لو كنت اجتهدت لصرت مثلى.

١٨ ـ كثيرًا ما يعلل المرءُ نفسه بأن العصور المقبلة ستقبل على ما انصرف عنه أهل عصره، وستشغل بما كان أهل دهره عنه فى شغل. فينصفون عمله أو قوله كما أراد. وينسى أن أهل العصور المقبلة تَسْتَجِدُّ لهمْ فيها أقوال وأمورٌ هم بها فى شغل. وهذا الوهم هو مما يزيد إقبال الناس على العمل والفكر والتضحية وإن كان قلما يتحقق، ولكنه من سنة الحياة التى تزيد ثمرة أعمال الناس حتى بالوهم.

* * *

نظرات جورج أليوت سويفت[1]

-١٤-

جورج أليوت هو الاسم الذى اشتهرت به مارى إيفانز الكاتبة الإنجليزية الشهيرة، وقد اشتهر من الكاتبات الأوروبيات كثيرات، وربما كانت لبعضهنَّ شهرة عالمية أكثر من شهرتها، ولكن الفحص والتمحيص يدل على أنها من غير شك أعمق بصيرة وأغزر فكراً وأرجح رأيًا وأعظم خيالاً من مدام ده سافينى، أو مدام ده ستايل، أو جورج ساند، أو جين أوستن أو غيرهنَّ. ويمكن تقسيم مؤلفاتها الهامة إلى أربعة أقسام: القسم الأول يشمل القصص التى تشرح فيها صفات نفوس من حولها من الناس، وهذه الكتب مثل أموس بارتون، وآدام بيد، وسيلاس مارنر وغيرها هى أكثر كتبها رواجًا بين القراء الإنجليز؛ لأنَّ موضوع كل منها أقرب إلى أذهانهم، ولأنها أسهل أسلوبًا. والقسم الثانى من مؤلفاتها يشمل قصة رومولا التاريخية التى تصف فيها عهد إحياء العلوم فى إيطاليا بمحامده ومكارهه. والقصة التاريخية أشق وأصعب فى تأليفها؛ لأنها تحتاج إلى دراسة ذلك العهد ونقد ما يذكر عنه وتصوره ببصيرة نافذة. وقصة (رومولا) من القصص التاريخية الكبيرة التى يصح أن تحتل مكانًا ما بين ازموند لثاكرى، وسان أنطوان وسلامبو لفلوبير وتايبس، والآلهة ظمأى لأناتول فرانس وبعض القصص التاريخية الشهيرة الأخرى. والقسم الثالث من مؤلفاتها قصة مدلمارش، وقصة دانيال ديروانداً، وهى لاتقل فيهما بصيرةً، ولكنها تبعد عن النفوس المألوفة حولها التى وصفتها فى القسم الأول، كما أن عادة الاسترسال فى الفكر تغلب عليها ويغلب عليها

---

(١) المقتطف : إبريل سنة ١٩٤٩.

الأسلوب الفكرى. والقسم الرابع من مؤلفاتها رسائل ثيوفراست دعتها باسم فيلسوف إغريقى قديم، وهى وصف لخصائص أخلاق الناس على نمط لابروبير. وهذه الكاتبة ـ فضلاً عن أنها درست ثقافات الأمم المختلفة كما يتضح من قراءة مؤلفاتها ـ فإنها وارثة بصيرة شكسبير وهنرى فيلدنج القصصى الإنجليزى على اختلاف ما بينها وبينهما. وكثيراً ما تذكرنا مقدمات فصول توم جونز لهنرى فيلدنج ـ وهى على شكل رسائل وبحوث فى النفوس بآثار هذه الكاتبة، ويصح جمع كلمات عديدة من مؤلفاتها لاتقل عن كلمات عظماء المفكرين من الرجال.

كما يتضح من نظراتها الآتية:

١ ـ إذا أساء إلينا إنسان ثم خاب فى أمر لاصلة له بإساءَته أو خاب فى أمور حياته عامة أحسسنا كأن خيبته فى أمور حياته بسبب إساءته إلينا. كأن نظام الحياة لايستقيم مادام قد أساء إلينا إلاَّ بخيبته، وكأنَّ تلك الخيبة نتيجة طبيعية للإساءَة إلينا. وهذا الاحساس يشتدّ أعظم ما يشتدّ فى نفوس ذوى الأثَرَة والجهل. ولعلَّ سببه أن المساء إليه من غيظه يريد الانتقام، فيتخيل أنه قد أصابت المسىء مصيبةٌ فاذا حلَّت به مصيبةٌ سهل عليه أن يحسَّ أنها نتيجة إساءته إليه. وكل إنسان كما قال أناتول فرانس يحس كأنه قطب الدنيا ومحور العالم وكل من يسىء إليه ـ إذاً ـ يكون كأنه خارج على نظام العالم، فلا غرو إذا خاب وفشل!!

٢ ـ وقد يكون الإنسان فظا قاسيًا فى نقد الناس وأعمالهم، ومع ذلك قد يكون رقيق الحاشية والطبع مع أسرته. وبعض الكُتَّاب كان بيده اليمنى يصول بقلم يقطر سما وهلاكًا فى نقد إنسان آخر، وبيده اليسرى يهز أرجوحة طفله الصغير بحنان ورفق... وهذا يذكرنا هيبير مندوب المجلس البلدى بباريس أيام حكم الإرهاب. وهذا الفارق يعظم أيام الاضطراب والثورات. وقد وصف الدكتور كابانيه فى كتابه لنفروس رفليوسنير كيف أن الإنسان الرقيق الطبع الوديع الأخلاق قد ينقلب ويصير وحشًا ضاريًا إذا كان فى جماعة تحبذ أقواله وأعماله القاسية. وفى هذا مصداق النظرة التالية لجورج اليوت وهى:

٣ ـ عندما نخدع الناس أو نسىء إليهم ونحن وحدنا قد نتردَّد ونتحرَّج من بعض أساليب الخداع أو الشر ونأنف منها ونخشى اللوم ولانريدها إلاَّ للضرورة

القاهرة فإذا اجتمعنا والناس واتفقنا معهم فى تلك الأساليب ووجدنا منهم تحبيذاً لها تسلطت أساليب الخداع أو المكر أو الشر والإجرام علينا، ولم نشعر بصعوبة فى ارتيادها مادام الناس معنا، وهذا ماوصفه وضرب له الأمثال الدكتور كابانيه فى كتابه عن الاضطراب الثورى وأثره فى النفس والجسم.

٤ ـ إن الإنسان قد تكون نظرياته ومبادئه مخطئة، ولكن إحساساته وأعماله نبيلة كما يصدق العكس، فقد تكون نظريات المرء ومبادئه وعقائده سامية نبيلة فيما تكون أعماله بالضد من ذلك. ومن أجل هذا الخلاف ينصح النقاد للمؤرخ أن يميز بين مبادئ رجال التاريخ وبين أعمالهم. وهذه نصيحة واجبة لكل إنسان فى الحياة اليومية أيضًا، إذ كثيراً ما يخطئ فيظن أن مبادئ المرء وإحساساته وأعماله كلها من طراز واحد، وهى أصناف مختلفة.

٥ ـ إن ذوى النقص والعاهات فى حاجة إلى فضائل ومزايا تزينهم؛ لأنهم يشعرون بقلق إذا لم تكن لهم إلاَّ عاهاتهم، أو كان لهم نقصهم وحده. ولكن الفكرة التى تجعل الفضائل أو الفضل بدلاً لهم ووقاية كما تقى الطبيعة الحيوانات فى الشتاء البارد بفرو كثيف ـ فكرة مبالغ فيها مبالغة كثيرة، إذ كم من أناس من ذوى النقص أو العاهات لافضل لهم ولافضيلة إلاَّ أن يكون الفضل ومزايا النبوغ كامنة فى النفس تظهرها الحوادث سواءٌ أكانت عاهات أم لم يكن نقص ـ فمن الذى يستطيع أن يقطع بأن ذكاء زياد بن أبيه وفصاحته وقدرته فى تصريف الأمور كلها كانت بسبب مطعن أو مغمز فى نسبه ولم تكن هبات طبيعية فى نفسه. ومن أجل ذلك يخطئ بعض العامة خطأً أوليا فى علم المنطق فيقلبون هذه الفكرة ويجعلون الفضل على عاهة أو نقص. وهذا يذكرنا بعض الشواهد التى تصف هذا الخطأ فى علم المنطق كمن يقول مثلاً كل القِطَطَةِ حيواناتٌ. فإذًا كل الحيوانات قِطَطَةٌ، وقلب الفكرة لايجوز فى علم المنطق.

٦ ـ من الغريب أن الناس كثيراً ما يتعجبون لحدوث شىء هم الذين عملوا لإحداثه، كما يتعجبون إذا لم يحدث أمر لم يصنعوا شيئًا لإحداثه، كالآباء الذين يتعجبون من جهل أبنائهم وقلة تربيتهم وهم السبب؛ إذ لم يحزموا أمرهم

لتربيتهم، والأزواج يتعجبون لفقدانهم المحبة وانقطاع أواصرها بين الزوج وزوجه ولم يعملا لتهيئة سبيل بقائها، والجيران يتعجبون من نفور جيرانهم منهم ولم يعقدوا أواصر المودة معهم.

٧ ـ ما أشد اعتماد الناس على ماقد يأتى عفواً، فإذا عمل المرء عملاً يحط من كرامته تعلق باحتمال عدم ظهوره، وإذا أسرف تشبث باحتمال الكسب من وجه آخر غير منظور ولامحتمل، وإذا أساء تنظيم عمله تمسك باحتمال أن إساءته تنظيم عمله ليست هامة لنجاحه فيه، وإذا خان صديقه اعتمد على أن الصديق قد لايعرف خيانته له. وعاقبة ما نزرع من بذور تلك الأوهام الباطلة فى الاعتماد على الأمر المرغوب فيه الذى هو غير محتمل الحدوث إنما تنتج محصولاً باطلاً ومحالاً من نوعها. وليس الجهلاء وحدهم هم الذين يتشبثون بالمحال المرغوب فيه؛ فقد قال مارمونت وغيره: إن نابليون بونابرت فى أواخر أيام مجده كان مهما صححت له الحقائق يعود إلى ماحسبها قبل تصحيحها.

٨ ـ ما أشد إلحاح الرغبات الإنسانية، فإذا تملكت النفس رغبة لايغنيه أن تقدم له ماهو عوض عنها من أمر آخر ولو كان مثلها أو خيراً منها. وهذا مشاهد فى تشبث الأطفال بالأمر المرغوب فيه، كما هو مشاهد فى تشبث الكبار.

٩ ـ الشعور بالأمن يكون ناشئاً من العادة أكثر مما يكون ناشئًا من الأدلَّة والاعتقاد؛ ومن أجل ذلك كثيراً ما يوجد الشعور بالأمن إذا اعتاده الإنسان حتى بعد زوال الأحوال التى جعلته عادة وصيرت الإنسان يسكن إليه ويطمئن، فإن منطق العادة يغلب على ذهنه، ويرى أن الخطر محال حدوثه مع أن مرور الزمن قد يكون السبب فى حدوثه. ومثَلٍ ذلك مثَل الرجل الذى يكون سقف بيته آيلاً إلى السقوط، فإذا لم يسقط وتعوَّد الأمان حرمته تلك العادة من أن يرى فى مرور الزمن ماهو كفيل بإيهانه وإضعافه وسقوطه، وقس على ذلك كل أمور الحياة.

١٠ ـ إنها قاعدة عامة وهى أنه لابدَّ للنفس من أمر خفى غير موثوق به كى يُغَذِّى أملها وشكها وعملها، فلو انكشفت لنا أمور المستقبل لما علقت النفس بها ولأسرعت بأملها وعملها وشكها وشعورها إلى غير المستقبل المكشوف

المعروف. . . . وهذا الرأى أصح حجة من تعجب كعب بن زهير من سعى الإنسان وعمله مع أن القدر مخبوء عنه، وذلك فى قوله:

لو كنتُ أعجب من شيءٍ لأعجبنى سَعْىُ الفتى وهو مخبوءٌ له القَدَر

١١ـ إذا تحمل أحد الناس غضبنا بسكوت وطيبة قلب وعطف، فإننا إذا سكن غضبنا قد نشكّ بسبب مسلكه معنا وهدوئه فى مداراة غضبنا فى أننا كنا على حق، ونشك فى أن معاملتنا له كانت معاملة لائقة ويزداد هذا الشك والأسف إذا مات من تحمل غضبنا بسكوت وطيبة قلب، وذهب إلى عالم الصمت الأكبر.

١٢ ـ قال يوليسس فى قصة ثوفوكليس: دعنا مرة واحدة نرتاد سبيل المكر والكذب والاحتيال والشر إلخ ثم نعود بعدها دائمًا أبدًا إلى سبيل الصدق والشرف فى العمل والفكر والوسيلة، وهذا كثيرًا ما تقوله النفس فى باطن نفسها استدراجًا لها ومخادعة، فتستمر فى الكذب والمكر والشر أكثر حياتها بعد أن كانت توهم نفسها أنها مرة واحدة صغيرة ثم بعدها مرة أخرى صغيرة إلخ.

١٣ ـ كل عمل مذموم يستدرج صانعه إلى أعمالٍ وأقوال عديدة مذمومة كى يزكيه ويسوغه، وكى يزكى ويُسَوِّغ الأعمال المذمومة التى يزكيه بها. وتستمر تلك العدوى فى نزعات النفس ورغباتها فإذا أثم المرء لم ينته إثمه بعمله، ولا تنقطع سلسلة آثامه، إلاَّ إذا اعترف بخطئه أو إثمه، فلا يحتاج إذًا إلى شرور كى يزكيه. وإذا ظلم إنسانًا لايقنع حتى يزكيه بظلم آخر. وهذا يذكرنى ما صنعه أحد الكرادلة الذى نقم على رجل نقده فاتهمه بالكفر بالمسيحية فى عهد كان جزاء من يتهم به الحرق. ولم يكتف بذلك بل إنه صهر فى النار صليبًا من الحديد وقدمه إليه كى يتوب ويقبّله وكان الرجل موثقًا فنفر من ألم حرارة انصهار الصليب وزوى وجهه عنه. وإنما فعل عدوه ذلك كى يقال إنه نفر من الصليب لكفره بالمسيحية؛ إذْ كان الناس لايعرفون أنه وضع الصليب الحديدى فى النار. وهكذا زكى هذا الكردنال إثمه الأول بإثم ثانٍ ـ على أن تزكية العمل المذموم أو القول المذموم بعمل أو قول آخر مذموم أمر مألوف كثير الحدوث فى الحياة اليومية.

١٤ ـ كثيراً ما نخدع أنفسنا حتى نصدق أن أثرتها فى معاملة الناس كانت تكون أقل قسوة وأكثر إنصافًا وأبرّ بهم وأعدل لو أننا عرفنا حقيقة حالتهم، ولكن إيثارنا الرفق لايقوى إلاَّ بعد فوز أثرَتنا ونيل أنفسنا ما تريد لا قبل الفوز به. وقد تعرف النفس حالة من تعاملهم، ولكنها تتناساها حتى تنساها، وتتجاهلها، حتى تجهلها، مغالطة من النفس للنفس، كى تدعى أنها كانت تكون أرفق وأبر وأعدل، على أنه بالرغم من هذه المغالطة فإن الفوز قد يزيدها أثرة وعنفًا وقسوة وظلمًا.

١٥ ـ بعض الأخيلة التى نخدَع بها إنما نخدع بها ونحن نشعر بذلك الخداع، واللذة فيه كاللذة التى نجدها فى رؤية مجموعات الألوان التى تصنع من قطع الزجاج الملوّن فتتخذ أشكالاً بديعة فى الفانوس السحرى. وكما أن الطفل يلذ له أن يلعب لعبة أساسها خداع النفس بالأمور وحقائقها حتى يصير لعبه جدا، كذلك العاشق يلذ له أن يخدع نفسه وهو يعرف أنه يخدعها. وهذا يذكرنا قول أبى نواس:

صار جدا ما مزحتُ به ربَّ جد ساقهُ اللعب

١٦ ـ لعل السبب فى أننا كثيراً ما نخيب فى أن نعزى معاشرينا فى مصاب أصابهم ونسليهم عنه أنهم يشعرون ونحن نعزيهم بحبنا لأنفسنا، وأننا إنما نفكر فى كل مايهمنا من مطالب أثرَتنا.. وهذا لايمنع أن تكون ممزوجة بشىء من العطف على الناس فى مصابهم وإن كانت هى الغالبة. وبالرغم من أن كل إنسان يعرف ذلك فى نفسه، فإنه إذا أصابه خطب أو مصاب أمَّل أكثر من ذلك من غيره وتوقع مشاركة أعظم منه فى مصابه أو خطبه.

١٧ ـ الحياة اليومية هى محاولة كل إنسان أن يخفى نفسه عن معاشريه وراء كلمات وأعمال مزيفة، وهؤلاء المعاشرون أشد بعداً عن المرء من نفسه وخواطرها وما بها من شرور لا تنطق بها، ولاتبين عنها، وقد لاتعملها، ومن خير كثير قد لاتصنعه. وكثيراً ما نفكر فى عمل آثام لانستطيع أن نعملها، كما نفكر فى صنع أعمال من أعمال الخير أو اللباقة والمهارة لانستطيع عملها. فخواطرنا قد تكون أسوأ أو أفضل منا. وقد علل سمرست موام القصصى اتهام الأتقياء الأبرار الأخيار أنفسهم أو توقعهم العقوبة فى الآخرة بخواطر السوء التى تتردد فى

النفس ولا تصنع صنعًا، كما أن بعض الناس قد يمدح نفسه بسبب خواطر الخير التى تتردد فى نفسه ولا يعمل شيئًا لتحقيقها.

١٨ ـ كما أن الشاب المملوء صحة وحياة ونشاطًا يصعب عليه أن يدرك الموت كل الإدراك، وأن يحسّ وطأته مهما رأى من مظاهره. كذلك يصعب عليه أن يدرك الشقاء الكارث وأن يحسّ وطأته. وهو يؤمن فى سريرة نفسه أن المقادير لابد أن تنجى شبابه وصحته ونشاطه وحياته منه حتى ولو كان ذلك فى آخر لحظة قبل أن يكرثه. ولعل هذا الإحساس هو سبب استهتار الشباب أو شجاعته واستهانته بمعضلات الحياة.

١٩ ـ مما يساعدنا على أن نعمل فى الحياة عملاً قليلاً طيبًا أننا لانعرف ما فى سرائر أصدقائنا ومعاشرينا عنا مما يثبطنا، وليس فى الحياة مرآة تعرفنا حقيقة أنفسنا فنطمئن. وهذا الاطمئنان يجعلنا نظن أننا نعمل عملاً كبيراً عظيمًا، فنستطيع بذلك أن نعمل ولو عملاً صغيراً طيبًا. وكما أن الطفل الصغير الذى لم يتعوَّد نظره الصغير بعد قياس المسافات، كثيراً ما يصطدم بالأشياء، كذلك الإنسان الذى لم يختبر أمور الحياة بفطنة يحسب أن مكانته فى الحياة مكانة كبيرة وهى صغيرة جدا، ويصطدم بالعراقيل كما يصطدم الطفل الصغير بالأشياء إذ لم يتعوَّد بعد قياس المسافات بنظره.

٢٠ ـ كثيرًا ما يسوِّغ المرء أموراً غير سائغة ولا جائزة بتغيير أسمائها، فيسمى اضطهاده الناس مقاومة، أو الخرق والهوج إصلاحًا وتجديداً. وقس على ذلك جميع أمور الحياة التى لاتسوغ، فبتغيير أسماء الأمور يستطيع المرء أن يعمل ماهو حبيب إلى نفسه وإن كان شرا مكروهاً.

٢١ ـ ليتذكر المرء إذا أقدم على عمل أن الحياة كعملية حسابية لايستطاع عملها مرة ثانية لتصحيحها وتلافى أغلاطها، كما لايستطاع تصحيح عمل الطرح بأن يعمل عمل الجمع فى الحساب صحيحاً.

٢٢ ـ إن الناس قد يرحمون الميت وقد يزكونه. وطالما كانوا يرون من الواجب المفروض، سحقَ قلبه، مادام ينبض وقهر عقله مادام يفكر، فإذا سكنا سكون الموت فلا بأس من الإحسان إليه بكلمات مزيفة وإحساس بالرفق مصطنع.

٢٣ ـ إن تخدير النفس بتجاهل الحقائق حتى تجهلها، حالة نفسية تختلف كل الاختلاف عن حالة السكينة والاطمئنان مع معرفة الحقائق معرفة تامة. ولكنا كثيراً ما نخلط بين الحالتين.

٢٤ ـ أول مايصيب المرء الخطب أو الضيق قد تستفزّه الإصابة المفاجئة فتكسبه قوة مؤقتة لاتزول حتى يصير الحزن والخطب عادةً ونيراً.

٢٥ ـ بعض الناس لايستطيعون تحمل حتى القليل من الإهانة إلاّ إذا استطاعوا أن يغمضوا أعينهم عنها، أو أن يتمكنوا من الامتناع عن تصديقها ومعرفتها والإقرار بها والفطنة إليها ومغالطة أنفسهم فيها. فإذا لم يستطيعوا إلاّ مواجهتها ومعرفتها كانت حياتهم عبئًا ثقيلاً ربما لايقدرون على حمله مع أن كل إنسان لايخلو من أمثالها فى الحياة.

٢٦ ـ إن بعض ذوى النجاح وإن كانوا معروفين بسلامة الطوية والنية قد يجدون لذة فى إيقاع الشر ببعض الناس إذا كان عمله سهلاً ولا يعوق أعمالهم الناجحة. وكأنما يصنعونه على سبيل اللهو أو الفكاهة أو التنفيس عن خطرات كامنة فى نفوسهم أو لإثبات قدرتهم. وهذا الرأى يذكرنى بقصة لسمرست موام عن تاجر إنجليزى فى اليابان كان ناجحًا وكان معروفًا بين أهله ومعاشريه بطيبة القلب، فطلب منه أحد الخيَّابِ من بنى جنسه أن يجد له عملاً يرتزق منه، وكان هذا الخائب فى شبابه مشهوراً بالسباحة فى البحر قبل أن يصيب الدهر من قوته، فاشترط التاجر عليه أن يسبح مسافة طويلة فى البحر فى مكان شديد التيار، فإذا فاز ألحقه بعمل يرتزق منه. ولكن الرجل هلك فى أثناء سباحته، وعندما سأل سائلٌ التاجر عن سبب اشتراط هذا الشرط قال مبتسمًا: الحقيقة هى أنى لم يكن عندى له عمل، أى أنه كان يعرف أنه هالك لامحالة، وأنواع هذا الشر من أهل النجاح وأمثاله كثيرة الوسائل... وإذا أصاب النجاح خائبًا عفواً من غير جهد كبير منه حقد عليه أهل النجاح الذين كدُّوا واحتالوا للنجاح وعدُّوها قسمة ضيزى، مع أن نجاحه قد لايؤثر فى نجاحهم ولا يقلل منه. وإذا كان هذا الحقد والحسد شأن ذوى النجاح فكيف بما يعانيه التعساء المحرومون.

٢٧ ـ من السعادة أن يعوّد المرء نفسه أن يعيش معها بدل أن يشرئب دائمًا إلى اعتبار الحياة سوقًا يرتاده الناس للتفريج عن أنفسهم برؤية المعروضات. وبَعْضٌ لم يعود نفسه أن يعيش معها لايطيق عشرة نفسه. وهذا من أسباب الحاجة إلى المصادقة والمصاحبة.

٢٨ ـ كثيراً مانعمل عملاً فلا نرى من الناس ارتياحًا إليه أو اقتناعًا به أو إعجابًا. ولا يثبطنا ذلك، ولا يصرفنا عن عمله، بل نحسب أن سبب عدم ارتياحهم واقتناعهم قلة ما صنعنا منه، فنثابر على عمله توقعًا لظهور ارتياح الناس إليه واقتناعهم به وإن كان غير مقنع.

٢٩ ـ قد يتوقع المرء حدوث الأمر المحال وهو يؤمن إيمانًا تاما أنه سيحدث. ولا فرق بين هذا وبين الجنون إلاّ أن الحوادث قد تبدِّد ذلك التوقع والإيمان، ولا تبدّد الجنون.

٣٠ ـ إن الطبع الذى يميل دائمًا إلى السيطرة والتحكم حتى فى الأمور التافهة الصغيرة لابدّ أن يكون به جانب من الضعة والحقارة ويخفيهما بذلك التحكم.

٣١ ـ بعض اللغات قد تكون فيها طلاوة وحلاوة لايشعر بها من يقرؤها، كذلك بعض الوجوه قد تعبِّر للرائى عن أكثر مما فى أنفس أصحابها من معانٍ.

٣٢ ـ عندما يريد الناس تصديق الأكاذيب أو إذاعتها حتى يصدقها غيرهم يقولون:ـ

لادخان من غير نار... ومَثَلهم مَثَل الذى يُعكِّر الهواء بدخان (بيبته) أو نرجيلته أو لفافة تبغه ثم يحسب أن الدخان والنار من عند غيره وهى من عنده، والأكاذيب أو النقائص التى يراد تصديقها فى نفسه.

٣٣ ـ المصلحون يشعرون بسرور فى كل إصلاح، ولايعطفون على النفوس التى تأسف مع ذلك لما يصيب كثيراً من الناس فى كل إصلاح من ضرر وألم وشقاء بسبب انتقال الأمور من حال إلى حال عند الإصلاح. والمصلحون لايقتصرون على حرمان تلك النفوس من العطف، بل إنهم قد يعدون أسفها

على من نالهم الشقاء بسبب الإصلاح، خلافًا لهم فى الرأى والمبدأ، أو خيانة لعهد الإصلاح فيشركونها فى الشقاء أو الإعدام.

٣٤ ـ لايستطيع العامل صنع عمل جليل شبه معجز إلاَّ بإيمانه بنفسه، وأكثر إيمان العامل بنفسه مستمد من إيمان الناس به أو إيمان طائفة كبيرة منهم، ولكنه إذا فقد إيمان الناس به، لايلبث إيمانه بنفسه أن يزعزع مهما كان عظيمًا، إلاَّ إذا كان قليل الإحساس لايلتفت إلى حقائق العالم. على أن العامل قد يكون هو الذى خلق إيمان الناس به فى أول الأمر.

* * *

تكملة نظرات جورج أليوت سويفت[1]

ـ ١٥ ـ

١ ـ بين النساء من يدفعها طبعها إلى الحماقة حينًا بعد حين وتستنفد جهد شراستها فى وقت قليل ولا تستعيده إلاَّ بعد مدة من الزمن فيستريح أهلها. ولكن بين النساء من تعد من أهل الخير والتضحية ومحبة ذويها وهى لاترفع صوتها فى شراسة، ولكنها لاتفتأ طول يومها تنكد حياتهم بصوت منخفض باللوم والشكوى والتأنيب والمخالفة وبتذكيرهم أحزان أمس وما قد يُتَوَقَّع من أحزان غدهم، وتبكى إذا سمعت خبراً سارا، كما تبكى إذا سمعت خبراً محزنًا، فهى دائمًا بين بكاء السرور وبكاء الحزن. وهذان الصنفان مشاهدان فى الرجال أيضًا، وإن كان البكاء أغلب على النساء، فأى الصنفين أثقل على القلب؟ المشاهد أن الناس يفضلون الصنف الأول مهما كانت شراسته؛ لأنه يعطى معاشريه فترات راحة. ومن أجل ذلك قد يمدح معاشر الرجل الشرس هذا الشرس فيقول (قلبه طيب ـ أو قلبه أبيض) وربما كان السبب أن صاحب الوقاحة والشراسة إذا هدأت حدةً طبعه شعر باعتدائه على الناس بهما، فيلين ويلطف، وملاطفته لشدة اختلافها عن شراسته ولأنها غير متوقعة تكون ذات أثر أعظم فى النفس مِمَّنْ ملاطفته الناس أمر معتاد مألوف. أما الملاطفة الممنوعة النادرة فهى تفاجئ النفس مفاجأة سارَّة كما قال الشاعر (أحب شيء إلى الإنسان ما مُنِعا).

أما الرجل والمرأة من الصنف الثانى فإنهما لدأبهما على الشكوى والتململ واللوم والتذكير بالأحزان يكادان يبلغان بأهلهما إلى درجة الجنون، وأشد من

(١) المقتطف :أول مايو سنة ١٩٤٩.

هذين الصنفين الرجل والمرأة اللذان يجمعان صفات الصنفين: شراسة متقطعة وتململاً دائمًا.

٢ ـ للطبيعة لغة، وهى لغة صدق لاتكذب، ولكنا لانعرف قواعدها فنخطئ إذا حاولنا معرفة معناها، ونحسب أن العين الفاترة الفاتنة الساحرة ذات الأهداب الجميلة الطويلة دليل على الصدق والأمانة، ولكن صاحبتها قد تكون ورثت عينيها عن جدَّتها، وورثت أخلاقها وطباعها عن مصدر وراثى آخر، فتجمع بين العين الفاترة التى تدعو إلى الاطمئنان، وبين الغش والمكر والخداع والشر. وهذه الفكرة أصدق من قول الفيلسوف الألمانى نيتشه فى وصف سقراط الحكيم الإغريقى القديم الذى كان ذا وجه شنيع، وكان مشهوراً بالحكمة والعفة والفهم والأمانة والصدق. ولكن نيتشه الفيلسوف الألمانى يقول: إن من نظر إلى صورة سقراط يستطيع أن يستدل منها على أنه كان مجرمًا بطبعه. وهذه مبالغة لامُسَوِّغَ لها؛ فإن خواطر الإجرام تتردد فى كل نفس كما قال فرويد. وقد يكون المجرم شنيع الوجه وقد لايكون. فقد رأيت فى كتاب عن المجرمين صوراً كثيرة لبعضهم جمعت بين الجمال والسماحة والطلاقة؛ فالقبح أو الجمال ليس دليلاً قاطعًا على الصفات النفسية الغالبة.

٣ ـ الصانع الماهر الذى يحفزه ضميره الطاهر يحجم عن صنع آلة غير محكمة الصنع؛ لأنها قد تضر من يقربها أو يستعملها، ولايعرف الصانع مقدار الأضرار المتتابعة التى تسببها سببًا عن سبب. وكذلك كل إنسان ينبغى أن يتذكر أن عمله قد يكون له نتائج بعيدة غير منظورة. وكذلك أقوال المرء يصدق فيها مايصدق فى أعماله وربما استحال عليه أن يتحاشى كل عواقب أعماله وأقواله كما أوضح أناتول فرانس فيما اقتُبِس من نظراته. ولكن استحالة معرفة نتائج الأعمال والأقوال (أى النتائج والعواقب المتتابعة القصيَّات) لاتمنع من محاولة التبصر قبل القول والعمل ـ ولا أظن أن مفكراً فى العصور الحديثة كانت لآرائه عواقب ونتائج ومذاهب غير منظورة كما كانت لآراء جان جاك روسو ـ ولقد قال هنرى فردريك أمْيِل: كل المذاهب الحديثة المختلفة فى نواحى الحياة يمكن إرجاعها إلى روسو. ومن الغريب أن روسو كان حييا يحب العزلة وينفر من الاجتماع

بالناس. ويسيء بهم الظن. وكان يخشى وينفر من الثورة التى كان يتوقعها ويحاول منعها بالإصلاح. وكان يقدس حريات الفرد إلى أقصى حد كما فى رسالته (أسباب تفاوت الناس) ومع ذلك فقد تشعبت مذاهب وعواقب أفكاره ومذاهب معتنقيها أيام الثورة الفرنسية. وهو فى كتاب (العقد الاجتماعى) يذكر آراءً يستطاع بها تقييد حريات الفرد إلى حدٍّ كبير، وهذا التناقض أيضًا ظاهر فى كتابه المسمى (إميل) فى التربية، فهو يريد من المربى أن يترك تلميذه حرا يستنتج عواقب ونتائج أعماله بنفسه.

ومع ذلك فالمربى الذى وصفه وأراده كان أحيانًا يتجسس على تلميذه ويهيئ له النتائج التى يريدها ـ ومن أجل ما وصفت من الفرق بين طبع روسو وبين آرائه يخيل لى أنه لو كان عائشًا فى باريس أيام حكم الإرهاب لسيق إلى الجيلوتين وأعدم لتخلف رجل الفكر عن رجل العمل، وذلك بالرغم من أن حُكَّام الإرهاب كانوا قد اعتنقوا مبادئه.

وبالعكس قد يصاب صاحب الفكرة الجديدة أو المبدأ أو الشريعة لتخلف الناس عنه، وأذكر قصة أظن أنها لدستويفسكى القصصى الروسى، وبها يتخيل أن سيدنا عيسى عليه السلام قد بُعثَ مرة ثانية فى أوربا ودعا الناس إلى الأخوة والتعاون والسلم والمحبة فخشى بعض الحكام دعوته وضاقوا به ذرعًا وحاولوا أن يصلبوه مع أنهم على دينه.

٤ ـ إن أعظم حوادث حياتنا تأتى وتروح كما يأتى الليل والنهار والنوم واليقظة والمطر والصحو والحصاد. ولانستطيع تعيين أوقاتها لها كما تشاء، وربما جاهدنا وعملنا، ولكن جهدنا وعملنا قليلا الأثر إذا قيسا بضرورة المقادير التى تعمل عملها وتحدث نتائجها بالرغم منا ومستقلة عن عملنا ـ ولعلَّ هذا من أسباب ما لوحظ فى نظرة فى المقال السابق من شدة اعتماد الناس على ما قد يأتى عفوًا وهو غير مضمون الحدوث. ولو أن من أسباب هذا الاعتماد أيضًا ميل النفس إلى تصديق احتمال حدوث ما تود أن يحدث حتى تكاد من شدة هذا الميل تراه حقيقة واقعة. وكذلك تميل النفس إلى تصديق ماتود أن يكون من أحوال غيرها من الناس. ومن صفاتهم إن خيراً وإن شرا وحمداً أو ذما. وكما أن النفس تميل

إلى تصديق ما تود أن يكون حقيقة فهى وإن كرهت حدوث ماتخشى حدوثه، واذا تملكها الخوف والذعر حتى يصير الذعر مرضًا ـ تميل إلى تصديق حدوث ماتخشى حدوثه حتى كأنه حقيقة واقعة. ولعلَّ بعض الأمراض من هذا النوع من الوهم الذى سببه الخوف. وهذا الميل النفسى إلى تصديق ما تود النفس أن يكون كأنه حقيقة كائنة هو مسألة سيكولوجية ثابتة. وكذلك التأثر بالذعر حتى تعتقد سببه حقيقة كائنة. وأغرب من هذا وذاك أن الإنسان قد يصاب بأمراض لامن الذعر، ولكن لأنه يود أن يصاب بها، فيميل إلى تصديق مايود أن يصاب به حتى يصاب، وإنما يود ذلك إما لينال التدليل والإعزاز والعناية والعطف كما هو نصيب المريض. وإما تشفيًا وانتقامًا ممن وُكِل إليهم أمره كى يكلفهم عناء فى رعايته أثناء مرضه. وإما لأنه يشعر فى ضميره أنه أراد السوء لمن لم يصبه بضرر فيدفعه ضميره إلى تصديق وقوع السوء بنفسه فيصاب. وكل هذه الأمور تذكرنا قول (جويتى) الأديب الألمانى إذ قال: كما أن روما القديمة كان بها فضلاً عن سكانها من الأحياء، سكان من التماثيل العديدة المنصوبة فى كل مكان. كذلك هذه الحياة الدنيا يوجد فيها دنيا من الأوهام وعَالَم من الخيالات، وهى أعظم أثرًا وأتم قدرة فى نفوس الناس وحياتهم، وأكثر الناس يعيش فى هذه الدنيا الثانية.

٥ ـ لابدَّ أن يكون فى نفوس الناس شىء من كذب السريرة مهما تخلقوا بالعدل والصدق، فإن أفضل رجل إذا حادث إنسانًا لايود أن يؤلمه يضطر فى محادثته له أن يميل قليلاً إلى رأيه ملاطفةً له، أو لعله غير قادر على التعبير عما فى نفسه، أو لعله لا رأى له فى موضوع الحديث فيجتبى رأى غيره يسد به فراغًا فى نفسه. وكل هذه الأحوال كأمواج فى بحر الإنسانية، ولابدَّ أن يسير المرء بسفينته بينها. فمن الحكمة ألا نحقد على الناس من أجل ذلك، وألا نيئس من النفس الإنسانية إذا انقادت بعض الانقياد ودلَّ انقيادها على كذب السريرة.

٦ ـ إذا كانت آلام كفاحنا فى الحياة لاتخلف إلاَّ نفوسنا كما كانت قبلها مع مافيها من تحيُّز للباطل ومن أثَرة وقلة مبالاة عظائم الأمور، فإننا نكون قد تألمنا فى هذا الكفاح ولم نربح فضائل أو صفات سامية. ولكن هذا الألم قد يتحولَّ

إلى عطف به نكون أكثر قدرة على فهم الأمور كما تتحوَّل القوَّة إلى قوة أخرى في علم الطبيعة.

٧ ـ خليقٌ بالمرء قبل أن يحاول فهم الكون كله ـ ويئس إذا لم يستطع فهمه ـ أن يحاول فهم ما حوله من الحياة أولاً؛ لأن الزمن كالمال إنما يقاس بمقدار حاجتنا إليه. وهذه الكلمة أوسع نطاقًا من قول الفيلسوف الإغريقى القديم (اعرف نفسك) وقد فسَّر جويتى هذه الكلمة بقوله إن الإنسان لايستطيع أن يعرف نفسه بالتأمل الفكرى وحده، بل لابدَّ أن يكون التأمل فى النفس مقرونًا إلى العمل وأداء الواجب، وفى أداء الواجب اليومى يستطيع المرء أن يختبر نفسه وأن يعرفها بالتأمل، وقد أعجب كارليل برأى جويتى وأعاد ذكره مرارًا.

٨ ـ إننا كثيرًا ما نعتز بماضى حياتنا حتى ولو تغيرت أفكارنا وتبدَّل شعورنا، وصرنا إنسانًا آخر بهذا التغير. ولذلك قلما نرضى عن نقد ذلك الإنسان الأول الذى كُنَّاه فى الماضى بل نتلمس له ما يزكيه كراهة لتخطئة أنفسنا القديمة كل التخطئة، وذلك لأنها بالرغم من كل شىء أساس أنفسنا الحديثة.

٩ ـ قلما تستطيع الأقدار أن تنتقم منا بسلاح من أنفسنا تتخذه ضدنا من تألمنا لما سببنا لغيرنا من الآلام، إلاَّ إذا وصف الناس عملنا فى إيلام غيرنا بأوصاف شنيعة، أو إذا خشينا ذلك، فعندئذ يتيقظ ضميرنا ويتيقظ إحساسنا الخلقى ويؤنبنا، وربما كان لايؤنبنا لولا لوم الناس وتأنيبهم.

١٠ ـ كثيرٌ من عيوب الناس وغرائب طباعهم سببها أحزان وأحاسيس وحوادث مثَّلَتْ بالنفس تمثيلاً، والحياةُ التافهة غير الثابتة أو الحياة الضالة التى يحياها إنسان والتى نلوم صاحبها عليها قد تكون كحركة الرجل الذى فقد بعض أعضائه وقد تكون نفسه كجذع الشجرة التى قطعت غصونها وأوراقها ـ وهذا قول مبكر فيما يسميه علماء النفس فى هذا العصر العُقَد النفسية.

١١ ـ إننا نستطيع أن نحس روح الله فى كل أمر. ففى الأعمال والمخترعات الكبيرة أو فى أعمال الصناعات الصغيرة نستطيع أن نرضى الله بأعمال أيدينا كما نرضيه بأعمال نفوسنا، وأن نعمل الخير ونتقرَّب إلى الله بالأعمال المنزلية

والزراعية، كما نرضيه ونتقرَّب إليه بالصلاة؛ لأن كل عمل يؤدَّى بصدق وأمانة إنما هو تقرُّب إلى الله.

١٢ ـ ولكن بعض الناس إذا أدّوا الصلاة يوم الأحد فى الكنيسة حسبوا أنهم أدّوا كل واجبهم نحو الله فتستريح ضمائرهم وتجيز لهم أمورًا كثيرة ويعدون الحياة منصبًا مربحًا، أو متجرًا مكسبًا، بدل أن يعدوها واجبًا يقتضى الجهد والتضحية والعمل.

١٣ ـ إن قول شكسبير فى قصة ما كبيث: إن الإنسان لايستطيع أن يكون فى أمور مختلفة فى وقت واحد إنما يراد به الأعمال ولاينطبق على الإحساسات والخواطر، فإن لحظة واحدة صغيرة أو أقل من لحظة قد تكون بين خاطرة الميل إلى القتل فى النفس، وبين خاطرة الرجوع عنه والتوبة والندم. وربَّ دقيقة واحدة قد تجمع بين النزعة الشريفة والنزعة الدنيئة فى النفس. فالحقيقة هى أن النفس الإنسانية لاتجمع بين الأضداد فحسب، بل تجمع بينها فيما يكون أشبه بالوقت الواحد. وهذا مالا يفطن إليه الذين يحكمون على النفوس بخطراتها ونزعاتها.

١٤ ـ فينبغى أن نصحح أحكامنا العامة على الناس تصحيحًا دائمًا مستأنفًا أولاً فأولاً بالخبرة وضرورات الحياة وبما فى النفوس البشرية من قهر وإلزام مع مراعاة الواجب المفروض وتنوعه فى الحالات المختلفة. فإذا نقدنا إنسانًا نقدناه من غير التجاء إلى الكذب والباطل والمبالغة. وهذه أمور قد تتسرّب إلى رأينا: إما عن طريق الشهوات، وإما عن طريق تطبيق أحكام عامة مطلقة وضعها من لايميز الأمور بالتجارب والخبرة.

١٥ ـ كثيرًا ما تدهشنا الشدة ونباغت بها من أناس عُرِفوا باللين. والسبب فى ذلك أن لينهم من اطمئنانهم إلى عودة وقوع الأمور المألوفة المعتادة. فإذا جاء غير المألوف ارتاعوا وظهر ارتياعهم فى شدتهم وعنفهم. ودلَّ ذلك على نقص فى خبرتهم لأمور الحياة ونفوس الناس.

١٦ ـ يخيَّل لنا أن بعض الناس يجدون لذة فى حماقتهم وشراستهم وغيظهم

حتى أنهم يحرمون أنفسهم من مسرات كثيرة ممتعة، كى يتمتعوا بلذة الحماقة والغيظ.

١٧ ـ قد تجتمع فى بعض النفوس صفات هى الشدَّة والشعور بأنها صالحة وحب السيطرة على غيرهم مع ضيق فى الفكر والخيال. فإذا اجتمعت هذه الصفات فى أناس لم يكن سبب نفورهم من إنسان واضطهادهم إياه تلك المعرفة الممزوجة بالجهل والشك والتى يسمونها الحقيقة. ولكن السبب أنهم فى حاجة إلى أن يملئوا فراغهم من الفكر، وأن يسدوا ثغرة فى التأمل، وأن يخفوا خلوهم من الحكمة، وأن يشبعوا حب سيطرتهم على غيرهم، وأن يباهوا الناس بصلاحهم، وأن يقنعوا غيرهم به ـ وهذا إذا كانوا على شىء من الفضل. وقد يكون السبب شعورهم بنقيصة فى أنفسهم يقتصون لها بالتشفى وبالكيد لغيرهم، أو يكفِّرون عنها بانتقاص غيرهم واضطهاده.

١٨ ـ ثق أنك إذا رأيت إنسانًا يدَّعى أنه أطيب نفسًا ممن هم حوله، فهو إما أن له أربًا يخفيه بادعاء ذلك، وإما أن نفسه قد تغلغل فيها الكبر الروحانى ودنس العجب النفسى وهذان الكبر والدنس يختلطان بفضله فيفسدانه كما تفسد العفونة المأكولات.

١٩ ـ تنتقل النفس من الصدق إلى الغش فى معاملتها لنفسها. ثم ترى الغش خطة ضرورية تسوغها بلباقة، فترى جمال الأعمال وقبحها من نسيج واحد. وكما أن الدول قد تأخذ على دولة عملاً عدائيا ثم تذعن لمايسمى فى عرف السياسة الأمر الواقع. كذلك النفس تذعن للأمر الواقع منها حتى تفاجأ بالقصاص.

٢٠ ـ إن الرجل الذى ليست له ثقة بنفسه قد يكتسب ثقة بنفسه إذا عاشر رجلاً له ثقة كبيرة بنفسه؛ إذ أن للثقة بالنفس عدوى، ومثل ذلك مثل الذى أصابه البرد يأنس إلى من لفحه الحر ليدفئ نفسه بحره فيقل أثر القر فيه ـ على أن هذه المعاشرة قد تأتى بعكس ذلك إذا خشى الأول أن يقحم نفسه فيما يقحم الثانى فيه نفسه بالإقدام من ثقته بها، وفى مثل هذه الحال إذا لم يُجَار الأول

الثانى فى إقدامه وثقته بنفسه. يوشك أن تنفصم عُرَا الصداقة والمعاشرة، إلاَّ إذا لم يكن ملزمًا بهذا الإقدام. وإذا أقدم وحيل بينه وبين باعث ثقته ولاقى صعوبات أو خصومات كُشِفَ ضعفه. وإنما مَثَلُهُ حينئذٍ مَثَلُ السلك الذى يُزَوَّد بالكهرباء فإذا فصل عن مصدر الكهرباء فقد قدرته الكهربائية.

٢١ ـ إن المرأة مهما كانت معجبة بنفسها لاتشعر بجمالها وحلاوة أنوثتها شعورًا تامًا إلاَّ إذا أحبها رجل. فإن حبه يزيدها ثقة بقدرة ملاحة أنوثتها، فتتيقظ وتحس إحساسات ماكانت تحسها من قبل. وهذا هو سبب قدرة الرجال على خداع النساء؛ فإن الرجل إذا أتقن تمثيل مظاهر الحب أحست شكرًا له وعطفًا عليه، وهذا ما كان يصنعه لاندرو قاتل النساء فى فرنسا، فإنه كان يقنع المرأة أنها ذات جمال وحلاوة أنوثة، فتنقاد له وتطيعه طاعة من نُوِّم تنويماً مغناطيسيا، إذ الإيحاء النفسى شبه تنويم.

٢٢ ـ فى بعض الأحايين ترى سفينة تعجب الرائى وتحسبها محكمة الصنع وتقبل شركات التأمين أن تؤمن عليها، فإذا صادفتها أول عاصفة شديدة غرقت واتضح أن ذلك كان بسبب عيب خفى فى بنائها، ونقص مستور فى تركيبها. وكذلك الإنسان يعجب الرائى فإذا صادف أول محنة أو امتحان لنفسه ولقدرته النفسية أو بدهه خطب لم يكن يتوقعه أو أمر من أمور الحياة مفاجئ غير منظور ظهر من طباعه ماكان خفيا وتغير أو تدهور أو تخبط، فيكون حاله كحال تلك السفينة.

٢٣ ـ يُشَبِّه بعض المؤلفين طبيعة الإنسان بطبيعة الموجودات ويقولون: إنّ الطبيعة تصلح ما أفسدته بالضياء والماء والهواء وبتجديد النمو، ولكن الشجرة التى قد اقتلعت أو صعقت لاتعود إلى النمو وإن نمت غيرها، والتلال التى بعثرت لاتتجدد وإن نشأت غيرها، فليس هناك إصلاح حقيقى تام فى طبيعة الموجودات أو فى طبيعة الإنسان.

٢٤ ـ يقولون إن الإنسان إنما يجنى فى الحياة ما يزرع، ولكن هذا ليس كل الحق، فكما إن الإنسان يجنى ما يزرع فإنه قد يجنى مالم يزرع، كما أنه قد يجنى

من النبات والزهر والأشجار مالم يزرع وما ينمو بنفسه أو بعمل غيره، وهذا يصدق فى الخير كما يصدق فى الشر.

٢٥ ـ إذا عظم إحساسنا إلى حد كبير نما الإحساس إلى درجة يخلو فيها من حب النفس الذى ابتعثه ويصير نارًا تتطلب كل شىء فى النفس وقودًا لها وغذاءً للهيبها. وهذا يفسر لماذا ننكر أن إحساسات المرء وأعماله الصادرة عن إحساساته التى تضره سببها الأثرة وحب الذات غير مدركين أن الإحساس فى درجاته المختلفة وحالاته المتغايرة يتغير طبعه وتتغير نتائجه.

٢٦ ـ قد ننسى أن الإنسان تصيبه عواقب مايجنى غيره وإن لم يكن هذا الإنسان له صلة بالجناية واشتراك فيها. أليس العدل نفسه يعاقب من هم فى حاجة إلى الجانى أو لهم به صلة إذا عاقبه فيعاقب من يعول إذا انقطع عنهم رزقهم بالعقاب أو يعاقب أقاربهم فى سمعتهم وباضطهاد الناس لهم وذمهم بسبب جريمة قريبهم.

٢٧ ـ فى أوقات الحزن الشديد تكون فترات تتخللها. وفى هذه الفترات لايتذكر المرء حزنه، بل يتذكر حادثًا تافهًا لاصلة له بحزنه كأنما تعفيه طبيعته فى تلك الفترات من تذكر حزنه والانشغال به كى يستطيع أن يعاود تحمله وهو فى تلك الفترات لانشغاله بالأمر التافه بدل الانشغال بموضوع حزنه يكون كأنه أصابه بلهٌ مؤقت.

٢٨ ـ أهل الريف إذا كانوا فى بقعة منعزلة وحلَّ بأرضهم غريب أساءوا به الظن، كأنه أتى إليهم من عالم مظلم مجهول كالعالم الذى تهاجر منه الطيور شتاءً إلى أرض الدفء والنور؛ ومن أجل ذلك يتوقعون من ذلك الغريب أى شىء غريب مهما كان عمله وقوله مطابقًا للمألوف، ومهما صدر من نفوسهم مما يخالف العرف المألوف، فإذا ارتكب إثمًا أو جنى جناية بعد زمن طويل وبعد مزاولة الخلق المألوف زعموا أن ذلك مصداق لما توقعوا منه من أول الأمر. فالذى يولد بينهم يكتسب بولادته شيئًا من الثقة به والألفة له، أما من لم يولد بينهم فكأنما وُلد وجاء إلى هذا العالم فى نظرهم بطريقة غير طبيعية مثل طرق

الشعوذة وحقيقة هذا الحذر من المجهول مشاهدة حتى فى نفوس الناس إذا حذروا ممن ينقطع عن زيارتهم ومعاشرتهم أو مجالستهم، ولعلها ناشئة عما فى النفوس البشرية من أمور مجهولة ومن غريزة تمكنت فى النفوس من قديم الزمن من عهد الكهوف وسكانها، ومن عهد كان كل إنسان يخشى كل إنسان ويصون حياته بذلك الخوف..

٢٩ ـ إن بعض ما يسميه الناس خيالاً إزراءً به قد يكون تعلقًا بحياة أتمّ وأعظم وبحقيقة متوقعة فى المقبل من الدهر، فبطولة الواحد الفرد أو الآحاد القليلين التى لاتؤثر أثرًا كبيرًا قد يعدها الناس تعلقًا بالخيال، ولكننا نخطئ إذ نقسم البطولة الإنسانية وهى متصلة مهما خفى اتصالها وكل منها قدوة. وهذا الخطأ كالخطأ فى تقسيم وحدات الجيش إلى آحاد أو الخطأ فى تقسيم أشعة الضوء محاولة لمعرفة قدرة الجيش أو الضوء.

* * *

نظرات جوتا أو (جيتا)[1]

- ١٦ -

جوهان ولْفْجانج فون جوتا أو جويتى الأديب الشاعر العالم الألمانى - ربما كان بين الناس من بلغوا منزلته، أو بَذُّوه فى النثر أو الشعر أو العلوم المختلفة أو النقد، ولكن لم يكن بينهم من بلغ شأواً كبيراً فى كل هذه العلوم والآداب كشأوه الكبير، ومنزلته العظيمة، ومن أجل ذلك كان عجيبة زمانه، وليس عظم منزلته فى فنٍّ أو علم أو أدب واحد، ولكن عظم منزلته فى تبريزه فيها كلها، وقد كان شعاره تكميل النفس بالثقافة من كل مصدر وباب، وله فى العلوم كشوف لم تكن معروفة من قبله، ولو أنه أخطأ فى تخطئة نيوتن العالم الإنجليزى، وكانت له رسائل فى النقد فى الفنون المختلفة والآداب، وقصصه التمثيلية بعثت فن التمثيل فى ألمانيا، كما أن قصصه غير التمثيلية مهدت السبيل لفن القصص، ومن الغريب أنه اشتهر بيننا بأقل مؤلفاته منزلة عند النقاد، وأعنى قصة أحْزان ورِتْرَ التى ترجمت إلى العربية، وكان قد ألفها فى شبابه فى العهد الذى أسماه عهد العاصفة والشدة، وله محادثاته لأكرمان، ومراسلاته لشيلر الشاعر، وترجمة حياته التى سماها (الحقيقة والخيال)، ولكن القصة الشعرية التى اشتهر بها فى ألمانيا وبين الأدباء والمفكرين هى قصة (فوست)، والجزء الأول أسهل من الثانى، ولم يتم الجزء الثانى إلاَّ بعد أن بلغ الشيخوخة، وأودعه فكره وفلسفته فى قالب شعرى خيالى. وقد كان جوتا يعيب على شعراء الرمزية جعل الشعر أوهامًا وأضغاث أحلام لاحقيقة تحتها. ومع ذلك فقد كان يلجأ إلى الرمزية للتعبير عن الحقائق التى كما قال لاتُصورّ إلاَّ بها، ولم يكن يعيب الرمزية

(١) المقتطف : يونيو سنة ١٩٤٩.

فحسب، بل كان يعيب المذهب الخيالى (الرومانتيكى)، وقد لفته صديقه شيلر إلى مافى شعره من هذا المذهب، ولا غرابة فإن من كانت نهمة بحثه وفكره وخياله لاتشبع، ربما لجأ إلى هذا المذهب. ولعلَّ إمرْسُون الأديب الشاعر الأمريكى قد كان يعنى ذلك فى قوله إن جوتا وصل فى بحث مايمكن عرفانه إلى حدود المجهول، ثم خطا خطوة وراء تلك الحدود وعاد سليمًا!!!.

وهذه مبالغة طريفة. ولكن من يحاول أن تكون له ثقافة متنوعة كثقافة جوتا لابدَّ أن تَفدَحُه وتَبهظَهُ، وله كلمة يعترف فيها أنه ركب الشطط فى طلب هذه الثقافة. وإنما يهمنا فى هذه المقالات نظراته فى النفس الإنسانية، وهذه النظرات تعطيك فى القراءة الثانية أكثر مما تعطيك فى الأولى، وقد اخترت بعضها لأظهر أنه لم يكن أقل بصيرة ممن كتبوا فى صفات النفوس من أمثال مونتانى، وباكون ولاروشفوكولد، ولابرويير. ولايعجبنى مسلك النقاد الذين يريدون الحط من قدر غيره ظنا أن ذلك يرفع قدره، ولامسلك المغالين فى إعظامه، حتى يكاد الإعظام يبلغ مرتبة التقديس والتنزيه. كما لايعجبنى مسلك الذين يحطون من قدره لأن له مواقف غرامية كثيرة، أو لأنه لم يكتب قصائد ليشعل الحقد والبغض فى نفوس الألمان، وهم يحاربون الفرنسيين لطردهم من ألمانيا. ومن الغريب أنه جمع بين سهولة الأدب الكلاسيكى القديم والطريقة الفلسفية أو الخيالية الألمانية المعقدة. وقد اعترف بنزعة المفكرين الألمان إلى هذا التعقيد، فكأن مؤلفاته بناء جمع بين الطريقة الإغريقية التى كانت تنحو نحو السهولة، وبين طريقة البناء القوطى التى تنحو إلى غير ذلك.

وقد درج بعض الكتَّاب على انتقاص لاروشفوكولد، ومدح جوتا، بدعوى أن الأول يكثر من اتهام النفس الإنسانية بالأثرة، كأن جوتا لايفعل مثل فعله، وسيتضح أنه يفعل ذلك، ولابدَّ لباحث النفس أن يفعل.

وهذه بعض نظراته مع التعقيب عليها:

١ ـ فى النفس قاعدة سيكولوجية، وهى أنها تحاول أن تحوِّل موضع ضعفها ونقصها إلى مبدأ عام ممدوح. ومن أمثال ذلك: أن بعض الناس يحسبون التَّأنِّى الذى سببه الخوف الكامن قوة لايغلبها غالب، ولا يقهرها قاهر، مع أن إحجامهم

قد لايكون تَبَصُّرا وحزمًا. وكذلك نرى الضعفاء الذين يعتنقون الآراء الثورية يحسبون أنهم يكونون أسعد حالاً باعتناقها، ويكون الناس كذلك فى أرغد عيش وحال، ولا يفطنون إلى أن ضعفهم يمنعهم من حكم أنفسهم ومن حكم الناس ـ وفى هذه النظرة أكثر من ذلك، فكما أن القاعدة أن النفس تُزَين موضع ضعفها، فهى أيضًا تُقَبِّح وتُصَغِّر ماليس فيها من الصفات التى تستطيع التخلق بها. فإن من لايساعده طبعه على التخلق بآداب السلوك.، يرى أن آداب السلوك ضعف، ومذلة، ونقص وتقبيح ماليس فى نفسه من الصفات الحمد فى بعض الأحايين كى يحسب الناس أنه إنما مدحها لأنها من صفاته، إذ أن النفس لها وسائل مختلفة متناقضة، تحاول بها كسب المدح والإعظام.

٢ ـ مهما عاش الإنسان فى عزلة عن الناس منفصلا عنهم بأفكاره وإحساساته وأعماله، فإنه لابد أن يكون إما مدينًا وإما دائنًا لغيره فى تلك الأمور كلها أو بعضها. ولكن القاعدة هى أن الناس إذا قابلوا إنسانًا مدينًا لهم بفضل، تذكروا ماهو مدين لهم به، وكانوا أسرع إلى التفكير فيما دانوه به من الفضل. أما إذا قابلوا إنسانًا هم مدينون له فإنهم قلما يذكرون فضله عليهم، أو إذا ذكروه أسرعوا إلى تجاهله، ويضايقهم مايلح فى تذكيرهم به.

٣ ـ إن صفات النفوس تظهر فى أعمالها ومعاملاتها، ومن أجل ذلك يخطئ من يظن أنه يستطيع أن يعرف صفات نفسه بالفكر وحده، وبالتأمل فى نفسه من غير أن ينظر إلى صفاتها فى أعمالها. والواقع أن النفس تحاول أن تفصل عمدًا بين الأمرين، وهذا الفصل قاعدة سيكولوجية فيها، لأنها تعرف أن العمل قد يغريها بالتخلق بصفات ذميمة ماكان يتخلق بها المرء لولا اضطراره إلى العمل والمعاملات. فكثيرًا ما يتجاهل المرء عمدًا صفات نفسه التى يظهرها اضطراره إلى العمل والمعاملات ويكتفى بالحكم بصفات نفسه غير المضطرة، وهى صفات أرقى وأطهر، وقد شبه جوتا نوعى الصفات بالسُّدَى واللُّحْمَة فى النسيج أو بالزفير والشهيق فى تنفس الإنسان الحى. وقال إنه لايستطاع معرفة النسيج من السُّدَى فحسب، أو من اللُّحْمَة وحدها، بل من الاثنين معًا. ومن أجل ذلك يغيظ المرء أن تذكره بصفاته التى تظهرها أعماله ومعاملاته. لأن هذا الفصل بين نوعى

الصفات يساعد المرء على التخلق بما يشاء من صفات السوء وهو مطمئن راض عن نفسه.

٤ ـ لو كان انحياز الإنسان للباطل سببه خطأ الفكر من غير أن يكون الباطل متصلاً بميول نفسه ونزعاتها وعواطفها وأخلاقها، سهل تصحيح الباطل وتلافيه، ولكن اتصاله بها يجعل تصحيحه وتلافيه أمراً شاقا أو مستحيلاً. ومن أجل ذلك إذا استعصى على الإنسان تصحيح خطأ أو باطل فى نفس إنسان آخر خدع نفسه، وأوهمها أن ذلك الخطأ وأن ذلك الباطل من ضلال فكر صاحبه ومن أغلاطه العقلية غير المتصلة بإحساساته ونزعاته، وإنما يغالط نفسه هذه المغالطة كى يجعلها تأمل إزالة ذلك الباطل إذا كان لها خير فى إزالته؛ إذ أنه يدرك بالفطرة أن مكافحة الخطأ الفكرى الخالص من شوائب النفس أقل مشقة وأيسر مئونة وكلفة. وهذا يعلل أمل بعض الناس فى التفاهم مع من لايرجى التفاهم معهم وإقناعهم بما لايمكن إقناعهم به. ولاسيما أن الأمل فى التفاهم إذا ازداد صير توقعه حدوث التفاهم كأنه قد حدث كما هو شأن الأمل فى أى أمر آخر. فإذا استجدت أسباب تغير من نزعات من لايريد التفاهم ومن ميوله النفسية حتى يرى فى التفاهم نفعًا له لبس الزَّهوَ مجادله ونسب هذا التغير إلى قدرته على الإقناع بالفكر ولباقته وكياسته فيه.

٥ ـ إن الفكر قد يصحبه شعور شديد، وهذا الشعور له أثر عظيم فى الحياة، وهو نافع إذا استطاع المرء أن يمنع نفسه وهو يفكر من الانسياق فى تيار سيله؛ لأنه إذا لم يستطع حكم شعوره وضبطه لم يستطع أن يصحح رأيه وأن يعالج ميل نفسه إذا حادت عن الصواب وأن يعرف حدود فكره، ولكن من العجيب أن المرء كلما انساق وجرفه تيار سيل الإحساس فى مجادلاته ومناظراته قال الناس إنه صادق السريرة، إذ لولا اقتناعه بصواب رأيه ما انساق مع الشعور الشديد فى التعبير عنه وفى مناظراته. ثم يتخذون حكمهم بصدق سريرته حكمًا بصواب رأيه. والشعور المنفعل فى إنسان قد يستنبط مثله فى غيره بالقدرة والإيحاء، وقد أوضح شارلز لامب فى رسالة الأغلاط الشائعة بطلان هذا الرأى وهذا الحكم؛ لأن الشعور الشديد قد يكون ناشئاً من النزعات النفسية التى قد تتخذ الفكر مطية

لتبلغ به غايتها وأن كانت غاية باطلة، أو لتخذه ستاراً يحجب عن صاحبها وعن الناس كنهها وحقيقتها المستترة وراء الفكر. وصدق السريرة إذا فرضنا وجوده فى صاحب الشعور الشديد لايمنع من الانحياز للباطل كما قال جوتا: أستطيع أن أعد أن أكون صادق السريرة، ولكنى لاأستطيع أن أعد بألا أنحاز مع صدق السريرة إلى الباطل؛ لأن صادق السريرة يجهل انحياز نفسه إليه بحكم صدق سريرته.

٦ ـ إن معرفة الصواب لاتمنع من مواقعة الأخطاء التى يصححها ذلك الصواب إذا كانت أخطاءً متصلة بميول النفس فتكون حبيبة إلى النفس، وتأبى العواطف على المرء إلاَّ أن يعود إليها. وكذلك الخطأ فى الأمور النظرية أو العملية التى ليست متصلة اتصالاً وثيقاً بعواطفنا تعود إليه بعد معرفة الصواب إذا لم يفسر وجه الخطأ وسببه ومكانه وحدوده تفسيراً مقنعًا يؤدى إلى رسوخ الصواب، فإن من يكتفى بشرح الصواب من غير نظر إلى الأخطاء التى يقع فيها الناس ومن غير تفسيرها قد يبذل جهدًا عظيمًا ويتكلف مشقة هائلة، ولكن قد يكون علمه كله عملاً ضائعًا لا أثر له. وقد يتعجب لضياع عمله وجهده ويدهش لأن تعبه فى شرح الصواب لم يثمر؛ وذلك لأنه لايفطن إلى أن شرح الصواب لايكفى إذا لم يشرح الخطأ أو الأخطاء إذا تعددت، وهذه قاعدة هامة فى التعليم إذا أهملها المعلم ضاع عمله وحبطَ كل الحبوط. ومن أجل ذلك قد يظن المناظر ظَنا باطلاً أنه فند رأى مجادله أو مناظره إذا شرح رأى نفسه ولم يلتفت إلى رأى منافسه فى المناظرة ولم يبين أوجه الخطأ فيه، وقبل أن يفعل ذلك ينبغى لكل مناظر أن يذكر رأى خصمه بدقة حتى يثق من أنه يعرفه تمام العرفان فلا يجادل فيما هو خارج عن الموضوع وهو يحسب أنه موضوع رأى مناظره. وجوتا يحتم هذه الطريقة؛ لأن الخروج عن الموضوع أمر كثير الحدوث.

٧ ـ إن الأفكار الصحيحة والمبادئ العامة المقبولة إذا اقترنت بغرور الإنسان سببت أضراراً مخيفة، فهو يحسب أنه يعمل لهذه الأفكار والمبادئ، ولكنه فى الواقع يعمل حسب مايوحى إليه غروره، فتكون عواقب أفكاره وأعماله وخيمة. ولا شىء أضيع من فكرة ناضجة فى ذهن غير ناضج؛ فإنها تكون مهما عظمت

وجلَّت عاقرًا أو تنتج غير المنظور منها، وكل فكرة عظيمة عند بدء ظهورها تكون لها سيطرة طاغية، ومن أجل ذلك قد تنقلب مزاياها كلها أو بعضها إلى نقائص، وهذا بسبب اندفاع النفس فى العمل لها من غير فطنة إلى الأفكار والحقائق الأخرى التى تحدها.

٨ ـ إذا أكثر إنسان من مجالسة غيره وأطال الحديث ولم يتملقه تصريحًا أو تعريضًا بأية وسيلة وعلى أى شكل كان التملق، حتى ولو كان مجاملة، ولم يشعره السرور فى نفسه بنفسه بأية واسطة فإن جليسه لايسر بمجالسته، وقد يظن به الظنون ويشعر باتحراف عنه، ومن أجل ذلك كانت المجاملة بالتملق من أهم أركان المجالسة والمعاشرة، ولابد أن تكون من الطرفين لامن ناحية واحدة من ناحيتيها. ومن حاول أن يستغنى عنها فى معاشرة الناس حتى الذين يذمون التملق وجد نفسه مكروها ومجالسه كريهة بغيضة.

٩ ـ إن الحياء والشجاعة صفتان لايمكن أن يحاكيهما إنسان إذا خلا منهما، ولكل منهما مظهر واحد لاكبعض الصفات التى تتخذ مظاهر وألوانًا متعددة. ومع ذلك فإن بعض الناس مخدوع بهما فيحسب الحياء جبنًا وذلة، ويعد الصفاقة والقحة شجاعة، ولولا كثرة المخدوعين فى هذه الصفات مارهد كثيرون فى الحياء ولاتنافسوا فى الصفاقة والقحة، فإن التقاتل على الحياة يدعو الإنسان إلى الفرار مما يعد ذلة كى لايستذله الناس. ويرغبه فيما يخال شجاعة كى يخيف به الناس، ولاشىء يغيظ الناس مثل وجدانهم الشجاعة عند ذوى الحياء إذا اعتدوا عليهم اعتمادًا على حلم حيائهم، وعلى عدهم الحياء ذلة، فلا يجدون ذلة ولا استكانة، بل إن بعض ذوى الحياء إذا لم يجد محيصًا عن ذلك يبذ ذوى السلاطة فى سلاطة لسانهم.

وقد فطن شعراء العرب إلى اقتران الحياء والشجاعة وعدوا ذلك الاقتران مثلا أعلى، كما قال الفرزدق:

يُغْضِى حياءً ويُغْضَى من مهابته فلا يكلَّم إلاَّ حين يبتسم

وقالت ليلى الأخيلية فيمن حياؤه يُخال سقما وهو فى الحرب زعيم:

ومخرق عنه القميص تخاله بين البيوت من الحياء سقيما
حتى إذا رُفعَ اللواء رأينه تحت اللواء على الجيوش زعيما

وفى رواية (على الخميس) وهو الجيش، ومثل هذا أو أكثر مبالغة قول متمم ابن نويرة فى رثاء أخيه، وكان المرْثىُّ سيِّدَ قبيلته.

فتىً كان أحْيا من فتاة حَيِيَّةٍ وأشجع من ليث إذا ما تدرَّعا

ومثله قول الآخر:

إذا قيلت العوراء اغضى كأنه ذليلٌ بلا ذل ولو شاء لانتقم

١٠ ـ الحقيقة هى أن أغلاط المرء وأخطاءه وعيوبه هى التى تحببه إلى الناس ماداموا واثقين أنها لاتضرهم؛ لأنه بها ينخفض إلى مستواهم ولا يرتفع عنه. أما لو كان معصومًا منزها من العيوب أنكره الناس أو حسدوه أو كرهوه. ومن أجل ذلك كثيراً ما يلبسون الفضل ثوب العيب كى يكون حجة لكرهه، أو كثيراً ما يضحون بأناس كى يثبتوا أنهم أنفسهم على غير الصفات البغيضة التى يدعون كرههم من أجلها، وهذا الإسراع إلى إثبات خلوهم منها يريب، إذ لولا وجودها فيهم ماتسرعوا بخلعها على غيرهم وكرههم بسببها، مع أن القاعدة السيكولوجية هى أن النفس ترتاح إذا عرفت أخطاء المرء أو عيوبه، حتى إنها من ارتياحها واطمئنانها تعطف عليه فى سريرتها، وتود لو شكرته؛ لأنه بعث إليها الاطمئنان بنفسها على عيوبها التى تعرفها فيها.

١١ ـ التملق دليل على أن المتملق لايشعر بمحبة أو مودة لمن يتملقه، فهو بالتملق يستعيض عنهما بدلاً كى يبلغ مايريد، ومع ذلك فإن الناس تعد كلامه دليلاً على المودة والمحبة والإنصاف؛ لأنهم لايرون فيما يمدحهم به باطلا، بل مدحه لهم حقيقة وإنصاف حتى ولو كانوا بجانب من عقولهم يشكون فى بعض قوله، ويكون أكبر همهم إذا تملقهم إنسان ليس البحث فى صدق قوله، بل التأكد

من أنه لايريد السخر بهم بذلك التملق. ولاسيما إذا غالى فى عبارات الملق فإن المغالاة فى التملق تكون أشبه بالسخر.

١٢ ـ ينبغى ألا نتعجب إذا تحولت الصفات الحميدة بالتدرج إلى شر مكروه، فإن معانى الصفات متصلة متدرجة فى النوع والمقدار، فقد تتحول الغبطة إلى حسد، والحسد إلى بغض، والبغض إلى حب الشر، وحب الشر إلى ارتكاب الآثام والجرائم، وقد يبدأ هذا التدرج بماهو أمر برىء ويصل إلى ماهو شر مكروه، وذلك إذا استسلم المرء إلى النزعات التى تحدث هذا التحول، ومن أجل أن صفات النفوس متدرجة قد لايفطن المرء إلا بعد سنين طوال أنه قد استرسل من الصراحة فى القول إلى الثقة بالنفس، ومن عظم الثقة بالنفس إلى الهوج فى العمل، فينزلق انزلاقاً بطيئًا لايشعر به من الأمر البرىء من العيوب إلى مايجمع الأضرار الكثيرة.

١٣ ـ فى طبيعة الإنسان عناد وتناقض، فإنه يأبى أن يُرْغَمَ على مافيه خيره وفائدته، ويرضى مختاراً أن يتقيد بمافيه ضرره. وهو إذا وجد نفسه راضيا مختاراً للتقييد أكسبته مظاهر حرية الرضا والاختيار اطمئناناً وتعاظمًا يلفتانه عن قيده وضرره، أما فى حالة الإرغام على مافيه خيره، فإن غضاضة الإرغام تحز فى نفسه وتؤلمه فتلفته عما فيه من الخير وتُزهِّدُه فيه، وهذان العناد والتناقض ظاهران فى حياة الأطفال، وقد يعجب منهما الرجال، ولو فحصوا عنهما فى حياتهم لوجدوهما فى نفوسهم أيضاً.

١٤ـ أنظر فى نفوس الناس ثم أنظر فى نفسى فلا أجد خطأ من أخطائهم كان من المحال أن أرتكبه. وادعاء العصمة والترفع عن الناس أمرٌ ميسورٌ لا يكلف صاحب الإدعاء مشقة، ولكن هذا الاعتراف من جوتا يتطلب شجاعة وعظمة نفسية لا تتفق لكل إنسان، وقد لام بعض الأدباء جوتا على اعترافه فى كتابه الذى يترجم فيه حياته والمسمى بين الحقيقة والخيال إذ قال: إنه كان فى عهد صغره يحلم يقظانَ فى أحلام العظمة أن أمه حملت به سفاحًا من أمير جليل الشأن، وأن أباه إذاً ليس الرجل الذى ينتسب إليه. وقد زكى هذه الشجاعة الكاتب الإنجليزى سمرست موام فى كتاب الخلاصة. على أنه عاد بعد اعترافه الأول

فقال: وكل ما حاولت علمه أو عمله وكان بسبب نزعات باطلة قد حاولت أيضًا أن أفهمه، وأن أتعلم منه، وأن أدرس الدواعى إليه وأن أزيلها إذا استطعت.

١٥ ـ إذا تأمل الإنسان جثمانه ظاهراً وباطنًا فى الأوقات المختلفة لايعدم أن يجد وعكة أو نقصًا أو مرضًا أو ضعفًا، وكذلك إذا تأمل نفسه فى حالاتها المختلفة. ومن أجل ذلك تدفع النفس نفسها دفعًا عن التأمل فى صفاتها التى تكرهها أو تلبسها لدى نفسها لباس صفات أخرى، أو تتخذ لها حججاً وأعذارًا تزكيها. فقلما تفكر النفس فى صفاتها بصدق وجد وإمعان وإنعام.

١٦ ـ قيل إن العمل ناشئ من الإرادة، وقيل إنه ناشئ من العرفان، ولكن الإنسان لايستطيع أن يعمل إذا أراد إلاَّ إذا كان يعرف مايريد علمه. ومن أجل ذلك لا أرى فى الحياة أمراً مخيفًا مثل أمر الرجل الذى يعمل وهو لايعرف ما يعمل.

١٧ ـ إذا أرضينا غيرنا عَزَّانا ذلك عن عدم إرضائنا لأنفسنا عند محاسبتها فى القول والفكر والعمل، فتسر نفوسنا وتنتعش وتنشط ـ ويكون نشاطها إذا أرضينا غيرنا بالحقّ، ولكن من الأسف أن هذا قد يصدق أيضًا إذا أرضينا غيرنا بغير الحق وبعمل الباطل؛ لأن ما نلاقيه من العطف والحث يغريها به.

١٨ ـ فى هذه الدنيا كثيراً ما يقيس الناس الرجل بالمقياس الذى يقيس به نفسه، على شرط أن يحدد قيمته ويلتزمها، لأنه يسهل على الناس بالقياس أن يعاشروا رجلاً اعترفوا له بقيمة معينة وإن كانوا يكرهون عاداته. ويشق عليهم أن يعاشروا رجلاً لم يحدد قيمته ومنزلته، وجهلهم بها يضايقهم ويبعثهم إلى الشك فتساورهم به الظنون.

١٩ ـ ليس الغُنْم فى التفكير فى عيوب الأصدقاء، ونقائص من نعرف، لأن التفكير فيها يؤدى إلى الاقتناع بحالتنا النفسية على مابها من نقص، ويؤدى بنا إلى الغرور، أما التَّأمُّل فى فضل الخصوم فهو الغنم؛ لأنه يؤدى بنا إلى محاولة التشبه بفضلهم وبفضائلهم.

٢٠ ـ لابدَّ من أن تكتسب النفس من ضبط النفس بقدر ما تنال من الحرية؛

لأن كل أمر يحرر نفسه المرء من غير أن يعطيها قدرة على حُكْمْ نفسها يضرها ويدعوها إما إلى الإفراط وإما إلى التفريط.

٢١ ـ أكثر شرور الحياة ناشئة إما من عجزنا عن أن نضع أنفسنا موضع غيرنا، وإما من عجزنا أن نضع غيرنا موضع نفوسنا، والوضع الأول لو أمكن يزيل الحقد والحسد وسوء الظن، والثانى يزيل الغرور والأثرة والكبر وقلة مبالاة ما يعانيه الناس.

٢٢ ـ إن التجاذب ليست له قاعدة واحدة فبعض الناس يحب من يشابهه، وبعضهم يميل إلى من يخالفه؛ ومن أجل ذلك نرى تجاذب الأشباه ـ وربما كان هذا أكثر ـ كما نرى تجاذب الأضداد. وقد يوجد تجاذب الأضداد بالرغم من تنافر وتخالف وتخاصم.

٢٣ ـ كثيراً ما يظن المرء إذا استطاع أن يعمل عملاً مرة واحدة أنه يستطيع أن يعمله مراراً، فتظهر خيبته وعجزه إذا حاول ذلك إلاَّ إذا فقهه وتمرَّس به، ولم تتغير نفسه ومقدرته. وأعجب من ذلك أن الإنسان قد يظن أنه يستطيع أن يعمل مالم يعمله قط إذا رأى غيره يعمله، مع أنه لم يجرب قدرته، ولم يكتسب مرانًا عليه.

٢٤ ـ ليس بين الناس من لايحسد صاحب المواهب العقلية إلاَّ الأب، فإن الأب لا يحسد ابنه؛ لأنه كان سبب حياته، وربما أقنع نفسه أن ابنه استمدَّ مواهبه منه. وقد علل شوبنهور هذا الحسد بأن المرء قد يأمل أن يوفق وأن تساعده الحظوظ فيكسب مثل بعض مال ذوى المال. أما ملكات العقل واستعداده فأمور طبيعية، ومن لم تكن عنده لايطمع فى حيازتها. ومن أجل ذلك كان الفكر مع الفقر محسوداً أكثر من الغباوة مع المال، هذا عدا أن صاحب المال يطمع الناس فى نيل معونته ويصول بما يهيئه له ماله من النفوذ فيختفى حسد ذوى الحسد، بينما يكون صاحب الفكر معرضًا لسوء الظن بفكره ونتائجه وليس عنده مطمع لذوى الحسد ولا عنده سلطان المال.

٢٥ ـ بالرغم من أن شدة تعلق المرء بآماله تجعله يتوقعها حتى يصير فى توقعه كأنها قد حدثت، فإن حدوثها بالرغم من ذلك يكون مصحوبًا بشىء ولو قليل من الدهشة والمباغتة. وذلك من الشك الذى يلازم هذا التوقع مهما كان موثوقًا به، ولعل أثر رد الفعل فى الإحساس يظهر أيضًا هذا الشك الذى يسبب الدهشة، فإن كل إحساس شديد لابد أن يكون له رد فعل كى تستقر الأمور، إذ أنه يعرف أنه كان يغالط نفسه فى إنزال أمله منزلة الحقائق.

٢٦ ـ إن مجالسة النساء تكسب الرجال آداب السلوك؛ لأنهم يتخلقون بما يناسب مجالسهن فيكتسبون رقة وحياء وآدابًا، ويترفعون عن سعار المهاترة ورفث القول، ولكن فى البيئات التى يكون الرجال فيها قدوة للنساء، ولا يتورعون فيها من الاسترسال على طباع الخشونة والمجون إذا جالسوا النساء، تتخلق النساء بهذه الطباع وأشباهها من الطباع التى سماها فلوبير «كانيرى» أى الطباع الكلبية بدل أن يكسبن الرجال من آدابهن وحيائهنّ.

٢٧ ـ غفلة بعض الناس عن الحق قد تكون كالنور الذى يجدد نشاطهم فإذا استيقظوا ونُبِّهُوا إلى خطأ شعروا بنشاط مجدد فى طلب الحق والصواب، ولكن غيرهم إذا لُفِتُوا إلى خطأ تتخاذل قوى أنفسهم ويظهرون الاستخذاء والاسترخاء، والطائفة الأولى هى طائفة الفائزين.

٢٨ ـ قلما يهم المرء انتصار الحق إلاَّ إذا كان انتصاره يُزَكِّى فكره وقوله. أما إذا كان لايزكى فكره وقوله لم يهتم له ولجأ إلى الباطل يتخذ منه حجة، ولايهمه بعد ذلك لو مات الحق؛ لأن عنده أن الحق مايرى ويقول أو يغالط نفسه وهو يعرف كذب ذلك.

٢٩ ـ إن الخلق القوى فى إنسان قد يَستَنْبِط الخلق القوى فى غيره. وهذه النظرة تذكرنا قول جورج اليوت: إن من لاثقة له بنفسه قد يأنس إلى من له ثقة كبيرة بها، كما يأنس الذى أصابه البرد إلى من أصابه الحر كى يفيد حرارة، والخلق له عدوى وإيحاء، ألا ترى أن الجندى يكتسب قدرة على تحمل الآلام

وشجاعة برؤية قدرة وشجاعة غيره من الجنود فى الحروب. وكذلك عدوى الخلق فى الحياة اليومية.

٣٠ ـ يؤلمنى أشد الألم أن أرى الإنسان الذى جُعل تاج الخليقة ورأسها وذروتها كى يُحَرِّر نفسه وغيره من حكم الضرورة القاسية بالفكر والعمل ـ يفعل ضد ذلك بسبب الانحياز للباطل المُحَبَّبِ إلى النفس، فينغمر فى حكم تلك الضرورة القاسية ويغمر غيره فى حكمها؛ ومن أجل ذلك نرى حياة الإنسان تتقدم بلا تقدم عصراً بعد عصر وترتقى من غير ارتقاء.

٣١ ـ إذا سمع الناس إنسانًا يمدح نفسه قالوا إن مدح النفس له رائحة كريهة. ولكن الظاهر أن أنوفهم لاتشعر بالرائحة الكريهة التى فى ذمهم غيرهم، وهو مدح معكوس لأنفسهم.

٣٢ ـ مما يؤدى إلى حيرة الإنسان أنه إذا طلب أمراً واتخذ له وسيلة يركب الشطط فى طلب الوسيلة ويغالى بها حتى يهمل الغاية وينساها فى طلب الوسيلة فيحيد عما يريد، لأن الوسيلة متى صارت غاية فى نفسها قد يتخذ لها هى أيضاً وسائل مستقلة عن غايتها الأولى وقد تمنعه من بلوغ تلك الغاية الأولى، وكذلك من يضع الغاية موضع الوسيلة.

٣٣ ـ إننا أسرع إلى الاعتراف بأخطاء عملنا وأبطأ فى الاعتراف بأخطاء فكرنا؛ لأن أخطاء العمل لها عواقب ظاهرة بارزة من الصعب إنكارها، أما أخطاء الفكر فقد تخفى أو تستطاع المغالطة فيها، ومع ذلك فمن الناس من يمارى فى أخطاء عمله، وهى ماثلة أمامه، إذ ينسب تلك الأخطاء إلى غيره، أو إلى سبب آخر غير سببها.

٣٤ ـ إن الإنسان مولع بأن يربط كل شىء بحياته وحاجاته. فصاحب الطاحون يشعر أن القمح إنما نبت ونما كى يعطى له عملاً بطحنه، وكى تظل طاحونه دائرة، وقس على ذلك كل أمور الحياة.

٣٥ ـ إن الإنسان مشغوف بمعرفة المستقبل، وهذا الشغف سببه أنه يميل إلى تصديق حدوث مايود أن يحدث فيه، وهذه صفة يعرفها الدجالون، ويبنون عليها أقوالهم عند ادعائهم كشف المستقبل.

٣٦ ـ فى جميع العصور كانت الآحاد من الناس هى التى تعمل على تقدم العرفان، أما الجماعات والحكومات فإنها تتنازعها عوامل ودوافع مختلفة قد تؤدى بها إلى تقييد العلم حتى فى أثناء نشره (وفى كتاب أسباب تفاوت الناس للأستاذ هالدين فصل ممتع فى هذا الموضوع). وعلى أى حال فالحكومات والجماعات تعنى بجامعى العلم والحُفَّاظ وأهل المرونة أكثر من عنايتها بذوى الفكر المستقل.

٣٧ ـ بعض الناس الذين تعبر حياتهم عن مبدأ أو فكرة قد لايستطيعون فهم ما تعبر عنه حياتهم فيركبون الشطط، وينزلقون إلى الخطأ والغلط. وقد كان نابليون يحتقر الأفكار قائلاً: إنها نظريات قليلة الأثر، مع أنه كان يعترف (بالعمل إن لم يكن بالقول) أن الحياة الفكرية تبعث الحياة، والفكر يبعث العمل.

٣٨ـ عندما يعمل إنسان لابد له من أن يرى أن نفسه أعظم من حقيقتها كى يستطيع أداء عمله. وهذا أمرٌ مغتفر بسبب ضرورة العمل، إلاَّ إذا كان رأيه هذا فى الثقة بنفسه يضر غيره أو يؤلمه أو يقلقه.

٣٩ـ إذا عمل الإنسان لخير غيره ونفعه فإنما يعمل كى يشاركه من يعمل لخيره فى السرور بذلك العمل، ومن لايستطيع السرور بالعمل لغيره يُضرُّ ويؤذَى بذلك العمل. والظاهر إن فى هذا القول ما يخالف قول كانت: (إن المرء لايستطيع أن يحكم أن الواجب هو دافعه إلى العمل إلاَّ إذا كان العمل يخالف نزعاته السارة وميوله المبتهجة)، ولو أن قول كانت حكمٌ بصعوبة معرفة الدافع إذا وافق العمل نزعاته السارة.

* * *

تكملة نظرات جوتا[1]

-١٧-

يحتفى الأدباء هذه السنة بإحياء ذكرى (جوتا الألمانى) ولقد عادت ألمانيا مجزأة كما كانت فى عهده وكان (جوتا) ينكر الحروب وقسوتها ويندد بفظائعها التى سماها فظائع الأبالسة. وكان فى صباه قد اشترك فى الحملة على الثورة الفرنسية التى تمخضت عن الجمهورية الفرنسية الأولى، وكان (جوتا) يرغب فى السلم العالمى الذى ينشده العالم الآن، كما كان راغبًا فى ثقافة عالمية كما يرغب اليونسكو. ولهذه الأسباب كان هذا الوقت أنسب الأوقات للاحتفاء بذكراه. ولم يكن (جوتا) من طبقة الأشراف، بل أسبغ عليه صديقه أمير ويمار لقب الشرف وقد ذكرنا فى المقال السابق أنه فى شبابه ألَّف قصة (أحزان ورتر) التى اشتهرت فى عهدها كاشتهار قصة (كلاريسا هارلو) لرتشاردسون الإنجليزى و (هلواز الجديدة) لروسو، وكانت على طريقة (السنتيمنتاليزم) ولقوة أثرها فى النفوس حاول بعض الشبان التشبه (ببطل) القصة؛ ومن أجل ذلك لم يكن أثرها حميدًا، اتسع نطاق فكر (جوتا) ونطاق نفسه بعدها، وبالرغم من أن مواقفه الغرامية كانت بها عاطفة غرامية صحيحة، فإنها كانت ممزوجة بالرغبة فى التجربة والخبرة صنع العالم المجرب. وكانت تتنازع نفس (جوتا) العاطفة والرغبة فى الخبرة، وهذا التنازع كان فى كل الأمور، ومن أجل ذلك كان أديبًا وكان عالمًا. وقد ذكرنا أنه كان يميل إلى المذهب الكلاسيكى وصفاته من سلاسة وسهولة ووضوح كما فى قصته (هرمان ودوروثيا)،كما كان يميل أحياناً إلى الشعر الفلسفى، أو إلى الخيال الرمزى، كما فى بعض أجزاء القسم الثانى من (فوست)

(١) المقتطف : نوفمبر سنة ١٩٤٩.

المسمى (هيلينا) والحقيقة أنه كان يشعر بلذة فنية فى تجربة كل نوع من الثقافة والأدب، فقد قرأ مرة قصيدة تأبط شرا التى مطلعها:

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلاً دمه ما يُطَلُّ

وكانت قد ترجمت إلى اللاتينية فترجمها (جوتا) إلى الألمانية لإعجابه بها. وهذا كما ورد فى كتب (تاريخ العرب الأدبى) للعلامة نيكلسون الإنجليزى. و(لجوتا) ديوان سماه (ديوان الغرب والشرق) يحاكى فيه بعض الشعر الشرقى، وسمع مرة أن الإسلام هو الاستسلام لإرادة الله فى كل شىء، فقال هذا ما ينبغى أن يكون عليه كل إنسان. وألّف حكمة فى هذا الموضوع. وقصص (شيلر) التمثيلية على العموم أوقع. إذا قارنا بين قصص (جوتا) أمثال (اجمونت) و (تاسو) و (جوتز) و (افيجنيا)، وبين قصص (شيلر) أمثال (وليام تل) و (مارى ستوارت) و (والنستين) و (دون كارلوس) و (اللصوص).

وقد ترجم (كارليل) قصة (جوتا) النثرية المسماة (ولهلم مايستر) إلى الإنجليزية، ولكنه عاد يتململ ويتأفف من بعض حوادثها، والواقع أن هم (جوتا) وغرضه هو أن يعرض كيف اكتسب بطل القصة ثقافة حتى من الحوادث والمخالطة الوضعية، ولم يقصد بالثقافة الزهد، فقد كان (جوتا) زاهدًا فى الزهد، بل كان يراه مؤديًا إلى ضيق النفس والفكر، وإنما كان يعنى بالثقافة استخلاص الحكمة الصائبة من تجارب الحياة.

وكانت روح (جوتا) روحًا عالمية تخطت حدود وطنه واحتضنت العالم، حتى إنه أبى أن يكره الفرنسيين فى عهد نابليون عندما غزوا ألمانيا. وقال لاكرمان كيف أكره أمة أنا مدين لها بجزء كبير من ثقافتى، والثقافة هى كل شىء وقال (أوسكار وايلد) فى رسالة (الناقد صاحب الفن): كان جوتا أول من جرؤ وجاهر بهذه الفكرة العالمية، وسيزداد أثرها فى العالم حتى تؤدى إلى ترجيح العالمية، ويمحو النقد الفرق الخاصة، ويقرب توحيد العقل البشرى على اختلاف أمكنته، وقد نقده بعض الأدباء نقدًا شديدًا كما فعل مينزل، وبعضهم كان نقده يخالطه الاعجاب به مثل نقد هينى الشاعر الألمانى.

وفيما يلى تكملة لما اختير من كلماته ونظراته مع بعض التعليق:-

١ ـ كل إنسان له أخطاءٌ وصفاتُ نقص أو عيوب لولاها ما وُجِدَتْ شخصيته وفرديته التى يمتاز بها، ومن أجل ذلك نأنس فى بعض الأحايين إلى أخطاء وعيوب أصدقائنا القدَماء، إذ لولاها محيت شخصيتهم وصاروا أناسًا آخرين. فإذا تخلص أصدقاؤنا منها مرة وافتقدناها فيهم أنكرناهم، وقد نشعر بقلق إذْ نشعر بغير المألوف منهم. والواقع إن هذا ليس فى الأصدقاء فحسب، فإن الحياة كلها مثل حجرة عُلقَت صور على جدرانها، فإذا أزيلت بعضها من مكانها ربما أحسسنا بقلق هو شبيه بقلق التشاؤم بالأمر غير المألوف، وكأن إزالتها من مكانها نذير بالموت والفناء.

٢ ـ إن الإنسان قلما يستطيع أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم، لأن كلامهم يمر خلال إحساساتهم وخوالج نفوسهم، ولو استطاع الإنسان أن يدرك مقدار إساءة الناس فهم قول غيرهم وتأويله حسب أهوائهم، لتجنب كثرة الكلام، كى يَسْلم عن عنت أو خطب.

٣ ـ إن الرجل المعجب بنفسه يظهر إعجابه بنفسه بوسائل كثيرة، وإذا منع من بعضها استحدث أخرى، فهو يظهره بضحكه أو ابتسامه أو سخره أو غير ذلك من الوسائل المتنوعة، ومهما كان الأمر الذى حرَّكه إلى الضحك أو الابتسام بعيداً عن موضوع إعجابه بنفسه، فإنه يُظْهر فى ضحكه أو ابتسامه أنه مسرور بنفسه راض عنها، معجب بها، والرجل الذَّكىُّ قد يرى أموراً كثيرة فى الحياة تستحق الضحك والسخر، ولكن الحكيم إذا تدبر مآسى الحياة ومشاقها وآلامها وعجز الإنسان فيها مهما كان قادراً إذا تدبر كل هذه الأمور، منع نفسه من السخر بقدر ما يستطيع منع نفسه.

٤ ـ مما يدلُّ على عجز الناس أن كثيراً منهم إذا واجههم الناس بعيوبهم يتحملون العقاب على تلك العيوب، ولكن إذا حاول محاول أن يرغمهم على مزايلتها ومباعدتها ضاقت صدورهم، فهم يفضلون أن يُعاقَبُوا، وأن يظلوا عليها

إذا لم يستطيعوا دفع الوصف بها أو دفع العقاب، وهذا يظهر فى حياة الصغار كما يظهر فى حياة الكبار.

٥ ـ من الغريب أنك تجد فى بعض الأحايين شبَّانًا يتفق أنك لاتكاد ترى فيهم موضع نقص يصلحهم، ولكن اندفاعهم مع دافع الشباب إلى مجاراة تيار الناس يجعلهم كالسفينة التى تتقاذفها الأمواج، فهذا الدافع هو أخوف ما يخاف عليهم، ولاسيما أن الشباب مندفع بطبعه، وأنه بالرغم من مظاهر ثقته بنفسه كثيرًا ما يخفى تحتها قلة الثقة ببصيرته التى لم تكتسب بعد من تجارب الحياة، فينقاد لتيار الناس ولعدوى خصالهم وأعمالهم بسبب ذلك.

٦ ـ من الناس من لا تتفق طباعه وأية بيئة أو مكانة، ومن أجل ذلك ينشأ ذلك الصراع المخيف فى النفس الذى يضيع الحياة سدًى، ويقضى على مسرَّاتها، ولا يقتضى اتفاق المرء والبيئة أن ينقاد ذلك الانقياد الجارف الذى حُذِّر منه فى النظرة السابقة.

٧ ـ ليس من السهل أن نصيب العدل فى قَدْرِ فضل الساعة التى نحن فيها، فإذا كانت خيرًا أوجبت فرضًا، وإذا كانت شرا حملتنا ثقلاً وهما، وإذا كانت لاخيراً ولا شرا كانت مللاً وسأمًا، والنفس تميل إلى دفع كل هذه الأمور عنها وإبعادها حبا للراحة، وخلاصًا من المشقة فى الحالات الثلاثة إلاَّ من شذَّ فى النفوس غير المسوقة بمبدأ أو وهم أو إيمان أو إحساس شديد.

٨ ـ إن الحق والباطل ينبعان من منبع واحد فى النفس، وكثيراً ما يكونان متصلين فيها اتصالاً قليلاً أو كثيراً. ومن أجل ذلك ينبغى الحذر إذا أردنا محو الباطل من محو الحق معه.

٩ ـ مما يدعو إلى الأسى أن الناس يزهدون فى الحق لا لأمرٍ إلاَّ لأنه معروف مملول مألوف، والألفة تبعث الملل، وهم لايفطنون إلى أنه بالرغم من أنه معروف، لايستطيعون تطبيقه فى الحياة وإنجاحه وتحقيقه، فهو يشق عليهم فى العمل وإن كان لايشق بعضه فى الفكر ـ ولعلَّ هذا أيضًا من بواعث الزهد فيه مادام يصعب ويكلف النفس ألـمًا ومشقَّة.

١٠ ـ إذا بدأ الإنسان يعمل قيد ضميره بالعمل وضروراته، أما إذا تريث وجعل يفكر فإنه يعطى لضميره فرصة لاستعادة حريته ـ هذا إلاَّ إذا كان التفكير فى تهيئة الأعذار التى تسوغ عمله، فمثل هذا التفكير لايعطى ضميره حريته.

١١ ـ إذا أصغيت إلى إنسان، فإنه قد يكون مخطئًا مخدوعًا، وإذا أصغيت إلى أناس كثيرين، فإنهم كذلك قد يكونون مخطئين مخدوعين. ومع ذلك فإن كثرتهم قد توهمك أنك أصبت الصواب فى قولهم، وأكثر الناس يحكمون بضغط حكم من حولهم من الناس من غير فحص وتقدير لذلك الحكم، بل إنه مهما حاول الإنسان التخلص من أثر قول من حوله وحكمهم يجد مشقة أو استحالة.

١٢ ـ إذا استحسن الناس مبدأ أو رأيًا فى الحياة واعتنقوه لاتلبث محاسنه مع مضى الزمن أن تزول. وتظهر وتعظم أضراره ومفاسده من سوءِ الأخذ به، فإذا استفحل ذلك حاول الناس القضاء عليه، ولكن عندما يقضون عليه يقضون على النظام الذى لاتستقيم حياتهم إلاَّ به، فتعم الفوضى حتى يضطروا إلى إعادة النظام على أساس جديد أو على الأساس القديم ممزوجًا بقليل من التجميل والتحسين. وعلى ذلك فالجهد الذى يبذل فى سبيل التغير والإصلاح، أكثر من التغير والإصلاح إذا نظرنا إلى حقيقة الأمر لا إلى المسميات.

١٣ ـ معرفة الخطأ أسهل من الوصول إلى الصواب، فليس كل معرفة للخطأ تؤدى إلى الصواب، فإن الخطأ يوجد على سطح الأمور، أما الصواب المجهول فلا يستطيع كل إنسان البحث عنه. ومع ذلك فإنه بعد تعذُّر معرفته إذا عرفه الإنسان كانت له فجأة الأمر المتوقع، وبغتة الأمر المعروف المنسى، مع أنه لم يكن معروفاً ولا منسيا.

١٤ ـ إن محاولتنا أن نضع أنفسنا موضع الرجل الذى يخدع نفسه بأنصاف الحقائق وأجزائها، أشقُّ على العقل والنفس من فهم الرجل الذى كل فكره خطأ.

١٥ ـ إذا كان الفكر والمشاهدة مصحوبين بالرغبة فى اعتقاد السوء، صرفتهما تلك الرغبة عن تَبيُّن أعماق الحياة فلا يصلان إلاَّ إلى سطح الأمور. وهو أمر

صحيح فى العلم، كما هو صحيح فى الأدب، فما استطاع الشاعر العالمى (شكسبير) مثلاً أن يفصح عن حقائق نفوس من يصف من الناس حتى حقائق صفات الأشرار منهم، الاَّ بأن يضع نفسه مكانهم كى ينظر إليهم بالعطف، فيستطيع أن يستخلص حقائق نفوسهم، وهو قلما يشذ فى ذلك إلاَّ فى قصصه الأقل جودة.

١٦ ـ إننا نستطيع أن نُغْفِل مناقضة لنا من غيرنا، أما إذا أتت المناقضة لنا من أنفسنا وألحَّت، كان كل ما نستطيع عمله أن نصحح تلك المناقضة أو أن نصحح نفوسنا، ولما كان تصحيح ميل النفوس أمرًا عسيرًا، فإن النفس تحتاط حتى لاتتقحَّم عليها مناقضة لها من نفسها، وللنفس وسائل عديدة فى هذه الاحتياط.

١٧ ـ ربما أصابت المصائب العامة أو الخاصة إنسانًا قويا، فلايكون وقعها أشد ولا أثرها أعظم من وقع المذْراة وأثرها فى أعواد حبات الحنطة، فإنها تنزع الحبات، ولكن تلك الحبات لايهمها أتعود فتزرع كى تستبعث محصولاً جديداً أم تؤخذ فتطحن فتصير غذاءً وقوامًا. وكذلك ما تستبعثه المصائب من الرجل القوى العاقل الرشيد من الأعمال والأقوال تكون دائمًا صلاحًا لنفسه، يستدرك به فارط أمره أو صلاحًا للناس. وبعكس ذلك ما تستبعثه من الرجل الأخرق أو الضعيف، وهذا مثل أعلى قلما يصيبه إنسان، ولكنه إذا كان دائمًا نصب عينيه، ربما أصاب بعضه إذا كانت نفسه مؤاتية له.

١٨ ـ إننا نرتاح للأمور الوسطى، ونقبل على من كانت ملكاته فى حدودها؛ لأننا نأنس بمخالطة من هو أقرب إلينا منزلة وشبهًا، وبمعاشرة من يشاكلنا ولا يكلفنا مشقة الارتفاع فوق الأمور الوسطى. وهذا من أسباب رواج شأن أصحابها.

١٩ ـ إن الكفاح بين القديم الموجود، وبين الإصلاح والتجديد، كفاح دائب أبداً. وكل نظام إذا اعتوره الفساد دَفَعَ قهراً إلى ضده. وهذا مشاهد فى الأدب كما هو مشاهد فى الحياة عامة، مثل النزاع بين أصحاب نظرية امتلاك الضياع الكبيرة، وأنصار نظرية تأميم الأرض، أو الكفاح بين أنصار نظرية حرية التجارة

وأنصار حماية المنتجات المحلية. وهذا الكفاح على تعدد مظاهره كفاح معروف من قديم الزمن.

٢٠ ـ الحرية المطلقة أمرٌ غير مرغوب فيه، فلاعيش ولا صلاح للناس معها؛ لأن الناس إذا تحرروا من كل القيود تحرروا أيضًا مما يمنعهم من الخطأ، ومما يردعهم عن الشرور ـ وهم إذا طلبوا الحرية المطلقة، إنما يطلبون نظامًا جديداً وقيوداً جديدة ولا يعرفون خطر طلب الحرية المطلقة إلا بعد أن يُكوَوْا بنارها، ويَصْطَلوا الويل منها، وبعد أن يمعنوا فى الأخطاء الناشئة من الإفراط أو التفريط.

٢١ ـ السعيد هو الذى يعمل ليخلو من هم الحياة وقلقها. فإذا لم يُؤدِّ العمل لجمع المال إلى الهم والقلق كان من عمل السعيد. أما إذا أدَّى إلى الهم والقلق لم يكن العمل لجمع المال طريق السعادة، بل طريق الشقاء، فليست الثروة أن تكون ذا مال كثير، بل الثروة أن تخلو نفسك من توقع الحاجة، ومن خشية الفقر، فمن استطاع أن يخلى نفسه من هذه الخشية لم يكن فقيراً وإذا لم يستطع كان فقيراً.

٢٢ ـ كل عمل يراه الرجل الضيق الذهن حرفة أو صنعة أو مهنة، يراه الرجل العظيم فنا جميلاً، فمهما كان خادمًا لحرفته أو صنعته ملتزمًا لها، فهو خادم لفن جميل ومثل هذه الخدمة واجبة على كل إنسان، سواءٌ أكان كبيرًا أم كان صغيراً فى مقامه ومرتبته. وإذا عمل الإنسان عملاً واحداً بصدقٍ وإتقان، كان عمله مرآة يرى فيها صورة كل مايمكن عمله بصدق وإتقان.

٢٣ ـ لكل إنسان عمل يشبه طبعه وطريقته، فإذا حاول الإنسان أن يعمل ماليس فى طبعه ونفسه أخَلَّ ولم يُحسن، ولا ينبغى أن يُطْلَبَ من الرجل عمل مالا يشبه طبعه ونفسه، لقد طلب منى أُناس أن أنظم قصائد إثارة البغض، فكيف أصنع ذلك وليس البغض من طبعى.

٢٤ ـ لاشىء يدعو إلى التزام جادَّة الفهم المشترك فيه بين الناس مثل العيش كما يعيش الناس، والتزام ما يلتزمونه، ولا شىء أدعى إلى مايشبه الجنون من الشذوذ عن الحياة العامة التى يحياها الناس، ومن الخروج على فروضها ونظمها.

٢٥ ـ التجارب والخبرة لاحدَّ لها، أما النظريات فإنها محدودة بحدود العقل؛ ومن أجل ذلك كثيرًا ما يعود الناس إلى نظرية بعد نبذها وتركها إذا ازدادوا خبرةً وتجاربَ.

٢٦ ـ إن أغلاط المرء فى الحياة قد تكلفه عناءً كثيرًا، وتوقع به ضررًا بالغًا، ومع ذلك لايستطيع أن يثق أنها استنفدت كل عواقبها، فإنها قد تكون لها عواقب قصيَّات تطارده بعد أن يظن أنه قد عوقب عليها عقابًا كافيًا ـ ومع ذلك فالشبان خاصة يندفعون إلى أمثال تلك الأغلاط، ولا يعرفون ماهو مخبأ لهم، كما قد لايعرف ذلك الكبار.

٢٧ ـ فى الفكر كما فى العمل ينبغى معرفة حدود ما يستطاع الوصول إليه كى لاتضيع جهود المرء سدًى، ومع ذلك ينبغى أن يثابر المرء على اعتقاد إمكان فهم المجهود الذى لايستطيع فهمه، وإلاَّ قَصَّرَ فى أمور كثيرة فى بحثه، وكان من الجائز أن يصل بذلك البحث إلى كشوف كثيرة ما كان يتوقعها.

٢٨ ـ إنك إذا أردت من إنسان أداء واجبات ومنعت عنه مزايا يستحقها لأدائها، فاعلم أنك ستدفع ثمنًا غاليًا لهذه الخطة، ولا تحسبنَّ أنك اقتصدت، والناس إذا أرادوا الغبن قالوا: لاشكر على واجب.

٢٩ ـ إن الذين عاشروا الأطفال يعرفون أنه إذا زاد التأثير عليهم عن حدّ معين لايخفق هذا التأثير فى إحداث رد فعل يؤدى إلى مخالفة وعناء. ومن أجل ذلك كانت حياة الصغار مملوءَة بالتسرع فى الحكم على الأمور بأحكام غير ناصحة، ولابدَّ أن يمضى زمن حتى يستطيع المدرس أن يصحح أثر هذا التسرع وهذا العناء ـ والمدرس الفَطِن هو الذى يستطيع أن يعرف حد السيطرة الذى يؤدى بعده التأثير إلى المخالفة والعناد. ويعجبنى خطة بعض المدارس الإنجليزية التى تكل أكثر أمور التلاميذ إلى التلاميذ أنفسهم، حتى خصوماتهم وحتى حفظ النظام، فينشأ التلميذ وهو يشعر بالمسئولية، كما أنه لايُحسُّ تلك السيطرة القاهرة التى تؤدى إلى العناد.

٣٠ ـ إذا أراد الإنسان أن يركن إلى خبرة غيره، ينبغى أن يتذكر أن ذلك الأمر المُختَبَر قد أصبح بينه وبينه حاجزان: حاجز نفسه وحواسه، وحاجز نفس من يركن إلى اختباره، وقد تتغير الحقائق من إحدى الناحيتين.

٣١ ـ إذا فقد الإنسان الفهم الأساسى العام ظنّ أن كل ما يشتهيه أمر ضرورى، وأن كل ما يسره أمرٌ نافع، فيقيس الأمور بمقياس باطل.

٣٢ ـ لايستطيع الإنسان أن يعيش من غير سلطة مسيطرة على حياته، ومع ذلك فإن هذه السلطة فيها من الخطأ قدر ما فيها من الصواب والحق. فإنها تحافظ على أمور كثيرة ينبغى أن تزول، وتسمح بزوال أمور كثيرة ينبغى أن تصان، فهى سبب عدم تقدم الإنسان.

٣٣ ـ بعض الناس يكونون على جانب كبير من النبل والشرف والصدق لولا أنهم ذكروا مرة أمرًا مكذوبًا أو باطلاً، ثم أرادوا أن يسوغوا أنفسهم ويعذروها بأن يعيدوا ذكره مراراً كى يصدقه الناس فتتدلّى بهم هذه الغريزة بدل أن تزكيهم وترفع من شأنهم.

٣٤ ـ لايمتاز الإنسان بالفضل على خصومه، إذا لم يستطع بالفضل معرفة فضلهم، والإنسان لايستطيع أن يشغل نفسه بكل إنسان، ولا أن يعيش مع كل إنسان، فينبغى إذاً أن يعزّ أصدقاءه، وألا يكره وألا يضطهد أعداءه، أو من وضعهم موضع الخصوم.

٣٥ ـ قبل الثورة كان كل أمر مجهوداً يُطلب من الناس أداؤه، وبعدها عاد كل أمر مطلبًا للناس يطلبونه، وهذا يذكرنى نقد (مازينى) للثورة الفرنسية إذْ قال: إنها جعلت الناس تنظر إلى حقوقهم، وإلى طلب تلك الحقوق، وصرفت الناس عن واجباتهم ـ وربما كان فى هذا القول مبالغة، إلاّ إذا أريد أن يكون تقديم الواجبات مبدأ عاما.

٣٦ ـ المخدوع بقول غيره أو علمهم إنما كان مخدوعًا، لأن فى نفسه صفات مكّنت المخادع منه، فالمخدوع إذًا هو الذى خدع نفسه بسبب ذلك.

٣٧ ـ الحصاد أشق من نثر البذر فى الزراعة، وكذلك فى الحياة تزداد المشاق كلما قارب الإنسان مقصده الذى يسعى إليه، وكذلك فى الفنون كلما ألم بها الإنسان وتفقَّه فيها، عرف صعوباتها. وأما المبتدئ فيها غير الممارس لها، فهو أكثر اغترارًا بها وبالقدرة على التبريز فيها.

٣٨ ـ السعادة هى الاستسلام لإرادة الله، فَنَتَقَبَّل كل ما يصيبنا كأنه ناشئ من إرادتنا.

٣٩ ـ مهما حَرَّرَ الفن النفوس، فإن أساسه عقيدة وإيمان، ومهما خالطه من الفكاهة فإن أساسه الجد.

* * *

تتمة نظرات جوتا[1]

-١٨-

تنقسم حياة جوهان ولفجانج فون جوتا إلى عهود: أولاً عهد العاصفة والشدة وهو عهد الاندفاع مع العاطفة والاستسلام للخيال، وفيه ألَّف (جوتا) و(ورتر). ولو أنه لم يكن مستسلمًا كل الاستسلام كما سيتضح من تفسير (هِتنَرْ) بالنون و(دودن) لمعنى مؤلفاته فى ذلك العهد. ثم يأتى عهد رحلته إلى إيطاليا ومكثه فيها وقد أكسبته الآثار القديمة ميلاً إلى المذهب الكلاسيكى وزادت الأثر الذى كان قد اقتبسه بقراءة كتب القدماء. وبعد عودته بدأت صداقته لشيلر الشاعر، وكان شيلر أشد ميلاً إلى التعبير عن الجانب الثائر من النفس البشرية كما فى قصة (وليام تل) و (اللصوص) و (دون كارلوس) و (عذراء أورليان) وهذا مذهب خلفه جوتا بعد تأليف (جوتز) و (أحزان ورتر) كما أن فى قصص شيلر أناسًا وصفهم بصفات الكمال الإنسانى بينما أناس قصص جوتا يتعثرون فى أخطائهم ويتعلمون منها ومع ذلك كان جوتا متزنًا فلم يحاول إطفاء ثورة النفس على مفاسد الحياة ونظمها. ولكنه مع ذلك كان يدعو إلى تطهير النفس أولاً من شوائب الأحقاد والأثرة قبل حمل شعلة الحرية المقدسة. وكذلك كان يفضل العمل المتدرج ويرى أنه أنفع من الطفرة التى تؤدى إلى التراجع والتقاعس والتقهقر والانتكاس.

ولعلَّ اتزانه هذا سبب نقد الأحزاب المتطرفة له. وفى كلماته نجده يحاول إبراز الحق الذى فى الآراء المتناقضة، ويرى أن من الحكمة ألا يهمل الحق الذى يخالط الباطل، وهذا من شدة إعزازه للحق وصيانته له من الضياع فى أى جانب

(١) المقتطف : أول ديسمبر سنة ١٩٤٩.

كان بينما كان غيره إذا أراد محو باطل لايصون الحق الذى يمارجه. ومن أجل هذه الصفة فيه قد يخال أنه يتردد بين النقيضين ولاتردد له. ولعلّ هتنر (بالنون) هو الناقد الذى فسره أحسن تفسير وتابعه إدوارد دودن. ومن تفسيرهما نرى أن ورتر فى قصة (أحزان ورتر) يمثل الشاب الذى يعالج إحساساً شديداً لايؤدى إلى عمل نافع ثم هو يطلب المحال ويسوقه الخيال، وكل هذه صفات مرض ونقص تؤدى إلى الهلاك كما أدت إلى هلاك ورتر. فهو لم يصف ورتر كى يكون بطلاً يحتذى بل وصفه للعظة والاعتبار وتجنب صفات نقصه. ولكن كثيراً من الشبان تشبهوا به فهلكوا. ولعلّ سبب تشبههم به أن جوتا يكسو أخطاء الشاب ورتر وعيوبه جمال فنه وهو لو لم يكسه لأخطأ، لأن أخطاء الشباب وعيوبها مكسوة بطبيعتها جمال روح الشباب وهو جمال فنى.

وفى قصة (ولهلم مايستر) يتدرج الشاب ولهلم من الانقياد للخيال الكاذب والعاطفة الخرقاء وهما يستهويانه مرة بعد مرة. فيكون عمله وخلقه غير مطابقين لمقاصده فيتدرج بالتعلم من أخطائه وعيوبه إلى العمل الصحيح المنتج وإلى فهم الأمور على حقيقتها بعد تضليل الخيال له تضليلاً طويلاً قد يضل معه القارئ إذا كان شابا، وقد يستهويه ذلك الضلال، ولكن جوتا لا يريد للشاب أن يتعلم كما تعلم ولهلم مايستر من عيوبه وأخطائه؛ إذ أن هذا يكلفه من الجهد والوقت ماهو أنفس وأطول من أن يضيع هكذا. ومن أجل ذلك رسم خطة للتعليم تجنب الشبان مثل أخطاء ولهلم.

وكذلك نرى فى قصة (تاسو) الرجل الذى يستعبده الخيال ويكاد يهلكه لولا أن له صديقًا ينجيه. أما فى قصة فوست فنرى فوست الذى استفحلت فيه روح التملك والسيطرة حتى تملك حبيبته وهو غير مالك لنفسه ولا مسيطر عليه وكاد يذهب ضحية الإغواء لولا أنه ارتدع واتعظ وعصى إبليس (مفستو فيليس) فى اللحظة الأخيرة، وبذلك نجا ولم يرد جوتا للناس أن ينقادوا لحب السيطرة كما انقاد فوست فى أكثر حياته (ولو أنه عرضه عرضًا فنيا مغريًا) بل هو يرى أن لانجاة للعالم والأمم إلاّ بأن يتعلم الآحاد والأمم ضبط النفس والقضاء على عاطفة حب التملك والتحكم.

وهكذا نجد لكل قصة من قصصه درسًا وموعظة. ويخطئ من يستهويه جمال الفن فلا يبحث عن الفكرة الفلسفية والمغزى المراد.

* * *

وبالرغم من هذه الثقافة العالية فقد اختلف النقاد فيه. فمنهم من أسقطه، ومنهم، وهم الكثرة، من رفعه إلى السماء سماء الفن والثقافة: قال (بورن): «لقد فضل جوتا الدعة والراحة على البطولة والآلام. ولكن الأبطال لاتردهم الآلام عن نصر الحرية ونقد مفاسد الحكومات والانتصار لشعوبهم كما فعل مونتسكيو وفولتير وروسو التعس الفقير المريض الذى عاش بالرغم من ذلك حر الرأى، وملتون الذى لم يمنعه قرض الشعر من محاربة الاستبداد».

وقال منزل: «إن كل مؤلفات جوتا إنما هو عرض لشخصيته فى أحسن وضع فنى. فالرجل مع خصوبة ذهنه وخياله ماكان يهمه غير نفسه وإشباعها من كل إحساس بمظاهر الجمال. وقد كان هم جوتا بدل تحرير العقل الألمانى أن يحمِّل عقله وعقل قومه نير كل ثقافة، وأن يداعب حضارة كل أمة تحت الشمس مداعبة الممثل الذى همه الترف واللذات والأثرة».

وقال جان بول رختر: «عندما أردت أن أزور جوتا قيل لى: إنه الآن لايعجب بشىء ولايستحسن شيئًا وحتى نفسه التى كان يعجب بها أصبح لايعجب بها، فسألت صديقًا لى أن يحولنى إلى حفرية متحجرة أقدمها له لعلَّ غرابة شكلها تستدعى تنبهه لها. وفى أثناء الحديث ظلَّ ساكتًا إلى أن جاء حديث الفنون فقرأ لنا قصيدة له لم تنشر. وكنت أشعر أن صوته يحاول أن يدفع بحرارة قلبه كى تخترق غشاء الثلج المتجمد فوقه» وهذا الجمود ضد ما وصفه به جليم فى شبابه.

وقال كارليل: «إن عصرًا جديد، ذلك العصر الذى يظهر فيه رجل حكيم عاقل يستوعب ويحمل عيوب عصره ويتغلب عليها ويشق لنفسه طريقًا فى اتجاه طريق كان لايمكن اختراقهما، وهذا هو ما صنع جوتا، ومؤلفاته هى مرآة عصره الذى وصفه وأوضحه وفسره».

وقال نيبوهر: «إن الألمان الآن يسمعون اسم جوتا بخشوع وإعجاب كما كان قدماء الإغريق يسمعون اسم هومر. وجوتا قد بلغ فى قومه منزلة لم يبلغها أحد غيره. وبسبب مؤلفاته صارت الأمم الأخرى تهتم للأدب الألمانى وتحترمه».

وقال أمرسون: «ليس فى العالم شىء لم يهتم جوتا بدراسته وتفهُّمه، فهو مقرر يسجل كل أمر وظاهرة. وقد وصل فى بحثه إلى حدود المجهول. ثم خطا خطوة وراءها وعاد سليماً، كما كان قدماء الإغريق يقولون إن الإسكندر المقدونى وصل فى فتوحه إلى حدود العالم ثم خطا خطوة وراءَها».

* * *

وفيما يلى تتمة لما اختير من كلماته مع بعض التعليق عليها:

١ ـ مهما كانت حياة الإنسان حياة معتادة مألوفة ومهما كانت النفس راضية بهذه الحياة فإن فى النفس نزوعًا خفيا إلى مطالب أسمى ونزعات أرفع وأملأ للنفس من تلك الحياة المألوفة المعتادة. والنفس تبحث حولها عن وسائل تدنى بها تلك المطالب وترضى بها تلك النزعات ـ وقول جوتا هذا يذكرنى بقصة جون بوكان التى عنوانها (ملوك اوريون) وهو يتخيل فيها أن ملوك ذلك العالم الموصوف قد حكم عليهم أن يهبطوا إلى هذا العالم الأرضى، وأن تعيش نفس كل ملك فى نفس إنسان من السوقة: وقد ذكر فى المثل القديم أن نفس كل إنسان تجمع بين قرد وأسد. وفى قصة جون بوكان ترضى النفس بالحياة المعتادة المألوفة حتى إذا تحركت نفس الملك التى فيها نزعت إلى مطالب عالية وأظهرت وسائل وملكات أسمى مما اعتادته.

٢ ـ كلما تعلم الإنسان درسًا هاما فى الحياة عاقه الفقر الروحى عن الاستفادة منه كل فائدة، ولكنه مع ذلك يكتسب ولو شيئًا قليلاً من الخبرة به. ولعلَّ هذا الفقر الروحى كما سماه جوتا، أو العجز الدائم كما سماه مينكين الناقد الأمريكى ـ هو سبب تخلف الإنسان عن مسايرة العلم، وسبب عدم الاستفادة منه أعظم فائدة كما وصف الأستاذ جوليان هوكسلى، وسبب اختلال حياة الناس

واعتزازهم بذلك الاختلال أو اعتزاز بعض المفكرين زاعمين أنه لو بطل الاختلال توقف نمو الإنسان الفكرى. وهذا من باب جعل الإنسان نقصه وعيبه محمدة وميزة. وهذه الصفة فى الإنسان قاعدة عامَّة سيكولوجية، كما أوضح جوتا فى مقال سابق أى تحويله نقصه إلى مبدأ محمود.

٣ ـ قد يخطئ من يظن أن شرف النفس يعوق صاحبه لطيبة قلبه عن إدراك مكر الخبثاء. ولكن اعتقاد المرء هذا الظن قد يدعوه إلى الاسترسال وقلة الحيطة، فينكشف أمره لدى شريف النفس، حتى ولو كانت آراؤه محدودة كما أن مخالفة عمل الماكر لما ألفته نفس الشريف النفس تطلعه أيضًا على احتيال الماكر الخبيث.

٤ ـ لايستطيع المرء أن يؤسس مثال كمال إلاَّ على أساس الأمور الواقعة الكائنة، لأن الإنسان لايستطيع أن يصل إلى الكمال غير المحدود إلاَّ عن طريق الأمر المحدود. وأما إذا حاول المرء تأسيس مثال الكمال على خياله غير المحدود لا على الأمور الواقعة المحدودة ضل سعيه واردهاه الخيال واستعبده الوهم.

٥ ـ القوة التى تدعو المرء إلى التحكم والأثرة هى القوة نفسها التى لو شاء دعته إلى أن يملأ حياته جمالاً وحرية وإخاء، فتعم العالم هذه الأمور. ولكن عليه أن يوجه تلك القوة فى نفسه إلى الجمال والحرية والإخاء توجيهًا مستأنفًا مستمرا مثابرًا عليه.

٦ ـ إن الشعور الشديد فى النفس إذا لم يُتَّخَذْ كقوة لأداء عمل نافع كان مرضًا وأدَّى إلى اختلال الحياة.

٧ ـ إن الخرافات جزء أصيل فى النفس الإنسانية، فإذا حاربناها فإنها تختفى حتى نظن أنها قد زالت. ولكنها تكمن فى خبايا النفس حتى تجد فرصة فتظهر(*).

(*) (هذه النظرية لاتطلق على جميع الناس، فهناك أشخاص قمعوا كل طرافة قمعًا أبديًا فلايمكن أن نجد فى أنفسهم فرصته لكى تظهر ـ المقتطف).

٨ ـ إن الرجل الذى يتعلم بالفطنة الحدود والقيود التى ينبغى أن يتقيد بها ثم يلتزمها مختاراً غير مقهور ـ يستطيع مع ذلك أن يصل إلى الحرية. أما الرجل الذى يُقْهَرُ على التزام تلك الحدود والقيود قهراً فإنه قلما يصل إلى الحرية، وهو إن وصل إليها وجد لها مرارة وألماً.

٩ ـ لاتنال أمة ملكة الحكم على الحقائق حكمًا صادقًا إلاَّ إذا استطاعت أن تحكم على نفسها حكمًا صادقًا، فالأمة التى تَتَهرَّب من الحكم على نفسها لاتستطيع الحكم على الحقائق حكمًا صادقًا. وهى لاتستطيع الحكم على نفسها إلا بعد مراحل من الثقافة والنضج والوعى الصادق.

١٠ ـ إن مقاومة الحقائق الفكرية مثل تحريك النار إنما تُطير منها ماهو شبيه بالشرر فتشتعل النار فيما لم تشتعل فيه من قبل. فالعنف ليس السبيل لمحاربة الرأى، لأنه يعدّ عجزًا عن محاربته بالحجة.

١١ ـ ليس النجاح فى الحياة فى معرفة النفوس البشرية، بل أن تكون أكبر لباقة ومهارة فى وقت معين من منافسك الذى هو أمامك يواجهك. فربما كنت خبيرًا بالنفوس، ولكن لاتستطيع أن تنتفع بخبرتك.

١٢ ـ من الصعب أن يعرف الناس بعضهم بعضًا حتى ولو كان داعيهم إلى ذلك العرفان أحسن الميول وأسمى المقاصد، فكيف بهم إذا تملكتهم إرادة الشر كما يحدث فى كثير من الأحوال عند الحكم على الناس. وهذا كما قال رومان رولان: «إن كل إنسان لغز يصعب حله، سواء أكان يحاول حل لغز نفسه أم لغز نفس غيره، ومع ذلك فلايستطيع الناس أن يمتنعوا عن الحكم على الأنفس والأخلاق؛ إذ أن هذا الحكم جزء ضرورى من الحياة.

***

تتمة نظرات جوتا[1]

ـ ١٩ ـ

نشرنا فى العدد السابق جملة من هذه النظرات العميقة، بقيت نظرات حارَّة فى غرور الإنسان وارتكابه الأغلاط بسبب هذا الغرور.

١٣ـ من أشد أغلاط الشبان حمقًا ظنهم أنهم يفقدون أصالة الرأى وميزة الابتكار إذا اعترفوا بحقيقة اعترف بها الناس قبلهم فيحاولون ابتكار شىء جديد حتى ولو كان مناقضًا للحقيقة ومخالفًا لها.

١٤ ـ الكفر بالنعمة وإنكار المعروف والجميل المصنوع نوع من العجز والضعف، وما رأيت قط رجلاً قادرًا يكفر بالنعمة وينكر الجميل إلاَّ إذا كان فى نفسه جانب ضعف خفى.

١٥ ـ ليست التقوى غاية، وإنما هى وسيلة إلى الثقافة النفسية، والذين يتخذونها غاية لا وسيلة يتنهون إما إلى مخادعة أنفسهم وإما إلى مخادعة الناس، ولعله يعنى بالتقوى التى هى غاية مظاهر التقوى التى تخلو من الصفاء الروحى وطيب السجايا.

١٦ ـ ليس أساس الصداقة الحب، بل أساسها الاتفاق فى المقاصد والأغراض مهما كان اختلاف الوسائل وحالات الحياة. قال جوتا ذلك فى الصداقة بينه وبين شيلر وكانا ينشدان الحق والجمال على اختلاف وسائلهما.

---

(١) المقتطف، يناير سنة ١٩٥٠.

١٧ ـ كما ينبغى للمرء أن يحذر كل الحذر من العناد والإصرار على الأخذ برأى نفسه ونظره إلى الأمور. كذلك ينبغى أن يحذر من عجزه إذا حاول التخلص من هذه الحالة والأخذ برأى غيره.

١٨ ـ كل أمر يحدث يحاول أن يشغل مكانًا لنفسه، ومن أجل ذلك يدفع أمرًا آخر عن مكانه ويقلل مدَّة بقائه، فالأمور بينها تنازع كتنازع الناس البقاء!!

١٩ ـ الرجال والشيوخ أميلُ إلى استنتاج القاعدة العامة وإلى تفضيلها. أما النساء فهم مثل الشبان أميل إلى الشواهد الشاذَّة عن القاعدة ـ على أن كل إنسان يميل أحيانًا إلى تطبيق القاعدة من غير نظر إلى الأحوال الخاصة الاستثنائية، كما يميل أحيانًا إلى خلق حالة استثنائية لاوجود لها.

٢٠ ـ لـمَّا كان الخطأ يعاد فى العمل ويتردَّد كان من الواجب أن نعيد ذكر الصواب والحق مهما كانا معروفين. ومن الخطأ أن نهمل ذكرهما اعتمادًا على أنهما معروفان مألوفان. وهذا يصدق فى التعليم كما يصدق فى الحياة الخاصة أو العامة.

٢١ ـ ربما استطاع المرء مقاومة مضايقة الحوادث اليومية بذكر حوادث تاريخ الجماعات الإنسانية فى العصور العالمية وما كان بها من كوارث يتأسَّى بها.

٢٢ ـ إن أدب اللغة المكتوب المتوارث هو جزءٌ ضئيل مما قيل وما صنع فى حياة الناس. ومع ذلك نرى فى كتب الأدب أمورًا وقصصًا وأقوالاً وأحوالاً وآراءً وأعمالاً وأحاسيس معادة مكررَّة. وهذا يدل على أن عقل الإنسان ومآله محدودان.

٢٣ ـ أحسن الحكومات هى التى تعلم المحكومين حكم أنفسهم بأنفسهم.

٢٤ ـ قد يكون خلوُّ المرء من الخطأ سببه أنه لايعتزم عمل أى أمر معقول، فهذا الخلوُّ من الخطأ ليس فضلاً له بل هو قصور.

٢٥ ـ أحسن الجماعات هى التى يكون حديثها تعليمًا وسكوتها تهذيبًا.

٢٦ ـ إذا استأنف إنسان حكم أهل عصره ولجأ إلى ما يتوقع من حكم الأجيال القادمة دلَّ ذلك على شعور واضح منه بأن فى حياة الإنسان حقا خالدًا إذا لم يظهر لأول وهلة فإنه سيظهر فى المقبل من الدهر، ويحوّل القلّة إلى كثرة. وقول جوتا هذا صحيح، ولكن هذا الشعور قد يكون مؤسسًا على غرور الثقة بنفسه أو غرور الثقة بالناس.

٢٧ ـ عند المحاجَّة ينبغى الحذر من أن تنقلب إلى كره ومقت كما يصنع بعض العلماء عند تفنيد كل منهم رأى مناظره. فإن شعورهم بكره رأى المناظر يتحوَّل إلى شعور بكره صاحب الرأى حتى كأنه عدوٌ لدود. وقد يكون قول جوتا هذا صحيحًا، إلاَّ أن هذا التحول أكثر ما يكون بسبب الأثرة وحب الاستعلاء والغرور وطلب الظهور، وهى صفات كثيراً ما تكون فى نفوس العلماء وتظهر عند البحث النظرى، والشعور بكره الرأى إنما كان لأنه يخالف رأى كارهه، فقد ذكر جوتا فى مقال سابق أن الإنسان قلما يهمه انتصار الحق إلا إذا كان انتصاره يزكى ويعزز رايه.

٢٨ ـ كما أن روما القديمة كان بها عدا سكانها من الأحياء سكان من التماثيل المنصوبة فى كل مكان، كذلك هذه الدنيا بها فضلاً عن الحقائق دنيا من الأوهام أشد أثرًا فى النفوس، وأكثر الناس إنما يعيشون فى دنيا الأوهام التى فى الدنيا وهم يحسبون أنهم يعيشون بنفوسهم وقلوبهم وعقولهم فى عالم الحقائق.

٢٩ ـ لقد شبَّه ثوار الثورة الفرنسية بالمجانين، ولكن أفواه المجانين قد تنطق بالحق حين يخشى المستذلون النطق به. وبالرغم من ذلك فقد حَذَّر جوتا الألمان من الاقتداء بالثورة الفرنسية كما نصح الأمراء بالإصلاح.

٣٠ ـ يكثر شكُّ المرء كلما اتسع نطاق مايطلق من المعرفة فلا يصح أن يقال عن رجل إنه يعرف شيئاً إلاَّ إذا كان ما يعرفهُ أمرًا محدودًا معينًا فإذا انتفى التعيين والتحديد انتفى العرفان.

٣١ ـ قد ظللت أشغل نفسى وأعَنِّيها بالنظريات العامَّة حتى فطنت إلى النجاح العظيم الذى يستطيعه أهل الفضل إذا عملوا فى اتجاه واحد محدود بدل توزيع جهودهم على مطالب متعددة.

٣٢ ـ كنت من عهد الصغر أشجع بشغف وعبث الملكات المشكوك فيها، وهذا خطأ لم أستطع التخلص منه إلى الآن، والظاهر إنه يقصد ملكات غيره، ولكنه ربما يصدق فى نفسه أيضًا لاتساع مطالب ثقافته وتنوعها تنوعًا باهظًا فادحًا.

٣٣ ـ لقد عاش الناس فى عهود التاريخ حتى فى بحثهم عن الجمال والحق تحت ظلال الحروب المتكررة؛ وذلك لأن الإنسان يأبى أن يحكم نفسه وهو مع ذلك يريد أن يحكم غيره. ولا نجاة للناس والأمم إلاَّ بأن يتعلم الإنسان ضبط النفس وحكمها بدل أن يحاول حكم غيره والسيطرة عليه.

وهذه الحكمة هى خلاصة قصة فوست وهى أنه مادام شَرَهُ التحكم والتملك دافعًا للنفس فلا نجاة ولا أمان فى العالم، بل تعتدى الأمة على الأمة ويعتدى الإنسان على الإنسان.

٣٤ ـ إن الشغف بالحق يتطلب منا أن نعرف حدود فكرنا، فإذا انتفى هذا الشغف حلَّ الخطأ، وهو يتملقنا ويفهمنا أن فكرنا غير محدود بحدود. ومن أجل ذلك كان الخطأ أقرب إلى طبيعة الإنسان من الحق؛ لأن الإنسان يميل إلى التخلص من الحدود.

٣٥ ـ ومن أجل أن آراءَنا محدودة نعتقد أننا دائمًا على صواب فيما نرى. وقد ترى رجلاً كبير العقل يخطئ ويجد مسرة فيما يخطئ فيه. وقد يستخدم ملكات عقله العظيمة فى الدفاع عن الخطأ.

٣٦ ـ المقاصد السامية أجدى على طالبها من المقاصد الأقل سموا وسموقًا حتى ولو تحققت الثانية ولم تتحقق الأولى.

٣٧ ـ ينبغى الحذر من أنصاف الحمقى وأنصاف العقلاء أكثر من الحذر من البُله ومن الذين كمل عقلهم؛ لأن الأصناف الأولى أكثر خطرًا. إذ أن البُلْه لبلاهتهم لايتقنون تدبير الشرّ، والذين كمل عقلهم يرون فى مطالب عقلهم وثقافتهم ماقد يترفع بهم عن تدبير الشر. ولا يراد بالبله طبعًا المجانين الذين يدفعهم دافع إجرامى.

٣٨ ـ حالنا فى قراءة الكتب مثل حالنا مع الأصدقاء الجُدُد، ففى أول الأمر إذا عرفنا إنسانًا يسرُّنا أن تكون هناك مشابهة وملاءمة عامة، وأن يكون هناك تأثير من الناحيتين فى أى جانب من جوانب الحياة. فإذا نضجت المعرفة واتصلت المخالطة ظهرت أوجه الاختلاف بين الصديقين. والمسلك المعقول لايكون بأن نسلك مسلك الأطفال فى إحجامهم ونفورهم وخصامهم، بل يكون بالاستمساك بما نتفق عليه ثم نفهم أسباب الاختلاف من غير إحجام ومن غير رغبة فى الموافقة من غير فهم واقتناع.

٣٩ ـ إننا لانستطيع معرفة الصفات الغالبة على إنسان بالنظر إليه فى البيئات التى يتكلف فيها العادات والأخلاق، كما يكون فى زياراته وفى الحفلات، وإنما نستطيع ذلك بدراسته فى بيئته الخاصة التى يرفع فيها التكلف والاحتجاز.

٤٠ ـ ليس التسامح هو غاية ما يراد من جميل الأخلاق والطباع، فالتسامح خطوة أولية ينبغى أن تسوق المتسامح إلى فهم ما يتسامح فيه وإلى العطف عليه بالفهم.

٤١ ـ إننا كلنا نعيش فى الماضى بأفكارنا وإحساساتنا، وهذا العيش فى الماضى إذا استشرى يؤدى إلى الهلاك؛ لأننا بهذا الاستشراء نصير عالة على الماضى فنعيش عليه.

* * *

تتمة نظرات جوتا

- ٢٠ -

نلخص الأمور التى أخذها عليه النقاد فنقول: إنهم أخذوا عليه ـ كما يقولون ـ أن نظرته إلى الجمال كانت نظرة إغريقية قديمة لانظرة مسيحية، وأنه كان فى اكتمال عمره وشيخوخته لايتبسَّط مع بعض زوّاره بل يبدى بعض الجفاء إذا لم يكن زائره ممن يتوقع أن يستفيذ منهم ثقافة، وأنه لم ينظم القصائد ولم يكتب المقالات لحث الألمان على قتال الفرنسيين. وزاد على ذلك أنه أخطأ فى قَدْرِ قوة نابليون، وأنه لم يمالئ الأحرار الألمان فى موقفهم من أمرائهم، وأن الثقافة كانت دائرة عنده حول تكميل الفرد فكان بها شىء من الأثرة. وتعجبنى صراحة هنرى هينى الشاعر الألمانى الذى نقد جوتا كما شاء، ثم اعترف أن شدته فى نقده إنما كانت لأنه حسده عظمته، وربما ظلم هينى نفسه بعض الظلم فى هذا القول، فإن مزاج هينى الثائر على كل شىء ما كان يستطيع أن يقدر اتزان جوتا حيث يتزن، وبعد أن كان ينسبه إلى البرودة وجفاء القول فى شعره عاد يقول: إن أغانيه الشعرية أحسن وأعظم الأغانى، وهو فيها أعفُّ قلمًا ولسانًا من غيره. وأما موقفه من الفرنسيين فإنه لم يؤجر لهم قلمه ولسانه ولا أجَّرَه لغيرهم من الأحزاب والطوائف، وقد رفض ما اقترحه عليه نابليون أن يجعل باريس مستقرَّه، ولم تكن ألمانيا فى عهده إلاَّ دويلات متنافرة، وقد أوشكت بروسيا أن تتفق ونابليون على أن يعطيها هانوفر ثم علمت أنه يخابر الحكومة الإنجليزية لإرجاعها إلى أسرتها، وكانت بافاريا، وسكسونيا، وورتمبرج، وبادن، وغيرها مع نابليون، ولم ينشق عنه أكثر أنصاره الألمان إلا بعد انهزامه فى موقعة ليبزك،

(١) المقتطف، فبراير سنة ١٩٥٠.

ويعترف كل الأدباء أن الأديب يستطيع أن يناصر الحرية من غير كتابة شعر أو نثر سياسى. وأما أن الثقافة عند جوتا كانت تدور حول تكميل الفرد وأن بها من أجل ذلك شيئًا من الأثَرَة فليس كل الأثرة من نوع واحد، والأثرة التى هى إيثار للثقافة أمرٌ مثمر منتج لم يستغن عنه مثقف. وأما الذين كانوا يريدون أن يُقبِلَ عليهم وهم يضيعون وقته الثمين ثم يشتكون إذا لم يفعل فقد قال فيهم جوتا: ـ إن أحمق اللصوص هم اللصوص الذين يسرقون وقتك واطمئنان بالك. ولا نريد تبرئته من كل عيب، وإنما نريد أن نظهر مافى نقد النقاد له من التحامل والمبالغة التى تغير الحقائق، والحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده، حتى ولو كان فى أقوالهم بعض الحق.

وفيما يلى تتمة لنظراته مع التعليق القليل على بعضها:

١ ـ لا دواء يستطيع أن تعالج به شعورك بامتياز غيرك إلاّ بالعطف والمودة لمن هو ممتاز عنك فبهما ترتفع إلى مرتبته، أما الحسد والحقد فإنهما لا يعالجان امتيازه عليك، بل بهما تزداد انحطاطًا، ولا يستطيع أن يدرك مظاهر العظمة وصفاتها فى الناس إلا من كان على صفة من صفات العظمة.

٢ ـ إنى أشفق على الذين يصخبون ويحزنون بسبب فناء كل الأمور ويسترسلون فى تأمُّل يجعل الحياة عبثًا وغرورًا. فإننا ما خلقْنا إلاّ لكى نجعل الأمر الفانى خالدًا بأن نستخلص منه حقيقته وجماله، وهذا لايكون إلاّ إذا قَدَرْنا الحالتين حق قدرهما، والذى يستطيع أن يستخلص من الأمور الغانية جمالها وحقيقتها يستطيع أن يقول للساعة العابرة تريَّثى.

٣ ـ يظن المرء أنه إذا تكلم فإنه دائمًا يقول ما ينطبق تمام الانطباق على مايُحسُّ أو مايُلاحظ أو ما يُجرِّب أو مايتخيل أو ما يُفكر فيه، ولكنه إذا فحص الأمر وجد أن كلامه قلما ينطبق تمام الانطباق؛ إذ أن الكلمات التى ينطق بها المرء كثيرًا ماتكونِ الحاضرة التى هى عوضٌ عما لايؤاتى فهى من قبيل سدّ خانة. وفهم الإنسان وفكره كثيرًا مايكونان أحسن مما يعبر عنهما من الكلام.

٤ ـ إن الإنسان لايفعل دائمًا ما ينبغى أن يثابر عليه من محاولة إزالة مايعلق بذهنه أو بذهن غيره من الأفكار المخطئة، أو التى لامحل لها أو المقصرة عن الصواب بعض التقصير فيتركها عالقة بذهنه وهو لايعرف عاقبتها. والواجب المفروض عليه هو أن يثابر على محاولة محوها بأن يكون مقصده واضحًا صادقًا نبيلاً، وتركها عالقة يكون إما من الكسل أو قلة الاكتراث أو سوء النية.

٥ ـ كل مرحلة من مراحل العمر لها نظرة خاصة وفلسفة هى بها أشبه وإليها أحوج. فالطفل لحداثة عهده بالدنيا يتلمس الموجودات، ويتعرف الحقائق الكائنة، فنظرته إذًا واقعية (ريباليست) فإذا كبر وصار شابا ازداد عاطفة، وأملاً ونظرًا إلى المستقبل. ومن يزداد من هذه الأمور يكون مثاليا (ايديا ليست) فإذا اكتمل وصار رجلاً وجرَّب أمور الحياة وشك فى وسائله وتساءل هل هى تُنجح مقاصده ودبر وحزم أمره لذلك كان عمليا (براكتيكال) فإذا شاخ وهرم ورأى كيف أن الأمور كثيراً ما تأتى عفوًا، واتفاقًا وبالمصادفة، وأن الأحمق قد ينجح والعاقل الحازم يخيب، وأنه كثيراً مايكون الجيد والردىء إلى مصير واحد فعندئذ يرى الحياة لغزاً وسرا أى يصير (ميستيك) ولكن ليس معنى ذلك أن هذه النظرات منفصلة فى مراحل العمر انفصالاً تأما، بل كل منها تتعدى مرحلتها، وقد تجتمع فى مرحلة واحدة من العمر.

٦ ـ الشك العامل النشط المنتج هو الذى يحاول دائمًا أن يتغلب على نفسه، وأن يصل بالخبرة والتجارب إلى يقين محدود. وأن يكون هم صاحبه تطبيق ما وصل إليه بحثه وبرهانه فى الأمور العملية.

٧ ـ يوجد أناس كثيرون يخيل لهم أنهم يفهمون كل ما يلاقونه فى الحياة من تجارب، وإنما هم يقنعون أنفسهم بذلك كى يستريحوا، إذ الواقع أن فى الحياة ـ ولاسيما فى اختلاف أعمال الناس وأخلاقهم ـ مايحير.

٨ ـ إن الرجل المغرور المعجب بنفسه يطلب مدح الناس إياه، ولكنه لايطلب هذا المدح أو الإكرام أو الإعجاب لأعمال أو صفات مجيدة، وإنما يطلبه لشخصه مهما كانت صفاته وأعماله، وهذا الطلب ناشئ من شعوره بالنقص، فيُحبُّ أن

يستعيض عما نقص بالمدح والإكرام، ودافع النقص هذا قد يوجد حتى فى ذوى الكفايات والنبوغ الذين يجدون نقصًا فى أنفسهم.

٩ ـ إن السخاء والأريحية أنواع، ولكن أصدقها وأحسنها موقعًا وقبولاً السخاء الذى هو عطف التفاهم والتقدير والقدر المنصف.

١٠ ـ إننا لانستطيع أن نظل على خلاف مع من يتفق معنا فى الطباع والميول. ومهما طال الخلاف فمآله إلى الاتفاق. أما الذين يخالفوننا فى الطباع والميول فمآل الاتفاق معهم إلى الخلاف، وهذا يشبه قول (مارسل بروست): إن التدانى إنما يكون باتفاق الأمزجة والأذواق والميول، لا باتفاق الآراء والنظريات.

١١ ـ أكبر خطر على قومنا الألمان مجاراة جيرانهم ومحاكاة الأمم التى سبقتهم إلى الظهور والحضارة من غير اتعاظ بعبر التاريخ وعظاته. وأعظم ما يفيد الألمان أنهم لفتوا العالم إلى أنفسهم فى زمن متأخر بعد أمم كثيرة، أى أن الفائدة فى اتعاظهم بما فى حياة من سبقهم ـ وما فات جوتا مالفت النظر إليه فى مكان آخر من أن التجارب لاتكتسب بالتلقين، فكما أن الحياة تبدأ تجاربها من جديد إذا كانت حياة الآحاد من الناس أو الأجيال أو القرون، فكذلك حياة الأمم. وهو يعلم ذلك، ولكن صنعه فى إرشاد قومه وعظتهم صنع المعلم الذى يحاول أن يجعل المتعلم يكتسب خبرة بالتعليم سواء أأفادته أم لم تفده كل الفائدة.

* * *

تتمة نظرات جوتا

ـ ٢١ ـ

١٢ ـ أشد الصعوبات توجد حيث لا يبحث عنها الإنسان، سواء أكان ذلك فى الحياة أو فى الأدب أو فى العلم، فإذا لم يجد الإنسان صعوبات فليس معنى ذلك أنها غير موجودة.

١٣ ـ لو كان من المستطاع ادخار الوقت، وخزن الزمن كما يدخر المال، وكما يخزن الذهب لحين الحاجة إلى صرفه وبذله فى علم ما، لكان لذوى الكسل بعض العذر فى عدم صرف وقتهم فى العمل المنتج، ولكن حتى لوكان خزن الزمن وادخاره مستطاعًا ليصرفه صاحبه عند الحاجة، لكان هذا أيضًا من ضعف رأى صاحبه؛ إذْ يكون كمن يصرف من رأس ماله المدخر بدل الصرف مما يربح بالعمل، والذى يصرف من رأس ماله لا من ربحه، يوشك أن يُفلس.

١٤ ـ قيمة كل أمر فى الحياة تكون على قدر معونة المرء على تكميل نفسه وتهذيبها وتثقيفها. ولعلَّ فى هذا بعض ما فى قول هارليت: إن الإنسان إذا تمنى أن يكون إنسانًا آخر فهو فى الحقيقة لايتمنى إلاَّ أموراً تُكمل شخصيته الخاصَّة، كأنْ يتمنى ذكاء هذا، أو ثروة ذلك، أو سعادة آخر؛ إذ لو تخلّى عن نفسه وعقله وعن ذكرياته وإحساساته وأفكاره لصار إنسانًا آخر، فلا يفيده تحقق ما يتمناه بل يفيد هذا الشخص الآخر. وإذاً لو خُيِّر أفقر صعلوك وطلب منه أن يتخلى عن نفسه، وأن يكون ملكا أو ثريا أو عالـمًا ما تصورَّ إلاَّ أن ينال مُلْك الأول، أو ثروة الثانى، أو علم الآخر، على شرط أن تبقى له نفسه، وهذا مصداق قول

(١) المقتطف، مارس سنة ١٩٥٠.

الإسكندر المقدونى: لو لم أكن الإسكندر لتمنّيتُ أن أكون ديوجتيز (أى الفيلسوف المعروف).

١٥ ـ مهما حاول الإنسان أن يفسر أسباب جودة الأمور الجيدة الممتازة، فإن فى جودتها صفات لاتفسر: إذ تجلُّ عن التفسير. وهذا يذكرنى أحد أصحاب الفن الذى كان مولعًا بالنظر إلى صورة موناليزا التى عنوانها المسرورة (لاجيوكوندا). فلما كتب والترباتر وأطال فى وصف أسباب جودتها وابتعاثها للسرور، قال صاحب الفن: إن أقوال والترباتر عن هذه الصورة إنما هى من أدب الخيال وقصصه، أى ليست أسبابًا حقيقية.

١٦ ـ إنه أمر مُحْرِجٌ حقا أن يمدح الرجل الممتاز، وأن يعجب به الحمقى والأغبياءُ وكأن جوتا ينظر إلى عكس قول المتنبى أو إلى مايكمل معنى بيته:ـ

وإذا أتتك مَذَمَّتى من ناقصٍ فهى الشهادة لى بأنى كامل

وإذا أتى المدح من أهل النقص كان مدحًا مريبًا، وربما يخيل للسامع أن الممدوح ناقص مثلهم، وهذا يتفق أن يكون، وقد لايكون دليلاً، ولكنه محرج كما قال جوتا.

١٧ ـ كلما كبر الإنسان ازداد تسامحًا إذا لم ينس أخطاءه وأغلاطه فى ماضى حياته، وإذا عامل الناس بمثل ما عامل نفسه به فى تلك الأخطاء والأغلاط. وهذا شرط قلما يستقيم؛ إذ أن نفس المرء كثيراً ما تدعوه إلى نسيان أغلاطها وأخطائها، وإلى نسيان تسامحه مع نفسه، بل إنه كثيراً ما يحسب أنه يكفر عن تسامحه مع نفسه فى ذنوبها بالتشدد والعنف مع الناس إذا وقعوا فى مثلها، إلاّ إذا أراد أن يعذر نفسه بأن يعذر الناس، ولكن يمنعه من ذلك خوفه أن تظنّ به محاولة عذر نفسه إذا عذر الناس فيحجم عن عذرهم.

١٨ ـ إن صاحب الفن أو الصنع قد يجيد الصنع فى فنه، ولكنه قد يعجز عن أن يفسر سبب جودة صنعه، كما قد يعجز عن تفسير سبب جودة صنع غيره. والواقع أن صاحب الفن قد يكون غافلاً عن جودة صنعه حتى أنه قد يفضل من صُنْعَيْهِ أقلهما جودة فيحكم له بأنه يمتاز عما هو أحق بالتفضيل.

١٩ ـ فى كل المقاصد والأغراض الإنسانية إذا فصل المرء بين الأمر الواقع وبين التفكير النظرى أخلَّ بالفن والحياة، إذ أن كلاً منهما متمم ومصحح لأخيه.

٢٠ ـ عندما علم بعض الفرنسيين أن ميرابو الخطيب كان مدينًا إلى حد كبير فى خطبه للمادة التى جمعها له دو مونت، ظنوا أن هذا أمر ينقص من قدر ميرابو. وقد قال جوتا: كأن أمثال هؤلاء القوم يحسبون أن هيراقليز رب القوة عند الأغريق كان يستطيع أن يستغنى عن الغذاء، وما كان يستغنى فى تلك الخرافات عنه ليظهر قوته، وكذلك العبقرى إنما كان عبقريا لقدرته على الإمساك بالأمور يمينًا ويسارًا، ولقدرته على الاستفادة منها مادة لعبقريته وعلى إعطائها حياة خاصة من لبه وإحساسه. وقال جوته أيضًا: إن ابتكار العبقرى إنما يكون بذكريات مؤلفة تأليفاً فنيا ومنسقة تنسيقًا مبدعًا.

وقد ألمَّ أبو العلاء المعرى بهذه المعانى وأبدع فى باب التشبيه كل الإبداع فى قوله:

والنحل يجنى المر مَّن نور الرُّبَا فيصير شهدًا فى طريق رضابه

أى أنه يجنى من الزهر ويعطى بدل ما جنى رضاب النحل، وكذلك العبقرى.

٢١ ـ من الصعب أن يظل المرء منفردًا عن المذاهب والجماعات؛ لأنه إذا التحق بطائفة منها فهو حتى فى حين إخفاقه وخيبته يجد الاطمئنان والسكينة والأمان. ويزداد المرء رغبة فى الخير إذا اتصل بجماعة ترغب فى الخير، كما يشجع على عمل الشر إذا كان فى طائفة ترغب فى الشر. وقول جوتا يذكرنى كلمة لهازليت فى صعوبة بقاء الإنسان مستقلاً عن الجماعات والأحزاب قال: إنه تتضاءل لديه نفسه حتى يتهمها بالباطل، وحتى يتهم رأيه إذا ألحَّ عليه كل الناس بالخلاف، ويظل كأن الأرض زالت من تحت قدميه، وظلَّ معلقاً فى الفضاء ـ والواقع أن من يدَّعى الاستقلال عن الأحزاب والجماعات يتصل بها فى أمور كثيرة، فليس هناك انفصال تام.

٢٢ ـ كثيراً ما تكون النظريات العامة محاولة من الرجل المتسرِّع القليل الصبر الذى يحاول التخلص من الظاهرات ومن الجهد المرهق الذى يقتضيه تفسيرها، فيضع مكانها صورة أو فكرة أو كلمة جوفاء ينخدع بها من لايجرب الأمور بنفسه، بل يعتمد على الروح الحزبية بين الجماعات.

٢٣ ـ عندما نفقد الشغف بشيء والرغبة فيه، نفقد ذكراه، كما أن المرء لايسمع مالا يود سماعه، وهذه نظرات سيكولوجية من جوتا هى أشبه بأقوال سيجموند فرويد.

٢٤ ـ لايستطيع المرء أن يكتسب ثقافة من غيره إلاّ إذا استطاع تثقيف نفسه.

٢٥ ـ إذا أخطأنا فى المحسوسات، فليس الخطأ خطأ الحواس، بل خطأ ملكة الحكم على المحسوسات، فإنها تخطئ إذا لم تعرف حدود الحواس، وطرق استخدامها استخداماً صحيحاً.

٢٦ ـ كثيراً ما يتقدَّم من يدافع عن الباطل بلطف وأدب، بينما يعتزّ من يرى نفسه على حق بما يراه من الحق فى نفسه فيستغنى عن اللطف والأدب. لأن الأول يريد أن يكون باطله مقبولاً، فيدلف إلى الناس بما تهوى قلوبهم، والثانى قد يخذل الحق الذى يدافع عنه بالاعتزار الذى ينأى به عن اللطف والأدب.

وفى الختام نقول: إن فى مؤلفات جوتا فكراً كثيراً يدعو إلى الفكر، وإن الحكم له بأقواله أصدق من الحكم عليه بأقوال نقاده، حتى وإن كان فى أقوالهم بعض الحق.

* * *

جوتا بين الفرد والعالم ـ الخاتمة

ـ ٢٢ ـ

قال مازينى الزعيم الأيطالى المعروف: ـ «يصح أن نُسمِّى مؤلفات جوتا دائرة معارف فى أمور بَدَد لانظام لها، وذلك لأنه فقد الشعور بالوحدة التى تؤلف بين الحقائق والأمور، وكيف يكون هذا الائتلاف فى مؤلفاته، وهو لامكان للإنسانية فيها، ولا شعور بها فى قلبه. لقد حمل (فيخت) الفيلسوف بندقيته بعد محاضرة من محاضراته كى يشجع الدفاع عن الحرية، وجوتا ساكن لايتحرك، بينما كانت الشعوب حوله تناضل عن حقوقها... وبدل أن يصف مثال الكمال فى آحاد قصصه اعتنق مادية شعرية أدته إلى عدم المبالاة وإلى انتحار جهوده الأدبية»... وفى مقال آخر يقول: «إن فكر جوتا فكر عقيم؛ لأنه لا صلة له بالعمل».

وقال هنرى هينى: ـ «إن قصص جوتا ألفاظ ميتة، لا تؤدى إلى عمل نبيل، كما تؤدى قصص شيلر».

وقال هنرى هينى فى مكان آخر «إن الفن الذى يقتضيه وصف آحاد قصص جوتا الذين يتعثرون فى أخطائهم أشق وأعظم من الفن الذى يَتَطَلَّبُهُ وصف آحاد قصص شيلر».

وقال شتاويل:ـ «لقد أخطأ الناس فهم جوتا، وفهم قلبه الكبير، ونفسه العظيمة، فإذا أهملنا مؤلفاته أهملنا ما فيه دواءٌ وشفاءٌ لكل حمَّى تنتاب حياتنا

---

(١) المقتطف، مايو سنة ١٩٥٠.

الحديثة، ولقد صرَّح جوتا فى آخر «فرست» أن لانجاة للعالم والأمم، إلاّ إذا تعلم الآحاد والشعوب ضبط النفس والتغلب على شهوة التملك والتحكم».

وقال ألدوس هكسلى:ـ «لقد فطن جوتا إلى الأسباب التى تقتل الميزات الفردية فى الحضارة الحديثة فرجع هو وشيلر إلى الحياة الإغريقية القديمة، إذ كان الأغريق ينشدون حياة فيها الحرية اللازمة لظهور الطباع والميزات الفردية».

وإشارة ألدوس هكسلى تُذكّر بمقالة (الحضارة واختلاف الطبائع) التى نشرناها فى المقتطف فى عدد مارس سنة ١٩٤٧ وقد اقتبسنا ما وعاه ثيوكيديدس من خطبة بركليز الشهيرة التى يفخر فيها بالحضارة الأثينية، وأنها تعطى كل إنسان الحرية اللازمة لطباعه وميزاته الشخصية. وذكرنا فى تلك المقالة رأى جيزو المؤرخ السياسى الفرنسى ورأى جون ستورت ميل الفيلسوف الإنجليزى، وأنهما كانا يريان أن الحضارة تكون أتم ثمرة وأزهر زهرة، وأعظم فضلاً وأثرًا إذا صيغت الطباع الفردية.

ومن أجل ذلك يرى ألدوس هكسلى أن لجوتا فضلاً كبيرًا على الحضارة الحديثة.

- أما خصوم جوتا الذين أشار مازينى إلى مبالغتهم فى خصومته فقالوا: إن مؤلفات جوتا فى الأدب الألمانى مثل داء السرطان فى جسم الإنسان، فيصدق فيهم قول ستاويل إنهم لم يفهموا مقاصده. وأما اتهام مازينى جوتا أنه كان لايشعر بالإنسانية فهل أدَلُّ على تواضعه فى الشعور بها من قوله فى نظرة سابقة:ـ أنْظُر فى نفوس الناس، ثم أنظر فى نفسى فلا أرى شيئاً من آثامهم أو عيوبهم أو أخطائهم كان من المحال أن أرتكبه وأتصف به) فالرجل الذى يرتضى لنفسه الهوان كى يظهرَ صلته بالإنسانية فى جميع مظاهرها، لايقال إنه لايشعر بالإنسانية إلاّ على سبيل المبالغة. وأما قول مازينى: إن جوتا كان يفصل بين الفكر والعمل ففى آخر قصة «فوست» فى محاورة فوست لنفسه يحتم فى الحياة التّهدِّى من الفكر إلى العمل دائمًا، وقال جوتا: إن نابليون أخطأ فى احتقاره المفكرين النظريين، إذ أن الفكر يؤدى إلى العمل، ولكن مازينى يعنى نوعًا خاصا

من العمل، وهو العمل الثورى السياسى الذى كان جوتا لايميل إليه. وكان هم مازينى طول حياته القيام به، كما أن جوتا يعترف أنه لايثق بفكر العامة ولا بعملهم إذا أُلقِى لهم الحبل على الغارب، فإذا كان كلّ هذا عيبًا فهو من عيوب جوتا. وأما حمل (فيخت) بندقيته فلو أن نابليون تجنب الشَّرَهَ لاستطاع النيل من ألمانيا بإرضاء أطماع دول ألمانيا المتنافرة. أما قبول جوتا وسام الشرف من نابليون فربما كان متورطًا فى ذلك. والواقع أن نابليون كان يعمد إلى إظهار كبار المفكرين الألمان كأنهم عمالئون له توريطًا لهم. وأما خطأ جوتا فى تقدير أماكن الضعف فى دولة نابليون فيكفى فى عذره ما رأى من تخاذل ملوك ألمانيا وقبولهم ألقاب الملك منه، وعلى أى حال فهو خطأ منه. وقد حذر جوتا الألمان من أن تكون لهم أطماع كأطماع نابليون، كما حذّرهم من ارتكاب الفظائع فى الحروب حتى ولو كان ارتكابها تشبهًا بالأعداء، وقال: إن النصر الذى لاينال إلاّ بارتكاب الفظائع غير جدير بأن ينال. وكان مازينى يعيب على جوتا اهتمامه بالفردية فى أدبه. ويرى أنه من المستحيل التوفيق بين الفردية والجماعة بينما كانت طريقة جوتا أن يعطى آحاد قصصه الحرية لمحاولة التوفيق بين طباع الفرد وحقوق الجماعة. فمن استطاع التوفيق تثقف وتعلم، ومن لم يستطع خاب أو هلك. وإذا قرأنا كتاب (واجبات الإنسان) لمازينى نراه يحث على الواجبات وضبط النفس كما حثّ جوتا، ونراه يرى الجماعة الوطنية حلقة من حلقات الإنسانية العالمية، كما رأى جوتا الذى حذّر العالم من حب السيطرة والتملك. ونحن نرى كتّاب غرب أوروبا يعيبون على الروسيا أن اتساق النظام الشيوعى يقتل الميزات الفردية. وعلى أى حال فإن محاولة جوتا التوفيق بين الغرضين محاولة جليلة. ووسائل اليونسكو التى يقوم بها أخو الدوس هكسلى ووسائل مجلس الأمن فى بث التفاهم بين العالم ونشر السلام هى وسائل جوتا سواء أنجحت أم لم تنجح. وكان ألدوس هكسلى يرى أن أسباب ضياع الميزات الفردية بسَوْقِ الناس على نمط واحد (ستندر يزيشون) موجودة فى الدول الغربية، فالمصانع تخرج له ملابسه وآلاته وأرياءه على نمط واحد، والتخصص فى العمل يقصر فكره على أمر واحد، والجرائد والمجلات والملاهى تهيئ له أخباره وأفكاره وملاهيه على نمط

واحد، والتعبئات العامة فى الجيوش الحديثة تسوق الناس إلى نمط واحد أيضاً. وربما كان ألدوس هكسلى مبالغًا (كما يبالغ فى بعض الأحايين) فى بيان خطر هذا الاتساق، ولكن رأيه معقول. والاعتزاز بالميزات الفردية كما أوضح هى خطة جوتا مع التوفيق بينها وبين الجماعة والعالمية.

وفيما يلى بعض آراء جوتا مع التعقيب عليها:

١ ـ ينبغى أن يتذكر المرء أن فى نفس كل إنسان خواطر لو عبر عنها صراحة سببت استياءً واستهجانًا، والتعبير عنها يكون إما من العجز عن ضبط النفس وإما من قلة التمييز بين ما يليق وما لايليق، وإما من التعود على الانسياق فى شرح خطرات النفوس، كما يفعل الشعراء والكتاب، وإما بالعدوى فى البيئات غير المثقفة التى يدعو فيها استرسال إنسان فى هذا الامر إلى استرسال أصدقائه ومعاشريه، وهذه النظرة تذكرنى قصة تمثيلية من تأليف يوجين أونيل الأمريكى فيها يتحدث كل أناسى القصة بحديثين، وينطقون بقولين، أولاً القول الذى لايضير سماعه والذى هُيِّئَ للقول، وثانيًا القول الذى يعبِّر عما فى النفس فتسمع إنسانًا يُظْهر لآخر المودة فى حديثه الأول، ثم يعقبه بصوت منخفض حديث نفسه الذى يدل على كذب الحديث الأول يُعبِّر عن الحقد والذم، ولو كانت هذه سنةً جارية فى الحياة لما استطاع أن يتعاشر الناس، ومن قبيل هذا ما ذكره جوتا نفسه عن حديث نفسه عندما قال: إنه من حماقة حب العظمة الباطلة كان يجول بخاطره أن أمه حملت به سفاحًا من أمير جليل الشأن، ولم يكن جوتا عاجزًا عن ضبط لسانه، وإنما آثر هوان نفسه ووخزها كى يعظ الناس ويعطيهم درسًا كما فعل جان جاك روسو فى بعض اعترافاته، ولم يكن روسو فاقد الشعور، بل كان شديد الإحساس بما يؤلم. وقد اتخذ بورن اعتراف جوتا دليلاً على العقوق الفاضح وفقدان الإحساس بالكرامة والتملق للأمراء، وجعل اعتراف جوتا هذا إظهاراً للطبع الغالب عليه، ولعله قد غلبه طبع صراحة صاحب الفن، أو غلبه دافع خفى نفسى إلى التكفير عن الخاطرة بإعلانها للناس.

٢ ـ إنما تراد التقوى لتثقيف النفوس أرفع ثقافة، وللبلوغ إلى الطمأنينة والسكينة. أما الذين يقولون: إن التقوى غاية فى نفسها، فإنهم ينتهون إما إلى

مغالطة أنفسهم، وإما إلى مغالطة الناس ـ وهذه النظرة هامَّة؛ لأنها توضح طريقة جوتا فى نظره إلى الأمور، إذ كان يرى أن قيمة كل أمر حتى التقوى وهى أطهر الأمور إنما هى فيما يُكْسِبُ النفس من ثقافة. وقيل إن هذا نوع من الأثرَة وحب الذات، ولكن يستطيع جوتا أن يقول أن الأثرة المكروهة تنافى الثقافة النفسية. وإذا قيل: إن التقوى إنما تراد لطاعة الله، قال جوتا: إن طاعة الله فى تثقيف النفس وتهذيبها. وهذه النظرة هامة أيضًا؛ إذ توضح قوله: إن من يتخذ الوسيلة غاية فى نفسها قد يضل عن الغاية الأصلية، وقد يتخذ للغاية الثانية (أى للوسيلة التى صارت غاية) وسائل تنافى الغاية الأصلية. فكم من أناس مع التقوى والتدين يتخذون وسائل تخالف مقاصد التقوى والتدين السامية النبيلة ويُحِسُّون إحساسات تناقض غاياتها السامقة.

٣ ـ إنما يكون الواجب حيث يُحِبُّ المرءُ الأمر الذى أمرته به نفسه وفرضته عليه وإنما يريد جوتا ألا يفصل بين الواجب والسرور بعمل الواجب وما كان يَغْرُب عن باله أن ضبط النفس الذى يحث عليه يقتضى حلمها على مالا تود من الخير وفطامها عما تحب من الشر، ولم يخفَ عليه معنى قول عمرو بن كلثوم.

ولكن فطام النفس أعسر محملاً من الصخرة الصَّمَّاءِ حين ترومها

(اعسر أى أصعب واشد) ولم يَغِبْ عنه معنى قول البوصيرى.

والنفس كالطفل إن تُهْمِلْهُ شبَّ على حب الرضاع وإن تَفْطِمْهُ ينفطمِ

ولم يفُتْهُ أن النفوس إذا لم تعالج بالضبط يوشك أن يصدق فى كثير منها قول الحُصين ابن المنذر.

امرَتْهُ نفس بالدناءة والخنا ونهته عن طلب العُلا فأطاعها

ولكن جوتا رأى أن من عمل على تكرُّه وبغض لما يعمل غير جدير بأن يُدْعى مُؤدِّيًا لواجب، فإن نفسه قد تكون منطوية بسبب هذه التأدية على خبث وحقد وغيظ ومكر وقسوة ونفاق وتضليل وغلظة وكذب وتهيئة السوء وحب الانتقام،

فيضرُّ ويؤذِى نفسه كما يضر ويؤذى غيره. وهذه النظرة توضح اهتمام جوتا بالصواب والصدق، والحق فى جوانب القول المختلفة، فهو يرى ضبط النفس ويرى مع ذلك ماقد يكون فى قهرها وإرغامها من شر. ويرى أن صفات الشر المنبعثة من الرغم والتكره فى العمل من غير سرور به قد يزيد شرها على فائدة العمل الذى أداه المرء مكرهًا، فهو إذًا غير جديرٍ بأن يدعى مؤديًا الواجب.

٤ ـ ينبغى أن نتذكر أنه كما أن عظماء الرجال يكسبون نسيج الإنسانية متانة فى النسج، ويعينون إلى حدّ ما طرار ذلك النسيج، فإن عامة الناس هم الذين يكسبون نسيج الإنسانية سعة وعرضًا وطولاً وعظمة بتلك السعة، فهما مثل السدى واللحمة. ولايستغنى صنف عن صنف من الناس. وهذه كلمة من الكلمات العديدة التى يظهر جوتا بها شعوره بالإنسانية، ومثلها قوله فى نظرة سابقة (كل إنسان مهما كان مستقلا عن الناس، فى عيشه، إما مدين وإمَّا دائن للناس فى الأقوال والأعمال والآراء والإحساسات).

٥ ـ كما أن التفكير النظرى يؤدى المرء عن طريق المشاهدة والتطبيق إلى فهم الحقائق وإدراكها، كذلك ينتهى المرء بالمشاهدة والتطبيق إلى الفكر النظرى، ولا غنى للإنسان عن اتباع الطريقتين، وفى هذه النظرة استدراك على منيريد أن يقصر الطريقة الحديثة فى الفكر والاستنتاج على الوصول عن طريق المشاهدة والتطبيق إلى الفكر النظرى العام، وهى الطريقة التى عممت واتبعت وقرِّظتْ بسبب سوء الأخذ بالطريقة الأخرى وقهر الشواهد على أن تؤيد ما بدئ به من التفكير النظرى. ولكن الواقع إن الإنسان من عهد أن كان ساكنًا فى الكهوف إلى عهدنا هذا يستخدم الطريقتين كلا منهما فى مكانها ووقتها ومناسبتها.

٦ ـ إن المقاصد الأكثر سموا ورفعة أعظم أثراً فى النفس وإن لم تتحقق وتنجح من المقاصد التى هى أقل سموا ورفعة؛ لأن المرء عندما يطلب الأولى ويفكر فيها ويعمل لها تنمو جوانب نفسه وعقله بالتهيؤ لطلبها والسعى فى سبيلها، ويكون أثرها فى نفسه أعظم وأتم نفعًا من المقاصد الثانية ـ وهذه النظرة تدل أولاً على حث جوتا الناس على المقصد الأسمى، وثانيًا على تمييزه بين المقاصد والوسائل؛ فإنه عندما قال: (إن الإنسان لايستطيع أن يصل إلى الكمال

غير المحدود الاَّ عن طريق الأمر المحدود، ولا يستطيع أن يبنى مثال الكمال إلاّ على الأمور الواقعة) كان يعنى الوسائل التى يتخذها المرء فى سبيله.

٧ ـ ينبغى للمرء مهما أجاد فى عمله أو فكره ألا يحسب أن الناس كانوا يرقبون مجيئه إلى هذا العالم، وأنهم ماكانوا يستطيعون أن يعيشوا من غير عمله أو فكره، فكثيراً مايخادع المرء نفسه حتى نفس من ليس فيه غناء. وإنما هذا مصداق قول أناتول فرانس: إن كل حى من الأحياء حتى ولو كان كلبًا صغيراً يرى أنه مركز الكون، ومحور العالم. ولعلَّ فى قوله بعض المبالغة. أما جوتا فإنه لايريد أن يصرف المجدَّ عن العمل والفكر، وإنما يريد منه أن يعرف الأمور على حقيقتها، وأن عمل المرء مهما كان عظيمًا إنما يكون عظيما بالإضافة إلى عمل غيره من الناس، وهذا من شعوره بتماسك الإنسانية وتضافرها ووحدتها. وعلى ذلك فإن قول كارليل: لو خيرنا بين أن نفقد إمبراطورية الهند وبين أن نفقد مؤلفات شكسبير لاخترنا أن نفقد إمبراطورية الهند، ليس معناه أن الناس ما كانوا يستطيعون أن يعيشوا من غير شعره، ومافيه من ثقافة وفكر ووصف للنفوس.

٨ ـ كان الإنسان دائمًا يعيش تحت ظلال الحروب المتوقعة، لأنه فى جميع تاريخه كان يحاول أن يسيطر على غيره وهو غير مسيطر على نفسه حتى فى بحثه عن الجمال ـ ويعنى جوتا بالجمال المعنى الأعم الأشمل، وفيه معنى الإصلاح والتنظيم والتنسيق. وفى هذا القول إشارة إلى خطة الساسة الذين يفضلون اتساع دولتهم طولاً وعرضًا بدل اتساعها عمقاً بالإصلاح الذى فى كل دولة مجال كبير له. وفضلاً عن حب السيطرة على غيرهم فقد كان يغريهم بذلك خشية إغضاب الطوائف والآحاد إذا مسَّ الإصلاح مرافقهم الخاصة، أو الاعتزاز بكرامة قومية مؤسسة على التغافل عن أوجه النقص. ولكن الإصلاح الداخلى يؤدى إلى زيادة عدد السكان، وهذه الزيادة تبعث على طلب السيطرة على غيرهم، إلا إذا كان ضبط النفس المنشود يشمل أيضًا ضبط النسل وتحسينه، وهو ما يقول به كثيرون الآن.

٩ ـ إن ملكة التمييز التاريخى هى فى ذلك التمييز العقلى الذى يستطيع به المرء عند قدر المعاصرين وأحوالهم أن يقدر أثر الماضى فى الحاضر ومقدار تغلغله

فيه. وهذه الملكة قد يكتسبها بعض الناس بالقليل من دراسة الماضى، ولايكتسبها غيرهم بالكثير من تلك الدراسة، شأنها شأن التجارب التى قد يهتدى بالقليل منها إنسان، ولا يهتدى بالكثير منها آخر. إما لأنه خيالى النزعة، وإما لشرود لبه، أو استغلاق عقله، وإما للزهو والثقة بالنفس البالغة فوق حد الاعتدال وإما لأن المرء رهن إحساساته فهو لايملك أمره.

١٠ ـ إن فطنة الإنسان إلى رجاحة فكرة وإلى فائدتها لاتدلُّ على أنه قادر لامحالة على الاستفادة منها بتطبيقها. وكثيرًا ما ابتكر الناس أمورًا نافعة وظلت مدة طويلة لا أثر لها فى حياتهم، إما من نقص فى التطبيق، وإما من إحجام الناس عن كل جديد. بل إن فى العقل ما هو أغرب من ذلك، فقد يفطن المرء، إلى رجاحة الفكرة، ومع ذلك تظل هى ونقيضها فى عقله، كل يحتل مكانًا خاصا.

١١ ـ إن كتابة التاريخ قد تكون طريقة من طرق التخلص من الماضى. ولعلَّ هذا مثل أن يكون الشاعر أو الكاتب فى قيد حادث ماض أو شعور قديم فلا يتخلص منه إلا بأن يعبّر عنه فتطمئن نفسه وتستأنف فى الحياة أعمالاً وإحساسات جديدة.

* * *

نظرات ثاكرى[1]

- ٢٣ -

وليام مكبيس ثاكرى القصصى الإنجليزى الشهير، قد اتهمه بعض النقاد بسوء الظن بالنفس الإنسانية. والنفوس إذا وصف كاتب سيئاتها اتهمته بسوء الظن والعداء؛ لأن هذا الاتهام أسهل من التخلص من سيئاتها التى سببها الغرائز والشهوات المتمكنة من النفوس.

وقد رأى بعض المفكرين أن هذه الغرائز والشهوات لن تتغير ولن تتبدَّل وأن النفس إذا استطاعت أن تتخلص منها أو تلطف من حدتها أصابها الضرر والعجز. ومع ذلك فإن المفكرين من قديم الزمن يصفون عيوب النفس البشرية أملاً أن تتخلص منها أو تلطف من حدَّتها. ولا أذكر أكان مينكين الأمريكى هو الذى وصف الإنسان فسماه القِرد الأبدى لعجزه عن التخلص من الحماقة والشهوات وحب التدمير والأذى، ولقصوره عن الأخذ بأسباب تعميم نتاج العلم وتعميم الاستفادة منه. ولولا أن الكاتب يؤمن فى صميم نفسه أن الإنسان وهب القدرة على تلطيف عيوبه وتهذيبها والتخلص منها كلها أو بعضها ما كلف نفسه مئونة وصفها. وبالرغم من أن ثاكرى قد يؤلم مبضعه فى شرح صفات النفوس كما يؤلم مبضع الطبيب إذا فصد الدُّمَّل فإنه كثير الحنان والعطف على النفوس، فهو يجمع بين السخر والحنان. وهو بين الإنجليز من هذه الناحية مثل أناتول فرانس بين القصصيين الفرنسيين. وكما اشتد ثاكرى فى نقد سخر سويفت فى كتابه المسمى (كتّاب الفكاهة) اشتد بعض الكتاب فى مؤاخذة ثاكرى، ولكن شتان بين سويفت وثاكرى، فليس فى سويفت حنان ورقة وعطف كما فى ثاكرى

(١) المقتطف، يوليو سنة ١٩٥٠.

فإن سخر ثاكرى مقرون إلى رقة وسماح وصفح جليل، ولو أنه قد يشتد فى بعض قصصه ورسائله ويعنف. وبعض قصصه لاترى فيها مايسمى فى اصطلاح المؤلفين أبطالاً. ولا يغيب عنا أن ثاكرى وزميله ديكنز من كتاب العصر الفكتورى، أى عصر الملكة فكتوريا، وهو عصر مشبع بمظاهر التزمت والكبر فى التزمت، ولكن ثاكرى لايعفى ذلك العصر من سخره، ولا يعفى مافيه من نفاق وتجبر وقسوة، كما لم يُعف المحتالين والمغامرين والأفاقين الذين خرجوا على سنة العصر الفكتورى. وبعض النقاد يرون أن قصة (سوق الغرور) هى أعظم قصصه. وقد تكون كذلك من الناحية القصصية الفنية. ولكن عندى أن أعظم قصصه هى قصة (هنرى إزموند) التاريخية، وقد فضلها الناقد الكبير الأستاذ سينتسبرى فإن لها سحراً عجيبًا، والفن الذى يقتضيه وصف بياتركس وأمها من غير زلل فنٌ من أعجب الفنون، ثم إن عظم موضوع القصة إذا أضيف إلى عظم الفن يزيد فى قدر القصة، ولو أن إجادة صاحب الفن لاتقتضى موضوعًا كبيراً كى يجيد، ومن قصصه الأخرى قصة (بارى لِندُن) و (الفرجينيين) إلخ إلخ. ومن كتبه كتاب (الرسائل الدائرة) وهى أشبه بما يتخلل قصصه من رسائل قصيرة وكلمات فى وصف الناس وكتاب (الأدعياء) إلخ إلخ.

وفيما يلى بعض نظراته مع الشرح والتعقيب:-

١ ـ كثيراً ما ينتقص النساء من عقل المرأة وذكائها (أو من أخلاقها) إذا كانت أعظم منهنَّ جمالا وأتم حسنًا ولم يستطعنَ انتقاص حسنها، كأنما يردنَ بانتقاص عقلها ألا ترجحهنَّ بمجموع ما وُهِبَتْ من ذكاء وجمال. وهذا عكس ما يفعله الرجال، فإن ذات الوجه الجميل والعينين الفاتنتين تغتفر لها حماقة كثيرة، وقلة عقلها تكتسب فيها رشاقة وحلاوة تغطيان على قلة عقلها ـ والواقع أن الإنسان كثيراً مايخدعه انتظام التقاطيع فَيَحْسَبُ أنه مقرون دائمًا إلى انتظام العقل والعكس بالعكس.

٢ ـ فى سوق الغرور التى هى الحياة قلما يتألم الإنسان من وخز ضميره إذا عمل شرا، وإنما هو يتألم لا من الندم على عمل الشر بل من الندم لافتضاح أمره وانكشاف سره وشره، فيخلط ضميره عَمداً بين نوعى الندم؛ كى يظهر بمظهر

الأبرار، أو كى يقال إنه كفَّر بالندم ووخز الضمير عما ارتكب من الشر. وقد يكون الرجل نفسه مخدوعًا بما يخدع به غيره، فإن الشعور يُلَبِّسُ على صاحبه حقيقته فيخال من تأنيب الضمير وهو من ألم الأثَرَة وحب الذات.

٣ ـ لو فطِنَّا إلى ماقد يخالط أنبل الأخلاق وأسماها من نقص أو دناءة لتركنا التفاخر والتباهى بالفضائل ووصلنا النفوس بالعطف والرحمة.

٤ ـ إن الكذب الذى يقوله المرء فى اغتياب الناس أكثر ذيوعًا من الصدق الذى يمدحهم به، فهل ذلك من أجل أن قلوب الناس تربة حجرية لاتنمو فيها بذور أقوال الخير الرقيقة؟ ومما لاشك فيه أن اغتياب الناس وذمهم يصادفان من الانشراح والإقبال والائتناس والاشتهاء أكثر مما يصادفه مدحهم بالخير، كأنك فى الحالة الأولى تطعيهم بتوابل تدعو النفس إلى أكل لحومهم.

٥ ـ أىُّ الصفات نالت أعظم مدح منذ عهد حرب تروادة إلى اليوم؟ أليست هى الشجاعة والجرأة والإقدام؟ فقد طالما أشاد بها الشعراء والكتاب وأغفلوا الصفات الفاضلة الأخرى، ولم يعيروها اهتمامًا كاهتمامهم بهذه الصفات. ألا يجوز أن يكون السبب أن الإنسان جبان بطبعه يجنح إلى الخوف والفزع أكثر من جنوحه إلى قلة المبالاة والإقدام صيانة للحياة واعتزازًا بها، فيغطى على ذلك بمدح الشجاعة كى يقال: إنها صفته الغالبة ويطرى الشجعان كى يقال عنه: إنه منهم. ولعل من أسباب مدحه الشجاعة أيضًا أنه يريد أن يحمل نفسه عليها، ويغطى عنها مخاوفها، كما غطاها عن الناس.

٦ ـ بعض النساء لهنَّ ولع بأن يضعنَ من يحببنَ فى مكانة تشبه مكانة آلهة الوثنيين فى المعبد فتقدم له البخور والمدح والثناء، سواء أكان ذلك عن عقيدة فيه أو حيلة، وهذا يضايق الرجل؛ لأنه يلزمه صفات الكمال دائمًا وهو لايستطيعها. فيمل كما يمل (الدايلى لاما) فى التَّبتِ ويتثاءب من عبادة عباده.

٧ ـ قلما يهم الناس كبر عقل الرجل أو عظم فضائله قدر ما يَهمُّهُم آدابه المريحة فى معاشرتهم إياه وسلوكه فى إرضائهم؛ لأن كل إنسان يأنس إلى ما يريحه. وأما رجاحة تفكير المعاشر وعظم فضائله فكثيرًا ما تضايق عشيره؛

ولذلك كثيراً ما تضايق عشيره؛ ولذلك كثيراً ما يحكم الناس على عقل الرجل وفضائله بما يريحهم أو بما لايريحهم فى سلوكه معهم ـ أو حتى بما يتخيلون أنه يريحهم أو لايريحهم.

٨ ـ إن بعض الناس لا ينالون الاطمئنان فى الحياة حتى يغالطوا أنفسهم ويخادعوها ويحملوها على أن تعتقد أن العدل يطرأ فى الحياة ويعم ـ فهل يطرد العدل فى حياة الناس؟؟ هل كل راكب فاضل وكل ماش مفضول؟ وهل الأول عادل والثانى ظالم. وهل الفضل دائمًا مُفضَّل والنقص دائمًا مؤخر؟ وهل المرائى المنافق دائمًا مخذول؟ وهل ينصرف الناس عن التهافت على مالا قيمة له من الكتب والأشياء والأمور؟ وهل هم لايقبلون على الخطيب المهرّج الماهر؟؟ وهل لا يُرقى الرجل ولا يُقدَّم ولا ينجح إلا بماله من عقل وفضل وهمة وكفاية؟ وقس على ذلك أسئلة أخرى كثيرة. وخليق بالمرء أن يكون أشجع وأقوى من أن يعجز عن تحمل الحياة إلاّ بالأكاذيب.

٩ ـ قلما ينال الإنسان خيراً إلاّ وهو يرى أنه يستحقه ويستحق أكثر منه؛ ومن أجل ذلك نشأت قلة الشكر وظهر غمط المعروف وجحد الجميل المصنوع؛ إذ قلما تعد نعمة المتفضل تفضُّلا منه، بل حقا واجبًا لمن نالها. وفى بعض البيئات المنحطة لايكتفى نائل المعروف بغمطه وجحده، بل يتعاظم على من صنع المعروف أو يحقد عليه فى سريرته؛ كى يظهر له إنه إنما أخذ بعض حقه وأنه أكبر وأعظم من أن يقرَّ لأحد بفضل عليه.

١٠ ـ لو اختار بعض العلماء المؤرخين أن يتتبع جرائم الفضلاء، وأن يكتب كتابًا فى تاريخ الشر والضر اللَّذَيْنِ صنعهما أهل الفضيلة أو من يرون أنفسهم من أهل الفضيلة لكان كتابًا عجيبًا ممتعًا واعظًا للناس، فَمن الذين أحرقوا البروتستانت؟ إنهم فضلاء الكاثوليك. ومن هم الذين أحرقوا الكاثوليك؟ إنهم فضلاء البروتستانت. ومن الذين يضطهدون الناس فى الحياة الاجتماعية وينشرون عنهم أخبار السوء ويصفونهم بصفات السوء ويدعون الناس إلى اضطهادهم وإيذائهم ويجدون لذة فى ذلك؟ هم الذين يرون أنفسهم أو يريدون أن يقنعوا الناس أنهم أفضل من غيرهم. ومن هى التى تتبع جيرانها لاستخراج ما تعتقد

من سيئاتهم، أو ما لاتعتقد، ولتستخرج سيئات أجدادهم إلى الجد الرابع أو أكثر وأبعد من الجد الرابع لكى تؤذيهم بنشر السوء عنهم؟ إنها السيدة الفاضلة ـ أو التى تعتقد أو تريد أن يعتقد الناس أنها سيدة فاضلة. وهى إذا عثر الحظ السيئ بإنسان وجندله أمامها فى الوحل رفعت أنفها إلى السماء تعاظمًا وتعاليًا وجمعت ثيابها كى لا يلوّثها العاثر المسكين ـ وإن كان من المحال أن يلوّثها وهرولت صارخة باشمئزاز من حظه العاثر السيئ مبتعدة عنه..... حقا إننا فى حاجة إلى كتاب فى تاريخ جرائم الفضلاء!

١١ ـ إن الإحسان طعام عسر فى الهضم. ومن أجل ذلك قد يختلق من ناله مذمة للمفضِل إذا لم يجد فيه مذمة كى تكون عذرًا له إذا فك عن نفسه مايعده أغلالاً وأصفادًا للمعروف... ترى هل كان المسافر الذى نجاه السامرى من اللصوص ـ فى قصة الكتاب المقدس ـ شاكرًا لمن نجاه من اللصوص؟ أم أنه كان يجد غضاضة فى أن يكون مَدينًا لإنسان بفضل عليه؟ وهل هذه الغضاضة جعلته يتذكر أن كل سامرى عقيدته فيها انحراف فى نظره؟ وهل اتخذ من انحراف عقيدة من نجاه عذراً له كى يجحد ما أداه إليه من معاونة وكى يتقحم عليه باللذم كى يفك عن نفسه أصفاد المعروف وأغلاله؟

* * *

١٢ ـ إن ألفاظ السباب إذا صارت سنة جارية فى البيئة وتعودّها الإنسان كانت أمرًا مألوفًا، فكل إنسان يشتم غيره ويقبل الشتم من غيره، فيصير تبادل المزاح بأشد أنواع السباب والشتم فى مثل هذه البيئة نوعًا من السماحة والكرم الحاتمى ودليلاً على الألفة والمودّة ـ ولكن من الغريب أن العشيرين فى هذه البيئة قد يتبادلان السباب وأشد أنواع الشتم بالبشاشة والسماحة فى مجلس وفى مجلس آخر قد تؤدى الكلمة الهينة أو الكبيرة من السباب إلى إراقة الدماء والقتل.

١٣ ـ ليس من السهل أن نعرف الحد الذى عنده ينتهى باعث احترام المرء نفسه بإخفاء حقيقة حاله وتجمّله صونًا للناس عن الاطلاع على حاجته وسوء حاله، وهو الحد الذى يبتدئ عنده النفاق المرذول، فكم من أناس ينفقون فى المظاهر ويبذلون للكماليات ماهو أحق بالإنفاق على الضروريات ـ ويرون سعادتهم فى هذه الخطة كى يستطيعوا الزهو والكبرياء، وتعيير من لايستطيع الإنفاق فى سبيل الكماليات، وليحسب الناس أنهم إنما ينفقون فى الكماليات عن سعة فى الرزق، وكى يستطيعوا احتقار غيرهم ممن ضاقت به الحال أو ممن كان أعقل من أن يلتزم هذه الخطة فى الإنفاق على الكماليات وهو محتاج إلى الضروريات. والناس أولى بأن يعطف كل على أخيه بدل الزّهو والمباهاة المؤسسة على الباطل.

١٤ ـ إن نصف آلام المحب إذا زهد فيه من يحبه وجفاه ناشئ من الغرور والعُجْب بالنفس، لا من الرقة والحنان وطيب القلب. ولكنه يخلط بين أثَرَته وطيب قلبه وحنانه، وقد يفعل ذلك مخدوعًا بإحساسه وهو لايدرى، كما يُخدَع

به القصصيون الذين يصفون أمثال هذا العاشق المهجور، فيكون فى انخذاعهم وخداعهم للقارئ شيء من السماحة إذا فطن القارئ.

١٥ ـ بعض الناس قد تغيظهم سعادة أصدقائهم إذا طالع هؤلاءِ طالع يُمن، ولكنهم بالرغم من ذلك إذا أصاب صديق سوءًا وحلّت به كارثة يعطفون عليه ويظهرون الإشفاق عليه من شقائه الذى حلَّ به بعد أن كانوا يحسدونه على سعادته ونجاحه. فالنفس الإنسانية قد تجمع بين مرارة الحسد وحلاوة العطف، وبين أحقاد المنافسة والمشاركة فى الحزن والمصاب. فإن أحقاد المنافسة قد تختفى فى نفس المرء عندما يعثر الحظ بمُنافسيه، فيظهر له كرم المشاركة فى الحزن (إمَّا خالصًا وإما ممزوجًا بشيء خفى من التّشفِّى والارتياح) فرأفة الشهامة وخسة الدناءَة قد تجتمع فى النفس الواحدة وقد تمتزج فيها.

١٦ ـ قد تعارف أكثر الناس على أن لكل منهم الحق فى أن يغتاب صديقه، ثمَّ يتصافحان ويتعانقان ويتزاملان بطلاقة وابتسام وإظهار للود إذا اجتمعا (وقد يسمع كل منهما بأذنه حتى ساعة اللقاء أو قُبيلَه شتم الآخر له، فيدعى أنه لم يسمع ـ ومن يحاول من الناس حملهم على تغيير هذا الطبع يلاقى مقتًا وعداءً، كأنه يريد أن يحرمهم من حق لهم مقرر مفروض معروف، ألا وهو حقهم فى اغتياب معاشرهم وزميلهم، وكأنهم يخشون إذا تنازلوا عن حقهم طوعًا ألا يتنازل غيرهم فتلحقهم الخسارة، ويحل بهم الغبن، وينقلبون بالغيظ على من يريد حملهم وحضهم على التنازل عن حقهم المقرر المفروض فى اغتياب معاشريهم وزملائهم ويعدونه ظالمًا لهم أو قليل الإنصاف.

١٧ ـ إن المرء قد يزول حبه أو تفنى مودته لإنسان، فلا يرى فى زوال حبه، وفناء مودته، خيانة منه لذلك الإنسان ولا غدرًا به، ولا نقصًا فى نفسه، أما إذا زالت مودة إنسان له فإنه يدهشه زوالها ويعد ذلك الزوال غدرًا ونقيصة وخيانة، حتى أنه قد ييئس من صلاح الناس والحياة، وقد يبخع نفسه بالحزن والضيق مع أنه كان لايرى فى تغيره للناس مضايقة لهم ويتألم. وكان لايرى فى تبدُّلِه للناس أبدالاً ألمًا لهم، ولا يفطن إلى أن ذلك الخلق منه من الأثرَة وحب الذات الذى

يبيح لنفسه مالا يبيح للناس، وينعى ويعيب على الناس مالا ينعَى ولا يعيب على نفسه.

١٨ ـ كثيراً مانخطئ فنظن أن عهدى الطفولة والصبا هما عهدا البراءَة والطهارة والخلو من الكذب والخداع. وعندى أن كثيراً من الكبار لايتقنون خداع الناس وتكلف غير الحقيقة لهم كما يتقنه الصغار. وهؤلاء الصغار يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس بأمور ينبغى ألا تجوز عند أحد أو تنطلى أو تختفى أو تُلَبَّس، وكلما كبر الإنسان تَعلَّم كيف يقْدِر الحق، وكيف يميل إلى البساطة إلاّ إذا ظلَّ المرء أشبه بالطفل فى كبره، وكم من كذبة من صغير السِّنِّ أجَّجَتْ نار عداء بين الكبار، والكبار ينسون ما كانوا عليه فى صغرهم من استساغة الكذب وسهولته لديهم، ولا يصدقون أن صغيرهم الطاهر البرىء كاذب فيقبلون قوله على علاته، ويمعنون فى العداء بسببه، ولعلَّ عجز الصغار أمام إلحاح رغباتهم أو خيالهم أو أهوائهم وقلة خبرتهم بأمور الحياة أمور تدعوهم إلى عدم المبالاة إذا اعتزموا الكذب وتهيئ لهم وسائل استثمار ثقة الكبار بهم. وأمثال هذه الأمور هى التى تحملهم على سلوك ما ينافى سذاجة الصغر وما يجافى طهارته ـ ثمَّ هم إذا فوجئوا فى هذا المسلك أنكروا سلوكه بدهشة وحِدَّةٍ. وهذه الدهشة وهذه الحدّة يشتبه فيها البرىء وغير البرىء.

١٩ ـ مما يزيد المرء اعتقاداً فى عظمته، ويسهِّله لديه ويمكنه منه خضوع من حوله وتملقهم إياه فيلبس لباس العظمة الذى يلبسه إياه من حوله، وهم إذا أقنعوه بعظمته لنيل مأرب من جاهه أو مرتبته أو ماله أقنع نفسه وأقنعوا هم أنفسهم بعظمته على الأقل إلى أن ينالوا مايريدون، والرجل المتواضع الذى لايرى فى نفسه عظمة إذا عُرض لهذا التأثير فإنه قد ينتهى بأن يظن فى نفسه العظمة. والمشاهدون لأمثال هذه المحاولات ينتهى بهم الحال إلى الاقتناع بعظمة هذا الإنسان من طريق العدوى أو الطمع الأشعبى فى خير يصلهم عن طريق هذه العظمة التى يؤسسونها لغيرهم. ولولا هذا الانخداع الأشعبى ما اشترك أكثر الناس فى الاعتراف بعظمة إنسان أو تأسيس بنيانها.

٢٠ ـ من الغريب أن اثنين من الناس قد يشعران بميل كل إلى الآخر أو بنفور كل من الآخر من غير سبب ظاهر وجيه معروف، وكما أن بعض الناس قد ينفر من رائحة يحبها غيره أو يتأذى ويمرض من طعام يصح به غبره، فكذلك قد ينفر إنسان من مودة إنسان آخر ويصيبه مرض إذا ذاق مودة هذا الإنسان، بينما يذوق غيره تلك المودةً ويستطيبها فيلتهمها التهامًا ويصح على ذلك ولا تدرى سببًا ظاهرًا معروفاً لهذا الأمر.

٢١ ـ كما أن عبَّاد الشيطان يعبدونه، ولكنهم يحرمون ذكر اسمه، كذلك بعض الناس يتصفون بصفات السوء، فيطلونها بطلاء يخفيها، ويرون أنه ليس من الكياسة واللباقة والآداب وصف أخلاقهم، حتى ولو كان وصفًا عاما، ولكنه كالحز فى المفصل. ويعدون ذلك من كره الواصف للإنسانية المعذبة ومن قلة الرحمة بالناس، وهم يأبون هذا الوصف إذا خشوا أن يلحظ الناس فيه تعريضًا بسيئاتهم. . . أما إذا كانوا يريدون الأذى لإنسان زال تحريم ماكانوا يحرمونه من وصف السيئات ولا يفطنون إلى أن هذا أيضاً تعريض بسيئات نفوسهم.

٢٢ ـ إن حكمة الله الخفية قد تقضى أن يقهر أهل الخير والفهم، وأن يذلهم وأن يرفع أهل الأثرة والحماقة والشر، ومن أجل ذلك ينبغى أن يتواضع صاحب النجاح والسعادة، وأن يخشع أمام إرادة الله وقسمة الحظوظ التى تقضى بذلك وألا يغتر بنصيبه من الحياة فإنه أشبه بما يسمى (اليانصيب)، فالحياة كثيراً ما تكون كالاقتراع: هذا ينال الدمقس والحرير والقصور المشيدة، وذاك نصيبه الخرق البالية، ومعاشرة الكلاب الضالة. ولكن الإنسان قلما يؤمن بذلك، بل يرى أن كل إنسان نال ما يستحقه من الطيبات، فمن حرم منها كان حرمانه دليلاً على نقص وعيب، ومن لم يحرم منها بل كان نصيبه من طيبات الدنيا جزيلاً دلت جزالة نصيبه على خلوه من النقص والعيب. ولقد رأيت من مظاهر النجاح وعرفت من أسبابه ما زهدنى فى الهتاف للناجحين ومن السير فى ركابهم. وسواء أرأيت محافظ المدينة ذاهبًا إلى وليمة فى قصر المحافظة أم رأيت سجينًا يقاد إلى المشنقة فإنى لا أغترّ بظواهر الأمور، بل أنظر فى نفسى، وأنظر فى نفوس

الناس، فأرى أن محافظ المدينة ليس أعظم منى نفساً، ولست أعظم نفسًا من الآثم الذى يسار به إلى الهلاك، وأن الأول لو ربِّى كما ربِّى الثانى لكان مثله.

٢٣ ـ يقول بعض المتكالبين على النجاح: (النزاهة أحسن وسيلة للنجاح) ولو اطمأن الرجل غير النزيه إلى أن قلة النزاهة أحسن وسيلة للنجاح لما تردد فى أن يكون غير نزيه، وبعضهم يرددها وهو غير آخذ بسنة النزاهة كى يظن من يعامله أنه أخذ بها، ولعله يرددها كى يأخذ الناس بها، فيربح من نزاهتهم ثم يحرمهم الربح من نزاهته.

٢٤ ـ ما أعجب رشاقة المرأة إذ تنافق وترائى، وما أحب وألطف خفتها ولباقتها إذ تُداهِن وتداجى من غير تَعَثُّر أو ارتباك؛ ذلك لأن الضعيف المغلوب على أمره يحاول أن يتقن هذه الصفات، وأن يكسبها جمالاً ومحبة. وقد مرت المرأة فى عصور طويلة كانت فيها فى حاجة إلى أن تتعلم رشاقة الرياء وجمال المداهنة.

٢٥ ـ قد يستسيغ المرء الناس وعشرتهم على مضض وألم، وهو يحاول إخفاء ذلك، كمن يشرب الدواء المُرَّ للضرورة فى هدوء واستسلام، ولكن تقلص وجهه يدل على ما يعانى من مضض، وإن أنكر ذلك، وقد يستعين بقطعة من السُّكَّر ليزيل به مرارة الدواء، كما يستعين الأول بما هو شبيه بقطعة السكر كى يزيل مضاضة عشرة الناس من نفسه.

* * *

نظرات بلزاك[1]

ـ ٢٥ ـ

قال ستيفان زفايج إن الصفة الغالبة على أبطال قصص أونوريه دى بلزاك القصصى الفرنسى الشهير هى صفة الطمع والوصول إلى الغاية حتى ولو أدَّت إلى الخيبة، وهذه الصفة ربما نمت فى نفس بلزاك، لأنه عاش فى شبابه فى عهد إمبراطورية نابليون بونابرت الذى حاول أعظم محاولة، وكانت له أطماع تحدوه إلى أقصى غاية، ثم خسر كل شىء فى سبيل الوصول إليها. ومن الجائز أن يكون الأمر كما ذكر زفايج، كما يجوز أن يكون بلزاك بطبعه يميل إلى ذلك. وقد حاول أن يصل إلى أقصى غاية فى تأليف القصص واستيعاب العالم والنفوس فى قصصه، فضحى حتى بالحب فى هذا السبيل، وكان يشتغل فى كثير من الأحايين أكثر ساعات يومه فى تأليفها، فهو راهب من أجل الفن. وكان يلبس لباس الراهب، وقد أحبَّ مدام هنسكا سنين طويلة ثم تزوجها، ولكنه مات بعد زواجه منها بأشهر قليلة.

وبالرغم من ميل بلزاك إلى الإطالة فى الوصف أو فى البحوث القانونية أو العلمية فإن له قدرة عجيبة فى قصص المأساة، وقد أجاد فى القصص القصيرة كما أجاد فى القصص الطويلة، ويصح أن يسمى أبا الفن القصصى الحديث، فمنه أخذ فلوبير، وعن فلوبير أخذ جى دى موباسان وغيره.

ويصح أن يسمى أبا الفن الواقعى، وذلك لأن آحاد قصصه كما قال بودلبير: كانوا مثل المدافع المحشوة بذخيرة المتفجرات، فهم أيضًا كان حشوهم الحيوية والعزيمة.

---

(١) المقتطف، ١ نوفمبر سنة ١٩٥٠.

وقد يدهش القارئ من كثرة قصصه ومن كثرة إجادته فى الكثير منها، ولانظن أن أحداً صنع مثل ذلك غير شكسبير فى شعر القصص التمثيلية.

ومن قصصه الشهيرة قصة (الأب جورنو) و (قطعة من جلد الحمار الوحشى) و(الأحلام الضائعة) و (البحث عن الحق المطلق) و (سيزار بيروتو) إلخ...

ومن قصصه القصيرة قصة (الجلاّد) الفردوجو، وقصة (غرام فى الصحراء)، و(آية فنه)، و (مأساة على شاطئ البحر)، (المراثا) إلخ...

وكان بلزك يعيش مع آحاد قصصه كأنهم وكأنهنّ أحياء ويقاسمهم مسراتهم وأحزانهم، ومسراتهنّ وأحزانهنّ، فقد زارهُ صديق فوجده مهمومًا، وابتدره بلزاك قائلاً: لقد قتلت المسكينة نفسها، فذعر الزائر حتى عرف أنها إحدى بنات الخيال فى قصصه.

وهذا يذكرنا بفلوبير؛ فإنه عند ما وصف هلاك (مدام بوفارى) بالسم ظهرت عليه أعراض التسمم. وخسر بلزاك مالاً كثيراً بالرغم من دقة وصفه لطرق التمول والاغتناء فى قصصه.

عاش بلزاك للفن، ولا نظن أن أحداً فعل فعله، إن السير والترسكوت كان يقضى أكثر وقته فى كتابة القصص حتى أوقات المرض والألم، ولكنه تزوّج وخلف خلفًا واتصل بالأمراء وأولم الولائم، فلم يعش مترهبًا كما عاش بلزاك. ومع ذلك فإن بلزاك الراهب فى الحب والحياة، والذى قال لجوتييه: إن المرأة تلهى صاحب الفنّ عن فنه ـ هو الذى وصف النساء أدق وصف كما وصف الرجال من طبقات مختلفة، ووصف أعمالهم وخواطرهم وأفكارهم.

وفيما يلى بعض نظراته مع قليل من التعقيب:ـ

١ ـ قد يفقد الإنسان كل إيمان بنجاح أمله، ومع ذلك يظل متعلقاً بالأمل متشبثًا به بالرغم من فقدان الإيمان بنجاحه، وإنما تعلقه بالأمل بعد أن يفقد الثقة به توقع منه لفرصة غير منظورة تجلبها له الحياة، وهذا التشبث يعينه على تحمل كثير من مكاره الحياة.

٢ ـ ليس لكل حادثة أثر واحد وعاقبة لاتغير مهما تغير الذين تقع بهم الحادثة، فإن المصيبة التى قد تستبعث قوى العبقرى وملكاته وإن أرهقته قد تقضى على رجل آخر وتردى ذوى العزيمة الضعيفة فى الحضيض، كما انها قد تكون فرصة كسب وربح للرجل المستيقظ الذهن لوسائل الكسب وحيل الربح.

٣ ـ إذا كان نسيان العاجز ضعفًا ونقصًا، فإن من النسيان ماهو قوة فى النفوس العظيمة المبتكرة؛ فإن نسيانها مثل نسيان الطبيعة التى تنسى كى تستجد الأمور وكى تبتكرها.

٤ ـ إن من أخطاء الشبان أنهم يشعرون أن كل إنسان مهما كان عمره ينبغى أن يكون عند حيويتهم ونشاطهم وآمالهم وثقتهم بالأمور، وهم لايستطيعون إلاَّ أن يشعروا بهذا الشعور، لأنهم يرون الحياة ووهج الشباب منعكس عليها.

٥ ـ إن النساء اللواتى يكتسبنَ بصيرة بالمستقبل إنما يكتسبنها من وعيهنَّ للحاضر من الأمور. وتَنَبُّهِنَّ ناشئ من دقة جهازهن العصبى التى تمكنهنَّ من بحث وتفسير مظاهر الفكر والإحساس. وهنّ باستدلالهنَّ على المستقبل من الحاضر، إنما مثلهنَّ مثل الملاَّح الذى يستطيع برؤية السماء أن يرى ماهو مخبوء عن غيره من مطر أو إعصار أو صحو.

٦ ـ كل عصر له ميول وكل بيئة لها نزعات، ويستطيع الرجال الماهرون الذين عندهم ملكة الربح والتيقظ لوسائل الكسب والاستعداد النفسى له، أن يتاجروا بميول عصرهم ونزعات بيئتهم مهما كانت نبيلة تستدعى التضحية.

٧ ـ إذا انحرف حظ الرجل وساءت حالته فإنه قد يصير لعبة لأحقاد الناس وأهوائهم، ومن الخطأ أن يتعرض لتلك الأعاصير الإنسانية، وأن يجعلها تدفعه كل مدفع. كما تكون الريشة فى مهب الريح. وإذا أراد السلامة فليقبع كما يقبع المنكبُّ على الأرض كى يتجنب شدة الريح وعصفها حتى تمر الإعصار، وإذا وقف فإنما ينبغى أن يقف كى يعرف من أية جهة تهب الأعاصير ليستطيع تجنبها.

٨ ـ إننا دائماً نخيب ونخفق من الجانب الذى أضعفناه من أنفسنا، أو استرسلنا فى ضعفه، إن كان خلق معنا الضعف.

٩ ـ يخطئ من يظن أن الحيوانات لاتشعر بالذعر والألم شعوراً شديداً كالإنسان، فإن الحيوانات المنزلية قد تصرخ من الفزع صراخًا شديداً إذا أصابها إنسان بألم هين عقوبة لها، بينما هى إذا أصابها جرح من حركاتها فقد لاتصرخ ولا تصيح.

١٠ ـ إن القوة التى تستنفد نفسها بمجهود عنيف مباغت، تحدث أثرًا مؤقتًا أقوى في نفوس الناس وخيالهم من قوة فى مثل مقدارها تؤثر أثرًا بطيئًا طويلاً، وهذا يصدق سواء أكانت القوة من قوى الإنسان أم كانت من قوى الطبيعة. ومن أجل ذلك صار الإنسان الذى يبذل مجهوداً عنيفًا يستهلك قوته بسرعة ومباغتة يؤثر فى نفوس الناس تأثيراً مؤقتًا أكثر من تأثير الرجل الذى يبذل مجهوداً مثله بطيئًا طويلاً، أو مجهوداً أطول وأكبر.

١١ ـ فى بعض الناس نوع من الكبر، وهو كبر النفوس التى تفضل أن تخوض معارك الحياة وخصوماتها وحدها، ولا تظهر إلا بعد الظفر والانتصار ـ وهناك نوع آخر من الكبر وهو كبر النفوس التى توهم الناس أنها تخوض معارك الحياة وحدها، وتعمل فى خفية عن أكثر الناس فى اكتساب من يعينها على الانتصار. وهذا الكبر أكثر شيوعًا؛ لأن أكثر الناس يجبنون بطبعهم عن خوض معارك الحياة وحدهم ويهمهم الانتصار أكثر مما يهمهم أن يقال إنهم خاضوا معارك الحياة وحدهم.

١٢ ـ لا يدرك أثر الأمور التافهة فى إحداث الحوادث الهامة الكبيرة الاّ الذين تعدوا السن التى قبلها يسرفون فى بذل قوتهم الحيوية كيفما اتفق وفى أية غاية، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة، ولعلهم يدركون ذلك أكثر من إدراك غيرهم لبعد ما بين هذه الأمور التافهة الصغيرة وبين عظم المجهود الذى بذلوه كى يحدثوا حوادث أقل من تلك الحوادث التى أحدثتها الأمور التافهة الحقيرة.

١٣ ـ إن المجادلة والمحاجة التى يراد بها توضيح الأمور إذا لجت بها اللجاجة، فإنها قد تكسب الأمور العظيمة شيئًا من الحقارة.

١٤ ـ قد يعمر الحزن النفس الإنسانية، فيجعلها أشبه ببهو يرن فيه صوت مقدَّس يستدعى الخشوع.

١٥ ـ إن الإنسان فى عدله قلما يستطيع التخلص من مخاوفه على نفسه وعلى المجتمع، وقلما يستطيع أن يقدر الإحساسات الخفية والعوامل المستترة، فلايكون عدله مثل عدل الله الذى يعرف خافية الأنفس وهو مبرأٌ من المخاوف، فأحسن مايكون عدل الإنسان كظل لعدل الله قد حوِّر وغيِّر كى يكون مناسبًا لنفوس الناس ومخاوفها وجهلها.

١٦ ـ يعتقد الرؤساء دائمًا أنهم يستطيعون أن يخلقوا الكفاية لمن ينحازون إليهم ويرشحونهم للمناصب لإشرافهم على عملهم ـ وهذا كما قال لويس الرابع عشر لابن لوفوا الصغير عندما جعله وزيرًا فى وزارة لايدرك أمورها وطلب الشاب الإعفاء فقال لويس: سأخلق لك الدراية والكفاية.

١٧ ـ كل نفس فى حاجة إلى أن تحرث فى بعض الأحايين كما تحرث الأرض، والحوادث التى تحرث النفس تفيدها، وإن قلبتها، كما تفيد التربة الخصبة الزراعية من حرث الحارث لها.

١٨ ـ بعض الناس يريدون أن يصنع لهم الفن مالايستطيع أن تصنع الطبيعة، فهم يريدون أزهارًا من غير بذر، وفواكه من غير ثمر، وهذا شأن كثير من الناس فإنهم يريدون أن يصلوا إلى الغاية من غير وسائلها.

١٩ ـ إننا نخطئ إذ نظن أن الندم على الخطيئة أو الذنب دائمًا معناه التوبة، وهو كثيراً ما لايكون مصحوبًا بالتوبة، بل قد يكون ندمًا عقيمًا يؤدى إلى معاودة الذنب، وهذا الندم قد يكون مصحوبًا بلذة فى ذكرى مواقعة الذنب الماضى، ولذة فى الأسباب التى دعت إلى مواقعته بالرغم مما بالندم من آلام، وهذا يذكرنا قول الشاعر:ـ

هل الله عاف عن ذنوب قديمة أم الله إن لم يعفُ عنها يعيدها

٢٠ ـ إن السعادة والشقاء والملل والانشراح أمور نسبية؛ فقد يمل الإنسان الحياة الرتيبة الهادئة، ويمل تردد الحوادث اليومية الصغيرة يومًا بعد يوم، حتى

يصير شعوره بالملل شقاءً. بينما أولئك الذين أرهقتهم أعاصير الحياة، وكافحوا عواصفها، قد يرون كل السعادة والهناءة فى تلك الحياة اليومية والحوادث الصغيرة الرتيبة.

٢١ ـ كثيراً ما يتسامح الناس فى الحكم على فضل ذوى النقص، بينما يشتدون فى الحكم على نقائص ذوى الفضل؛ ولعلَّ ذلك لأن فضل ذوى النقص أمر غير معتاد، فيفاجئ بالانشراح، ويتوقعون من ذوى الفضل التمام فى الفضل، إن لم تكن شدتهم فى الحكم على نقصهم حسداً لهم. وهذا يذكرنا قول المتنبى:ـ

ولم أرَ فى عيوب الناس نقصًا كنقص القادرين على التمام

٢٢ ـ إن احترام الناس نفوسهم باحترام غيرهم، سواء أكانوا من الأكابر أم الأصاغر ـ إنما هو مانع وحاجز من الحواجز الاجتماعية التى تحمى العظيم، كما تحمى الصغير، فيستطيع كل منهم أن يواجه الآخر باطمئنان.

٢٣ ـ قلما يستطيع الإنسان أن يحكم على معاشر إلا بإحساس واحد، إما الاحترام، وإما الاحتقار. وإن وجد فى نفسه ما يستدعى كليهما، فإنه من الصعب أن يحترم الإنسان معاشراً لصفة وأن يحتقره لأخرى. والاحترام هو الضمان الذى به يستطيع الناس أن يتعاشروا، إذا فقدت حتى مظاهره ما استطاع الناس التعاشر.

٢٤ ـ بعض النفوس كالماء الضحل القريب الغور، وهذه النفوس لا تستطيع أن تعرض علينا مآسى الحياة، وإن كانت آلامها شديدة فى تلك المآسى.

وقد ذكر مثل هذا المعنى ستيفان زفايج فى ترجمة حياة مارى انطوانيت إذْ قال: إن الرجل العبقرى قد يتعذب بالمآسى، فيزداد قدرة على التعبير عن الحياة، ولكن من سخر القدر أن يزج فى المآسى بالرجل الذى ليس عنده قدرة على استنباط ما فيها من عبر، أو فن، أو حكمة، فيتعذب من غير أن يفيد عذابه، ومن غير أن يجد سلوى فى عبقريته أو معينًا منها.

* * *

تكملة نظرات بلزاك[1]

-٢٦-

١ ـ إن المقياس الذى به يقاس مايستطيع أن يتحمله المرء من الآلام هو مقياس من نفسه، ومن أجل ذلك لايستطيع المرء تحمل آلام غيره مهما شاركه وعطف عليه وادَّعى حمل آلامه وعاونه.

٢ ـ إن نظرة واحدة من نظرات الغضب أو كلمة واحدة من كلمات العداء والنفور قد تمحو سعادة سنين طويلة من سنى الألفة والمحبة، ولكن بريقًا زائلاً مثلها من السرور ووميضًا قصيرًا مثل وميض البرق منه، لايستطيع أن يمحو تعاسة السنين الطويلة من سنى الشقاء، وذلك لأننا نتأثر فى سعادتنا بالألم، أكثر من تأثرنا فى تعاستنا بالسرور الوامض القصير.

٣ ـ إن السبب فى أن إحساساتنا لها حياة مستقلة ربما لانستطيع أن نغيرها أن تلك الإحساسات تتشكل وتنمو بما يناسبها من الظروف والأحوال التى أوجدتها، والأماكن التى قويت فيها واشتدت، كما أنها تنمو من نفسها بالأفكار المتصلة بها والتى كانت تشغل فكرنا عندما خلقت، وتعظم بالخواطر والهواجس التى تناسبها فى النفس.

٤ ـ ربما نزداد قوة وقدرة برعاية من هو أضعف منا وبحمل أثقاله ومعاونته على متاعب الحياة، ولعلَّ بعض من يفعل ذلك يدرك هذه الحقيقة ويلتمس الزيادة فى القدرة بهذه الوسيلة.

٥ ـ قد يحسب بعض الأقوياء أو من يدّعى القوة ويطمح إلى مراتبها أن فضيلة

---

(١) المقتطف، ديسمبر سنة ١٩٥٠.

القوى وفضله فى حب السيطرة، ولكن الذين يرون القوة أمرًا طبيعيا فيهم ولايباهون بها يعرفون أن فضل الأقوياء فى ألا يشغف القوى بالسيطرة التى هى دليل على فقدان الحنان والعظمة.

٦ ـ إنك لاتستطيع أن تحكم على إنسان بدراسة حوادث حياته فحسب، كما لاتستطيع أن تدرس التاريخ بمعرفة قوائم الحوادث. بل لابدَّ من دراسة أشجان ذلك الإنسان وأحزانه وعواطفه وأفكاره الخفية ونزعات نفسه وعواملها، أما دراسة الحوادث فهى وسيلة الحمقى.

٧ ـ إذا تحركت الحياة فى المرء واشتعلت نارها بقوة لم يستطع الاقتصاد من ذلك الاشتعال. بل يدعه يشتعل بإسراف فلا يستطيع أن يقيس الغاية التى يسعى إليها، ولا الوسائل التى يتخذها لها.

٨ ـ إذا كان الحب لايغتفر كل شىء فهو لايغتفر شيئًا، واغتفار الحب قد يُحْسَبُ جهلاً وغفلة، وهو ليس بجهل ولا غفلة.

٩ ـ إن صفات المكر والاحتيال والائتمار صفات كثيرة الفرص والوسائل والموارد، وقد تعرف النفس الصافية المهذبة ذلك، ولكنها لاتستطيع أن تتخلق بها حتى ولو حاولت، ولاتستطيع أن تنتفع بها، وإنما جل اعتمادها على ما قد يسعفها عفواً من الوسائل، وما يكون باتفاق المصادفة، وليس اعتمادها على ابتكار الوسائل وصنع الحيل الناشئة من الاحتيال.

١٠ ـ إن أهل الخير قد يساء بهم الظن، ويحسبون من أهل الشر والكيد إذا كان ينقصهم الذوق السليم، فيعملون ماهو حسن طيب فى نظرهم من غير اهتمام بمعرفة أثره فى غيرهم.

١١ ـ إن الشباب يقيس المستقبل بفرجار من عنده، فإذا كانت قوة إرادة الشباب وعزيمته توافق الزاوية الكبيرة، التى انفرج عنها الفرجار فى قياسهم المستقبل كانت الدنيا لهم.

١٢ ـ كما أن فضائل الإنسان تظهر بمظهر أعظم فى البيئة الصالحة لها التى تناسبها ويكون مظهرها مظهرًا منطفئًا أو شبه منطفئ فى البيئة غير الصالحة لها، كذلك المصائب قد ترخى على فضائل الإنسان حجابًا وستارًا فتخفيها.

١٣ ـ إن أعظم العظمة وأفخم الفخامة ليست فى المرئيات والظواهر الفخمة العظيمة من أمور الدنيا، بل أعظم العظمة والفخامة فى أمور النفس.

١٤ ـ أكثر الناس فى الحياة إذا سقطوا كان سقوطهم إلى مستقر قريب، وهم فى سقطاتهم كالأطفال الذين يتألمون ويصرخون ثم ينسون.

١٥ ـ إنما تحيا النفوس بأن تعطى غيرها من نفائسها، وأن تأخذ من نفائس النفوس الأخرى، وهى قد تعطى غيرها ثم تستعيد بعض ما أعطته بعد أن تحوّله النفوس الأخرى إلى ذخائر ونفائس من عندها. وهذا التبادل ضرورى للنفس كما أن التنفس ضرورى للجسم.

١٦ ـ إن المرأة تشعر أنها تكون على أتم جمالها عندما تكون على أعظم سلطة وقدرة، وقد تنال السلطة بفتنة جمالها ـ ومن أجل حب المرأة لما يجلو جمالها من السلطة والنفوذ تحب الرجل القوى القادر حتى ولو أدت قدرته إلى ضررها.

١٧ ـ الحب كالبحر فذوو السذاجة لايرون فى الحب كمن لايرى فى البحر غير شكل ومنظر واحد لا يتعداه، أما صاحب الميزة فى الحب فإنه كالذى يرى أن البحر لايكاد يستقر على شكل واحد من أشكال الجمال بل يراه أشكالاً وألوانًا متعددة من الجمال.

١٨ ـ إن الحب يخلق للمحب ربحًا ويوهمه كسبًا من كل شىء حتى من الألم والخسارة وماهو أشد منهما، وينسيه مصائب المستقبل.

١٩ ـ الإيمان زهرة اليقين، والأمل زهرة الرغبة. والأمل خير من الذكرى؛ فإننا نعوم فى بحر من الذكريات، ولكن حبنا لابدَّ أن يغرق فيه، إما الأمل فإنه يجدد الحب كما يجدد كل نِعَم الحياة.

٢٠ ـ دوام رؤية الوجه ألفةٌ قد تمحو صفات النقص فيه؛ لأنه يطلع الرائى على صفات نفس صاحبه.

٢١ ـ كل اختراع فيه شىء من عفو المصادفة حتى ولو كان متوقعًا.

٢٢ ـ ليس الحب إحساسًا فحسب، بل هو أيضًا فن به يؤثر المحب فى قلب من يحب من غير أن يذويه، وهو يحدث أثره بكلمة أو بسكوت أو بتردد بين الكلام والسكوت أو ما شابه ذلك، ويلهم المحب متى يحسن أن يفعل أى شىء من ذلك.

٢٣ ـ كلما عظم نبل النفس ازدادت نفوراً من الخيانة والغدر حتى ولو كان فيها ربح لها.

٢٤ ـ إن المحبة الممزوجة بالأنانية والأثرة لاتنال عطفًا من الناقد البصير بها؛ إذْ أن القلب يكره الحب الأنانى الذى يعدّ ويحسب ما ربح، وهذا بالرغم من أن الحب الذى لا يحسب ما ربحه قد يكون ناشئًا فى قلب لايعرف الحياة ولا يقدر الأمور.

٢٥ ـ إن معرفة الأوقات التى يحسن فيها الصمت تحتاج إلى خبرة ولباقة كالخبرة واللباقة التى تعرف الأوقات التى يحسن فيها الكلام.

٢٦ ـ إن العاطفة النبيلة تنمو بما يغذيها من تشجيع وعطف وحنان ومودة، كما أن العاطفة الذميمة تنمو أيضًا بما يغذيها من عقد وعداوة وشر.

٢٧ ـ الزمن يعطى الصبر والعزيمة قدرة على عمل أى شىء.

٢٨ ـ لم تبتكر طريقة ولا وسيلة لرأم جرح اللفظ على صلاح وصفاء تام، وجرح اللفظ قد يكون أشد من جرح السلاح.

٢٩ ـ لايستطيع أن يعرف الأعاصير التى تثور عند قمم الجبال إلاّ من عاش بينها، وكذلك لايستطيع أن يعرف النفوس العظيمة إلاّ من كان من النفوس العظمية.

٣٠ ـ بالرغم من الأهواء العديدة التى قد تبعث الحمقى والجهلة والأغبياء إلى التغير والتقلب فإنهم قد يظهرون استمساكاً بمذهب أو حزب أو رأى واحد، وسبب ذلك أن هذا التغير من حزب أو رأى أو مذهب إلى حزب آخر أو رأى أو

مذهب قد يقتضى منهم تفكيرًا، والتفيكر فى عقولهم عملية مؤلمة صعبة مرهقة معقدة مكروهة.

٣١ ـ إن الرجل الذى فى نفسه جانب نقص لايستطيع التخلى عنه، إنما يعطى أعداءه سلاحًا يستعملونه ضده إذا استطاعوا.

٣٢ ـ إن الصفة أو الفكرة الفنية توقظ النفوس، سواء أكانت فى صنع فنى جليل أم فى جسم إنسان حى.

٣٣ ـ إن الشجاعة لباس يلبسه المرء كى يخفى به نقص نفسه وعوراتها.

* * *

نظرات هازلت[1]

وليام هازلت هو الكاتب الناقد الإنجليزى صاحب الرسائل، وله مؤلفات أهمها رسائله فى موضوعات مختلفة، ويمتاز بالنظر فى النفوس وخصائصها. وفى بعض الأحايين يذكرنا مونتانى الفرنسى صاحب الرسائل، وله كتاب فى سيرة نابليون بونابرت كتبه من جانب الأحرار كما كتب السير والترسكوت سيرة نابليون من جانب المحافظين، وقد بلغ إعجاب هازلت بنابليون حدا لم يبلغه إعجاب جوتا الألمانى؛ فإن جوتا كان يعرف عيوبه، وقد كان هازلت مناصراً لنابليون حتى بعد أن تخلى عنه الأحرار الفرنسيون وبالرغم من أنه أرهق إنجلتره بحروبه، وكان هازلت من الأحرار الإنجليز، ولكنه كان ينتقد تطرف الأحرار أمثال شلى الشاعر الإنجليزى، فاعتناقه لمذهب الأحرار كان مقروناً بالطبيعة العملية وحب الصلاح العملى وفى حدود مستلزماته، فهو من هذه الناحية إنجليزى بطبعه. والظاهر أنه كان يناصر نابليون لأنه كان يعلم أن سقوطه يؤدى إلى روح رجعية فى فرنسا وغيرها كما حدث فعلاً بعد سقوطه. وكان هازلت معجبًا بأدموند بيرك وعبقريته بالرغم من أنه انتقد أعمال أحرار الثورة ومبادئها، وكان يقدِّر وردزورث الشاعر بالرغم من إنكاره انقلابه على مبادئ الأحرار، ولم تكن له منفعة شخصية فى مناصرة نابليون والإعجاب به، والذى يهمنا من مؤلفات هازلت نظراته فى النفس والحياة فى رسائله العديدة. ولعلّ هذا سبب إعجاب سمرست موام القصصى به، ولو أنه مدحه لطلاوة أسلوبه، وله كتاب (رسائل حديث المائدة) و (رسائل المائدة المستديرة) و (رسائل ونترسلو) وغيرها، وله كتاب فلسفى لاداعى للكلام

(١) المقتطف، يناير سنة ١٩٥١.

عنه إلاّ أن نقول إن شغفه بالفلسفة ربما كان من أسباب عمق بصيرته فى رسائله التى عنى فيها بالنظر إلى خصائص النفوس، وكان مولعًا فى صغره بالرسم، ولكن غلب عليه الأدب، وكذلك كان مولعًا بالشعر، وله رسائل فى نقد الرسامين والشعراء، وله بحوث فى قصص شكسبير وأشخاصها، وفى قصص شعراء عصر الملكة اليزابيث التمثيلية. ولعل دراسة هؤلاء كانت أيضًا من أسباب بحث خصائص النفس والحياة. وكان صديقًا لكولريدج الشاعر ولشارلز لامب صاحب الرسائل المعروفة. ولم يكن موفقًا فى حياته الزوجية، كما لم يكن موفقًا فى اجتذاب الأصدقاء واستبقائهم ولا فى تجنب الخصوم وتألفهم. وقد أثر أقوال الخصوم فى رأى بعض الكتّاب إلى عصرنا هذا. وقد اتهم بمناقضة نفسه؛ إذ يمدح الإنسان ثم ينقده، ولكن ذمه أو نقده لمن نقد كان من جانب آخر غير الجانب الذى مدحه به، كما رأينا فى نقده لادموند بيرل الخطيب العبقرى وللشاعر وردزورث الخ. ومن قرأ رسائله وجد أنه فى أكثرها أعظم اتزانًا مما يظن خصومه. ولعلّ كثيرًا من الإنجليز لم يغتفروا له ـ كما لم يغتفر بعض الألمان لجوتا ـ إعجابه بعبقرية نابليون وإصلاحه وتنظيمه، وذلك لاعتداء نابليون وإرهاقه الدول وتعطيله التجارة فسئمت تكاليف الحياة.

وفيما يلى بعض نظراته مع تعقيب قليل على بعضها:

١ ـ إن الذين لم يتعودوا أن يجادلهم مجادل وأن يعارضهم معارض لايعرفون كيف يقابلون المعارضة والمحاجة. فإذا فاجأتهم معارضة تلمسوا طريق الفرار قانعين بالانخذال. ومفاجأة الأمر الذى لم يتعودوه تفت فى عضدهم فتصيبهم الدهشة والخوف من الأمر الغريب، وربما بعث الأمر الغريب الذعر والقلق والحيرة والارتباك، فالمعارضة والمجادلة والمحاجّة أمور تعوّد المرء الاعتماد على نفسه وعقله.

٢ ـ إن حب الإنسان للحياة وتعلقه بها وتَشَبُّثَهُ لايكون على قدر هناءتها ودعتها، وما يلاقى فيها من دواعى السرور فإنك قد تجد الرجل المكدود الذى لاينال رزقه إلا بشق النفس أكثر تعلقًا بالحياة من الوارث المنعّم الملول الذى يجد كل شىء مستطاعًا، ومع ذلك قد لايلذ له شىء، وربما بخع نفسه من الملل.

وإنما يكون تعلُّق الإنسان بالحياة على قدر رغائبه ومطالبه منها التى لم ينلها بعد ولم يحصل عليها. وكثيراً ما تكون العقبات والمطالب حافزاً له على التشبُّث بالحياة والاستمساك بها. فالذى يريد أن يتخذ من تشبث الإنسان بالحياة دليلاً على أن السعادة فيها أغلب وأعم من الشقاء، وأنها أمر قيِّم فى ذاته، إنما يتخذ منطقًا غير صحيح كى يثبت به أمراً ربما كان صحيحاً.

٣ ـ قد تكون شدة عاطفة الإنسان ورغبته سببها العوائق التى تعوق عن الأمر المرغوب فيه، وليست قيمته ولا عظم فائدته هى السبب. فكم من أمر كنا لانقيم له وزناً ولاقيمة، ولا نأبه له كثيراً وهو فى يدنا، حتى إذا خرج منها ولم يعد فى حيازتنا، اشتد طلبنا له وأسفنا على فقدانه إذا كان ليس فى استطاعتنا أن نحوزه.

٤ ـ كل ماهو خير فى نفس المرء قد يدفعه إلى الشر والإجرام لانتصاره لما يرى أنه حق وفضيلة، أو كمناصرته لعقيدته، أو كإخلاصه لوطنه، وذلك لأنه أصعب على المرء أن يبذَّ مخالفه أو خصمه بالفضل، وأسهل أن يقهره وأن يوذيه بالاعتداء والبطش، وفى كل نفس ـ مع ما فيها من خير ـ ميل إلى الشر مكبوت كالكلب المفترس المكمم، فإذا استطاع المرء أن يخلق عذراً لنفسه بأية وسيلة رفع الكمامة وأطلق ذلك الكلب المفترس والوحش الضارى وأجراه على الناس كى يؤذيهم، فكل ما ينقص الإنسان كى يصنع الشر هو اختلاق العذر ومن أجل ذلك ينبغى أن يحذر المرء جانب الخير من نفسه، وحيِّز الفضيلة منها بقدر حذره جانب الشر والرذيلة.

٥ ـ يقول بعض الناس: إن الرذائل إذا زُيِّنت وحُسِّنَتْ فقدت نصف شرها وعندى أنها تزداد شراً بتلك الزينة التى تكتسب من زينة أصحابها. ومن رشاقة ظاهرهم، أو من تغييرهم أسماءها، أو من تحليتها بشىء من الفنون الجميلة يُجَمِّلُهَا ويُخفى قبحها وشناعتها، أو من مظاهر الغنى والترف التى تغطى عليها، فيقبل الناس عليها، بدل النفور منها، ويرتادونها بدل الفرار عنها.

٦ ـ كثيراً ما يلجأ الناس إلى الاضطهاد فى معاملة ذوى الاضطهاد، وإلى قلة التسامح مع أعداء التسامح، فلا يزول الاضطهاد ولاتمتنع قلة التسامح، وقد يكون الاضطهاد لغير صد عادية ذوى الاضطهاد، بل للذة تجدها النفوس فيه.

٧ ـ إن تنبُّه عقل الإنسان للأمور لايكون على قدر الفائدة والعائدة من تلك الأمور، وإنما يكون على قدر وقعها من نفسه وأهوائها وهواجسها، وقد لاتتناسب شدة وقعها من نفسه وأثرها فيها مع الفائدة المرجوة منها، بل قد يكون أثر شدَّة وقعها من نفسه مثل أثر الإشراف من مكان مرتفع على هوَّة سحيقة، فيحسُّ المرء إحساسًا بالاندفاع إلى تلك الهوة، وذلك الحضيض، ويكاد يرمى بنفسه فيه، وقد يفعل وهو يعرف أنه هالك لامحالة إذا فعل، وأنه لافائدة له إذا رمى بنفسه فيه.

٨ ـ إن بعض الناس لهم قدرة غريبة على ربط أنفسهم بكل موضوع للحديث حتى يصير حديثًا عن أنفسهم بعد أن كان حديثًا عن الموضوعات العامة مثل الكتب أو الحضارة أو الريف أو الشعر أو الفلسفة أو السياسة أو المجالس النيابية أو المبانى أو أى موضوع آخر لاصلة لهم به، ولكنهم بمهارَة سحرية يحولونه إلى حديث عن أنفسهم، وإلى محاولة لتمجيد خصالهم وصفتهم وأعمالهم، حتى إن جليسهم يكاد لايعرف كيف تحوَّل الموضوع.

٩ ـ ومن الناس من لهم موضوع حديث واحد غالب عليهم ولازم لهم لزوم الظل لصاحبه (فإذا كان الحديث عن الحلاقة حوّلوا كل حديث مهما كان موضوعه إلى حديث عن الحلاقة) ومثلُ هؤلاء مثلُ الآلة الموسيقية التى لاتخرجُ غير نغمة واحدة، ويدور بها الشحاذون يستجدون فيطلقون النغمة الواحدة منها فى كل مكان مرَّة بعد أخرى. وكذلك أصحاب الفكرة الواحدة أو القصة الواحدة التى لاتفارقهم ولا يفارقونها أبدًا ويحكونها ويرددونها فى كل مجلس حتى المجالس التى سبق ترديدهم لها فيها، ويجدون لذةً فى ذلك، ولا يشعرون بما يعانيه جلساؤهم من ألم وملل وامتعاض.

١٠ ـ ومن الناس من يأبون إلا أن تقتنع بآرائهم، فإذا سكتَّ وشعروا أن سكوتك من عدم الاقتناع، لجوا فى ذكر آرائهم وترديدها وإعادة ذكر حججهم ويأبون تغيير موضوع الحديث إذا حاولت أن تغيره بلطف، وإذا اعترفت لهم بما يريدون كى تتقى إلحاحهم وشعروا أن اعترافك لهذا السبب وحده دون الاقتناع،

فإنهم ربما أعادوا الكرَّة عليك بآرائهم وحججهم، ولا تقنعهم مجاملتك لهم حتى يروا مظاهر الاقتناع منك بادية عليك، سواءٌ أكان وراءَ تلك المظاهر اقتناعٌ حقيقى أم كنت ماهرًا فى تزييف مظاهر الاقتناع حتى يخدعوا بها.

١١ ـ قال الإسكندر المقدونى: لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديوجنيز الفيلسوف. وهذا الاستثناء صفة عامة فى النفوس، فإذا سمعت إنسانًا يود أن يكون إنسانًا آخر فهو إنما يود أن يظل على شخصيته، وأن يزاد عليها ثروة المغبوط أو علمه أو ذكاءَه أو جاهه أو قوته إلخ. أما أن يتمنى المرء مع حيازته لهذه الأمور المغبوطة أن يفقد شخصه ونفسه فأمرٌ لايقبله أحقر صعلوك، لأنه لو فقد ما يميزه عن غيره من ذكريات وخواطر وصفات وآمال وإحساسات وصار انسانًا آخر لم ينتفع بالأمور المغبوطة التى حازها، بل المنتفع يكون إنسانًا آخر غير نفسه، وقد خسر نفسه بدل أن يزاد عليها.

١٢ ـ بالرغم من صغر شأن كل إنسان فى العالم ومعرفته صغر شأنه فإنه قلما يطمئن إلى أن العالم لايباليه ولايهتم له كما يبالى نفسه وكما يهتم لشئونها فيدهش ويرى أن ذلك من قلة الإنصاف كأنه يرى أن من الواجب أن يبالى العالم نفسه وشئونها كما يباليها هو، مع أن الأمر عكس ذلك؛ إذ من الأمور الطبيعية ألا يقيم الناس وزنًا لأموره كما يقيم هو وزنًا لها، وقد يفطن إلى ذلك بعد الغفلة، ولكن هذه الفطنة لاتلبث أن تزول، فإذا فوجئ مرة أخرى بالشعور بقلة مبالاة الناس إياه دهش مرة ثانية ثم مرة ثالثة، وهكذا لاتفاجئه تلك الدهشة كلما فوجئ بقلة اهتمام العالم له كما يهتم لنفسه، وعدم إقامته وزنًا لأمور غيره كما يقيم لها وزنًا. وقد تكون دهشته فى كل مرَّة مثل دهشته فى المرة السابقة وقلقه وقلة اطمئنانه مثلهما فى كل مرَّة يشعر أن العالم لا يباليه كما يبالى أموره ولا يفيد من المرات السابقة عظة.

١٣ ـ إن الذين يبالغون فى قدر قيمة فضائلهم أو مزاياهم أو آرائهم كأنهم ينظرون بعين من أصابه اليرقان، إذا نظروا إلى آراء غيرهم أو فضائلهم أو

مذاهبهم أو مبادئهم، فتظهر لهم كما تظهر الأشياء مصفرة كريهة فى عين من أصيب بداء اليرقان، والذين عانوا الاضطهاد من غيرهم كثيراً ما يتعلمون منه كيف يضطهدون غيرهم بدل أن يتعلموا ضرورة التسامح. ومن أجل ذلك يصل الناس إلى قَصرِ صدق النظر والمبدأ والأخلاق والرأى على طائفتهم وحدها مهما تكن تلك الطائفة صغيرة، وهذا ضيق فى الذهن لايمكن صاحبه من أن يفهم أن عقول الناس تختلف كاختلاف وجوههم، وأن اختلاف الآراء والمبادئ والمذاهب أمر ضرورى، وأن أنواع الفضل متعددة، وينبغى أن نقبلها على اختلافها، فإن اختلافها دعامة الحياة.

١٤ـ إن الناس يقيسون الدنيا وأمورها بأنفسهم لابقدر تلك الأمور، فما بعد عنهم مكانه فى الأرض أو منزلته من نفوسهم صغر حتى ولو كان كبيراً عظيمًا. وشأنهم فى ذلك شأنهم فى قدر الحوادث والأمور التى يبعد بها الزمان فتقل قيمتها إذا ابتعدت بعد قربها، فسيان أكان البعد بالمكان والمنزلة أم بالزمان فإنه يصغر قيمة الأمور.

١٥ ـ من الناس من يلطخون إنسانًا بالوحل، ثم ينادون أنه ينبغى تجنبه لأنه ملطخ بالوحل، وهى عادة فاشية فى الناس فينسبون إلى خصومهم صفات سيئة، ثم يتخذونها حجة لاضطهادهم وحث الناس على اضطهادهم، وهذا أمر يقلب مقاييس العدل فى الأمور؛ إذْ يصير الجانى المجرم حكمًا ينال الثناء ويصير المجنى عليه آثمًا نصيبه العقاب.

١٦ ـ إن الشباب يشعر بالقوى الحيوية أكثر من الشيوخ. ومن أجل ذلك قلما يدرك الشباب معنى الفناء والموت مهما رأى من مظاهرهما فى غيره؛ فإن ذلك لايكون إلاّ بعد أن يفقد الروح الحيوية التى فى الشباب. وبعد أن يشعر بالفناء يدب فى جسمه، وبعد أن يرى آماله ومسراته تذوى كما تذوى الأزهار، أما قبل ذلك فإنه يشعر فى الشباب أن الحياة كنز لايفنى، وكأس من الرحيق لا يفرغ مهما احتسى منها وأراق، وذخر لاينفد مهما بذل منه؛ لأنه روح الخلد فى الشباب. ومن أجل ذلك يسرف الشباب فى بذل ما يفيض به من قوى الشباب وحيويته

إسرافًا قلما تنفع معه موعظة، ويقدم على المهالك بشيء من الاطمئنان، ولا يغتر أحد بكثرة شكوى الشبان، فإنها لا تنافى ذلك، بل هى ناشئة من أنهم قد لايجدون إسعافاً من الدهر بقدر ما فيهم من حيوية وآمال ورغبات.

١٧ ـ إن الناس مثل آلات تدار أو حيوانات يعلق عليها نير مناصب الحكومة أو الأعمال الحرة والمهن والحرف، فيسيرون فى الطريق التى اختطها من سبقهم، وينجحون فى تأدية ما يراد منهم ويسعدون بنجاحهم، فكأنما ذلك النير هو نير السعادة وسرجها ورباطها. وكل ما يطلب منهم ألاَّ يدعوا أنهم أحكم وأعرف من غيرهم ممن أدركهم أو سبق عصرهم، فإذا هيأ لهم حب الظهور أن يظهروا ذكاءً أو غروراً أو اغتراراً بالحكمة أو أنهم يعرفون من الأمور المنوطة بهم مالا يعرفه غيرهم، فإن ذلك قد يكون سبب خيبتهم، فإنه إذا صرفنا النظر عما يجلبه عليهم هذا المظهر من عداوة وحسد، فقد يتخبطون فى التجارب والنظريات، ولو فرضنا أن إنسانًا منهم مصيب فى بعض آرائه وخططه فإنه قد يغالى بقيمتها شأن أكثر المبتدعين فتفقده المغالاة الاتزان والاعتدال. وعلى العموم أو فى الغالب يكون حذق الجماعة أعظم من حذق الواحد الفرد، ورأيهم أصوب من رأيه، وخبرتهم أعظم من خبرته إلاَّ من شذَّ وندر، ولا يصح أن يتخذ كل إنسان الشاذ النادر من الملكات قاعدة، وأن يعد كل إنسان نفسه من ذوى الملكات النادرة، وإلاَّ ماكانت كذلك، وأمور الحياة تقتضى المشاركة والتعاون، وإذا رَوَى الإنسان وجهه عن الأمر المألوف المعتاد، وحاول بتجنبه أن يختط لنفسه خطة جديدة لم يجد مشاركة ولا معاونة من الناس، وانصرفوا عنه أو اضطهدوه، وهى سنة وطبع فيهم، تسبب اعتدال أمور العالم وثباتها، بدل تقلقلها وتدحرجها وترجّحها.

١٨ ـ قد تختلط فى نظر بعض الناس طيبة القلب وعدم المبالاة؛ فإن ذوى الأثرة وحب الذات لا يبالون أخربت الدنيا أم عمرت، وهل عمَّ الفساد أم لم يعم، وهل انتشر الشر أم لم ينتشر، وهل خُذِل الحق، أم لم يُخذل، وهل اشتدت القسوة، أم لم تشتد، مادام كل ذلك لايمس مصالحهم، فتحسب قلة مبالاتهم وأخذهم الأمور بالخلق الهين اللين من طيبة قلبهم، مع أنهم لو مُسَّ أمر من أمورهم، زالت قلة مبالاتهم وأظهروا عنفًا وشدة.

١٩ ـ إننا لانبلغ الحق ولا ننصف الناس إلاَّ إذا عرفنا وقَدَّرْنا جانب الصواب والحق الذى كثيراً مايكون ممزوجًا بأخطاء الناس وأغلاطهم، فإذا جافينا أو أخطأنا ذلك الجانب من الصواب والحق، أو حدنا عن الحق الممزوج بالباطل المنقود، فإننا قد نخطئ بقدر خطأ من ننقدهم أو نلومهم.

٢٠ ـ يحسب المرء أن استسلامه للخيال اللذيذ، وأحلام اليقظة السارَّة، أمر برىء لاضرر منه. والحقيقة هى أن من يتعود ذلك الاستسلام كثيراً ما يضعف عزمه ويفقد الأهبة والاستعداد والنشاط للعمل، ويدعوه استسلامه للخيال إلى الاستنامة إلى ما قد يأتى عفواً من غير تدبير منه، أو سعى أو كدّ وكدح، وكذلك من ينصرف إلى التفكير النظرى كل الانصراف. ولا يتعودَّ التفكير فى الأعمال، فإن ذهنه يشغل بحقائق بعيدة يكون المرء أمامها كالناظر المتنزه بالنظر والتأمل ليس له موارد من همه يجهزها لملاقاة حقائق الحياة القريبة ولا من عزم وعمل وإقدام ينال به خيرها، ويصد عنه شرها ويحتال لها، بل قد تدركه الحيرة.

٢١ ـ ينعى بعض الكتَّاب على الفقراء دناءة حسدهم للأغنياء، ولا ينعون على الأغنياء دناءة الإسراف فى اللهو، وهم يرون الفقراء يُعْصرون فى معصرة الشقاء، ويداسون كما يدوس صُناع النبيذ العنب بأقدامهم.

٢٢ ـ لو كان اعتياد المرء الآراء بسبب قهر المنطق الصحيح لعقله ولنفسه على أن يعمل لرأى أو فكرة ما ـ لكان كل الناس شهداء المنطق والفكر، ولايستطيعون أن يخففوا عن أنفسهم وعن الناس مما يقتضيه العمل حسب ما يوحى به، ولكن الواقع أن الناس تستطيع أن تعتقد ما يوافق إحساساتهم، وهذا يمكنهم إذا كان فيه راحة لهم أو منفعة، وأن يخففوا عن أنفسهم أو عن الناس كما يمكنهم من مناقضة أنفسهم إذا كان فيها تخفيف عن أنفسهم أو عن الناس.

٢٣ ـ من أسباب قبول الناس للآراء والأخبار والشائعات أن كل انسان يخشى أن يشذ عن الناس ويخاف ألا يكون مثلهم. ومن أجل ذلك يلتقفون الآراء والشائعات والأخبار بعضهم من بعض، فهذا الإنسان يصدق أمراً ويقبله لا لأنه أمر يصدق، بل لأن ذلك الإنسان يصدقه ويقبله. وأغرب من ذلك أن هذا

الإنسان يصدق ويقبل الأمر الذى يخيَّل له أن ذلك الإنسان سيصدقه وسيقبله أو سوف يقبله، فيسبقه إلى تصديق ذلك الأمر، وربما كان هذا السبق سببًا فى أخذ المعاشر المسبوق به وتصديقه إياه، ولولاه ما أخذ به كما زعم السابق أنه سيأخذ به.

٢٤ ـ فى بعض الأحايين نرى أن شدة الشغف بغاية ما، وشدة اللهفة للوصول إلى الغاية والمقصد تعوق عن إجادة الوسيلة التى تؤدى إلى تلك الغاية؛ لأن الوسيلة تحتاج إلى تأنٍّ وصبر وجلد وزمن ومران، فيراها الملهوف طويلة مملةً، وتسبقها لهفته فى الوصول إلى الغاية المنشودة، فيحاول الوصول إلى غايته من أقرب الطرق، حتى ولو أدى ذلك إلى أن يخطئ طريقها، ولا يجيد فى وسيلته إليها.

٢٥ ـ إذا رغبنا فى أمر زاد اعتقادنا إياه وتصديقنا به، وصرنا أكثر عنادًا فى الدفاع عنه، ولكنا إذا خالفنا الناس جميعًا ربما اعترانا الخجل من إظهار رأى يخالفه الناس جميعاً، حتى ولو كان عين الصواب، فإن قدرة الناس تضغط علينا، سواء أشعرنا أم لم نشعر بها، كما تضغط قوة الجاذبية على جميع الكائنات. والإنسان الذى يستمر فى الدفاع عن رأيه من غير أن يتأثر بمخالفة الناس وسخرهم وكرههم إياه وحرمانه من عطفهم، وبالرغم من إيذائهم إياه ـ يكون ذا عزيمة كعزيمة الهندى الذى ينذر لآلهته أن يظل رافعًا يده إلى السماء حتى تتبلد وتجمد وتفقد الإحساس. ولاشك أن عداء الناس للمرء محنة قد تبعثه إلى الشك فى بواعث نفسه ونياتها ومقاصدها، وكأنما قد زحزح جِنِّىٌّ مارد الكرةَ الأرضية من تحت قديمه وظلَّ معلقًا وحده فى الفضاء.

٢٦ ـ زعم هوبز الفيلسوف أن الناس لايختلفون فى أن مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين، وأن مجموع الاثنين والاثنين أربعة؛ لأنهم لا مصلحة لهم فى هذا الخلاف. ولو كانت للناس شهوة ملحَّة، أو منفعة فى إنكار ذلك لأنكروا هذه الحقائق الرياضية، والواقع أنهم عند تطبيقها فى أمور الناس التى تستدعى الشهوات والرغائب والخلاف يختلفون فعلا فى هذا التطبيق.

٢٧ ـ كثير ممن يدينون بالديمقراطية يدينون بها نظريا، أما فى الأمور العملية فإن كل إنسان لايدين بالديمقراطية ولا يأخذ بمبدئها الذى هو مبدأ المساواة، ويود لو يضحى بالناس لإشباع أطماعه، وأن يخفضهم كى يعلى نفسه.

٢٨ ـ قلما يوجد بين الناس من عنده شجاعة كافية للدفاع عن إنسان صديقًا كان أو غير صديق إذا ترددت حوله أقوال الناس بالتهم والشتائم فإنه يخشى أن يتهم مثله. وأن يلاقى عداء من الناس، هذا علاوة على أن كل إنسان يميل إلى إعلاء نفسه بشتم غيره وانتقاصه، فإذا وجد الناس يلتقطون إنسانًا وجد السبيل موطأ إلى هذا الإعلاء لنفسه (ولو وكل الخصم كما قال هلبس كمحام بأجر مقنع للدفاع عن خصمه لوجد من أبواب المدح ما يبطلُ به ذمه لخصمه).

٢٩ ـ ينسى الناس فى معاملتهم أنهم لايتعاملون بالعقل النظرى المحض، وإنما يغطّى على أعينهم فيحسبون هذا الحسبان، وإنما هم يتعاملون بما هم محكمون به من الشهوات الجامحة والنزعات الشاردة، وقد يتخاصمون ويسعى كل فى أذى الآخر بسبب الاختلاف فى أتفه الأمور، فهم كالأطفال المدللين، فحياة الناس كثيراً ما تكون لعبة من لعب التمويه والغش، فهم يريدون أمرًا وسعادتهم فى غيره، أو أنهم يجدون السعادة فى ذلك اللعب نفسه، ولكنهم فى النهاية ربما يجدون سؤر كأس تلك السعادة مُرًا كريهًا.

* * *

نظرات السير أرثر هلبس[1]

-٢٨-

إن بعض نظرات السير أرثر هلبس تذكرنا قول جوتا: ـ

«إن الصواب المجهول إذا عرفه الإنسان كانت له فجاءة الأمر المتوقع وبغتة الأمر المعروف المنسى». كما أن بعضها يذكرنا قول جوتا أيضًا:

«إن الناس يزهدون فى الحق؛ لأنه معروف مملول مألوف، والألفة تبعث الملل، وهم لا يستطيعون تطبيقه وإنجاحه وتحقيقه فهو يشق عليهم فى العمل، وإن كان لا يشق عليهم فى الفكر».

ولقد كان منذ عهد الصغر كثير القراءة والاطلاع، وكان يجمع بينهما وبين التفكير فيما يقرأ، فنشأ عن ذلك أنه نشر نظراته فى عهد الشباب، فدلت على حكمة الكهول وعلى إصالة الفكر، وكان من أصدقائه أرثر هالام وتنيسون وغيرهما من الكتَّاب والشعراء. وكان مثقفًا ثقافة عامة، فكان قصصيا، وكان مؤرخًا، وكان كاتبًا أديبًا، وكان سياسيا من الأحرار المعتدلين، وكان ملما باللغات وآدابها، وقد ذكره رسكين فى بعض كتبه وقرنه إلى أفلاطون وكارليل وقال عنه: إنه كان ذا بصيرة بالأمور وأصالة فى الرأى.

وقد نسى الناس قصصه وكتبه التاريخية ولم يبق غير نظراته وأفكاره ورسائله. وهذه نظراته تدع القارئ يحكم عليها أو لها. وهو سيجد فيها فكرًا عميقًا وبصيرة بالنفس الإنسانية، كما سيجد فيها طلاوة الخيال الذى يوضح الحقائق ويفسرها،

(١) المقتطف: فبراير ١٩٥١.

وقد تولى منصبًا فى المجلس الخاص فى عهد الملكة فكتوريا، وكان من المقربين لديها.

وفيها يلى بعض نظراته مع قليل من التعقيب:ـ

١ ـ إذا أساء إلينا مسىء وكانت لنا سلطة وقدرة عليه وتحكُّم فيه فإننا قد نشعر بالغضب ونظهره أكثر من شعورنا به وإظهاره إذا لم تكن لنا تلك القدرة على المسىء، وهذا من طغيان الطبيعة البشرية التى قد تسهّل على المرء تحمل الإساءة ممن لا سلطة له عليه، ثم يقتص لنفسه ممن له سلطة عليه، بإظهار الغضب والاستسلام له والتمادى فيه.

٢ كثيراً ما ننسى أن من الناس ناسًا يلبسون نفوسهم كمن يلبس ثيابه مقلوبة، فيظهر الوجه الأقل حسنًا ويختفي الوجه الزاهى الكثير الحسن.

٣ ـ من الخطأ أن يقال إن المرء إذا تعود معرفة عيوب معاشريه ونقائصهم لا يأبه لها ولا يحسّ بها، فالواقع هو أننا نزداد شعوراً بها حتى أننا كثيراً ما نحسب أننا نجدها فى حالات لا توجد فيها ولا ترى، وذلك من سوء الظن الذى يلازمنا فى عشرتهم.

٤ ـ ليكن اغتفارك ما تغتفره للناس وما تصفح عنه أشبه بالنسيان منه بالاغتفار، لأنه إذا لم يكن كذلك كان الاغتفار أشبه بالمنّ عليهم والاعتداء الذى يكرهونه، وقد يمقتونك من أجله.

٥ ـ لا تتوقع أن تسمع من كل إنسان شرحًا مقنعًا لأسباب سلوكه، لأنه كثيراً ما يغفل عن أهمها أو يسهو عنها أو ينساها ولو أن أثرها موجود فى نفسه. وكثيراً ما يتقدم المرء للسامع بالأسباب التى يظن أنها راجحة محبوبة عند سامعه وإن لم تكن أسباب سلوكه الحقيقية أو أهمها، وإنما يفعل ذلك تقربًا إليه ورغبة فى نيل التزكية منه، فتتم تلك الأسباب التى يفسر بها سلوكه عن رأيه فى خصال سامعه الذى يزكى نفسه لديه وتفشى رأيه المستتر فيه.

٦ ـ من الصعب الحكم على أسباب الخصومة؛ لأن ظروفها القريبة قد لاتكون ذات صلة بالأسباب الحقيقية، كما أن مكان المعركة قد لا يكون سبب حدوثها،

وكثيراً ما تختفى الخصومة كاختفاء الماء الذى يجرى فى بطن الأرض ويخرج فى مكان سحيق بعد أن تعتوره أحوال عديدة، ولا يدل مكان ظهوره على نشأته.

٧ ـ إذا تعودت الاستسلام لمحبى أنفسهم من ذوى الأثرة طلبًا للراحة من عناء إلحاحهم، فإن ذلك كثيراً ما يؤدى إلى تضييع ما هو أمانة فى عنقك من مصالح الناس عامة، وليس بعد تضييع الأمانة إلا إنكارها وإنكار تضييعها والإمعان فى الظلم وما يجره من الفساد والشرور وسخط الناس.

٨ ـ لا تجعل غضبك وامتعاضك مقياسًا لخطأ أحد الناس، فإن الغضب والامتعاض قد لا يعادلان إساءته أو خطأه، وإذا تعودت ذلك تعودت الظلم وقلة الإنصاف، لأن للنفس حالات تغضب فيها من الخطأ القليل، غضبًا أشد من غضبها من الخطأ الكثير فى حالات أخرى أو مع أناس آخرين.

٩ ـ كثيراً ما يهوى الناس مناقضة الصفات المعروفة فى نفوسهم ومخالفتها، فترى الرجل الكثير التغاضب والشراسة يجنح فى بعض الأحايين إلى اللطف والدعة والتسمُّح لكى يضلل الناس إذا أحس أنهم فطنوا إلى شراسة طبعه.

١٠ ـ لو أعطى الإنسان القدرة على أن يتحول بالتمنى وأن يكتسب به جمالاً لما تمنى إلا ما يجعله نسخة جميلة لشخصه قبل التمنى، وكذلك لو استطاع أن يحول نفسه بالتمنى فإنه لا يتمنى لها إلاَّ أن تكون نسخة جميلة من صورتها الأولى قبل التمنى.

١١ ـ لو بحثنا ما يسميه الناس الثبات فإننا نجده فى كثير من الأحوال الإلحاح الناشئ من حب الذات والإصرار الناتج منه فيتزيَّا، فى رأى الناس بزى الثبات على المبدأ ويسمى باسمه.

١٢ ـ لو استطاع الساخط على إنسان أن يحس كأنه محام يدافع عن المغضوب عليه بأجر يرضيه، لدهش لكثرة الحجج التى يستطيع أن يدلى بها لصالحه، كى يثبت براءته أو عذره وكى يثبت إساءة نفسه فى سخطه.

١٣ ـ إن سرورنا بمن نستطيع أن نغير رأيه أعظم من سرورنا بمن يوافقنا قبل الحاجة، وقد يعرف الماكر هذا الأمر فيختلف معنا اختلافًا قليلاً ثم يعود فيظهر الاقتناع برأينا كى يسرنا سروراً يدفعنا إلى قضاء حوائجه.

١٤ ـ إذا استسلمت إلى سوء الظن وجدت غذاء كافيًا لسوء ظنك يزكيه، كما أن أذن المؤرق اليقظان يسترعى انتباهها فى سكون الليل كل صوت خافت.

١٥ ـ إن الناس يلجئون إلى الغش ويعدونه أسهل الوسائل وأقربها، مع أن صاحب الغش لا بد أن يكون ذا نفس يقظى وعينين متنبهتين وأذنين سامعتين لكل أمر، كى لا ينكشف غشه فهو فى أشق الأمور، وأسهل منه الصدق فى المعاملة فلا يحتاج الصادق إلى تنبه جوارحه لتغطية كذبه.

١٦ ـ إن الناس يعتدون النصيحة التى ينصحهم بها غيرهم كالضرائب المباشرة المفروضة عليهم كلما ازدادت ازداد مقت الناس لها، وقلما يلتجئ المرء إلى طلب النصيحة من غيره إلاّ إذا أراد تزكية ومدحًا منه لعمله أو قوله أو فكره. وإذا فطن أن فى النصيحة من غيره فائدة لغيره شك فيها وتجنبها حتى ولو كانت فيها فائدة لنفسه، وأضيع النصح أن تنصح إنسانًا بعمل ما لا يستطيعه.

١٧ ـ إن ذا الحاجة إذا طلب منك طلبًا وكانت فى قولك له كلمة يصح أن تحمل على محمل الوعد وأن تُؤَوَّل إليه وأن تفسر به فإنها تكبر فى ذهنه بالأمل حتى تصير كالجنى المارد الذى خرج من القمقم فى قصة ألف ليلة ويقاضيك إياها ويعدك حانثًا كاذبًا قليل الوفاء كثير الغدر.

١٨ ـ من الأمور المضحكة المعتادة أن نرى إنسانًا يلح على آخر كى يقبل منه عطاء أو هدية أو معروفًا، وصاحب العطاء أو المعروف فى سريرة نفسه لا يريد من الآخر أن يقبل معروفه أو هديته أو عطاءه، بينما نرى الآخر يقبل العطاء متضايقًا من إلحاح الأول ويخشى أن يجرح إحساس ذلك الملح إذا رفض عطاءه أو معروفه، وهو بقبوله المعروف يزداد مقتًا فى سريرة الأول.

١٩ ـ قد يكون غضب إنسان منك ناشئًا من غضبه على نفسه بسبب استسلامه إلى هذا الغضب وعدم قدرته على كبحه وقلة تقديرك لهذه الحالات النفسية منه.

٢٠ ـ إن الأمور النبيلة الجليلة إذا تأملها المرء طويلاً بإنعام ولم يتأمل غيرها فإنها قد تجعله غير قادر على تبين الأمور والحكم عليها حكمًا صحيحًا، ومثله مثل من ينظر إلى الشمس المتوهجة مدة طويلة حتى لا يستطيع أن يميز الأشياء.

٢١ ـ كما أنه من الصحيح فى العلوم الرياضية أن يقال إن النقطة الواحدة لا تعين اتجاه خط مستقيم وهى أحرى ألا تميز اتجاه الخط المعوج. كذلك لا تستطيع أن تحكم بعمل واحد يعمله المرء على خلقه بوجه عام. فإن خلق الإنسان حتى من كان ساذجًا كثير الاعوجاج. ومع ذلك يسرع الناس إلى الحكم على أخلاق إنسان بعمل واحد من أعماله.

٢٢ ـ إن من إتقان النفاق والخداع أن يكون صاحبهما عادلاً مستقيمًا صريحًا شريفًا فى الأمور التى لا تعنيه ولا تعوقه عن مطلبه، ومن أجل ذلك صار المخادع الماهر لا يستخدم خداعه ونفاقه فى كل أمر.

٢٣ ـ يقال فى علم الطبيعة إن اعتراض نوعين خاصين من الأشعة، قد يحدث ظلامًا فى نظرك. وكذلك اجتماع الحجج المتخالفة فى المحاجة للأمر وضده قد يحدث ارتباكًا وظلامًا فلا تستبين الأمور إلا إذا بحثت كلا منها على حدة.

٢٤ ـ كثيراً ما ينسب إلى الرجل الجاهل أكثر الرذائل أو الفضائل؛ لأن الجهل يبعثه إلى سوء الظن وإلى القسوة وحب الأذى وكره الفكر والمفكرين، كما أنه قد يتبع قدوة الناس من غير فكر فيضل إذا ضلوا ويصيب إذا أصابوا فى عمل الخير، وهو فى هذه الحالة الثانية يكون محسوبًا من ذوى الفضل والفضائل.

* * *

تابع نظرات السير أرثر هلبس[1]

-٢٩-

٢٥ ـ إنك قلما ترضى رجليك إذا مدحت كلا منهما مدحًا مساويًا لمدحك الآخر بلا فرق ولا تمييز؛ لأن طالب المدح إنما يريده كى تكون له ميزة على غيره.

٢٦ ـ كما أن بعض الناس يرغب فى الرذائل لأن سبيلها سهل موطأ، فكذلك يرغب آخرون فيها بسبب العوائق التى تعترض سبيلهم فتشهيهم مكافحة العوائق وتجعلها محبوبة لديهم.

٢٧ ـ قد يحترم الناس الرجل الذى يدوس عواطفهم ويؤلم إحساساتهم إذا وجدوا أنه لا يتحرج من أن يدوس عواطف نفسه وأن يؤلم إحساساتها. أما الرجل الذى يؤلم إحساسات غيره كى يرضى إحساسات نفسه وعجبها فإنه لا ينال إلا المقت والاحتقار فى صميم نفوس الناس، ولو أن بعض المعجبين يستهوون الناس بعجبهم وغرورهم فيخضع لهم الناس فترة طالت أم قصرت.

٢٨ ـ كثيراً ما يكون احترام المحب للمحبوب من رماد الحب بعد فنائه، وكثيراً ما يتلجئ إليه المحب الذى فنى حبه كى يخفى به فناء الحب فيحسب الناس دليلاً عليه لما قد يجدون منه فى الحب، ولكنه قد يكون من ندم الحب إذا فنى حبه.

٢٩ ـ من الخطأ أن يقال إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف نقائص نفسه فإنه كثيراً ما يعرفها، ولكنه يسميها أسماء أخرى خداعًا للناس وتضليلاً لهم ولنفسه. وهو يعوضهم عن ذلك الخداع المضلل بأن يبادر بتسميتها بأسمائها الحقيقية إذا

---

(١) المقتطف: مارس سنة ١٩٥١.

لاحت له فى غيره، أو إذا حسب أنها لاحت له، أو إذا اتهم بها غيره بحق أو بغير حق.

٣٠ ـ لا تحسب أن المصيبة تمحق كبر الرجل المتكبر إذا حلت به، بل إن كبره لا يزال به موجودًا، وقد يتخذ أشكالاً وألوانًا أخرى وينتهز فرصة لاستعادة شكله الأول.

٣١ ـ لقد صدق باسكال العالم الرياضى الفرنسى إذ قال: إننا نعطف على من كان به اعوجاج فى قدمه بسبب عاهة، ولكنا لا نعطف على من كان به اعوجاج من فكره، لأن الأول لابد أن يعترف إذا مشى باعوجاج قدمه، أما الثانى فإنه ينكر اعوجاج فكره ويحاول أن يثبت أننا على اعوجاج فى الفكر ـ ومع صحة رأى باسكال ينبغى ألا نعنف مع صاحب الرأى المعوج وأن نعطف عليه وأن نعتقد أن ذلك من آفة فى عقله كآفة القدم المعوجة أو كآفة الصمم أو البكم، وأن نتذكر أننا أيضًا كثيراً ما يدفعنا التحيز والتشيع إلى الحكم بالباطل، فيظهر اعوجاج فكرنا بالتحيز أو العاطفة وإن كنا نأبه له.

٣٢ ـ إن للفكر أخذة. ومن أجل ذلك صار العلماء حتى الأفاضل منهم لايتحرجون من تضليل قرائهم وتضليل نفوسهم؛ كى يثبتوا صواب فكرهم فى أثناء بحثهم، إما من شغفهم بإثباته، وإما لنيل المدح من الناس، ولكن سوء استعمال القوة الفكرية مكروه مثل سوء استعمال القوة البدنية. وهم إذا وصلوا بعد ذلك إلى الصواب فهذا الصواب يكون مثل الممالك التى نزورها فى الأحلام، وقد نعرف أننا فى أحلام إذا فكرنا فى طريق الرحلة إليها (وهذا كما فى قصة الباحثين عن المكروب) وإذا كان هذا شأن العلماء الأفاضل فى البحث العلمى فهو أحرى أن يكون شأن الناس عامة فى حياتهم اليومية.

٣٣ ـ إن أهل الاستكانة تعورهم الجرأة على طلب حقهم، فإذا لم تقم أنت بكل حقهم ركبت الشطط فى معاملتهم وسهل عليك الظلم واغتصاب حقوق الناس والرغبة فى استثمار جهودهم بأقل مما يقتضيه العدل؛ إذ قد تعد استكانتهم

دليلاً على نيل ما يستحقون، ولا أمر يتلف صحة رأى المرء فى العدل مثل العيش بين أهل الاستكانة، فإذا عاش بين غيرهم بعد ذلك ظهر ظلمه ودهش لظهور ظلم لم يكن يعتده ظلمًا.

٣٤ ـ يقولون إن الكذب لا يصدق ولا يقبل؛ لأنه لا أساس له ولا قوة فيه، ولكن لكل كذبة وقت وميعاد وهوى فى النفوس، ولا يمنع من تصديقها أنها لا أساس لها، وقد تكون لها قوة شر كبيرة مستمدة من قوة من يؤمن بها. (وهذا يذكرنا قول ثاكرى: إن الكذب قد يكون أصغر من النقطة، ولكنها مع ذلك كالنقطة السائرة التى تحتل مكانًا كبيراً وترسم خطا طويلاً).

٣٥ ـ قد يكون اليأس كالنوم يجدد قوى النفس والفكر، ولكنه إذا صار عادة ونيراً أصبح شللاً لهما.

٣٦ ـ كثيراً ما يؤدى الندم إلى اليأس من أداء الخير، مع أن المفروض أنه ينبغى أن يؤدى إلى معاودته والتزامه، وإنما يؤدى إلى اليأس من أداء الخير؛ لأنه يحسب أن ما جناه من الشر دليل على حيانه كلها، فيكون مثله مثل من يدع النقطة من السائل الأسود تغطى على جميع ثوبه بدلاً من تلافيها من أول سقوطها، أو كمن يجد صخرة فى النهر أو عكارة فى نقطة فى جزء من الماء فيحسب أنها تدل على الماء كله.

٣٧ ـ إذا أردت أن تفهم عصرك فاقرأ ما يكتب فيه من القصص؛ فإن المرء كثيراً ما يريد أن يخفى نفسه فى نفس القاص كى يتمادى فى وصف الرذائل وصفًا مغريًا يحببها إلى الناس وهو يزعم أنه ينهاهم عنها.

٣٨ ـ قد توضح حياة المرء ما التبس فى قوله، فهوبز الفيلسوف الإنجليزى الذى زعم أن الدولة هى كل شىء، وأن الناس إذ أنشئوا الحكومات أسلموا لها كل حق ـ قد اعترف للورد كلارندون أنه إنما فعل ذلك كى يتحبب إلى الحكومة فتسمح له بالعودة من منفاه. وريدولفى قد نشر رسائل لماكيافيلى يستعطف فيها بعض الأمراء ويشكو إليهم سوء حاله ويقول فيها: إن مبادئ الطغيان التى ذكرها

فى كتابه (الأمير) إنما ذكرها تزكية لأعمالهم فى الحكم، وأنه من أجل ذلك يتسحق أن يعان على أمره بالمال كصدقة، وقد زعم كتّاب آخرون أن هؤلاء الكتّاب إنما هالهم انقسام الآراء فرأوا أن للأمراء الحق فى توحيدها؛ صيانة للأمن، وجلبًا للوحدة بأية وسيلة حتى الوسيلة العنيفة الشديدة (وذلك هو ما زعم ماكولى فى رسالته عن ماكيافيلى) ـ وربما كان الدافعان موجودين فى نفس القائل عند قوله ما ذكر.

٣٩ ـ إن من قلة العقل أن يرفض المرء كل لطف أو عطف، وأن يسىء به الظن؛ لأنه لا يعرف سببه والباعث له، فإنه يكون كمن يرفض ماء النهر لأنه لا يعرف منابعه.

٤٠ ـ بعض القواعد الأساسية فى الشرائع لا يعمل بها الناس فى حياتهم ومعاشرتهم بعضهم لبعض، فالمبدأ الذى ينص على أن كل متهم برىء حتى تثبت إدانته لا يعمل به الناس، وكذلك المبدأ الذى يشرع أن الشك ينبغى أن يجعل فى مصلحة المتهم لا يأخذ به الناس فى حياتهم الخاصة، فينشأ عن ذلك قلة التسامح. ولو عملوا بهما كانوا أقرب إلى التقوى والعدل والتدين.

٤١ ـ لقد صدق جوتا إذ قال فى قصة فوست (إن الذى يصمم على أن يعد غير مخطئ إذا كان ذا لسان ذرب سببه أنّ الطلاقة والمهارة فى الكلام قد تهزم قوى ملكات العقل.

٤٢ ـ إن عمل الشر لا يتوقف على كبر شأن صاحبه، ومع ذلك فإن الناس كثيراً ما يظنون أن الرجل الحقير لا يستطيع عمل شر كثير حتى وهم متأثرون بما يقول أو ما يصنع من الشر.

* * *

تتمة نظرات السير أرثر هلبس[1]

- ٣٠ -

٤٣ ـ كثيراً ما يكون المرء حتى من كانت عنده شجاعة خلقية كبيرة أداة يحركها غيره أو قربانًا وضحية على مذبح الخداع، كما يحدث فى عالم السياسة أو فى الحياة اليومية المعتادة. وينبغى للمرء أن يمضى فى علمه وفكره لا يبغى تمجيداً ولا حسن ذكرى غير آبه لمدح الناس أو ذمهم؛ فإن طاعة الناس ابتغاء مدحهم قد تكون هزيمة لشجاعته الخلقية.

٤٤ ـ إن الرجل العملى على كثرة مدحه فى هذا العصر الحديث كثيراً ما يتقدم بفكرة واحدة غالبة عليه ليهدم مبدأ عظيمًا، فيكون مثله مثل من يقطع بغيظ وجرأة رباط عقد غير كريم، فينقطع العقد وتنتثر حباته، وقد تضيع بعض أحجارها الغالية الثمينة.

٤٥ ـ إن الأسباب التى يتقدم بها إليك إنسان لتفسير سلوكه كثيراً ما تغشى رأيه المستتر فيك؛ فإنه يتقدم بالأسباب التى يظن أنها توافق أخلاقك وترضيك.

٤٦ ـ مما يزيد فى تواضعنا تتبعنا سلسلة الحوادث الماضية فى حياتنا حتى نصل إلى السبب الأول فنجد سبب سعادتنا أو تعاستنا سوء تفاهم تافه أو تأخر طرفة صغيرة أو أشباه ذلك من الحوادث التى تدل على سخر الحياة؛ إذ أن السعادة أو التعاسة ليست مؤسسة دائمًا على أسباب هامة كبيرة.

٤٧ ـ يشعر الناس بنوع من الغرور والإعجاب بالنفس يدعوهم إلى الغرور

---

(١) المقتطف: أبريل سنة ١٩٥١.

بشراستهم والإعجاب بقلة أدبهم؛ إذ يحسبون ذلك فضيلة فيهم تجعل الناس تهابهم فيمعنون فى الشراسة وقلة الأدب ويعتبرونهما ميزة لهم وحقّا.

٤٨ ـ إن القرد يحاكى لمهارته فى المحاكاة، والأغنام تحاكى لأنها ليس عندها عزيمة وعقل، ولكن الانسان هو المخلوق الذى قد يحاكى الأمر الذى يكرهه وما يعرف أنه خطأ خشية لوم الناس.

٤٩ ـ مما يدل على جلال الصدق وضرورته أن الإنسان إذا كذب مرة تحايل بالكذب مرة أخرى، كى يثبت أنه كان صادقًا فى المرة الأولى، فيمعن فى الباطل كى يخفى كذبه، ويكون كالحيوان الذى يحفر جحرًا عميقًا كى يختفى فيه عن الناس، وعمل الإنسان هذا قد يكون سببه الرغبة فى الظهور بالكمال أو قد يكون مؤسسًا على اعتباره أن الكذب مكروه متساو فى شناعته، فإذا كذب كذبة صغيرة شفعها بأخرى كى يخفيها، والعاقل من يعرف أن كل إنسان به شىء من الباطل فلا يجد داعيًا لأن يتورط فى الباطل، فيكون شبيهًا بمن يريق الحبر على ثيابه كى يخفى بقعة منه عليها.

٥٠ ـ إنك إذا أكرمت إنسانًا وكان إكرامك إياه يجلب لك منفعة ومسرة فإنك لا تستطيع أن تنال دائمًا اعترافه بجميل ما صنعت، لأنه قد يحمله على محمل إرادتك المنفعة والمسرة لك لا نفعه وإكرامه بالجميل الذى صنعت معه.

٥١ ـ إن الناس كثيرًا ما ينفرون ممن لا يخطئ أبدًا ويسيئون به الظن، كما ينفر الناس ممن عنده ذلاقة يستطيع أن يثبت بها أنه دائما على حق.

٥٢ ـ إذا خدعك من حولك كثيرًا فاعلم أنك خليق بأن تخدع، إما لضعفك وتصديقك كل ما يقال لك، وإما لطغيانك وعدم السماح لهم أن يسمعوك ما تكره سماعه.

٥٣ ـ إن من الضعف أن تخفى عمن تستشيره فيه خشية أن تطلعه على أسرارك التى تود أن تبقى خافية، وأضعف من ذلك أن تأخذ برأيه ونصيحته عند ذلك، لأن رأيه يكون مؤسسًا على ما أبديت له دون ما أخفيت عنه.

٥٤ ـ لا تطلع أحداً على سر قد يضره كتمانه إذا عرف أنه كان يعرفه، فإن الحذر كثيراً ما يدعو إلى إفشائه تجنبًا للضرر، ولا تحسب أن طلب العطف والمعاونة يُسَوِّغُ إطلاعك إياه عليه، ولا تطلع أحداً على سر يزداد عظمة وربحًا بإفشائه، فإن حب العظمة أو الربح كثيراً ما يغلبان الأمانة.

٥٥ ـ كثيراً ما يأخذ المرء بالفكرة الشائعة من غير تمحيص أو بحث، ثم يجادل ويدافع عنها بكبر وازدراء كأنه أفنى عمره في تمحيصها وبحثها.

٥٦ ـ قد يُصر الرجل بعد غضبه على صدق كلمات قالها في حالة فورة غضبه، ولم يكن يريد الأخذ بها لولا ذلك الغضب، فيكون مثله مثل من انتقل من حالة هذيان مؤقت إلى حالة جنون دائم.

٥٧ ـ من الغريب أن الناس لا يتقاتلون ولا يتعادون كما يفعلون ذلك في الأمور العويصة الغامضة التي لا تدركها عقولهم مثل أُمور ما وراء الطبيعة، مع أن عدم فهمهم إياها كان ينبغي أن يعلمهم التسامح.

٥٨ ـ ليس في الناس مخدوع مثل من يخدع نفسه بمعرفة نصف خداع المخادع، وهو يظن أنه يعرف كل نواياه ومقاصده.

٥٩ ـ إن كلمة (الناس) كثيراً ما يقصرها المرء على طائفة قليلة حوله أو على إنسان أكثر منه دراية ومنطقًا، وهذا ما يصنعه إذا فعل شيئاً أو قال قولا يريد تأييده، فيقول: إن الناس يريدون ذلك أو يفعلونه ـ وهذا مثل كلمة (الشعب) التي كان المتطرفون في عهد الثورة الفرنسية الأولى يطلقونها على حثالة الرعاع من الباريسيين.

٦٠ ـ إن عبد العادة القديمة قد يسخر من عبد الأمور المستطرفة الحديثة السارية، وكلا الأمرين رق ما دام عقل المرء مغلولا بما يتبع.

٦١ ـ كثيراً ما يمقت الناس من يدعي الفضل ويخافون ممن يحاول الظهور به ويحسبون أن ذلك إساءة إليهم وتَحْقِيرٌ لهم، مع أنه قد يحاول بما يظهر به التقرب

إليهم وإيناسهم وطلب العطف ونيل الرضا. وقد ننسى أن الرجل قد يقول السخر وتحت ذلك السخر قلب رحيم. كما قد ننسى أن كثيراً من الناس مختلفون عنا، فليس عندنا وسيلة للحكم عليهم.

٦٢ ـ لكى يمنع الإنسان كبح نفسه عن الرذائل من أن يبعث فيه الغرور وما يجره الغرور من الآثام ينبغى أن يتأمل الهاوية التى كان على وشك أن يقع فيها لو أنه لم يكبح نفسه عن الرذائل بدل الشعور بالكبر والغرور واضطهاد الناس.

٦٣ ـ الصدق هو أعم مظهر من مظاهر إنكار الذات وأكثرها تنوعًا؛ لأنه كثيراً ما يعترض بين المرء وبين ما يحب، ولكن المرء كثيراً ما يخفى بعض الحق حتى ولو كان صريحًا ببعضه، إذ يرى أن إخفاء القليل الذى يعده تافهًا قد يؤدى إلى كسب محقق أو يتفادى بإخفائه خسارة يرى أنها محققة فيخفيه استهانة بتفاهته، حتى ولو أدى ذلك إلى سوء فهم للأمور، وقول الحق لا يكون إلا بعقل متزن؛ لأن التضليل قد يكون سببه المبالغة التى تكون طبعًا فى النفس. أما الاندفاع فى القول فهو تضليل غير مقصود، ولكن ذلك لا ينقص من ضرره. وقول الحق ينبغى أن يؤدى إلى أن يزداد المرء معرفة بنفسه كما ينبغى أن يؤدى إلى قدره غيره قدراً صحيحًا. ولو عرف الناس نفوسهم لتسامح بعضهم مع بعض وبطل الاضطهاد.

٦٤ ـ إن الطبع الذى يجمع بين الصراحة فى القول والحذر والاحتياط من أن يفهم السامع أكثر مما يعنى بقوله لا يتهيأ إلاّ لمن كان سليم المقاصد والأعمال، وكان يقدر قدراً لطيفًا دقيقًا إحساسات غيره، وهذه صفات تدله على ما يجوز أو يحكى عن أمور نفسه وما يجوز أن يتحدث به عن أمور غيره بصراحة مقرونة إلى الحذر والاحتياط.

* * *

نظرات ابن المقفع[1]

-٣١-

قال الأمير شكيب أرسلان فى مقدمة (كتاب الدرة اليتيمة) لابن المقفع ـ وهو الكتاب الذى طبع فى مصر وسمى (الأدب الكبير) ـ «فاخترت طبعها لأنها مع صغر حجمها قد جمعت بين أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الحكمة، وتضمنت من الحكم البوالغ والحجج الدوامغ ما لم يتضمنه كتاب قبلها ولابعدها» ـ والأمير شكيب أرسلان أديب مطلع على كتب الآداب العربية، فهو لايرسل القول من غير تمحيص بعد أن قرأ كتب الجاحظ والماوردى وابن مسكويه وابن حزم وابن عبد ربه وغيرهم، ومن المستطاع العثور على حكمة وبلاغة فى كتبهم، ولكنها إما مقتبسة من الخطب والأقوال، وإما أنها مع بلاغتها لا تصل إلى ما تصل إليه حكمة ابن المقفع من الإلمام بعادات الناس وطباعهم وأخلاقهم ونزعات نفوسهم وسلوكهم فى الحياة مع بلاغة الإيجاز. ولعل الأمير أرسلان لاينحو فى قوله منحى المقرظين الذين اعتادوا المبالغة والتعميم فى كل مدحة، ولعله قارن ووازن وخلص إلى هذا الرأى وقد فطن الكتّاب إلى تلك الحكمة التى يطريها الأمير شكيب، فكان الكتاب فى عهد الجاحظ يحاكونها وينسبون مؤلفاتهم إلى ابن المقفع كى تروج كما اعترف الجاحظ نفسه وإلاّ كان نصيبها الكساد والبوار، أما ترجمة ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنة من الفارسية فهى تذكرنا قول جوته: «إن المترجم كالخاطبة فى البلاد الشرقية تنقل محاسن العروس المحجوبة إلى الفتى الذى يريد أن يتزوجها فتشوقه تلك المحاسن» ـ فالمترجم

(١) المقتطف: مايو سنة ١٩٥١.

شريك المؤلف يعرض بضاعته أحسن عرض بما يناسبها فى اللغة التى يترجم إليها وإلا ما أجاز ابن المقفع لنفسه أن يضم إلى كتابيه الأدب الكبير والأدب الصغير أقوالاً ذكرها فى كتاب كليلة ودمنة ومعانى كأنها من معانيه؛ ومن أجل ذلك يقول فى كتاب الأدب الصغير: «إذا خرج الناس من أن يكون لهم عمل أصيل وأن يقولوا قولاً بديعًا فليعلم الواصفون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبدع ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتًا وزبرجداً ومرجانًا فنظمه قلائد وسموطًا وأكاليل، ووضع كل فص موضعه، وجمع إلى كل لون شبهه مما يزيده بذلك، وكالنحل وجدت ثمرات أخرجها الله طيبة وسلكت سبلاً جعلها الله ذللاً فصار ذلك شفاء وطعامًا وشرابًا منسوبًا إليها مذكورا به أمرها وصنعتها ـ ويبقى بعد ذلك فرق ما بين الصانع الصنّاع والألمعى النجيب وبين الساطى الذى يسرق الكلام كما هو أو يذهب بمحاسنه فهمه».

وابن المقفع على ما فى قوله من حكمة وإدراك للأمور لم يعصم فى معاملة السلطان الأكبر وهو الخليفة المنصور، ولا فى معاملة عامله على البصرة وهو سفيان بن معاوية بن يزيد ابن المهلب بن أبى صفرة من هنات تخالف ما رسم لمعاشر السلطان ومخالط الوالى وجليسه من حكمة وأدب، فلم ينتفع بحكمته، ونسى قوله إن على من يريد أن يكون إمامًا أن يعظ نفسه ويتعظ قبل محاولته وعظ الناس. وقوله: إن العالم يبدأ بنفسه فيؤدبها بعلمه، ولا تكون غايته اقتناءه العلم لمعاونة غيره فحسب. فكان مثله مثل فرنسيس باكون الإنجليزى (لورد باكون) فإنه يقول: «إن على القاضى ألا يتخذ القضاء شباكًا وحبائل يقتنص بها الناس» ثم يكون من أواخر القضاة الإنجليز إن لم يكن آخرهم ـ الذين استخدموا التعذيب وسيلة لانتزاع الاعتراف من نفوس المتهمين، ويعظ الناس بالنزاهة ثم يأخذ الرشوة من المتقاضين، وينصح المفكرين بالاستنتاج المؤسس على المشاهدة الصحيحة، دون التعلق بالأمور النظرية من غير بحث ثم يرفض كثيراً من الحقائق العلمية الحديثة التى وصل إليها الباحثون بالطريقة التى حثّ عليها. فكانت حكمة باكون فى كل هذه الأمور لغيره لا لنفسه، كما كانت حكمة ابن المقفع،

وعلى من يعيبه أن يبحث أولا فى قوله وعمله، فإن حكمة أكثر الناس لغيرهم لا لنفوسهم فى كثير من الأمور. ويذكرنا ابن المقفع باكون فيما يولع به كلاهما من التشبيهات والأمثال والقصص التى يجلو بها حكمته، وكانت هذه الطريقة محبوبة شائعة فى الأدب الإنجليزى فى عهد الملكة الياصبات وجيمس الأول، ومن أوجه الشبه بينهما أن كليهما مولع بالأساطير التى فيها حكمة ومغزى.

فألف باكون كتابه فى أساطير الإغريق وسماه (حكمة القدماء) وأوضح فيه ما خلف أساطيرهم من حكمة بارعة، كما ترجم عبد الله بن المقفع عن الفارسية أساطير الهند وحكمتهم فى كتاب (كليلة ودمنة) وكل من ابن المقفع وباكون ماهر فى بلاغة الإيجاز. وقد يذكرنا ابن المقفع فى وصف آداب السلوك أديبًا إنجليزيا آخر وهو لورد تشسترفيلد، فإن هذا كان همه وصف آداب السلوك كى يهذب ابنه ويصقله. أما أدباء اللغة العربية فلعله لا يقاربه ويقرن به إلاّ الجاحظ على ما فى الجاحظ من مدح للشىء ومدح لضده، وكتب الجاحظ عالم فى الموضوعات المتنوعة، فلا غرابة إذا اختلف أسلوبه فى كتاب عما هو فى كتاب آخر. فنرى أسلوب الجاحظ فى كتاب (مناظرة الربيع والخريف) أكثره سجع ومزاوجة وموازنة ومقابلة ومرادفة، بينما هو فى كتاب (الدلائل والاعتبار) يكاد يخلو من هذه الأمور ويصدق فيه قول بديع الزمان الهمذانى: إنه منقاد لعريان الكلام يستعمله، نفور من معتاصه يهمله «أما عبد الله بن المقفع فأسلوبه على وتيرة واحدة حتى قيل إنه السهل الممتنع، وفى بعض الأحيان يستعمل المزواجة والموازنة، ولكن لا كاستعمال الجاحظ لها؛ فإن الجاحظ يطيل فيها ويكثر، وهى فى أسلوب الجاحظ لها وقع السجع فى الأذهان حتى إن من لا يلتفت قد يظنها سجعًا. والذى يمتاز به ابن المقفع بلاغة الإيجاز، ولا نعنى أن الجاحظ ليس له من الحكم الجوامع، ولكن أكثر أقوال ابن المقفع ـ ولا سيما فى كتابى (الأدب الكبير) و(الأدب الصغير) ـ من جوامع الكلم التى تجمع الحكمة فى بلاغة وإيجاز مع استيفاء المعنى، أو ما يكاد يكون استيفاء، وينبغى أن نتذكر أن ابن المقفع كان منكوبًا، والمنكوب مخذول فى دعاوى الناس مغبون فى أقوالهم

ومصاب بأكاذيبهم وأباطيلهم، فلا تستطيع الأجيال التى بعد عهده أن تميز الحق من الباطل فى كثير مما ينحل من القول وما ينسب إليه من الفعل، إذ هو مهتضم بعد النكبة لا يجد من ينافح عنه بتمييز الصواب فيما ينسب إليه حتى ولو كان مشهوراً محسوداً يحتذى الناس قوله. ولا مناص لنا على هذا الأساس من القول إن حكمته لم تعصمه من الزلل والهلاك، ولا نحسب أن كاتبًا قديراً مثله كان يستعصى عليه أن يجمع بين شدة المواثيق ولين اللفظ والتحايل لذلك فى كتابه الذى طلب فيه الأمان لعم المنصور الذى ثار عليه وهزم، ولا نظن أنه كان يجهل ما فى بغض أقواله من عبارات يتأذى بها الخليفة ولا يتسامح فيها، حتى ولو كتبها على لسان أعمامه مثل قوله (إذا غدر بعمه فنساؤه طوالق والمسلمون فى حل من بيعته) ولكن المرء قد يجمع إلى الحكمة والمعرفة رعونة الطبع، وهذا كان داءه إذا صحّ كل ما ينسب إليه مثل تطوعه بالسخر والسفه على حاكم البصرة. فكان إذا دخل عليه وسلم قال: السلام عليكما يعنى هو وأنفه، فأنزل أنفه منزلة الإنسان لأنه كان كبيراً، وإذ قال حاكم البصرة: ما ندمت على سكوت قط: قال ابن المقفع: «الخرس زين لك فكيف تندم عليه» يعنى أنه كان عيا. وإنه لأمر يدعو إلى الحيرة أن يكون الحاكم مهزلة لرجل مثل ابن المقفع مهما يكن أثيراً عند أعمام الخليفة، وعندما أمر المنصور بقتله قتله هذا الحاكم شر قتلة. ومن الدليل على رعونة طبعه فيما يحكى عنه أنه لما اعتزم الإسلام وكان مجوسى الأصل وحضر طعام الأمير جعل يزمزم على الطعام على عادة المجوس فليم فى ذلك، فقال: أحببت ألا أبيت على غير دين، وهو إما أنه اقتنع بالإسلام حتى أراد أن يشهر إسلامه فى غده فهو مسلم بعقله وقلبه فلا معنى لقوله. وإما أنه كان غير مقتنع وكان إسلامه نفاقًا، وقد اتهم بذلك واتهم بالزندقة. ومن رأيى أن من حماقة الطبع أيضًا الجملة المشهورة التى يرويها عنه الكتّاب أى قوله «شربت الخُطَب ريًّا ولم أضبط لها رويًّا، ففاضت ثم فاضت فلا هى نظام وليس غيرها كلامًا» وهذا سجع شبيه بسجع الكهان. ثم لماذا قصر شربه على الخطب دون غيرها من سائر أنواع النثر، نعم إن للبلاغة نشوة، ولكنه فى بعض قوله ينهى

القارئ عن جميع أنواع السكر سكر الشباب وسكر العلم وسكر الذكاء وسكر الجاه وسكر القدرة وسكر المال، وهو فى بعض قوله يوضح ما فى مدح النفس من سماحة. ومما يروى بصدد ذلك أن الخليل بن أحمد الفراهيدى واضع العروض سُئل عن ابن المقفع فقال: علمه أكثر من عقله، وسُئل ابن المقفع عن الخليل فقال: عقله أكثر من علمه. ومن الغريب أن المرء عندما يقرأ كتبه ينسى رعونة طبعه أو يكاد يشك فيما نسب إليه من القصص التى تدل على ذلك ويعترف أنه أكبر كتّاب العربية فى جوامع الكلم وبلاغة الإيجاز والحكمة المؤسسة على ما يشاهد من عادات الناس وطباعهم وأخلاقهم التى تخبر عنها أعمالهم فى إيجاز واستيفاء للمعنى أو شبه استيفاء، وهذا هو معنى تقريظ الأمير شكيب أرسلان الذى ذكرناه.

وفيما يلى بعض نظراته مع شىء من التعليق علي بعضها:ـ

١ ـ لا يمنعنك صغر شأن أمرئ من اجتناء ما رأيت من رأيه صوباً والاصطفاء لما رأيت من أخلاقه كريمًا؛ فإن اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها.

٢ ـ إذا كنت لا تعمل من الخير إلا ما اشتهيته، ولا تترك من الشر إلاّ ما كرهته فقد أطلعت الشيطان على عورتك وأمكنته من أزمتك. فأوشك أن يقتحم عليك فيما تحب من عمل الخير فيكرهه إليك وفيما تكره من عمل الشر فيحببه إليك، ولكن ينبغى لك فى حب ما تحب من الخير فيكرهه إليك، وفيما تكره من عمل الشر فيحببه إليك، ولكن ينبغى لك فى حب ما تحب من الخير التحامل والصبر على ما يستثقل منه، وينبغى لك فى كراهة ما تكره من الشر التجنب لما يحب منه.

٣ ـ إنه تكاد تكون لكل رجل غالية حديث إما عن بلد من البلدان أو ضرب من ضروب العلم أو صنف من صنوف الناس أو وجه من وجوه الرأى أو ما هو شبيه بذلك، وعندما يعزم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ويعرف منه الهوى فاجتنب ذلك فى كل موطن.

* * *

تتمة نظرات ابن المقفع[1]

ـ ٣٢ ـ

٤ ـ لا يوقعنك بلاء خلصت منه فى آخر لعلك لا تخلص منه ـ وقد يخلص الناس من بلاء بوسائل توقعهم فى بلاء آخر ويوهمون أنفسهم أنهم ربما وجدوا خلاصًا سهلاً من هذا البلاء الآخر متى شاءوا بعد اتخاذه وسيلة للخلاص من البلاء الأول، وأقرب مثل لذلك الكاذب الذى يخلص من بلاء بكذبة موبقة وادعاء يوقعانه فى مؤاخذة لو عرف بطلان كذبه وادعائه، أو مثل الذى يتجنى على آخر ثم يحاول أن يخلص من عاقبة تجنبه بجناية أخرى.

٥ ـ لو أن رجلا كان عالـمًا بطريق مخوف ثم سلكه على علم به سمى جاهلاً، ولعله إن حاسب نفسه وجدها قد ركبت أهواء هجمت بها فيما هو أعرف بضررها فيه وأذاها من ذلك السالك الطريق المخوف، ومن ركب هواه ورفض ما ينبغى أن يعمل بما جربه هو أو أعلمه به غيره فكان كالمريض العالم بردىء الطعام والشراب وجيده وخفيفه وثقيله، ثم يحمله الشره على أكل رديئه وترك ما هو أقرب إلى النجاة والتخلص من علته، وأقل الناس عذراً فى اجتناب محمود الأفعال وارتكاب مذمومها من أبصر ذلك وميزه وعرف فضل بعضه على بعضه، كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها، كانا إذا صارا فى قاعها بمنزلة واحدة، غير أن البصير أقل عذرًا عند الناس من الضرير إذ كانت للأول عينان يبصر بهما، وهذا بما صار إليه جاهل ـ وللفيلسوف سقراط رأى فى موضوع الشر والخير فهو يقول كما روى أفلاطون

(١) المقتطف: سبتمبر ١٩٥١.

عنه: إن المرء لا يرتكب الشر ويختاره وهو يعلم أنه شر، ولا يتجنب الخير وهو يعلم أنه خير، ولعله يعنى أن الأهواء تغطى على بصيرته فيصير علمه جهلا، وتوهمه أن فى عمل الشر خيرا أكبر، وفى تجنب بعض الخير خيرا أعظم، وهذا كما وصف به المأمون العلم فقال: العلم بصر فى خلافه العمى، والاستبانة للشر ناهية عنه والاستبانة للخير آمرة به.

٦ ـ إن فى الناس ناسًا كثيرًا يبلغ من أحدهم الغضب ـ إذا غضب ـ أن يحمله ذلك على الكلوح والتقطيب فى وجه غير من أغضبه وسوء اللفظ لمن لا ذنب له والعقوبة لمن لم يكن يهم بعقوبته، وسوء المعاقبة باليد واللسان لمن لم يكن يريد به إلا دون ذلك. ثم يبلغ به الرضا ـ إذا رضى ـ أن يتبرع بالأمر ذى الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده، يعطى من لم يكن أعطاه، ويكرم من لا حق له ولا مودة. فاحذر هذا الباب كله؛ فإنه ليس أسوأ حالاً من أهل القدرة الذين يفرطون باقتدارهم فى غضبهم وسرعة رضاهم، فإنه لو وصف بصفة من يتلبس بعقله ويتخبطه المس من يعاقب فى غير من أغضبه، ويحبو عند رضاه غير من أرضاه، لكان جائزاً فى صفته ـ (وهذا يذكرنا الأمراء الذين كانوا يعاقبون بالقتل رسلهم الذين يبلغونهم خبراً سيئًا، كفرعون فى قصة ثيوفيل جوتييه، كما يذكرنا أيضًا دانتزيو الشاعر الإيطالى الذى كان يمنح من خدمه ومن لم يخدمه من خدم النزل والمطعم مالاً كثيراً لا تسمو إليه همتهم خشية احتقارهم إياه؛ لأنه كان به الشعور بالنقص).

٧ ـ اعلم أن بعض شدة الحذر عون عليك فيما تحذر، وأن شدة الاتقاء قد تدعو إليك ما تتقى (وتولع بك ما تخاف ممن تخاف؛ لأن الإفراط فى الحذر قد يؤدى إلى الحيرة والارتباك والقلق والتخلق بمظاهر الريبة، والمريب متهم، والريبة تجذب عداوة الناس إلى صاحبها كما يجذب المغناطيس الحديد).

٨ ـ قارب عدوك بعض المقاربة تنل حاجتك، ولا تقاربه كل المقاربة فيجترئ عليك عدوك، وتذل نفسك، ويرغب عنك ناصرك، ومثل ذلك مثل العود

المنصوب فى الشمس إن أملته قليلاً زاد ظله وإن جاوزت الحد فى إمالته نقص الظل ـ (وفى التذلل للعدو يقول إبراهيم بن العباس صاحب المقطعات الجامعة:

يصبح أعداؤه على ثقة منه وخلاّنه على وجَل

تَذَلّلا للعدو عن ضعة وصولة بالصديق عن دخل

٩ ـ إياك أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك، فيكون ثلمة من الثلم يتقحمون عليك منها، وبابًا يفتتحونك منه، وعيبة يغتابونك بها ويضحكون منها. واعلم أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذى يحمله على رده، فإن الراد له محمود، والقابل له معيب ـ (أين هذا الأدب من هراء سجع الكهّان فى الغزل المنسوب إليه: شربت الخطب ريًّا، ولم أضبط لها رويًا، ففاضت ثم فاضت فلا هى نظام، وليس غيرها من الكلام).

١٠ ـ أمور لا تصلح إلاّ بقرائنها: لا ينفع العقل بغير ورع، ولا الحفظ بغير عقل، ولا شدة البطش بغير شدة القلب، ولا الجمال بغير حلاوة، ولا الحسب بغير أدب، ولا السرور بغير أمن، ولا الغنى بغير جود، ولا المروءة بغير تواضع، ولا الخفض (أى اليسر) بغير كفاية، ولا الاجتهاد بغير توفيق ـ (وإلا أدى العقل إلى الفساد، والحفظ إلى الخطأ، والبطش إلى الانكشاف والانخذال، وكان الجمال سمجًا، وكان ما تحت الحسب دناءة وشراسة، وواء السرور همًّا وقلقًا، وكان الغنى بَطَرًا ولؤمًا، والمروءة مَنًا، والخفض عسرًا لا يغنى والاجتهاد عناء وخيبة).

١١ ـ إن صحبة الأشرار ربما أورثت صاحبها سوء الظن بالأخيار وحملته تجربته فى صحبتهم على الخطأ ـ وأقل ما يكون من ذلك أن الأخيار إذا عاملوه بالكرم والخير واللين حسب كل ذلك منهم فخا وشركًا يريدون أن يوقعوه فيه ـ وقد يغالى فيحسب كل برىء متهمًا حتى تظهر براءته، بدل أن يحسب كل متهم بريئًا حتى تظهر إدانته، وبطبيعة عملهم ومقابلتهم للأشرار، يميل رجال الشرطة ومن شابههم إلى سوء الظن بالناس.

١٢ ـ إذا أردت السلامة فأشعر قلبك الهيبة للأمور من غير أن تظهر منك الهيبة فيفطن الناس لهيبتك، ويجرئهم عليك ظهورها، ويدعو إليك منهم كل ما تهاب. فاشحذ طائفة من رأيك لمداراة ذلك من كتمان المهابة وإظهار الجرأة والتهاون، وعليك بالحذر فى أمرك، والجرأة فى قلبك، حتى تملأ قلبك جرأة، ويستفرغ الحذر عملك ـ (وإنما يريد بالهيبة ذلك الحذر الذى يصون عمله من الخطأ).

١٣ ـ ليجتمع فى قلبك الافتقار إلى الناس والاستغناء عنهم، فيكون افتقارك إليهم فى لين كلمتك، وحسن بشرك، ويكون استغناؤك عنهم فى نزاهة عرضك، وبقاء عزك: (وليس لين الكلمة وحسن البشر نقصًا ومذلة كما يعدهما ذوو النقص. قال المأمون كما روى الثعالبى: ما تكبّر أحد إلا لنقص وجده فى نفسه، ولا تطاول إلاّ لوهن أحسه منها).

١٤ ـ إذا نابت أخاك نائبة من النوائب، من زوال نعمة، أو نزول بلية، فاعلم أنك قد ابتليت معه إما بالمؤاساة فتشاركه فى البلية، وإما بالخذلان فتحتمل العار، فالتمس المخرج عند اشتباه ذلك، وآثر مروءتك على ما سواها، فإن نزلت الجائحة التى تأبى نفسك مشاركة أخيك فيها فأجمل (أى فى معاملته وعند ذكره ولقياه) فلعل الإجمال يسعك لقلته فى الناس (إذ أن أكثرهم ينقلب فيصير عدوا كى لا يقال إنه خذل صديقًا).

١٥ ـ اعرف عورتك وإياك أن تُعَرِّضَ بأحد فيما شاركها، واعلم أن الناس يخدعون أنفسهم بالتعريض والتوقيع بالرجال فى التماس مثالبهم ومساويهم ونقيصتهم، وكل ذلك أَبْيَنُ عند سامعه من وضح الصبح، فلا تكونن من ذلك فى غرور، ولا تجعلن نفسك من أهله.

١٦ ـ من الدليل على سخافة المتكلم أن يكون ما يرى من ضحكه ليس على حسب ما عنده من القول، أو الرجل يكلم صاحبه فيجاذبه الكلام ليكون هو المتكلم، أو يتمنى أن يكون صاحبه قد فرغ وأنصت، فإذا أنصت لم يحسن الكلام.

١٧ ـ وقّر من فوقك ومن دونك، وأحسن مؤاتاتك الأكفاء، وليكن آثر ذلك عندك مؤاتاة الإخوان، فإن ذلك هوالذى يشهد لك بأن إجلالك من فوقك ليس بخنوع لهم، وأن لينك لمن دونك ليس لالتماس خدمتهم.

١٨ ـ إن أمور الدنيا ليس شيء منها بثقة، وليس شئ من أمرها يدركه الحازم إلاّ وقد يدركه العاجز، بل ربما أعيا الحزمة ما أمكن العجزة، فإذا أشار عليك صاحبك برأى فلم تجد عاقبته على ما كنت تأمل، فلا تجعل ذلك عليه لومًا وعذلاً؛ تقول أنت فعلْتَ هذا بى وأنت أمرتنى، ولولا أنت ولا جرم لا أطيعك، فإن هذا كله ضجر ولؤم وخفة، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك أو ترك فبدا صوابك فلا تمتنَّ ولا تكثرنَّ ذكره، ولا تلم عليه إن كان استبان فى ترك نصحك ضررًا، تقول ألم أقل لك؟ ألم أفعل؟ فإن هذا مجانب لأدب الحكماء.

١٩ ـ العجب آفة العقل، واللجاج عقيد الهوى، والبخل لقاح الحرص، والمراء فساد اللسان، والحمية سبب الجهل، والأنف توءم السفه، والمنافسة أخت العداوة: (فالمعجب بنفسه يزين له عجبه الخطأ فلا يراه خطأ، والكثير اللجاج كثير العناد فى الدفاع عن هواه، والبخل يربيه الحرص وينميه حتى يستفحل ويحرم نفسه وغيره مما وهبه الله، والمراء يستدرج إلى بذاءة اللسان، والحمية إذا استشرت كانت من دلالات الحمق، والأنف من التسهل فى معاشرة الناس يؤدى إلى السفه، والمنافسة فى حطام الدنيا كثيرًا ما تؤدى إلى العداوة بين الآحاد والأمم).

* * *

الفهرس

الصفحة

صور الأستاذ عبد الرحمن شكرى ٥

خطاب التفويض ٧

نظرات فى النفس والحياة: دراسة تحليلية
بقلم الدكتورمحمد رجب البيومى ٩

خواطر وذكريات عن الأستاذ عبد الرحمن شكرى
بقلم الدكتور محمد رجب البيومى ٣٥

لاروشفوكولد ـ ليوباردى ـ شوبنهور (١) ٤٤

من نظرات لاروشفوكولد ٤٦

من نظرات ليوباردى ٤٩

من نظرات شوبنهور ٥١

من نظرات لاروشفوكولد (٢) ٥٥

من نظرات ليوباردى ٥٧

من نظرات شوبنهور ٦٠

خاتمة آراء لاروشفولولد مع الشرح (٣) ٦٤

من نظرات تشسترفيلد (٤) ٧٢

من نظرات أناتول فرانس (٥) ٨٠

تكملة نظرات أناتول فرانس (٦) ٩٠

خاتمة نظرات أناتول فرانس (٧) ٩٩

نظرات مارسيل بروست (٨) ١٠٧

تكملة نظرات مارسيل بروست (٩) ١١٧

فظرات ميشيل مونتانى (١٠)	١٢٧
نظرات لابروبير (١١)	١٣٩
نظرات لورد بيكون (١٢)	١٤٧
نظرات جوناثان سويفت (١٣)	١٥٨
نظرات جورج أليوت سويفت (١٤)	١٦٩
تكملة نظرات جورج أليوت سويفت (١٥)	١٧٩
نظرات جوتا، أو (جيتا) (١٦)	١٨٩
تكملة نظرات جوتا (١٧)	٢٠٢
تتمة نظرات جوتا (١٨)	٢١٢
تتمة نظرات جوتا (١٩)	٢١٨
تتمة نظرات جوتا (٢٠)	٢٢٣
تتمة نظرات جوتا (٢١)	٢٢٧
جوتا بين الفرد والعالم ـ الخاتمة (٢٢)	٢٣١
نظرات ثاكرى (٢٣)	٢٣٩
نظرات ثاكرى (٢٤)	٢٤٤
نظرات بلزاك (٢٥)	٢٤٩
تكملة نظرات بلزاك (٢٦)	٢٥٥
نظرات هازلت (٢٧)	٢٦٠
نظرات السير أرثر هلبس (٢٨)	٢٧٠
تابع نظرات السير أرثر هلبس (٢٩)	٢٧٥
تتمة نظرات السير أرثر هلبس (٣٠)	٢٧٩
نظرات ابن المقفع (٣١)	٢٨٣
تتمة نظرات ابن المقفع (٣٢)	٢٨٨

هـذا الكتاب

« نظرات فى النفس والحياة » هو آخر ما كتبه الأديب والشاعر الكبير الأستاذ عبد الرحمن شكرى ، ونشره تباعا فى مجلة « المقتطف » على مدى ستة أعوام قبل وفاته فى سنة ١٩٥٨ .

وقد تناول فى فصوله التى جاوزت الثلاثين فصلاً عرْض نظرات وآراء بعض كبار الكتاب والمفكرين الغربيين (من أمثال شوبنهور وليوبارددى ومونتانى وأناتول فرانس ولوردباكون وسويفت وجوته وبلزاك وهازلت وغيرهم) ، وذلك من خلال أعمالهم الأدبية البارزة .

وتعتبر هذه الفصول خلاصة مركّزة لأقوال هؤلاء الأعلام وشرحًا لها وتعليقًا عليها بما عرف عن الأستاذ شكرى من قوة الفكر وعمق النظر والنفاذ إلى الجوهر واللباب فيما يتناوله من موضوعات .

وقد قام بجمع هذه الفصول ومراجعتها والتقيم لها واحدً من خاصة أصفياء الشاعر الكبير ومن أخلص مريديه هو الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى ـ وهو شاعر وأديب مرموق المكانة ـ وقد فّوضه الشاعر الكبير فى نشر تراثه والقيام على طبعه .

الناشر

الدار المصرية اللبنانية
طباعة • نشر • توزيع
١٦ شارع عبدالخالق ثروت - تليفون ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH
PRINTING — PUBLI SHING — DISTRIBUTION
16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO